

الشيخ الإمام داعية الإسلام
بفتح الميم والسين الجوزي

الفقه الإسلامي على المذاهب

وأدلتها الشرعية
على طريقة السؤال والجواب

جمع مادته العلمية ورتبها وحقق نصوصه
وخرج أحاديثه وكتب حواشيه

مركز الأبحاث الخيرية للكتاب والسنة

حازت شرف طباعته

مكتبة الأبحاث الخيرية

٨ شارع الجمهورية، عابدين - ت: ٢٩١١٣٩٧

حقوق الطبع محفوظة
للمنشر
الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

Email: abdallahaggag@hotmail.com

Islamic Turath Book Shop ☎ 3911397 - 3925677 فاكس: 3913406

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء : ١] .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ﴿ ٧٥ ﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ ٧٦ ﴾ . [الأحزاب] .

- ١ -

ثم أما بعد ... فإن الفقه - بالكسر - العلم بالشىء ؛ والفهم له ، والفطنة ، - وبالضم - إذا صار فقيهاً عالماً . وغلب على علم الدين لشرفه وتخصيصاً بعلم الفروع منها . ولذا دعا النبي ﷺ لابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال : « اللّهُمَّ فقهه فى الدين وعلمه التأويل »^(١) . أى : فهمه .

ومنه حديث سلمان رضى الله تعالى عنه ؛ أنه نزل على نبطية بالعراق فقال لها : هل هاهنا مكان نظيف أصلى فيه ؟ فقالت : طهر قلبك وصل حيث شئت . فقال : ففهمت . أى : فهمت ، وفطنت للحق ؛ والمعنى الذى أرادت . وقال الأصفهاني : الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٦٦/١] ، وفى البخارى [١٤٣] ، ومسلم [١٣٨/٢٤٧٧] . « اللّهُمَّ فقهه » .

من العلم . قال تعالى : ﴿ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨]
وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُسْتَفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : ٧] . إلى غير
ذلك من الآيات . والفقه : العلم بأحكام الشريعة . يقال : فقه الرجل فقاهة .
قال السرقسطي : فقهت عنك فقهاً : فهمت . وفقه فقهاً : صار فقيهاً ،
وفقهت الرجل : غلبته في الفقه ^(١) . وفقه أى : فهم فقهاً ، وفقهه : أى
فهمه ، وتفقّه إذا طلبه فتخصص به .
قال تعالى : ﴿ لَيْسَ فَقَّهُوًا فِي الدِّينِ ﴾ ^(٢) [التوبة : ١٢٢] .

- ٢ -

وهذا الكتاب لألى ودرر أفاض الله تعالى بها على شيخنا الجليل رحمة الله تعالى
ورضوانه وبركاته عليه ؛ كانت منشورة بين طيات الكتب والرسائل والدروس
وحلقات العلم . فآثرنا بحول الله تعالى وقوته وتوفيقه ومدده أن نجمعها ونرتبها
على الأبواب الفقهية ، وكتابة الحواشى الشارحة والمكملة ، وتخريج الأحاديث
والتعليق عليها .. وذلك لأهميتها وضرورتها للمسلمين فى هذا الزمن الذى نعيشه ،
والله تعالى نسأل أن ينور له فى قبره وأن يجعله روضة من رياض الجنة وأن يعامله
بالجبر لا بالحساب ، وبالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وأن يسكنه أعلا
الجنان مع الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، إنه
سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وصل اللهم وسلم وبارك على عبدك ونبيك
ورسولك ومصطفاك وخيرتك من خلقك سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه أمهات
المؤمنين وأصحابه الغر الميامين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . ونحن معهم
برحمتك يا أرحم الراحمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شهر الخير ربيع الأول ١٤٢٣ هـ

الموافق يونيــــــــــــــــو ٢٠٠٢ م

عبد الله حجاج

(١) انظر الأفعال [٤٨/٤] ، والمثلث للبطلوسى [٣٤٤/٢] .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، كتاب الفاء - فقه .

نبذة مختصرة

عن فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله

○ ولد فضيلة الشيخ الإمام داعية الإسلام « محمد متولى الشعراوى » فى ١٦ من أبريل عام ١٩١١ بقرية « دقادوس »^(١) مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

○ أتم حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية وعمره أحد عشر عامًا .
○ ألحقه والده رحمه الله تعالى عليه بالمعهد الابتدائى الأزهرى بالزقازيق عام ١٩٢٦ م ، ثم التحق بالقسم الثانوى ، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٣٦ م .

(١) دقادوس : قرية قديمة جدًا تقع شرق النيل - فرع دمياط - وكانت تتبع الشرقية واسمها فى العصر الفرعونى : « أناوكاتوس » وفى العصر القبطى : « تاكادوس » ، والعربى « تقدوس » و « دقادوس » هى الآن تابعة لمدينة ميت غمر محافظة الدقهلية .

اشتهرت قديماً بصناعة تجليد الكتب وصناعة الحصر الريفى ، وتشتهر إحدى عائلاتها بتجبير وعلاج كسور العظام .

تضم أيضًا مساجد عديدة لشيوخ أجلاء بعضهم من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم منها : مسجد محمد شمس الدين البارز ، ومسجد سيدى عبد الله الأنصارى ، ومسجد سيدى أبى بكر السطوحى - تلميذ السيد البدوى - ومسجد محمد نصر الدين الأربعين . تناقلت الصحف أخبار دقادوس فى عام ١٩٣٠م عندما حدثت اضطرابات بها لامتناع أهلها عن التصويت فى الانتخابات المزورة ضد حزب الوفد التى قام بها إسماعيل صدقى باشا وسقط فيها شهداء وقتل فيها ضابط وظلت تحت حصار قوات - الهجانة - فترة طويلة وقد طبق فيها حظر التجول من الغروب وحتى الصباح .

○ التحق رضى الله تعالى عنه بكلية اللغة العربية عام ١٩٣٧م وحصل على
عالية اللغة العربية عام ١٩٤١م ، ثم حصل على العالمية وإجازة التدريس
عام ١٩٤٣م .

○ بدأ حياته العملية مدرسًا بمعهد طنطا الأزهرى ، ثم معهد الإسكندرية ، ثم
معهد الزقازيق ، ثم معهد طنطا مرة أخرى .

○ عمل مدرسًا للتفسير والحديث بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة
المكرمة عام ١٩٥١م .

○ وبعد عودته من المملكة العربية السعودية عُين فضيلته وكيلاً لمعهد طنطا
الأزهرى .

○ تولى رضى الله تعالى عنه منصب مدير الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف
عام ١٩٦١م بمحافظة الغربية .

○ عين فضيلته مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٦٢م .

○ اختاره فضيلة الإمام الأكبر الشيخ « حسن مأمون » شيخ الأزهر مديراً
لمكتبه عام ١٩٦٤م .

○ ابْتُعِثَ رئيساً لبعثة الأزهر الشريف فى الجزائر - بعد استقلالها - عام
١٩٦٦م . وأشرف خلال مدة بعثته بالجزائر على وضع مناهج دراسية للغة
العربية بها .

○ فى عام ١٩٧٠م عين أستاذًا زائراً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز
بمكة المكرمة ثم رئيساً لقسم الدراسات العليا بها حتى عام ١٩٧٢م .

○ سطع نور فضيلة الشيخ الإمام « محمد متولى الشعراوى » - كداعية إسلامى
من طراز فريد - فى عام ١٩٧٣م من خلال التليفزيون المصرى ثم العربى ،
فكان نوراً على نور هدى الله به الخلق الكثير والجم الغفير وكانت إطلالته

يوم الجمعة على محبيه ومريديه يوم عيد تنزل فيه الرحمات ويباهى به الله تعالى ملائكته (١) .

○ اختاره السيد « ممدوح سالم » رئيس مجلس وزراء مصر الأسبق وزيراً للأوقاف عام ١٩٧٦ م .

○ أعيد اختيار فضيلته وزيراً للأوقاف ، ووزيرة لشئون الأزهر في التشكيل الجديد لوزارة السيد « ممدوح سالم » عام ١٩٧٧ م .

○ وبعد أن قدم الكثير والكثير ، لبلده مصر ولأمته العربية والإسلامية ، رأى فضيلته أن من الأفضل له ولدعوته أن يكون حرّاً في البلاغ عن ربه فقدم استقالته من مهام الوزارة في ١٥/١٠/١٩٧٨ م .

○ منحه الرئيس الراحل « محمد أنور السادات » وسام الاستحقاق عام ١٩٧٦ م .

○ بعد أن تحرر من قيود الوزارة انطلق رضى الله تعالى عنه إلى مشارق الأرض ومغاربها داعياً إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، موضحاً سماحة الإسلام ووسطيته ، مفنداً لما يحاول البعض أن يلصقه بالإسلام من مفاهيم ضالة ، فقام بزيارة الهند عام ١٩٧٧ م ، وباكستان عام ١٩٧٨ م ، والمملكة المتحدة عام ١٩٧٧ م ، والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٣ م

(١) روى النسائي في المجتبى [٥٤٢٦/٢٤٩/٨] وصححه الألباني عن أبي سعيد الخدري قال : قال معاوية رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة - يعنى من أصحابه - فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه ، ومن علينا بك قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما أنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، وإنما أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة » .

وكندا عام ١٩٨٣ ، وكثيراً من البلاد الأوروبية والآسيوية ؛ حاملاً في قلبه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مؤدياً واجب البلاغ عن ربه تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم .

- عين عضواً بمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٨٠ م .
- اختيار عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٧ م .
- منحه الرئيس « محمد حسنى مبارك » وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨ م فى الاحتفال بيوم الدعاة .

- حصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٨ م .
- حصل على جائزة ديبى الدولية لخدمة القرآن الكريم عام ١٩٧٧ م .
- انتقل رضى الله تعالى عنه إلى رحمة الله تعالى فى فجر يوم الأربعاء ١٧/٦/١٩٩٨ م الموافق ٢٣ صفر ١٤١٩ هـ فى منزله العامر بالهرم ودفن بمسقط رأسه فى « دقادوس » ، وكان يوماً مشهوداً اتسعت فيه القرية لاحتضان ما يقرب من مليونى شخص يودعون شيخهم إلى مثواه الأخير ، وقد قام الأزهر الشريف بعمل سرادق عظيم بجوار بيته بالحسين لتلقى العزاء فيه ، وقد أمم السرادق العديد من الوفود العربية والإسلامية الشعبية والرسمية ، وشارك الشعب المصرى بكل طوائفه فى تلقى العزاء ، فكان الكل يعزى الكل فى مصاب الأمة الفادح .

- مُنح قلادة الجمهورية رفيعة المستوى من السيد « محمد حسنى مبارك » رئيس جمهورية مصر العربية عام ١٩٩٨ م لاسم فضيلته بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى .

- ومنح وسام سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان من المرتبة الرفيعة .
- وخير ما قدمه فضيلة الشيخ الإمام « محمد متولى الشعراوى » لأمتة العربية والإسلامية ، خواطره حول القرآن الكريم التى تذاق فى جميع أنحاء العالم مرئية ومسموعة ومقروعة وعلى أقراص ال CD .

○ تذخر المكتبة الإسلامية بالعديد من كتب فضيلته في كافة فروع العلم والمعرفة ، وإن كانت جميعها تنهل من المورد الصافي والمعين الذي لا ينضب ألا وهو : « تفسير الشعراوي » ، وإذا كان التفسير قد أُلقي في شكل دروس وحلقات ، وطبع مسلسلاً حسب ترتيب القرآن العظيم ، فإن الكتب الأخرى هي تفسير موضوعي لآيات جمعت بعناية فائقة ، ورتبت ترتيباً جيداً ، وروجعت مراجعة علمية دقيقة .

وبجدر التنويه إلى أن فضيلة الإمام قبل رحيله لم يعهد إلا لمكتبة التراث الإسلامي ودار أخبار اليوم بطباعة كتبه ، وأقر ذلك ورثته بعد رحيله ، ووافقوا عليه .

لذا فإن كافة الكتب التي تصدر عن غير مكتبة التراث الإسلامي ودار أخبار اليوم هي كتب غير صحيحة النسبة للشيخ ، أو على حد تعبير فضيلته : « إن أصابوا في شيء فقد أخطأوا في أشياء » .

فاللهم يا من لا يُرجى إلا فضله ، ولا يُسأل إلا عفوه ، ولا يدوم إلا ملكه أنزل على قبره الضياء والنور ، والفسحة والسرور ، وجازه بالإحسان إحساناً ، وبالسيئات عفواً وغفراناً ، حتى يكون في بطون الألحاد من المطمئنين ، وعند قيام الأشهاد من الآمنين ، وبجودك ورضوانك من الوثائق ، وإلى أعلا درجاتك من السابقين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .
وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه . والحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

المدير العام

لمركز التراث لخدمة الكتاب والمسة

باب الإسلام .. والإيمان

أركان الإسلام

السؤال : هل العبادة هي كل أركان الإسلام ؟
الجواب : الناس تعتقد أن العبادة هي أركان الإسلام الخمسة : « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »^(١) نقول إن هذه هي الأسس التي يقوم عليها الدين .

(١) أخرج البخاري [٨] ، ومسلم [٢٢/١٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ ، قال : بنى لإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان . وفي رواية عند مسلم [١٩/١٦] . « بنى الإسلام على خمسة : على أن يوحد الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج . وفي رواية [٢٠/١٦] : « .. على أن يعد الله ويكفر عما دونه .. »

قال الحافظ ابن حجر في المنح : قوله : « على خمس » أي : دعائم . وصرح به عبد الرزاق في روايته . وفي رواية لمسلم على خمسة أي : أركان . فإن قيل : الأربعة المذكورة مبنية على الشهادة إذ لا يصح شيء منها إلا بعد وجودها فكيف يضم مبني إلى مبني عليه في مسمى واحد أجيب : بجواز ابتداء أمر على أمر ينبنى على الأمرين أمر آخر . فإن قيل . المبني لا بد أن يكون غير المبني عليه أجيب : بأن المجموع غير من حيث الانفراد عين من حيث الجمع . ومثاله البيت من الشعر يحمل على خمسة أعمدة أحدها أوسط والبقية أركان فما دام الأوسط قائماً فمسمى البيت موجود ولو سقط مهما سقط من الأركان فإذا سقط الأوسط سقط مسمى البيت فالبيت بالنظر إلى مجموعه شيء واحد وبالنظر إلى أفراده أشياء . وأيضاً فبالنظر إلى أسسه وأركانه الأسس أصل والأركان تبع وتكملة . =

- « تنبيهات » : « أحدها » : لم يذكر الجهاد ؛ لأنه فرض كفاية ولا يتعين إلا في بعض الأحوال ولهذا جعله ابن عمر جواب السائل وزاد في رواية عبد الرزاق في آخره : وإن الجهاد من العمل الحسن . وأغرب ابن بطلال فزعم أن هذا الحديث كان أول الإسلام قبل فرض الجهاد ، وفيه نظر بل هو خطأ ؛ لأن فرض الجهاد كان قبل وقعة بدر ، وبدر كانت في رمضان في السنة الثانية وفيها فرض الصيام والركاة بعد ذلك والحج بعد ذلك على الصحيح .

« ثانيها » : قوله : « شهادة أن لا إله إلا الله » وما بعدها مخفوض عنى البدن من حمس ويجوز الرفع على حذف الخبر والتقدير : منها شهادة أن لا إله إلا الله . أو على حذف المتدأ والتقدير . أحدها شهادة أن لا إله إلا الله . إن قيل : لم يذكر الإيمان بالأنساء والملائكة وغير ذلك مما تضمنه سؤال جبريل - عليه السلام أجيب : بأن المراد بالشهادة تصديق الرسول فيما جاء به فيستلزم جميع ما ذكر من المعتقدات . وقال الإسماعيلي ما محصله : هو من باب تسمية الشيء ببعضه كما تقول : قرأت الحمد وتريد جميع الفاتحة وكذا تقول مثلاً : شهدت برسالة محمد وتريد جميع ما ذكر . والله أعلم .

« ثالثها » : المراد بإقام الصلاة : المداومة عليها أو مطلق الإتيان بها والمراد بإيتاء الزكاة : إخراج جزء من المال على وجه مخصوص .

« رابعها » : اشترط الباقلاني في صحة الإسلام تقدم الإقرار بالتوحيد على الرسالة ولم يتابع مع أنه إذا دقق فيه بان وجهه ويزداد انحازاً إذا فرقهما فليتأمل .

« خامسها » : يستفاد منه تخصيص عموم مفهوم السنة بخصوص مطلق القرآن ؛ لأن عموم الحديث يقتضي صحة إسلام من باشر ما ذكر ومفهومه أن من لم يباشره لا يصح منه وهذا العموم مخصوص بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ [الطور : ٢١] على ما تقرر في موضعه . =

= « سادسها » : وقع هنا تقديم الحج على الصوم وعليه بنى البخاري تربيته لكن وقع في مسلم من رواية سعد بن عبيدة عن ابن عمر بتقديم الصوم على الحج قال : فقال رجل : والحج وصيام رمضان . فقال ابن عمر : لا .. صيام رمضان والحج هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى . ففي هذا إشعار بأن رواية حنظلة التي في البخاري مروية بالمعنى : إما لأنه لم يسمع رد ابن عمر على الرجل لتعدد المجلس ، أو حضر ذلك ثم نسيه . ويعد ما جوزه بعضهم أن يكون ابن عمر سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم على الوجهين وسي أحدهما عند رده على الرجل ووجه بعده أن تطرق النسيان إلى الراوي عن الصحابي أولى من تطرقه إلى الصحابي كيف وفي رواية مسلم من صريق حنظلة بتقديم « الصوم على الحج » ولأبي عوانة من وجه آخر عن حنظلة أنه جعل : « صوم رمضان » قبل فتويعه دال على أنه روي بالمعنى . ويؤيده ما وقع عند البخاري في التفسير بتقديم : « الصيام على الزكاة » أيقال إن الصحابي سمعه على ثلاثة أوجه ١؟ هذا مستبعد . والله أعلم .

فروى مسلم [١٢/١٠] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء . فكان يعجبا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل . فيسأله ونحن نسمع . فجاء رجل من أهل البادية . فقال : يا محمد ! أتانا رسولك . فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » ، قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آله أرسلك ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليتنا . قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال : « صدق » . قال : =

لقد ارتضى لنا ربنا سبحانه هذا الدين القويم لنكون على صلة به دائمة حتى لا يستحوذ علينا الشيطان .. وحتى نتعرض لنفحاته وعطائه وفيصه في كل وقت وحين . فالصلاة بعد الصلاة تعطيا تلك الشحنة الإيمانية التي تقينا من الانحراف عن المسج وتشدنا إلى الله تبارك وتعالى .. وكذلك الصوم ، والركاة ، والحج . إذن .. كل عمل صالح هو عبادة لله تعالى .. وعلى هذا فكلما أحسنا بفتور الهمة وظلمة النفس لجأنا إلى الله تعالى طاعة لأمره والتزاماً بنهيه والمثول بين يديه حاصعين حاشعين ليعيد إلينا توارثنا الإيمانى .. كما نفعل عندما تصعب البطارية فنصعبها على مصدر الكهرباء القوى لتُشحن من جديد ولله تعالى المثل الأعلى والإسلام يشمل منهج الحياة كلها . إنه يغطي كل حركة فى الحياة .

وأن لا أريد أن أدخل فى جدل عقيم مع الذين يقولون إن أركان الإسلام هى الإسلام .. وأنتك ما دمت تصلى وتزكى وتصوم وتحج .. فقد ضمننت الله إلى حوارك ، فلك بعد ذلك أن تفعل ما شئت وأن تترك ما شئت واترك حركة الدنيا دون ضوابط إيمانية تحكمها !

أقول لهؤلاء جميعاً : لن أناقش ما تقولون ولكنى فقط سأُتحدث عن فرض واحد وهو الصلاة فلكى نقيم الصلاة لأبد لنا من مقومات حياة تمكنا من الوقوف بين يدي الله تعالى .

- فبالدي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سبئنا . قال : « صدق » . قال : فبالدي أرسلك آله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حج «بيت من استطاع إليه سبيلا . قال : « صدق » . قال ، ثم ولى قال : والذي بعثك بالحق ! لا أريد عنيهن ولا أنقص منهن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لئن صدق ليدخلن الجنة » .

إن أول ما يجب أن نفعله لوقوف بين يدي الله ولتصح الصلاة هو . أن نستتر عورتنا .. ولا أريد أن أقول : أريد ثوبًا أو غير ذلك .. وإنما أقول أريد قطعة من القماش نستتر بها عورتنا .. هذه القطعة من القماش تحتاج إلى القطن ، والقطن يحتاج إلى من يزرعه .. والزرع يحتاج إلى حرث وبذور وري . قد تكون البذور موحودة عندنا ، وقد تكون غير موحودة .. وفي هذه الحالة لابد أن نستوردها من الخارج .. ولابد لكي نزرع أن نحرث الأرض وحتى يتم ذلك لابد أن يكون هناك محراث من الصلب .. ذلك المحراث البسيط الذي كان يستعمله الإنسان الأول .

كذلك نحن محتاجون أن نحث في الجبال عن خام الحديد .. وأن يصهر ليصنع منه هذا المحراث .. ومحتاجون إلى حداد يأخذ هذا الحديد المصهور ويصنع منه سلاحًا حادًا .. ثم من يحضره لنا حتى نستخدمه .. ثم بعد ذلك عندما ينضج القطن فإننا في حاجة إلى من يجنّيه .. ثم من يحميه إلى المحجج ، ثم من يحميه إلى المغزل ليصبح حيوطًا .. ثم إلى النساج ليصبح قماشًا ، وبعد ذلك إلى التاجر الذي سيبيعه لنا .. كل هذه المراحل لابد منها حتى أقف بين يدي الله سبحانه وتعالى مستور العورة ليتقبل مني صلاتي .

إنني - لكي أقوى على أداء الصلاة محتاج لما يقيم أودى .. إلى لقمة آكلها حتى أستطيع الركوع والسجود لقمة تعطيني القوة لأفعل ذلك . إن هذا الرغيف من الخبز الذي اشتريه من البقال وراءه قصة طويلة من العمل ابتداء من الذي زرع القمح ، إلى الذي طحنه وجعله دقيقًا ، وإلى الذي عجّنه ثم خبزه ، وإلى الذي حاء به إلى البقال لأشتره .

وهكذا نرى أن ما نحتاجه لنؤدي الصلاة هو كمية عمل هائلة .. فإذا جلسنا جميعًا في المساجد نصلي ولا نفعل شيئًا غير ذلك .. فمن الذي يأتينا

نقطعة قماش نستربها عوراتنا ، وبرغيف خبز نقيم به حياتنا ١٩ إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .. ولذلك فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وهي بالطبع تشمل كل حركة صالحة في عمارة الكون ^(١) .

وما دام الله سبحانه وتعالى يريد الإنسان عابداً .. فهو يريد عابداً في بيته .. عابداً في مكتبه .. عابداً في المسجد .. عابداً في الطريق .. عابداً في كل حركة حياته .. الإسلام حث على الآداب العامة وجعل آداباً حتى للطريق ^(٢) .

إن الله سبحانه وتعالى قدر الثواب على حركة الحياة كلها .. لأن المنهج يشمل كل حركة الحياة .. وقدر الله تعالى فيه ثواباً لمن يرور المريض ^(٣) ، وأمر سبحانه

(١) قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] قال القرطبي : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ آعْبُدُوا ﴾ أمر بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل يقال : طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام . قال طرفة : وظيفاً وظيفاً فوق مؤر معبد .

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التمسك . وعبدت فلاناً : اتخذته عبداً .

(٢) روى البخارى [٢٣٣٣] ومسلم [١١٤/٢١٢١] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والجلوس في الطرقات ، فقالوا : ما لنا بد ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقها . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

(٣) روى مسلم [٤٣/٢٥٦٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تُعْذِنِي . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال :

بالحكم بين الناس بالعدل حتى ولو كانوا غير مسلمين^(١) ، وأمر سبحانه بحسن
معاملة الجار^(٢) ، ورفع الأذى عن الطريق^(٣) ، وإعانة العاجز وغير القادر^(٤) .

- أما علمت أن عدى فلانًا مريض فلم تعده . أما علمت أنك لو عُدتُهُ لوجدتني
عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال : يا رب وكيف أُطعمُك
وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عدى فلان فلم تطعمه ؟
أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عدى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم
تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك
عدى فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عدى .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا ۖ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [مائدة : ٨] .
(٢) أخرج البخاري [٦٠١٦] ، ومسلم [٧٣/٤٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى
عنه قال : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

(٣) ذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ [٢٤٦/٢٥٩/١] عن أبي هريرة رضي الله
تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الإسلام بضع وسبعون بابًا أفضلها
لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .
(٤) روى مسلم [٣٨/٢٦٩٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول
الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة
من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على مُعسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة
ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد
في عون أخيه . ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علماً ، سهل الله له به طريقًا إلى
الجنة . وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه
بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ،
وذكرهم الله فيمض عنده . ومن بطأ به عمله ، لم يُسرع به نَسَبُهُ » .

العبادة

السؤال :

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات : ٥٦] .
فما معنى العبادة هنا ؟

الجواب : الله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده .. كما قال تبارك
وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات : ٥٦] .
إذن .. فعلة الخلق هي العبادة .. ولقد تم الخلق لتحقيق العبادة وتصبح واقعاً
ولكن « العلة والمعلول » لا تطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .. نقول ليس
هناك علة تعود على الله حلّ حلاله بالفائدة ؛ لأن الله تبارك وتعالى عنى عن
العالمين .. ولكن العلة تعود على الخلق بانفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا
لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً في ملكه تعالى
ولأنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير في الدنيا والآخرة .. إن أفعّل الله لا تعلل ،
والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها ^(١) .

(١) قال القرطبي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات : ٥٦] قيل : إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه
يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . والمعنى : وما خلقت أهل السعادة
من الجن والإنس إلا ليوحدون .

قال القشيري : والآية دخلها التخصيص على القطع ؛ لأن المجانين والصبيان ما
أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خُلق للعبادة ولآيه محمولة على المؤمنين منهم
وهو كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ [الحجرات : ١٤٠] . وإنما قال =

- فريق منهم . ذكره انصحاك والكلبي والفراء والقشبي . وفي قراءة عبد الله : « وما خلقت الجن والانس من المؤمنين إلا ليعبدون » وقال علي رضي الله تعالى عنه : أي وما خلقت الجن والانس إلا لأمرهم بالعبادة . واعتمد الزحاح على هذا القول ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [التوبة ٣١] . فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتدلل لأمره ومشيئته ؟ قيل : تدللوا لقضائه عليهم ؛ لأن قضاءه أمر عليهم لا يقدرُونَ على الامتناع منه وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمر به . فأما التدلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه .

وقيل : ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ﴾ أي : إلا ليقرروا لي بالعبادة طوعاً أو كرها رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . فالكره ما يرى فيهم من أثر الصنعة . مجاهد : إلا ليعرفوني التعليبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عُرف وجوده وتوحيده . ودليل هذا التأويل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الرحم ٨٧] ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الرحم ٩] . وما أشبه هذا من الآيات . وعن مجاهد أيضاً . إلا لأمرهم وأنهاهم . ريد بن أسلم : هو ما جُبلوا عليه من الشقوة والسعادة فخلق السعداء من الجن والانس للعبادة وخلق الأشقياء منهم للمعصية .

وعن الكلبي أيضاً : إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجُّ كَظْلٍ دَعَوْا اللَّهَ تَحْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴾ [لقمان ٣٢] . الآية . وقال عكرمة . إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد

وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب تقول . عبد بين العبودية والعبودية وأصل العبودية الخضوع والدل . والتعبيد التذليل يقال : طريق معبد . والتعبيد =

ولكن هل العبادة هي الجلوس فى المساجد والتسبيح أم أنها منهج يشمل الحياة كلها .. فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الأرض ؟ ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته مثلهم مثل الكون وما فيه ما عدا الإنس والجن .. والله تبارك وتعالى له صفة القهر ، من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهوراً على عبادته .. مصداقاً لقوله جل جلاله : ﴿ لَعَلَّكَ نَجِعَ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [١] إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَسْمَاءٍ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ﴾ [٢] [الشراء] .

فلو أراد الله أن يُخضعنا لمهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه ، فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة . القلب يبض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا ، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .. والدورة الدموية فى أجسادنا لا إرادة لنا فيها ، وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى ، وليس لإرادتنا دخل فى عملها .

إذن .. ما يقع على فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيها ؛ ولا أستطيع أن أضعها من الحدوث .. فلا أستطيع أن أضع سيارة أن تصدمى .. ولا طائرة أن تحترق بى .. ولا كل ما يقع على من أقدار الله فى الدنيا .

إذن .. فمنطقة الاختيار فى حياتى محددة ؛ فمثلاً لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى .. ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى .. ولا فى شكى هل أنا طويل أو قصير ؟ حميل أو قبيح ، شقى أو سعيد .. أو ما إلى ذلك .

= لاستعباد وهو أن يتخذه عبداً . وكذلك الاعتباد . والعبادة : اطاعة ، والتعبد : لتسك . فمعنى ﴿ يَعْبُدُونَ ﴾ ليدلوا ويخضعوا ويعبدوا .

وعلى هذا فممنطقة الاختيار في الحياة هي التي جاء بها المنهج من الله تعالى
 في أن أفعل أو لا أفعل . والله سبحانه وتعالى من صفاته القهار ، ولو شاء
 سبحانه أن يقهر خلقه كلهم على عبادته لكانوا كما أراد سبحانه ؛ ولكنه يريد
 من الإنس والجن عبادة عن محبوبة .. ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه
 أو لا نأتيه .. في أن نطيعه أو نعصيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن ^(١) .

(١) روى الخلال عن بقية بن الوليد قال : سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر
 فقال الزبيدي أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضى
 ويقدر ويخلق ويجعل عبده على ما أحب .

وروي عن أبي بكر المروزي قال . قلب لأبي عبد الله تقول : إن الله أجبر
 العباد . فقال : هكذا لا تقول ، وأنكر هذا وقال : ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة : ٣١] .

وقال المروزي : كتب إلى عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف العكبري وقال :
 إنه تنزه عن ميراث أبيه فقال رجل قدرى : إن الله لم يجبر العباد على المعاصي .
 فرد عليه أحمد بن رجاء فقال : إن الله جبر العباد ، أراد بذلك إثبات القسر .
 فوضع أحمد بن علي كتابا يحتج فيه .. فأدخلته على أبي عبد الله وأخبرته
 بالقصة . قال : ويضع كتابا ! أنكر عليهما جميعا على ابن رجاء حين قال :
 جبر العباد ، وعلى القدري الذي قال لم يجبر ، وأنكر على أحمد بن علي
 وضعه الكتاب واحتجاجه ، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب . وقال لي : يجب
 على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال : جبر العباد .

فقلت لأبي عبد الله فما الجواب في هذه المسألة ؟ فقال : ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ
 يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قال الخلال : وأخبرنا المروزي في هذه المسألة أنه سمع أبا عبد الله لما أنكر على
 الدي قال : لم يجبر ، وعلى من رد عليه : جبر ، فقال أبو عبد الله : =

= كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا في جوابها ، وقال : يستغفر ربه الذي ، د عليهم بمحدثه ، أنكر على من رد شيئاً من جنس الكلام إذا لم يكن له فيه إمام تقدم . قال المروري : سمعت بعض المشيخة يقول سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : أنكر سفيان الثوري « جبر » وقال : الله تعالى جبل العباد . هذه الأمور مبسطة في غير هذا الموضع وإنما المقصود التنبيه على أن السلف كانوا يراعون لفظ القرآن والحديث فما يشتبه ويفقوه عن الله من صفاته وأفعاله ، فلا يأتون بلفظ محدث مبتدع في النفي والإثبات ، بل كل معنى صحيح فيه داخل فيما أخبر به الرسول ، والألفاظ المستدعة ليس بها ضابط ، بل كل قوم يريدون بها معنى غير المعنى الذي أراده أولئك .

فتاوى ابن تيمية [٤٣٠/٥] .

شهادة التوحيد

السؤال : ما هو مفهوم شهادة لا إله إلا الله ،
وشهادة أن محمداً رسول الله ؟

الجواب : المؤمن حين يقول « لا إله إلا الله » .. فقد أعلن الإيمان بالله تعالى رباً وخالقاً وإلهاً .. وأسلم قياده لله تعالى ؛ وهو بهذا الإعلان إنما يؤكد للدينا كلها أنه لم ينحني لأحد غير الله ، ولن يحضض لمخلوق ، بل إن ولاءه وحياته كلها لله سبحانه وتعالى^(١) . وفي هذا عزة للمؤمن .. لأن الذي

(١) إشارة إلى ما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأعام] .

وللحديث الذي أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ ؛ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حقيماً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً . إله لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لي بك وسعديك والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وتعاليت استغفرك وأتوب إليك » . وإذا ركع قال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ، ومُخِّي وعظمي وعصبي » . وإذا رفع قال : « اللهم ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت -

ينحنى لغير الله ينحنى لكل الناس ويخضع ويحاول أن يُرضى هذا ويُرضى
ذاك بإذلال نفسه وإهانتها .. ولكن الذى ينحنى لله تعالى وحده قد أخذ عزة
العبادة وتخلي عن ذل الدنيا . وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى عندما وضع
هذا الشرط لإعلان الإيمان .. قد جعله تأكيداً لكرامة المؤمن . فالذى يعبد الله
سبحانه وتعالى إنما يعبد الذى يعطى بلا حساب .. فعنده سبحانه مفاتيح
كنور السماوت والأرض .

أما من يطلب رضا الناس فإنه يطلب رضا من يسخرونه لهواهم ، ويحاولون أن
يأحدوا منه ولا يعطوه ، ويستدلوه ويحققوا شهواتهم وسلطانهم على حسابه .
والمؤمن بإعلانه شهادة : « لا إله إلا الله » قدم لنفسه الاحترام من كل
مخلوقات الله جميعاً .

لماذا .. ؟ لأنه غنى بالله عنهم جميعاً .. فهو لا يريد منهم شيئاً . والذل فى
الحاجة للخلق إنما يجعلك ذليلاً لمن تريد منه حاجة .. أى لمن تريد منه مالاً
أو وظيفة أو منصباً أو قطعة من الأرض أو أى شىء دنيوى .. ولكنك إذا
استغثت عن هذا كله كنت عزيزاً أمام هذا الإنسان ؛ لأنك لا تريد منه شيئاً .
وحين يقول المؤمن : « وأشهد أن محمداً رسول الله » فإنه بهذا يقرر أنه
لا مهج لنا فى هذه الحياة إلا ما وصلنا عن طريق خاتم الأنبياء سيدنا

= من شىء بعد . وإذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك
أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله
أحسن الخالقين » ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم
اعصر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت
أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت » .

محمد صلى الله عليه وسلم .. وعلى هذا فليس لأحد أن يتقص منه شيئاً ،
أو أن يضيف إليه من عند نفسه شيئاً .

والإنسان عندما يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويعلن تمسكه
بمنهج الله الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد أراح نفسه من أن
يتلقى منهجاً من إنسان آخر يساويه .. بإعلان الإيمان برسالة محمد صلى الله
عليه وسلم إنقاذاً للمؤمن .

وبقية البشر متساوون يتلقون المنهج ممن هو أعلى منهم جميعاً . وفى ذلك
عزة للجميع .. فلا تبعية من إنسان لآخر .. ولا استدلال من إنسان لآخر .
وحين يعلن المسلم ولاءه لله تعالى بالصلاة كل يوم خمس مرات ، ومع
بقية المؤمنين يوم الجمعة فى صلاة الجمعة ، فإن إحساساً بالمساواة يتحقق ؛
لأننا جميعاً متساوون فى العبودية لله .. فلا يبرز أحد ويفرض جبروته على
الناس .. لأن الولاء العبودى لله جلّ جلاله قد أعلن من الناس جميعاً فالكل
عبيد الله تعالى حاصعون له سبحانه ، منقادون لأمره .

وحين يتحرك الإنسان فى الأرض ليعمل .. فإنه يتحرك لنفسه ولمن يعول ..
ويتحرك أيضاً لمن لا يقدر على الحركة .. وذلك بتقدير لزم من قادم يصبح فيه
القدر على الحركة الآن غير قادر على السعى للرزق فإذا جاء هذا " من فإيه
سوف يجد مؤمناً يتحرك من أجله . ولعل الأنظمة المعاصرة فى كل من
الشرق والغرب تأخذ بهذه الجزئية على الرغم من خطئهم فى التطبيق . ورغم
أن بعضهم كافر بالله جل وعلا إلا أنهم تعلموا من الإسلام فأخذوا من القوى
تأميناً له والمستقبه يدفع له عندما يصبح صعباً غير قادر على الكسب .



جواهر العبادة

السؤال : ما معنى كلمة : جواهر العبادة ؟

الجواب : إذا كان ما فى الكون من جماد ونبات وحيوان .. مسخر لمهمته التى هى خدمة الإنسان .. فما هى مهمة الإنسان ؟
مهمته أن يعبد الله . فقد جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شعلاً ولم أسد فقرك »^(١) .

ولكن ما جواهر العبادة ؟ هل يريد الله منا أن نقول مثلاً : « سبحان الله » طوال اليوم وكفى ؟ لا .. عبادة الله هى أن يشغل الإنسان بلمهمة التى خلقه الله سبحانه من أجلها .. إن كل حركة فى الكون فى الاتجاه الصحيح عبادة .. وإنما نلجأ إلى قواعد الإسلام الخمسة^(٢) لشحن « البطارية » للإيمانية الموجودة فى داخلنا .. ولذلك يكون معنى : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [اساريات : ٥٦] : هو : إفراده سبحانه بالتوحيد ، وطاعته فى كل ما أمر ونهى^(٣) .

(١) رواه الترمذى [٢٤٦٦] ، وابن ماجه [٤١٠٧] ، وأحمد فى المسند [٣٥٨/٢] ، عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٣٣١٥] .

(٢) أخرج مسلم [٢٢/١٦] والبخارى [٨] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ؛ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الإسلام بنى على خمس . شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام لصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت » .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [اساريات : ٥٦] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية . وإنما تعبدتهم بطاعته وطاعة رسوله ، فلا عبادة

إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله ، وما سوى ذلك فضلا عن سبيله .
ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرا فهو رد »
أخرجه في الصحيحين ، وقال : صلى الله عليه وسلم في حديث العرباض بن
سارية الذي رواه أهل السنن وصححه الترمذي : « إنه من يعش منكم بعدي
فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من
بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن
كل بدعة ضلالة » .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته :
« خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها
وكل بدعة ضلالة » .

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعا من القرآن ،
كقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [ساء : ٨٠] .
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطِيعَ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ
الرَّسُولُ لَوَحَدَرْنَا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموا
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
سَلِيمًا ﴿١٥﴾ [النساء] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول ، وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة
الله عبده . وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا =

= مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا ﴿ [الشورى : ٥٢] .

فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِفَاتٌ ﴾ [سبأ : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥٠﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ رُيُوسًا لِّمَن أظْلَمَتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥١﴾ ﴾ [المائدة : ١٥٠] . فبمحمد صلى الله عليه وسلم تبين الكفر من الإيمان ، والربح من الخسران والهدى من الضلال ، والسجاة من الوبال ، والعي من الرشاد ، والريغ من السداد ، وأهل الحجة من أهل النار ، والمتقون من الفحار وإشرا سبيل من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من سبيل المعضوب عليهم والضالين . فالنفوس أحوح إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، وإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا ، وذاك إذا فات حصل العذاب .

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته ، إذ هذا طريق السجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار العيم . والطريق إلى ذلك الرواية والقل ، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل ، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة ، فلهدا كان تليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام ، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام .

والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة ، وبهما أتم على أمة المنة ، قال تعالى : ﴿ ... وَلَا تُنَمُّوهُنَّ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا -

مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَرِزْقِيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي أذْكُرِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ [البقرة : ١٥١-١٥٢].
 وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَرِزْقِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران : ١٠٩].
 وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [البقرة : ٢٣١].

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَرِزْقِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢].
 وقال تعالى عن الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَأَنْعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَرِزْقِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩].
 وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْكُرْنَا مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٤].

وقد قال غير واحد من العلماء : مهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم : ﴿ وَالْحِكْمَةُ ﴾ : هي السعة ؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يدكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة ، والكتاب : القرآن ، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السعة .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة أوجه من حديث أبي رافع وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : بيننا وبينكم القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه »^(١) . وفي رواية : ألا وإنه مثل الكتاب .

ولما كان القرآن متميرا بنفسه - لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لِيِ احْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ -

(١) رواه الترمذي [٢٦٦٢] وابن ماجه [١٢-١٣] وأبو داود [٤٦٠٥] وصححه الألباني .

= هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿ [الإسراء : ٨٨] .

وكان منقولاً بالتواتر - لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه ، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل ، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد . فأقام الله تعالى الجهاد القاد أهل الهدى والسداد ، فدحروا حرب الشيطان ، وفرقوا بين الحق والبهتان وانتدبوا لحط السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان .

وقام كل من علماء الدين بما أعم به عليه وعلى المسلمين - مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث ، وكان من ذلك الظاهر اجلي ؛ الذي لا يسوغ عنه العدول ؛ ومنه الخفي ؛ الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول .

وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والإسناد ، فسافروا في ذلك إلى البلاد ، وهجروا فيه لذية الرقاد ، وفارقوا الأموال والأولاد ، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد ، وصبروا فيه على النوائب ، وقنعوا من الدنيا بزيادة الراكب ، ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة ، والقصص المأثورة ، ما هو عند أهله معلوم ، ولمن طلب معرفته معروف مرسوم ، بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذية الطعام والشراب ، وترك معاشر الأهل والأصحاب ، والتصر على مرارة الاغتراب ، ومقاساة الأهوال الصعاب ، أمر حبيب الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله . كما جعل لبيت ماثبة للناس وأمناء ، يقصدونه من كل فج عميق ، ويتحملون فيه أمورا مؤلمة تحصل في الطريق ، وكما حبيب إلى أهل القتال الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ، ويظهر به الهدى ودين الحق ، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون .

فمن كان محلصا في أعمال الدين ويعملها لله - كان من أولياء الله المتقين أهل السعيم لمقيم ، كما قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا =

- هُمْ يَخْرُوتُ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٣٨﴾ [يونس] .
وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم البُشْرَى في الدنيا بنوعين :
أحدهما : ثناء المثنيين عليه .

الثاني : « الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ؛ أو ترى له
ف قيل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه ؟ قال :
« تلك عاجل بشرى المؤمن » . وقل البراء بن عازب : سئل النبي صلى الله
عليه وسلم عن قوله . ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فقال : « هي الرؤيا
الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » .

والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الربان
الحافظون له من الريادة والقصبات ، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه
المفلحين . بل لهم مزية على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال لصالحات .
كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ ﴾ [الحجرات ١١٠] . قال ابن عباس : يرفع الله الذين أوتوا العلم من
المؤمنين على الدين ثم يؤتوا العلم درجات . وعلم الإسناد والرواية مما حص
الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله سلما إلى الدراية . فأهل
الكتاب لا إساد لهم يأترون به المنقولات ، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة
أهل لضلالات ، وإنما الإسناد لم أعظم الله عليه الممة ، أهل الإسلام والسنة ،
يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم .

وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأترونها بغه إساد ،
وعليها من ديبهم الاعتماد ، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ، ولا الخالي
من العاطل .

وأما هذه الأمة المرحومة ، وأصحاب هذه الأمة المعصومة ، فإن أهل العلم
مهم والدين هم من أمرهم على يقين ، فظهر لهم الصدق من المين ؛ كما -

= يظهر الصبح لدي عيين . عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول ، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول كما قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقا ، وإذا اجتمع أهل الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقا ، ولكل من الطائفتين من الاستدلال على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي ، والله تعالى يلهمهم الصواب في هذه القضية ، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية ، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية ؛ فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، لما صدقوا في موالاته الله ورسوله ؛ ومعاداة من عدل عنه . قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وأهل العلم المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الناس قياما بهذه الأصول ، لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ، ولا يصددهم عن سبيل الله العظائم ، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ، ويتكلم في أحب الناس إليه ، عملا بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَزَعْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] وقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

- ولهم من التعديل والتجريح ، والتضعيف والتصحيح من السعي المشكور والعمل المبرور ما كان من أسباب حفظ الدين ، وصيانتة عن إحداث المفترين ، وهم في ذلك على درجات : منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ، ومنهم أهل العقه فيه والمعرفة بمعانيه .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة أن يبلغ عنه من شهد لمن غاب ، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب ، فقال في الحديث الصحيح : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وقال أيضا في خطبته في حجة الوداع : « ألا ليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال أيضا . « نصر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه ، قرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ؛ ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيها ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ ؛ لما أعطي الملعون من النضرة ؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة : لا تجد أحدا من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة ؛ لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم يقال : نَضْرَ ونَضْرَ ، والفتح أفصح .

ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون ثقله الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه : إذا رأيت رجلا من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما قال الشافعي هذا ؛ لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعي أيضا : أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفصل ؛ لأنهم حفظوا لنا . اهـ . « نقلا عن كتاب توحيد الألوهية / مجموع فتاوى ابن تيمية » .

الإسلام الذى غير وجه التاريخ

السؤال : كيف كان الإسلام حدثًا غير وجه

التاريخ ؟

الجواب : كان الإعلان عن ظهور الإسلام حدثًا تزلزلت له عروش الظلم . ذلك أن الإنسان يستعيد بالإسلام انسجامه مع الكون فيصل بمنهج الإسلام إلى مطلوب الله تعالى من العباد وهو أن يصيروا عبادًا يحبون العبادة .. لا عبيدًا مقهورين على العبادة . بذلك كان لابد من الإعداد المسبق للرسول صلى الله عليه وسلم الذى يحمل إلى الناس كافة رسالة الله تعالى . وكان من الإعداد المسبق القدرة على التأمل لكل ما يجرى حوله صلى الله عليه وسلم من أمور .

فعندما كان يأتى رمضان من كل عام قبل الرسالة .. لم يكن محمد يتعبد للأصنام كعادة العرب آنذاك وإنما كان يعتكف فى غار حراء .. وكان مَنْ يقيم فى غار حراء فى ذلك الوقت يستطيع أن يرى الكعبة فتجتمع به ثلاث عبادات فى آن واحد .

الأولى : هى الخلوة فى الغار : وفى الخلوة صفاء النفس والروح .

والثانية : هى التأمل .. فى ملكوت الأرض والسماء .

والثالثة : هى النظر إلى البيت الحرام .

وكان الصفاء الروحى هو حال رسول الله ﷺ الدائم مع الله تعالى ، ومع الناس ولذلك روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه غير سخاب^(١) .. أى لا ضجيج له .

(١) روى البخارى [٢١٢٥] عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن

العاص رضى الله تعالى عنهما قلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى التوراة ، قال : أبجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بعض

وكان صلوات الله وسلامه عليه :
 هادئ صلى الله عليه وسلم إذا جُودل .
 واضح صلى الله عليه وسلم إذا تكلم .
 يستضيء به صلى الله عليه وسلم من حوله اطمئناناً إليه وثقة فيه .
 صادق الرؤيا صلى الله عليه وسلم .. لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .
 ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بشر يوحى إليه .
 نعم إنه بشر .. لكن اصطفاه الله واختباه لمهمة البلاغ عنه سبحانه .
 متميز صلى الله عليه وسلم بمكانته في مكة والبيت الحرام بشرف نسبه .
 ضعيف صلى الله عليه وسلم وسط أهله باليُثم .
 متصف صلى الله عليه وسلم بقوة الصدق والأمانة .
 وكانت إرادة الله تبارك وتعالى أن يختار بيه الختم صلى الله عليه وسلم
 ليكون أسوة حسنة .

وكما كان متبعاً في إعداد الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه .
 كان لابد لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من معجزة .
 ولأنه صلى الله عليه وسلم النبي الخاتم كن لابد من المعجزة الكبرى .
 وحتى ينزل القرآن على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو على
 بشريته لابد من رسول مقرب من الملائكة هو الملاك جبريل عليه السلام كبير
 أمناء الوحي .

= صفته في القرآن : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .
 وجرراً للأُميين ، أنت عبدى ورسولى ، سَمَّيْتُكَ الْمُنُوكِلَ ، ليس بَقَظ ولا غَلِيظٌ
 ولا سَخَاب في الأسواق ، ولا يَدْفَعُ بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ ، ولكن يَغْفُو وَيَغْفِرُ ، ولن
 يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُفْتَحَ بِهَا
 أُعْيُنُ عَمَى ، وَأَذَانُ صُمٍّ ، وَقُوبُ غُلْفٍ .

لذا اجتمعت لرسالة الإسلام كل مقومات القوة ، فعلا الدين وأظهره الله ،
وأتم نوره وأشرق الأرض بنور ربها ^(١) .



(١) ليس هذا فقط بل أعد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم جيلاً قرآنياً
فريدا صعه على عينه لحمل الرسالة وبشر الدعوة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣]
يريد حل شأوه بقوله : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ جمع بين قلوب المؤمنين من
الأوس والخزرج بعد التفرق وانتشت على دينه الحق فصيرهم به جميعا بعد أن
كانوا أشتاتا ، وإخوانا بعد أن كانوا أعداء .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول
نعالى ذكره لنيه محمد صلى الله عليه وسلم . لو أنفقت يا محمد ما في
الأرض جميعا من ذهب وورق وعرض ما جمعت أنت بين قلوبهم بحبيك
ولكن الله جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت تقوية من الله لك و تأييدا
منه ومعونة على عدوك .

والذي فعل ذلك وسيه لك حتى سرروا لك أعوار وأبصار ويدا واحدة على
من بغاك سوءا ، هو الذي إن رام عدو منك مراما يكفيك كيده وينصرك عليه ،
فثق به وامض لأمره وتوكل عليه .

الإسلام .. والسيف

السؤال :

بعض المستشرقين وأعداء الإسلام يقولون
إن الإسلام انتشر بالسيف ! فكيف يمكن
الرد على تلك الفرية ؟

الجواب : إذا كان عددًا من المستشرقين يزعم أن الإسلام قد انتشر بالسيف
وأن الناس كانوا يخشون بين الإيمان أو القتل .. وأن الفتوحات الإسلامية هي
التي نشرت الإسلام وتم ذلك قهرًا بالسيف ! فهذا زعم باطل ، وبهتان عظيم
ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر حقًا كما زعموا بالسيف .. لما وُجد في
الدولة المسلمة غير المسلمين .. ولكن وُجد في الدولة المسلمة اليهود والنصارى
.. وظلوا على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يُدخلهم في الإسلام قهرًا ..
بل تركوا على دينهم .. وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا في ظل
الدولة المسلمة وفي حكم الخليفة المسلم .. حتى أن أقباط مصر الذين كانوا
يختفون في المغارات وقت الحكم الروماني .. قد عادوا آمنين مطمئنين في أيام
الحكم الإسلامي .. وكانوا يؤدون عاداتهم في حماية الحكومة المسلمة .
ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف قول كاذب باطل ..
والصحيح أن الإسلام استخدم السيف حين استخدمه ليدافع عن حرية
الاختيار .. وحرية العقيدة للبشرية كلها .. فقد كان دعاة المسلمين يعرضوا
الإسلام على الأمم .. ويبينوا محاسن الدين الجديد للناس .. وبعد هذا البيان
والبلاغ بالدين الجديد والحجج التي نزل بها القرآن الكريم ثم بعد ذلك ترك
حرية الاختيار للناس من شاء آمن .. ومن لم يشأ ظل على دينه .
وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأي .. وحرية العقيدة وأن يعرضوا
الإسلام على الناس .. ثم بعد ذلك ترك حرية الاختيار لكل إنسان .

ولكن بعض حكام هذه الدول .. قاتلوا المسلمين .. ومنعواهم من أن يعرضوا دعوتهم على الناس .. وصادروا حرية الرأي وحرية اختيار العقيدة .. محاولين فرض دين الكفر .. وحملوا السيف لمنعوا دعاة الإسلام من أن يصلوا إلى قلوب وأذان البشر .. وكان لابد .. دفاعاً عن حرية الرأي والعقيدة - أن يحمل المسلمون السيف ، لا لينشروا دعوتهم ، ولكن ليخلوا بين الناس وبين حرية الرأي والاختيار .. وحرية العقيدة .. ويخلصوهم من جبروت فرض الكفر والإلحاد بالقوة .. وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذي يستطيعون فيه إبلاغ تعاليم الإسلام للناس .. تركوا السيف وألقوا به بعيداً .. وبدأوا في شرح تعاليم الدين .. ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حراً في أن يدخل الإسلام أو يبقى على دینه .. فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز ، ومن بقى على دینه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون مقابل جزية يدفعها من أجل أن يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ^(١) .

(١) قال فضيلة الشيخ الإمام في كتابه القيم : « الجهاد في الإسلام » والذى

شرفت مكتبتنا بشره في سؤال عرض على فضيلته عن الإسلام والسيف :

« كثيراً ما يتردد هذا السؤال على ألسنة الناس ، بل يزعم الكثير ممن في قلوبهم مرض أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف ، وهذا زعم باطل يردده الواقع والتاريخ والمسألة في غاية الوضوح لمن أراد الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أما المعاند والجاهل فلا نستطيع أن بهديه ولر كنا حريصين على ذلك ؛ لأنه اختار غير طريق الهدية وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الفصل ٥٦] .

نقول : المسألة هي غاية الوضوح ؛ لأن النصر لا تكون بالسيف فقط ، وإلا فكيف آمن المسلمون الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشة ، وكذلك الذين جاءوا لبيعة العقبة الأولى والثانية ، واندس هاجروا إلى المدينة ، وكذلك الذين =

استقبلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة حين هاجر إليهم .
ومنشأ هذا الزعم الخاطيء أن الله تعالى لم يطلب من أى رسول سابق على
رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يجاهد في سبيل وصول الدعوة إلى
الناس ، لأد، الله سبحانه هو الذىولى تأديب الخارجين على دينه ، العاصين
لرسله ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلًّا أَحَدْنَا بِيَمِينِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَدْنَاهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ
وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

كما لم يحدث قتال منذ أن أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض إلى أن بعث
سبحانه رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلا مرة واحدة ، وهى : عندما
طلب بنو إسرائيل الإذن بقتال الدين أخرجوهم من ديارهم ، ورغم ذلك تولوا
عن القتال إلا قليلاً منهم .

ولكن هى الرسالة الخاتمة أدر الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم
وأتمته أن تحمل السيف ، لتؤدب به الذين يحولون دون وصول العقيدة
الصحيحة للناس .

إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة على الناس ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس
الإنسانية ، فبدلاً من أن يترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة ،
اصططفى الله محمدًا صلى الله عليه وسلم وكلف أتمته برفع السيف فى وجه
الظالم القاهر لعباد الله ليحلوا بين الناس وبين اختيارهم ، ومن ثم على العباد
أن يختاروا عقيدتهم بكامل حريتهم بعد أن يتبينوا سبل الهدى والرشاد .

وعندما يردد أعداء لقرآن القول انفاسد : إن الإسلام انتشر بالسيف . نرد
عليهم كما سبق وصدربا به كلامنا : إن الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا
برسوله صلى الله عليه وسلم هى بدء الأمر كانوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع -

= حتى عن أنفسهم ، ولذا هاجر بعضهم إلى الحبشة بحثاً عن الحماية ، ومنهم من دخل في حماية الأقوياء من أهل مكة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث في أمة أُمّية ، ومن قبيلة لها شوكتها . ومثاء الحق سبحانه ألا ينصر دينه بإسلام أقوياء قريش أولاً ، فأول من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء ، ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وصار في مكة وقوة . وقام مجتمع المسلمين الأول حين أدن الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه أن يحملوا السيف لا لفرص العقيدة ، ولكن لحماية حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة .

ولو أن الإسلام انتشر بالسيف - كما يزعم هؤلاء الأفاكون الكارهون لابن الله - فكيف نفسر وجود أبناء ديانات أخرى في البلاد المسلمة !؟

إذن .. فكل مسلم يمشي وحدة إيمانية مستقلة ، وعليه أن يكون قدوة لغيره . فكل مسلم مؤمن بالله تعالى وبدينه ، يُحتَم عليه أن يلتزم السلوك الإيماني في حياته ، فبالسلوك الإيماني مكن الله للإسلام في الأرض . وعنى هذا فكل مسلم عليه واجب ألا وهو أن لا يترك في سلوكه ثغرة ينهض منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ؛ ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى شرع الله تعالى .

ولذلك فالمفكرون والمنصفون من أهل الأديان الأخرى حينما يعتنقون الإسلام إنما يعتنقونه لأنه منهج حق . يمحصونه بالعقل ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن في الإسلام فهم يظنون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام . ولكن المفكرين المنصفين يفرقون دائماً بين العقيدة وبين متبعي العقيدة ^(١) .

(١) روى المروزي في السعة له [٢٨/١٣/١] عن يزيد بن مرثد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل رجل من المسلمين على ثغره من ثغور الإسلام ، لله لا يؤتى الإسلام من قنك . وفي رواية له [٢٩/١٣/١] عن الأوراعي قال : كان =

= أما الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أناعه رب صادفوا مُتَعَاً للإسلام ملتزمًا ، دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام . ولذلك فالبلاد الإسلامية الكبيرة الآن والتي تضم غالبية سكانها من المسلمين هي بلاد دخلها الإسلام بالأسوة الإسلامية في أفراد متعين ملتزمين . فراق للناس ما هم عليه من تقى وورع ، ومن تصرفات مستقيمة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه نظيف . كل ذلك لفت الناس إلى الإسلام وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : ما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن .. فالذى لفت الناس إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم . ولذلك فالخلق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [نصت ٣٣] . والدعوة إلى الله تكون بالقول ، والعمل الصالح . فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان ، ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول لمن يرونه على هذا السلوك السمح ، الرضحي الطيب ، إنها لفئة من ذاته إلى دينه . وهذه تفسر لنا كيف انتشر الإسلام بواسطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام وبوقار الإسلام وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم مُنفَتًا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الواحد منهم : أنا لم أجدى بذلك من عدى ولكن من اتباعى لدين الإسلام الذى جاء من عند الله تعالى وبلغه النبى محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله للعالمين .



يقال ما من مسلم إلا وهو قائم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فمن استطاع ألا يؤتى الإسلام من قبله فليفعل .

الأمثال فى القرآن الكريم

السؤال : لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم ؟

الجواب : الله سبحانه وتعالى ضرب للناس أمثالا فى القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الرمر : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٥] . إذن .. الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بمركب لإيمان . وربطها بالهدى والضلال .. فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمنين ليزدادوا إيمانا .. وأراد الله أن يرد بها على الكافرين .

قبل أن نبدأ بالإجابة عن لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم ؟ فإننا لابد أن نفرق بين المثل والمثال .

أولا هناك كلمة مثل .. وهناك كلمة مثال .. ومثل - بكسر الميم تعنى التشبيه بشيء .. أى : أن هذا الشيء لذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] . وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [يونس : ٣٨] . ومعنى ذلك : بسورة كالقرآن تماما .. أى : أن هناك تشبيه حالة بحالة . ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة : مثل .. نقول هذا الشيء مثل الكرة ؛ لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما ، أو أن نقول : هذا الشيء يشبه سنام الجمل أى : أنه على هيئة سنام الجمل تماما ، وهنا نحن نشبه حالة بحالة ، أو مفردا بمفرد .

أما المثل فهو يختلف عن ذلك تمامًا ، ذلك لأنه لا يُشبه شيئًا فرديًا بشيء
هردى .. ولا يُشبه حالة بحالة مثلها .. ولكن المثل يأتي لتقريب فكرة ما إلى
الدهن البشرى ، بحيث يستطيع أن يشتوعبها .. ولا يشترط أن يكون المثل
من نفس نوع الشيء الذى نتحدث عنه .. بل قد يكون مختلفًا تمامًا ، ولكنه
فقط يعطينا الفكرة . ولنوضح هذه النقطة قليلًا نقول :

إذا أحدا الأمثال فى حياتنا وجدنا أنها تقرب المعانى ، فمثلاً حينما تواجه
إنساناً يتحدأك أو يحاول أن يبال منك مغترًا بقوته ، زاهٍ بقدرته ، تقول له : «
إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا^(١)» ، ولا يوجد ربح هنا ولا إعصار ، حتى
تصرب مثل هذا المثل .. ولكنك تريد أن تقول إذا كنت قويًا فأنا أقوى منك .
إذن .. استخدمت فى هذا كلامًا يعطى المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص ،
ولا بالحالة نفسها .. ولا تتقيد بأن يكون ما قلته مثل - بكسر الميم - ما هو
حادث فعلاً .. فليس هناك ربح ، ولا هناك إعصار حتى يكون اتشبيه مماثلاً
ومطابقاً لما تريد أن تقوله ، ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة فى أن الإعصار
أقوى من الربح .. وأقدر على مواجهتها لتدل على المعنى الذى تريده .. وهو :
أنك إذا كنت قويًا فقد لقيت من هو أقوى منك .

(١) ذكر أبو الفضل الميداني فى مجمع الأمثال : الجزء الأول . الباب الأول فيما
أوله همزة :

إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لَاقَيْتَ إِعْصَارًا

قال أبو عبيدة : الإعصار ريح تهب شديدة فيما بين السماء والأرض . يصرب
مثلاً للمدبل بنفسه إذا ضل عن طريقه هو أدهى منه وأشد .

وفى لسان العرب : يضرب مثلاً للرجل يلقى قِزْنه فى التَّجْدَةِ والبسالة .
والإِعْصَارُ والإِعْصَارُ : أَنْ تُهَيِّجَ الرِّيحُ التُّرابَ فترفعه . والإِعْصَارُ : العبار الشديد .

وهناك مثل آخر يقول : « قبل الرماء تملأ الكنائن » ^(١) .. ومعنى ذلك أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل وتبدأ الرمي بالسهم .. لابد أن تكون معك كنائتك حاملها فوق ظهرك .. ولابد أن تكون قد ملأتها بالسهم .. وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنائتك خالية ، فلن تستطيع أن تقاتل . فأنت تأتي إلى ابنك مثلاً الذى ظل طوال السنة يلعب ولا يذاكر ، ثم فى ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولاً أن يستوعب ! فتقول له : « قبل الرماء تملأ الكنائن » .. أى : أنك لم تستعد طوال العام ، ولم تذاكر ، لذلك فإن كنائتك خالية ، فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غداً ؟! وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان .

والمثل هنا لا يرتبط بواقع الشيء .. فلا ابنك ذاهب للقتال .. ولا توجد سهام ولا كنائن .. بحيث يكون التشبيه مطابقاً للأحداث .. ولكنك لا تريد ذلك .. بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى ، بصرف النظر عن الواقع الحادث ، وبالتالي فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد . وهكذا باقى الأمثال كلها ، لا تشبه شيئاً بشيء بعينه .. بل إن الذى تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفاً عن الذى يحدث فعلاً .. ولكنه يعطيك نفس المعنى ويقربه إلى عقلك ، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه .. وهناك مئات الأمثال التى نعرفها جميعاً مثل : « صرح الخنض عن الزبد » ^(٢) ، و « ما وراءك يا عصام » ^(٣) .

(١) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال : [١٠١/٢] والعسكري فى جمهرة الأمثال [١٢٢/٢] والزمخشري فى المستقصى : [١٨٦/٢] .

(٢) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال الباب الرابع عشر فيما أوله صا [٢١٤٤] وقال : يقال للأمر إذا نكشف وتبين .

(٣) فى مجمع الأمثال الجزء الثانى - الباب الرابع والعشرون فيما أوله ميم -

= وجدت الكلمات في الفصل : [٣٧٥٩] - ما وراءك يا عصام .

قال المفضل : أول من قال ذلك لحارث بن عمرو ملك كندة وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها : « عصام » ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف فمضت حتى انتهت إلى أمها وهي أمانة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمانة إلى ابنتها وقالت : أي بنية هذه حالتك أنك لتتظري إليك فلا تسري عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خلق ، وناطقها إن استنطقتك ، فدخلت إليها فنظرت إلى ما لم تر قط مثله فخرجت من عندها وهي تقول : « ترك الخداع من كشف القناع » فأرسلتها مثلاً .

ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : صرّح المحض عن الزبد ، رأيت جثة كالمزاة المصقولة ، يزيها شعر حالك كأذ ناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاس ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل . وحاجبين كأنما خطا بقلم أو شؤدا بحمم تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة^(١) ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع ، حفّت به وجنتان كالأرجوان في بياض كالجمان ، شقّ فيه قم كالحاتم ، لذيد المتسم ، فيه ثنانيا غر ذات أسر ، تقلّب فيه لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد إذا ذلك في رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدمجان يتصل بها ذراعان ليس فيهما عظم يُمس ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عصبهما تعقد إن شئت مهما الأنامل ، نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوي طوي القاطي المدمجة كسر عكنا =

(١) العبهرة : هي الرقيقة البشرة الناصعة البياض ، وقيل : هي الممتلئة شدة وعظما ، وقيل : هي المرأة العظيمة .

- كَانَقَرَاتِيسِ الْمَدْرَحَةِ ، تُجْبَطُ بِتِلْكَ الْعَكْسِ سُورَةُ كَالْمُدَّهْنِ الْمَجْبُورِ ، حَلْفُ ذَلِكَ ظَهَرَ فِيهِ كَالْجَدُولِ يَنْتَهِي إِلَى خَصَرِ ، لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ لَا نَتَنَزَّرُ ، لَهَا كَفْلٌ يُقَعِّدُهَا إِذَا نَهَضَتْ وَبِنَهَضِهَا إِذَا قَعَدَتْ كَأَنَّهُ دِغْصُ الرَّمْلِ لَبْدُهُ سَقُوطُ الطَّلِّ ، يَحْمِلُهُ فَيَحْذَابُ لُفًّا كَأَنَّمَا قَلَا عَلَى نَضْدِ جُحْمَانِ ، تَحْتَهُمَا سَاقَانِ خَذَلَتَانِ الْبَرْدِيَّتَيْنِ وَشَيْتَا بَشْعَرِ أَسْوَدٍ كَأَنَّهُ حَلَقُ الزَّرْدِ ، يَحْمِلُ ذَلِكَ قَدَمَانِ كَحَذْوِ اللِّسَانِ ، فَتَارِكُ اللَّهِ مَعَ صِغَرِهِمَا كَيْفَ تَطْيِيقَانِ حَمْلٍ مَا فَوْقَهُمَا .

فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى أَبِيهَا فَخَطَبَهَا فزَوَّجَهَا إِيَّاهُ وَبَعَثَ بِصَدَاقِهَا فَجَهَّزَتْ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْمِلُهَا إِلَى زَوْجِهَا قَالَتْ لَهَا أُمُّهَا : أَيُّ بَنِيَةِ إِنْ الْوَصِيَّةُ لَوْ تُرِكَتْ لِفَصْلِ أَدَبٍ تُرِكَتْ لَذَلِكَ مِنْكَ وَلَكِنَّا تَذَكُّرُ لِلْغَافِلِ وَمَعُونَةُ لِلْعَاقِلِ وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً اسْتَغْنَتْ عَنِ الزَّوْجِ لِيَغْنِيَ أَبُويَهَا وَشَدَّةُ حَاجَتَهُمَا إِلَيْهَا كُنْتَ أَعْسَى النَّاسِ عَنْهُ وَلَكِنَّ النِّسَاءَ لِلرِّجَالِ خَلْقٌ وَلَهُنَّ خَلْقُ الرِّجَالِ . أَيُّ بَنِيَةِ إِنْكَ قَارَفْتَ الْجُورَ الَّذِي مِمَّ خَرَجْتَ وَخَلَقْتَ الْعُشَّ الَّذِي فِيهِ دَرَجَتٌ إِلَى وَكَرَّمْتَ لَمْ تَعْرِفِهِ وَقَرِينَ لَمْ تَأْلَفِهِ فَأَصْبَحَ بِمُلْكِهِ عَلَيْكَ رَقِيبًا وَمَلِيكًا ، فَكُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا وَشَيْكًا ، يَا بَنِيَةِ الْخِمْلِيِّ عَمَى عَشْرَ جِصَالٍ تَكُنْ لَكَ ذُخْرًا وَذِكْرًا : الصَّحْبَةُ بِالْقِنَاعَةِ ، وَالْمَعَاشِرَةُ بِحَسَنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَالتَّعَهُدُ لِمَوْقِعِ عَيْبِهِ ، وَالتَّفَقُّدُ لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ ، فَلَا تَقْعُ عَنْهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيحٍ ، وَلَا يَشْمُ مِنْكَ إِلَّا طَيِّبَ رِيحٍ ، وَالْكَحْلُ أَحْسَنُ الْحَسَنِ ، وَالْمَاءُ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ الْمَفْقُودِ ، وَالتَّعَهُدُ لَوْقَتِهِ طَعَامِهِ ، وَالْهَدْوُ عَنْهُ عَمْدُ مَنَامِهِ ، فَإِنْ خَرَارَةُ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ وَتَغْيِصُ الْيَوْمِ مَبْغَضَةٌ ، وَالِاحْتِفَازُ بِبَيْتِهِ وَمَالِهِ وَالْإِرْعَاءُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَشْمُهُ وَرِعَالُهُ فَإِنْ الْإِحْتِفَازُ بِالْمَالِ حَسَنُ التَّقْدِيرِ ، وَالْإِرْعَاءُ عَلَى الْوَعَالِ وَالْحَشْمُ جَمِيلُ الْحَسَنِ التَّدْبِيرِ ، وَلَا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا وَلَا تَعْصِيَنَّ لَهُ أَمْرًا فَإِنَّكَ إِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ لَمْ تَأْمِسْ غَدْرَهُ ، وَإِنْ عَصَيْتَ أَمْرَهُ أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ ، ثُمَّ اتَّقِيْ مَعَ ذَلِكَ الْفَرْحَ إِنْ كَانَ تَرِيحًا وَالْاِكْتِسَابَ عَمَلًا إِنْ كَانَ فَرِيحًا ، فَإِنَّ الْخُصْلَةَ الْأُولَى : مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَالثَّانِيَةُ : مِنَ التَّكْدِيرِ ، وَكُونِي شَدًّا مَا تَكُونِينَ لَهُ إِعْطَايًا يَكُنْ أَشَدُّ مَا يَكُونُ لَكَ إِكْرَامًا ، وَأَشَدُّ

إلى آخر هذه الأمثال التي نردها كل يوم ^(١) .

- ما تكوين له موافقة يكن أطول ما تكوين له مرافقة ، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما نحين حتى تؤثر رضاء على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله بهجير لك . فحملت فسلمت إليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعة الدين ملكوا بعده اليمن .

وروى أبو عبيد « ما وِزَاءَكَ » على التذكير وقال : يُقال : إن المتكلم به النابغة الذبياني قاله : لعصام بن شهر حاسب النعمان وكان مريضاً وقد أُرْجِفَ بموته فسأله النابغة عن حال النعمان فقال : ما وِزَاءَكَ يا عصام ؟ ومعناه ما خلَّفَكَ من أمر العليل أو ما أمامك من حاله .

وَوِزَاءُ : من الأضداد . قلت . يجوز أن يكون أصل المثل ما ذكرت ثم اتفق الاسمان فخطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث

(١) جاء في أبجد العلوم المجلد الثاني : باب الألف : علم الأمثال : قال : هذا من فروع علم اللغة وهو : معرفة الألفاظ الصادرة عن اليلغ المشتهرة بين الأقوام بخصوص ألفاظها وهيئاتها وموردها وسبب ورودها وقائلها وزمانها ومكانها لئلا يقع الغلط عند استعمالها في مضاربها وهي : المواضع والمقامات المشبهة بمواردها ولا بد لمعاني تلك الألفاظ المذكورة من حيث ورودها في مواردها مضاربها بالتنوع . ومبادئه مقدمات حاصلة بالتواتر من ألفاظ الثقافات وأما عرضه ومنفعته : فعنيان عن البيان فإن الأمثال أشد ما يحتاج إليه المشي والشاعر ؛ لأنها تكسو الكلام حلة التزيين وترقيه أعلى درجات التحسين . ومن الكتب النافعة فيه : كتاب لابن الأباري ومنها : « المستقصى في الأمثال » للزمخشري ومنها : « مجمع الأمثال » للأسفراييني وهو كتاب عظيم جامع وقلت : ومنها كتاب : « الأمثال » للميداني وهو أجمع ما جمع فيه . قال في « كشف الظنون » . علم الأمثال . يعني صروبها . قال الميداني : إن عقود الأمثال يحكم بأنها عديمة أشباه وأمثال ، تتحلى بفرائدها صدور المخاغل -

(١) والمحاضر ، ويتسلى بفوائدها قلب البادي والمحاضر ، وتفيدوا بها في بطون الدفاتر والصحائف ، وتطير نواصبها في رؤوس الشواهد وظهور المنائف ، ويحتاج الخطيب والشاعر إلى إدماحها وإدراجها لاشتمالها على أساليب الحسن والجمال وكفى جلالة قدرها أن كتاب الله سبحانه وتعالى لم يمر من وشاحها ، وإن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم لم يخل في إيراد وإصداره من مثل يحوز قصص السبق في حلبة الإيجاز وأمثال التنزيل كثيرة .

وأما الكلام النبوي من هذا الفن فقد صنف العسكري فيه كتاباً برأسه من أوله إلى آخره ومن المعلوم أن الأدب سلم إلى معرفة العلوم به يتوصل إلى الوقوف عليها ومن يتوقع الوصول إليها غير أن له مسالك ومدارج ولتحصيله مراق ومعارج وإن أعلى تلك المراقي وأقصاها وأوعر تلك المسائل أعصاها هذه الأمثال الواردة كل مرتضع در الفصاحة يافعا ووليدا فينطق بما يعبر عنها حشوا في ارتقاء معارج البلاغة . ولهذا السبب خفي أثرها وظهر أقلها ومن حام حول حماها علم أن دون الوصول إليها أحرق من خرط القتاد وأن لا وقوف عليها إلا للكمال المعتاد كالسلف لماضين الذي نظموا من شملها ما تشتت وجمعوا من أمرها ما تفرق فلم يبقوا في قوس الإحسان مزعا . أ هـ

وقال الشيخ أحمد طاحون : الأمثال من أفضل السبل للتربية ، وتقويم المسالك ، وإصلاح النفوس ، وصقل الضمائر ، وتهذيب الأخلاق ، وتنمية الفضائل السامية وقد صربت الأمثال في القرآن لبيان صلال المنافقين ، وزيع الملحدين ، وفساد معتقدات المشركين . كما عيت الأمثال بإقامة الحجج على وجود الله عز وجل ووحدانيته ، وكمال صفاته ، وسوق البراهين على أن البحث للحساب والجزاء لا ريب فيه ، كما أنها تقرب المعاني بما يعرفه الناس ، ثم هي : لون من ألوان الهداية الإلهية تحضُّ النفوس على البر وتغريها بالهدى والخير ، أو تمنعها من الإثم والسوء . والغاية هي إعداد النفوس لليوم الآخر ، وتهيتها لأن تكون أهلاً لرحمة الله في الحياة الأبدية .

أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم [١٠-٥/١] بعصرف .

عودة الروح

السؤال : كيف السبيل إلى إعادة بعث الروح في

المجتمع الإسلامي ؟

الجواب : قال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها »^(١) ، ولننظر ماذا أصلح أول هذه الأمة .. لا شك أنها العقيدة .. تأصلت أولاً ورسخت في القلوب .. فإذا تأصلت العقيدة ورسخت في القلوب .. هانت النفوس والأموال .
وعندما يكون المؤمن ثابت العقيدة يعلم أنه أمام إحدى الحسينين : إما النصر وإقامة شريعة الله ، وإما الشهادة والفوز برضا الله تعالى ودخول الجنة .
إذن .. والإيمان لا يصح إلا بعقيدة سليمة ، ولا يقوم مجتمع مؤمن إلا على عقيدة سليمة .

ولنتأمل قول زيد بن الدثنة رضى الله تعالى عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. عندما قدمه المشركون للقتل ، قالوا له : أتحب أن تكون في أهلك ومحمد مكانك ؟ .. فقال : والله ما أحب أن أكون في أهلي ومحمد صلى الله عليه وسلم تصيبه شوكة وهو في موضعه^(٢) .

- (١) ذكر الإمام أبو إسحاق الشاطبي في كتابه « الاعتصام » هذه الكلمات التي تستحق أن تكتب بماء الذهب حقاً ؛ وذلك لأنها وضعت الخطأ والمهج الذي يجب على المسلمين إذ قال : « من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمداً حار الرسالة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة ٣٠] .
- (٢) ذكر ابن إسحاق في السيرة النبوية [١٢٦/٤] : وأما زيد بن الدثنة فاتباعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف وبعث به صفوان بن أمية مع مولى =

له يقال له نسطاس إلى التنعيم وأخرجوه من الحرم ليقتلوه . واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهيك قال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي قال : يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله نسطاس .

وروى البخاري [٣٠٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : بحث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بالهداة - وهو بين عسفان ومكة - ذكروا الحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا ماكلهم ثمرا تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى مدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا وأعطينا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا . قال عاصم بن ثابت أمير السرية : أم أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا بيك فرموهم بالس فقتلوا عاصم في سبعة . فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورحل آخر ، فلما استمكوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحابكم إن لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - وجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستجد به فأعارته فأخذ ابنا لي وأنا غافلة .

إذن .. حينما ترسخ العقيدة في النفوس تهون كل التضحيات .
ولننظر إلى أثر التربية والعقيدة في النفوس ، فهذا رسول الله ﷺ لم يعمل
سجناً يسجن فيه المخالفين ، ولمّا تخلف عنه في غزوة تبوك ثلاثة نفر لم
يسجنهم ، ولكنه عزل الناس عنهم .. وهم طلقاء في المجتمع .. فلم يكلمهم
أحد .. ولم يعاملهم أحد .. ولم يقترب أحد حتى أقاربهم ، وروى أن
الرسول صلى الله عليه وسلم أمرهم ألا يقربوا نساءهم ، وبذا عزلهم حتى عن
أقرب الناس إليهم ، فصاقت عليهم الأرض بما رحبت .. وصاقت عليهم
أنفسهم وتيقنوا أنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه ، حيث تاب الله عليهم (١) .

حين أنه قالت : فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده فعزعت فرءة عرفها
خبيب في وجهي فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . والله ما رأيت
أسيراً قط خيراً من خبيب ، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده
وله لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر . وكانت تقول : إنه لرزق من الله رقه
خبيباً فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب : ذروني أركع
ركعتين . ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها اللهم أحصهم عدداً
واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً ثم أنشأ يقول :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان به مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو أول من سس الركعتين لكل امرئ مسلم قتل
صراً فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبي صلى الله عليه
وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم
حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم
يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم
يقدرُوا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً .

(١) روى البحارى [٤٤١٨] ومسلم [٥٣/٢٧٦٩] عن كعب بن مالك رضى
الله تعالى عنه قال . لم أنحلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

= غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك ، غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة لعقبة حين توائمتنا على الإسلام ، وما أحب أن يبيها مشهد بدر وإن كان بدر أذكر في الناس منها ، كان من خبري : أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفزا وعدوا كثيرا فحلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غروهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان . قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئا ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئا فقلت أتجهز بعده يوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقت فيهم أحزنني أنني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق ، أو رجلا ممن عنده الله =

- من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب » . فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علما عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال كعب بن مالك : فلما بعني أنه توجه قافلا حضرنني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه عدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قداما زاح عني الباطل ، وعرفت أنني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قداما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتدرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم وركل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المعصب ، ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « ما خلعتك ألم تكن قد اهتمت ظهرك » . فقلت : بلى إني والله - يا رسول الله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تحلفت عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدق ، فقم حني يقضي الله فيك » . فقامت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما اعتذر إليه المتخلفون ، قد =

= كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . فوالله ما زلوا يؤيئونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا . نعم ، رجلا ن قال ما قلت ، فقيل لهم مثل ما قيل لك فقلت : من هما؟ قالوا : مرارة بن الربيع اعمرى وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسره فمصيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلام أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لك حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وفعدا في بيوتهما يكيان وما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا انتهت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من حفاوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتاده ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام فقلت : يا أبا قتادة أشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له فشدة ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاصت عيناى ونوليت حتى تسورت الجدار .

قال : فيما أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا نطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يد على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان ، فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك لله بدار هوان ولا مضیعة ، فالحق بها بواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء ، فتيمنت بها التنور فسجرت بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول الله =

صلى الله عليه وسلم يأتي فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرك أن تعترل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعترلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبي مش ذلك فقلت لامرأتي . الحق بأهلك ، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأته ، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كمت لنا حمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامها ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد صاقت علي نفسي ، وصاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل ملع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما حاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعني له ثوبي ، فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوين هبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجا فوجا

- يهنونني بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أسأها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » . قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استثار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قلت : إني أمسك سهمي الذي بخير فقلت . يا رسول الله إن الله إنما يجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما لقيت . فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث مد ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني ما تعدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت . وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧-١١٩] . فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحي - شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى : ﴿ مَيِّتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلَبْتُمْ ﴾ [التوبة : ٩٥] - إلى قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] . =

إذن .. كان المسلم في نفسه وحدة جزائية ، يعمل الذنب ولا يعلم به أحد إلا الله ، فيأتى ويربط نفسه إلى سارية المسجد ولا يتركها حتى يتوب الله عليه ، ويفكه رسوله صلى الله عليه وسلم .. هذا ما فعله أبو لبابة ورفاقه ممن تخلفوا (١) .

- قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ [التوبة . ١١٨] . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تحليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا ، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

(١) روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة . ١٠٢] . قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم فلما رأهم قال : « من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري » قلوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله حتى تطلقهم وتعذرهم . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ! رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » فلما بدعهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله الذي يطفئنا ! فنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة . ١٠٢] وعسى من الله واجب . فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم . وقال الأرنؤوط في زاد المعاد : إسناده ضعيف ، لصعف عبد الله بن صالح وعلى بن أبي طلحة روايته عن ابن عباس مرسله .

إذن .. فالعقيدة الراسخة في النفوس هي أساس الإصلاح .. وصاحب
العقيدة إذا تعرض لاضطهاد أو حيف .. دخل عليه وهو واثق أنه رابح ؛ لأنه
مبشر إحدى الحسينين : « النصر أو الشهادة » وزيادة على ذلك فهو يعتقد أن
الله معه إذا صبر وصابر .



واقع المسلمين الآن

السؤال :

كيف يرى فصيلة الإمام أحوال الأمة

الإسلامية وما يحدث الآن لها ؟

الجواب : الله تبارك وتعالى لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً . فإذا
وحد سبيل للكافرين على المؤمنين فاعلم أن هناك خللاً قد وقع .. الله سبحانه
وتعالى قال : ﴿ وَإِنَّ جُحْدَنَا لَهُمُ الْعَالُونَ ﴾ [الصفات . ١٧٣] . فإذا رأيت جنود
المسلمين قد هُزموا فاعلم أنهم فقدوا شرطاً من شروط الجندية التي وعدها الله
بالنصر ، بسبب تعريضهم في شيء من دين الله أو تركهم لأمر من أوامره
سبحانه ، ففي غزوة أُحُد خالف المسلمون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم
فهزموا .

إذن .. فالمسلمون يهزمون لمخالفتهم أوامر الله ورسوله (١) .

(١) فكان الله تعالى جعل من هذه المعركة - معركة أُحُد - تأدياً لصحابة رسول
الله صلى الله عليه وسلم والتأكيد على صدق بلاغه صلى الله عليه وسلم عن
الله تعالى .

ولذلك حين نطالع سيرة المعارك التي جاءت بعد هذه المعركة ، فإننا لا نجد
هزيمة لهم في معركة أبداً ، لأنهم صفوا التصفية ورثوا التربية التي جعلت كل
واحد منهم متيقناً بنجاح الصفقة التي عقدوها مع الله ساعة أن اشترى سبحانه
منهم أنفسهم بأن لهم الجنة لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل
بحب على إحدى الحسينيين ، إما النصر ، وإما الشهادة ، فجاءت سائر المعارك
بعد أُحُد نصراً . وهنا يعلم الحق أن البقاء على مهج الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم فيه النجاة وبه النصر .

= إن أول مخالفة حدثت في معركة أحد - ولها أثرها في عدم إتمام النصر هي مخالفة بعض المسلمين لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد بدأ المسلمون الغزوة بالنصر ، ثم حدثت مخالفة من بعض الرماة عندما شاهدوا بشائر النصر واستهوتهم الغنائم .

إذن .. فدوافع المخالفة طلب المال من وجه غير مأدود لهم فيه .. لماذا ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حذرهم بالأمر ألا ييرحوا أما كنهم . وبذلك صارت مبارحتهم للمكان غير مشروعة . وتطلع النفس إلى شيء في غير رضا رسول الله هو غير مشروع . والذى جعلهم يتطلعون إلى الشيء غير المشروع به المال . ولهد أراد الحق أن يؤدبهم حتى لا يعصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى . إن المسمين لم يتم لهم النصر في تلك الغزوة وتعبوا وشقوا . من أين جاء هذا التعب وهذا الشقاء ؟ لقد جاء التعب والشقاء من أن بعضاً من المسلمين قد طلبوا المال بالمخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه هي المناسبة التي جاءت فيها آية الرها أثناء الحديث عن غزوة أحد .

ولهذا فقد يتساءل واحد : هل من الممكن أن يتسبب الخرص الزائد في المال بشكل غير مشروع أن يأتي بتيحة كآثار غزوة أحد من تعب وكد وعدم النصر ؟ وتكون الإجابة : بل وأشر من هذه الآثار .

ولمريد من التفاصيل راجع كتاب « غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم » لفضيلة الشيخ الإمام محمد متولى الشعراوى وهو من منشوراتنا .

كيف يعود للأمة سابق مجدها ؟

السؤال :

كيف تستعيد الأمة مكانتها عند الله حتى

يتنزل عليها نصره ؟

الجواب : بأن يكونوا مسلمين .. فكل واحد ولايته أولاً على نفسه ثم الأقربون فالأقربون ، عندئذ يكون قد حَكَمَ نفسه ومن في ولايته بمنهج الله . إذن .. لو أن الدنيا كلها انحرفت ، احكم نفسك أنت ومن في ولايتك بمنهج الله وما عليك بعد ذلك من لوم ، لكن كل واحد فينا يريد أن ينام وغيره هو الذي يعمل وينصر الإسلام ^(١) .

(١) روى أبو داود [٤٣٣٨] ، والترمذي [٢١٦٨] ، وأحمد في المسند [٧/١] ،

وابن حبان في صحيحه [٣٠٤] عن قيس ، قال : قال أبو بكر الصديق رضي

الله تعالى عنه بعد أن حمد الله : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة ١٠٥]

وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم

يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب ، وإنى سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على

أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب .

وقال الشيخ أحمد شاكر في اسناده صحيح ، وقس : هو ابن

أبي حازم .

وأخرج مسلم [٢٠/١٨٢٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : إن النبي

ﷺ قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس

راع ، وهو مسئول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم .

والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم . والعبد راع على مال

سيده ، وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع . وكلكم مسئول عن رعيته » .

عمومية الرسالة

السؤال : لماذا جاءت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم

لها عمومية المكان وعمومية الزمان ؟

الجواب : الله سبحانه وتعالى سبق في علمه أن داءات البشرية كلها ستصبح واحدة .. ذلك أن العالم كلما تقدم وازداد اتصاله .. توحدت الداءات التي يشكو منها .. فقبل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت المجتمعات معزولة عن بعضها ، لا توجد اتصالات بين المجتمعات البشرية ، وكان كل مجتمع بشري قد يبدأ وينتهي دون أن يدري شيئاً عن أى مجتمع بشري آخر في مكان بعيد عنه ، ذلك أن الاتصالات بين المجتمعات البشرية المختلفة ، كانت شبه معدومة لبعده المسافة ، وضعف وسائل المواصلات أو انعدامها ، وعدم تقدم العلم الذي يمكن البشر من اتصال بعضهم ببعض في أوقات قصيرة .. ومن هنا كان لكل مجتمع آفاته الخاصة .. وأمراضه .. واحترافات وغفته عن الدين .. وكان الرسل والأنبياء يأتون إلى هذه المجتمعات ليدكروا بمهج الله ، ولكنها كانت تُرسل إلى مجتمع بعينه كعاد وثمود ، وآل لوط ، وغيرهم .. بل كان يرسل الله سبحانه وتعالى أكثر من رسول في نفس الوقت هذا ليعالج آفات مجتمع .. وآخر ليعالج مجتمعاً ثانياً .. كما حدث مع نبي الله لوط وخليل الله إبراهيم عليهما السلام . كان هناك انعزال .. وكان هذا الانعزال يجعل لكل مجتمع آفاته المختلفة عن آفات غيره ، وبالتالي تكون الأدوية مختلفة .. فيتم إرسال الرسل كل إلى مجتمع على حدة لتذكير أهله .

ولكن الآن وبعد أن التقى العالم وارتقى .. توحدت الداءات .. وأصبحت كلها حول دائرة واحدة .. يحدث شيء في أمريكا فيصبح عندك على الفور

ومع هذه السرعة في القلاء والتقارب باتت الآفات في العالم كله واحدة .. آفة البشرية واحدة في البلاد المتقدمة .. وفي البلاد غير المتقدمة .. لأنه حدث القلاء بشرى .. وعندما يحدث الحادث يعرفه العالم كله في الحال .

وما دامت الآفات قد توحدت نتيجة للاتصال البشري الكبير والسريع الذي تم فلا بد من وحدة المعالجة .. فأرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين رحمة للعالمين (١) .

(١) روى ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء ١٠٧] . قال : من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب ، من المسخ والخسف والقذف .

وأخرج مسلم [٨٧/٢٥٩٩] ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ، ادع على المشركين . قال : « إني لم أبعث لعائنا وإنما بعثت رحمة » .

وأخرج أبو يعين في الدلائل ، عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين » .

وأخرج أحمد [٤٣٧/٥] وأبو داود [٤٦٥٩] والطبراني [٦١٥٦/٢٥٩/٦] ، عن سلمان رضي الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل من أمتي سبته مبة في غصبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أعصب كما يعصبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة ، وقال الألباني : صحيح .

وروى لدارمي في سننه [١٥/٢١/١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا رحمة مهداة » . =

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) .

[سبأ : ٢٨] .



= وأخرج عبد بن حميد ، وعكرمة رضى الله تعالى عنه قال : قيل يا رسول الله ألا تلعن قريشاً بما أتوا إليك ؟ فقال : « لم أبعث لعلنا إنما بعثت رحمة » يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ] .

قال القرطبي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ أى : وما أرسلناك إلا للناس كافة أى : عامة فى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى : وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل معناه كافاً للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للمبالغة . وقيل : أى : إلا ذا كافة ، فحذف المضاف ، أى ذا مع للناس من أن يشدوا عن تبليغك ، أو ذا منع لهم من الكفر ، ومنه : كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه .

تفسير القرطبي [سبأ : ٢٨-٣٠] .

الحرية في الإسلام

السؤال : ما هو مفهوم الحرية في الإسلام ؟

الجواب : أولاً : كلمة الحرية على إطلاقها ، أو كما يريد لها الغرب وأعوانه الآن تناقض مبدأ الدين .. لأن مبدأ الدين إلزام وقيود بمبادئ ومنهج . والحرية على إطلاقها تعنى أنه ليس هناك التزام .. فالدين جاء لكى يُلى كلمة الحرية ، بمعنى : ألا يعطيها لكل فرد على إطلاقها ، وإلا صارت الحياة فوضى بمعنى : إنك حر فى أن تفعل ما تريد ، وأنا حر فى أن أفعل ما أريد .. فمثلاً الرجل الذى قال : أنا حر فى أن أفرد يدي هكذا وفرد يديه على آخرها ، أقول له : ولكن حريتك تنتهى عند وجود وجهي . إذن .. فكلمة حرية لا بد أن تحدد . هل تبيح لنفسك أن تكون لك حرية وليس لمقابلك حرية ؟ لا .. لا بد أن تكون له حرية أيضاً .. فعندما يكون لهذا حرية مطلقة ولهذا حرية مطلقة تحتل المسائل ؛ وتصير فوضى .

فالحرية إذن لا بد أن تكون بما لا يتناقض مع حرية الآخرين ؛ لأن الحرية ليست لى وحدى ، وإنما للمجتمع كله أيضاً ، ولو أن المسألة أخذت على إطلاقها لكان لصاحب القوة أن يفعل ما يشاء ، والضعيف ينتهى .

ولو حددت الحرية بأن تكون حراً فيما لا يتعدى حدود الغير ، فلقد قيدنا أنا وأنت . لكن من الذى قيدنا ؟ إن كان المقيّد واحدا منا فتكون القوة قد فرصت .. إذن لا بد أن يكون المقيّد أعلى منى ومنك .

إذن .. التقييد للحرية لا يمكن أن ينشأ من مساو أبداً .. ولكن يكون التقييد ممن هو أعلى منى ومنك وليس له مصلحة فى إطلاق حركتك وعدم إطلاق حركتى ، والناس كلهم بالنسبة إليه سواء .

إذن .. فكلمة حرية عسى إطلاقها تنامي كلمة الدين ؛ لأن الدين ارتباط والتزام بمعنى : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن المبدأ الأصل الذي يدخلك في الالتزام أنت حر فيه ، بمعنى أنت حر في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به ، ولكن إذا آمنت بالله فالتزم بما أمر ، وانتهى عما نهى .

وعندما يقول الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . فلا يعنى ذلك : لا إكراه في تطبيق جزئيات الدين . ولكن لا إكراه في أصل الدين .. فهل أقدر على إكراه أحد في أن يعتقد بوجود الله ؟ كيف أكرهه على ذلك ؟ لا يمكن ؛ لأن الاعتقاد موضعه القلب ، والقلوب لا سلطان لأحد من البشر عليها . إذن .. هو حر في أن يؤمن أو لا يؤمن .. فإذا آمن يجب عليه أن يلتزم .. فعندما أقيم الحد مثلاً على مسلم ارتكب جريمة فيها حد شرعى فلا يقول لى : لا إكراه فى الدين ! ونقول له : لا . لأنك بإيمانك بالله وإيمانك برسول الله قد آمنت بالإسلام ، وإعلانك أنك مسلم ألزمتك بمحض اختيارك .. وما دمت ملتزماً بمحض اختيارك فنحن لا نحاسبك .. وإنما نحاسب أنت نفسك ؛ لأن الله قد جعل الحرية لنا ، وأعطاها إيانا فى أول الأمر .. وقال : يا عبدى أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، ولكن إذا آمنت بمحض حريتك واختيارك ، ترتب على ذلك التزام منك وتقييد لحركتك ، فتكون أنت الذى قيدت نفسك . لماذا ؟ لأنك دخلت فى المبدأ بمحض اختيارك وبحريتك ، فكل شئ يترتب على ذلك فهو من حريتك الأصلية ، ولا تقل لى : إننى قد قيدتك ، فلم أقيدك . هو الأصل الذى ألزمتك .

ولذلك عندما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ٨٣] . نجد كلمة : ﴿ كُتِبَ ﴾ مبنية للمجهول كما يقولون . من الذى كتب ؟ طبعاً هو الله . فلماذا لم يقل : كتب ربكم عليكم الصيام ؟ كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الاسم: ٥٤] .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكُمْ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [الحجاة : ٢١] .
فمن الذى كتب ؟ الله تبارك وتعالى هو الذى كتب على من آمن . وما دام
قد آمن أصبح شريكاً فى العقد الإيمانى بينه وبين ربه .

نكأن الله تعالى يقول الكتابة منى ومه وإيمانه بى قد التزم .. لم أكتب
على من لم يؤمن فكونه آمن فقد أدخل نفسه طرفاً فى العقد . فإذا التزم بالمبدأ
لم يصبح حراً ، بل حرته تنقل فى أن يقول ما يشاءه ليطبق المنهج .. حر فى
أن يقول لأحد عندما ينحرف : أنت منحرف .

ذن .. الحرية من ناحية خدمة المبدأ الذى التزمت به أنا وأنت .. حررتى
وحررتك فى أن يعلن الانتصار لهذا المبدأ .

وهذه شائعة فى حكم الإسلام .. أنا حر فى أن أقول كلمة الحق فلا يجىء
الحاكم ويكمنى .. أنا لا آخذ حرية ذاتية ، وإنما آخذ حرية الإرادة لما التزمت
به أنا ، وهى حررتى فى أن أقوم أمام من يعارضنى فى تطبيق هذا المبدأ .. فلا
يقال : إننى حر لأننى عبد للمبدأ ، بل واقف أمام من يخرج على المبدأ ، فهى
مأخوذة كلها من الأصل . وعلى ولى الأمر أن يحمى هذه الحرية لتبصره
بمدى رلله ، قد يكون غافلاً فيتنبه ، فمثلاً سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه قال :
لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نسمعها ، لماذا ؟ هل لأنها
نبهته إلى شىء ؟ فعمر رضى الله تعالى عنه لم يكن غافلاً ، وإنما أراد أن يعلم
الناس . يقول : لو أنى ملت برأسى هكذا . فيرد عليه : بالسيف مثلاً . فيقول
له : إياى ؟ فيقول : نعم أنت . فيقول : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد
من يقوم عمر بسيفه ^(١) ، يعلمنا أن الحاكم لا يجد غضاضة إن غفا ، يوم أن
ينبهه واحد من رعيته .

(١) جاء فى لسان العرب تحت مادة : « عدل » قال ابن منظور : وزعموا أن عمر
ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : الحمد لله الذى جعل فى قوم إذا
ملت عدلوى كما يعدل الهم فى لثقاف . أى : عدلوى .

إن وجود هذه الحرية نابع من الالتزام الإيماني .. أى : حرية فى إطار التزام
التقيد بالمبدأ ، والدين الذى آمنت به .. وعلى هذا فإن كلمة الحرية على
إطلاقها لا توجد فى الدين أبداً .

○ ○ ○

معنى كلمة : إسلام

السؤال : ما معنى كلمة « إسلام » ؟
الجواب : إذا نظرنا إلى كلمة « إسلام » وجدناها قد جاءت وصفاً ، وعلماً .
والشيء إذا كان وصفاً يظل يحمل معناه . لكن إذا كان علماً ، فإنه يأخذ
معناه وأكثر من معناه .. ولنأخذ مثلاً يدل على ذلك :

إذا قال أحدهنا لآخر : « هل رأيت القمر » ؟ فإن المستمع ينصرف ذهنه إلى
الكوكب الفضى المضى الذى يضىء ليل الأرض ، ويأخذ ضوءه من الشمس .
ولكن إذا سُمي رجل منا ابنته « قمر » فهل معنى القمرية يظل موجوداً فى
هذه الفتاة ؟ لا .. لأنها قد تكون غير جميلة ، ولكن والدها سماها « قمرًا »
تماماً كما قد يكون هناك إنسان شقى فى حياته ، رغم أن والده أسماه « سعيد » .
قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .
ومعنى ذلك أن هناك ديناً لغير الله ، ولكنه ليس ديناً عند الله ، إن الدين
المعترف به عند الله تعالى هو الإسلام .

وكلمة إسلام مأخوذة من مادة ال : « س » و « ل » و « م » ، ومادة الكلمة
لها معنى يدور فى كل اشتقاقاتها وينتهى عند السلامة من الفساد ، وينتهى
أيضاً إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان
والكون ، وبين الإنسان وإخوانه .

إذن .. فالإسلام معناه الخضوع والاستسلام بعزة وفهم .. وعزة ون عقل ^(١) .

(١) قال الراغب الأصفهاني : استسلام لله فى جميع ما قضى وقدر كما ذكر عن
إبراهيم الخليل عليه السلام فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ
الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] وقوله تعالى : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [يوسف : ١٠١]
أى : اجعلنى ممن استسلم لرضاك .

الإسلام .. يمين أم يسار ؟

السؤال : هل الإسلام يمين أم يسار ؟ وإلى أى

المذاهب يمكن أن نعتبر الإسلام أقرب ؟

الجواب : إن كلمة يمين وكلمة يسار كلمتان اصطلاحية . وكلمة يمين تعنى : أنه فى المجالس عندما تناقش سياسة الحكومة نجد المؤيدين للحكومة يجلسون إلى اليمين ، والمعارضين يجلسون إلى اليسار ، فأصبحت كلمة اليسار تعنى المعارضة لمبدأ الحاكم . وكلمة اليمين تعنى المؤيد لمبدأ الحاكم . وبعد ذلك لما طرأت لشيوعية على النظام الغربى الموجود وهو الرأسمالية أصبحت الشيوعية الطارئة كأنها معاندة للرأسمالية فقسموا هذا يمين وهذا يسار على نطاق دولى .

ثم جاءت كلمة تقدمى ويعنون بها غير رجعى ؛ لأن كلمة رجعى تفيد البقرة الخلفية ، وكلمة تقدمى تفيد الطموح الوثبى ، والذين ينظرون إلى الدين بأنه غير تقدمى لا يفهمون قضية الإسلام بالنسبة للأديان الأخرى . فإن جاز هذا بالنسبة للرسالات اتى سقت الإسلام فإنه لا يحوز بالنسبة للإسلام . ثم كلمة رجعى هذه عندما تأخذها ، هل تدم مطلقاً ؟ يجب أولاً أن نعرف ما المرجوع إليه لنمدحه أو نذمه .. إنسان انحرف ثم رجع عن الانحراف ، أياكون مذموماً ؟ .. بالطبع لا .

بدن .. كلمة رجعى على إطلاقها لا تكون مذمومة ولا تكون ممدوحة ؛ إنما نعرف رجعى إلى ماذا وعن ماذا ، فإن رجع إلى مسائل تخفية منخطة تصير ذمّاً ، وإن كان قد انحرف ثم رجع وثاب إلى الحق تكون مدحاً .

كلمة رجعية وكلمة تقدمية يحب أن يفتن إليهما الشباب . تقدمى إلى ماذا ، ورجعى إلى ماذا . كلمة تقدمى هذه براءة ، ولكن تقدمى إلى أى شيء

وكلمة رحعى نقول عنها أنها كلمة سيئة ؟ لا . يجب أولاً أن نعرف رجعى إلى أى شىء ؟ فالذين انحرفوا عن مهج الله مثلاً ، ثم أرادوا أن يرجعوا إلى المنهج أنقول لهم : أنتم رجعيون ؟ لا .

والذين يريدون أن يتقدموا بمعنى أن يحلوا أنفسهم من كل القيود أنقول لهم : أنتم تقدميون ؟ بالطبع لا .

إذن .. فى كلمة تقدمى وكلمة رحعى يجب أن ننظر تقدمى إلى ماذا ورجعى إلى ماذا ، وكلمة رجعى لا تدم على إطلاقها ، وكلمة تقدمى لا تمدح على إطلاقها .

فلما قالوا : يمين ويسار وتقدمى ورجعى ، قلت لهم : الإسلام ليس من هذه الجهات ، لأن الإسلام فوق ذلك كله ، والفوق عن الجهات لا يعتبر تقديمًا ولا رجعيًا ولا يمينًا ولا يسارًا ، لأنه فوق ذلك كله . إن ما تقبلونه اصطلاحات بشر ، ولا يمكننى أن أحكم اصطلاحات البشر فى الفوق .

وإذا جاز لنا أن نستخدم مثل هذه المصطلحات فنقول : إن الإسلام تقدمى فى كل ما يعود على العالم بالخير والرفاهية ، رحعى فى أن يخرج الإنسان من انحرافاته ويهديه إلى المنهج السوى .. يمينى لأنه يحترم الملكيات ، ويحترم عرق الإنسان .. ويحترم عمله .. ويحترم حوافزه .. ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ ^(١) [المائدة: ٤٨] . وماذا يعنى قوله تعالى : ﴿ وَمُهَيِّمًا ﴾ ؟ أى : له الحكم النهائى .. لأنه حكم من فوق من الله العلى الأعلى ، ليس يمينًا ولا يسارًا ولا تقديمًا ولا رجعيًا ، بل هو حكم الذى خلق وقدر وهدى ، العليم بخلقه سبحانه .

(١) روى ابن جرير الطبرى فى التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة: ٤٨] . قال : هو القرآن شاهد على التوراة والإنجيل ، مصدقاً لهما .
﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ يعنى : أميناً عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب .

الدعوة إلى الإسلام بالحسنى

السؤال :

يقول الله عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] فكيف نطبق ذلك فى عصرنا الحالى ؟

الجواب : إن الداعى إلى الإسلام لا يمكن أن يعرض على الناس أن يخرجوا مما تعودوا عليه بأسلوب يكرهونه ، لأن الإنسان الداعى للهداية عليه أن يعلم أن الدعوة بأسلوب مكروه تجعل الناس يتحملون مشقتين : المشقة الأولى : هى إرهاب الناس بأن يخرجوا عما اعتادوا عليه ، وألفوه ، وتعودوه . والمشقة الثانية : إرهاب الطريق الذى يودى إلى الجديد بما قد يحمله أسلوب الإقذاع الفج من الوقاحة ، وسوء الأدب ، وعدم الحكمة فى الموعظة ، ولذلك كان العربى قديماً يقول : النصيح ثقيل ؛ فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله حدلاً ، واستعبروا لنصح خفة البيان . ولكن لماذا يكون النصيح ثقيلاً ؟ إن النصيح يدفع المنصوح إلى الخروج عما أحب أن يفعله ، لذلك فقد استثقل النصيح .

وقد يحب المنصوح من يزين له أمر شهوته ، وقد يكون المنصوح لا يحب أن يفكر فى إصلاح نفسه ، ولذلك تجد الأدب العالى فى منهج القرآن يقول ربنا سبحانه وتعالى أمرا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لخصومه : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ساء ٢٥]

إن محمداً صلى الله عليه وسلم يتحدث إلى خصومه بأن كل واحد من البشر محاسب على عمله ، هأنتم أيها الخصوم لا تُسألون عن « إجرام » أى من المؤمنين .. ونسب الإجرام هنا لنفسه وللمؤمنين ؛ لأن خصوم الإسلام

نظروا للإيمان أول الأمر على أنه جريمة . ولكن حين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصف سلوك الخصوم قال كما جاء في القرآن العظيم : ﴿ وَلَا تُشْئَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

إن قياس الكلام هنا كان أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ولا تُسأل عما تجرمون » ولكنه قال ما أنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُشْئَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فالله تعالى يُعلم نبيه ورسوله آداب الجدل .

هذا هو أدب الجدل ، وهذا هو السمو بالجدل ، ولذا يحب أن ترتفع عن شهوة الشر في الاستعلاء ، ونجادل بما علما الله من أدب الحوار . وهكذا يجب أن يكون حال الداعية للإسلام . وهكذا يجب أن نستقبل كل خصومة للإسلام ، ولا بد أن نترك خصوم الدين يعيشون في رحمة هذا الدين . ولكن إذا ما استغل خصوم الإسلام سماحته ، وانقلبوا عليه ؛ لينالوا منه ومن الدين آموا به ، في مثل هذه الحالة ، فإن الإسلام يطلب من المؤمنين أن يضربوا على أيدي الخصوم حتى تكون كلمة الله هي العليا ^(١) .

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بَالَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ ﴾ [النحل ١٢٥] .

قال القرطبي . هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتطف وبن دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهي محكمة في وجهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجى إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة . والله أعلم .

الجامع لأحكام القرآن [النحل : ١٢٥] . =



- وأخرج ابن مردويه عن أبي ليلي الأشعري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تمسكوا بطاعة أئمتكم ولا تخالفوهم ، فإن طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله ، فإن الله بعثني أدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فمن خالفني في ذلك فهو من الهالكين وقد برئت منه ذمة الله ودمه رسوله ، ومن ولي من أمركم شيئاً فعمل بعير ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله تعالى عنه في قوله : ﴿ وَحَدِّثْهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال : أئتمروا عن أذاهم إياك .

الدر المنثور لمسيوطي [النحل : ١٢٥] .

الفرق بين الإسلام والمسلمون

السؤال :

إن الغرب ينظر إلى الإسلام من خلال
المسلمين ، وهم بعيدون عنه الآن ، فماذا
نقول لهم ؟

الجواب : يجب أن نعرف أن هناك فرقاً بين الإسلام وبين المسلم ..
فالإسلام شرع ومنهج من عند الله تعالى جاء ليطبق في الدين آمنوا به ، وهذا
لا يعنى أنه لا توجد مخالفات ! المخالفات موجودة في كل المجتمعات ، لكن
الإسلام حرمها ، وشرع عقوبات عليها ، فالمسلم لو ارتكب مخالفة كالسرقة
مثلاً فقد شرع الله تعالى لولى الأمر أن يقطع يد السارق ، وكذلك شارب
الخمر .. وأمر برجم الزانى المحصن ، وجلد غير المحصن .
إذن .. فما دامت هناك عقوبات شرعت لأفعال أئمتها الدين ، ثم رأيتها في
المسلم فلا تقل : هذا خطأ في الدين ! ولكن خطأ في معتق الدين ^(١) .
وكيف يكون ذلك وقد حرم الدين هذه الأفعال وجرمها ، وشرع لها
العقوبات التى تحد منها .. ولو رأينا المسلم الذى ارتكب شيئاً محرماً قد أقيم
عليه الحد لما استطاع أحد أن يقول شيئاً .. ولكننا نرى المسلم يرتكب الحرام
ولا تقام عليه العقوبة .

إذن .. قد نص الإسلام على جرائم ، ووضع للجرائم عقوبات .
فحين يرى واحد جريمة ، ولا يرى العقوبة عليها ، يعتقد أن هذا هو الإسلام ،
وهنا نقول له : « لا » يوجد هنا حد من حدود الإسلام قد عطل .

(١) قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شِرْكٍ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّهُنَّ لَفَوَاحِشٌ مَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَعَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿ [الأعام : ١٥١] .

الشرعة والمنهاج

السؤال :

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨]
فما المقصود بالمنهاج ؟

الجواب : الله تبارك وتعالى خلق الخلق لعبادته ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦] .
إذن .. المنهج هو كلمة : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى : ليعبدوا الله تعالى وحده .
ومنهج العبادة هو التزام الناس بكلمتى « افعل .. ولا تفعل » ، فإن استقام الإنسان على هذا المنهج استقامت حياته ، وبقدر بعده عن هذا المنهج يشقى فى حياته (١) .

واتباع المنهج يجعل حياة الإنسان سعيدة كلها غبطة ، فلا تفوت الإنسان فيها نعمة ، ولا يفوت هو النعمة فيها ، فعلى المؤمن أن يتبع شرع الله تعالى ومنهجه ، ويعرض عما سواه (٢) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ قَالَ أَهِيَطَ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا بَأْنِيسَكُمْ مِّنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [١] وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى [٢] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا [٣] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى [٤] وَكَذَلِكَ يَجْرِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [٥] [طه] .

(٢) قال القرطبي فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٨] .
يعنى لا تعمل بأهوائهم ومرادهم على ما جاءك من الحق ؛ يعنى : لا تترك الحكم بما بين الله تعالى فى القرآن من بيان الحق وبيان الأحكام . والأهواء : جمع هوى ؛ ولا يجمع أهوية ، فهذه عن أن يتبعهم فيما يريدونه ؛ وهو يدل على بطلان قول من قال : تقوم الخمر على من ألتفها عليهم ؛ لأنها ليست =

(١) مالا لهم فتكون مضمونة على متلفها ؛ لأن إيجاب ضمانها على متلفها حكم بموجب أهواء اليهود ؛ وقد أمرنا بخلاف ذلك .

ومعنى ﴿عَمَّا جَاءَكَ﴾ على ما جاءك . ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين . والشرعة والشرعية الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة . والشرعية فى اللغة : الطريق الذى يتوصل منه إلى الماء ، والشرعية ما شرع الله لعباده من الدين ، وقد شرع لهم يشرع شرعاً ، أى : سن . والشارع الطريق الأعظم . والشرعة أيضاً الوتر ، والجمع شرع وشرع وشرع جمع الجمع ؛ عن أبى عسد ؛ فهو مشترك ، والمنهاج الطريق المستمر ، وهو النهج والمنهج أى : البين ؛ قال الراجز :

من يك ذا شك فهذا فلج ماء رواء وطريق نهج

وقال أبو العباس محمد بن يزيد الشريعة . ابتداء الطريق ؛ المنهاج : الطريق المستمر .

وروى عن ابن عباس والحسن وغيرهما ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سنة ومسبلاً . ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ؛ والإنجيل لأهله ؛ والقرآن لأهله ؛ وهذا فى الشرائع والعبادات ؛ والأصل التوحيد لا اختلاف فيه ؛ روى معنى ذلك عن قتادة . وقال مجاهد : الشرعة والمنهاج دين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نسخ به كل ما سواه .

الجامع لأحكام القرآن [المائدة . ٤٨] . وقال ابن جرير الطبرى : الشرعة . هى الشريعة بعينها ، تجمع الشرعة شراعاً ، والشرعية شرائع ، ولو جمعت الشرعة شرائع كان صواباً ؛ لأن معناها ومعنى الشريعة واحد فيردها عند الجمع إلى لفظ نظيرها . وكل ما شرعت فيه من شىء فهو شريعة ، ومن ذلك قيل لشرعية الماء : شريعة ، لأنه يشرع منها إلى الماء ، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع ، لشروع أهله فيه ، ومنه قيل للقوم إذا تساؤوا فى الشئ : هم شرع سواء .

وأما المنهاج ، فإن أصله : الطريق البين الواضح .

لذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا هَدِيهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [المكبروت : ٦٤٠] .

وكذلك الحياة بدون منهج ، قد تعرى الإنسان بمقتاع محدود الوقت بينما الحياة بالمنهج وفى ظله تؤدى إلى دار حقيقية وكاملة ، وهذه حقائق ثابتة ، لا يدركها إلا الأسوياء من الناس .

لقد سمى الله المنهج الذى يصل به الإنسان إلى القيم العليا : ﴿ رُوحًا ﴾ فيقول تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .



هل كان أبو ذر شيعيًا ؟

السؤال :

يزعم الشيوعيون أن أبا ذر كان شيعيًا

فلماذا يرفض المسلمون الشيوعية ؟

الجواب : هم لا يفهمون أبا ذر رضى الله تعالى عنه ، ولا مسهب أبى ذر ، فهؤلاء الذين يتمسحون فى أبى ذر هل حملوا أنفسهم على السلوك الإيماني الذي سلكه أبو ذر ؟

أبو ذر رضى الله تعالى عنه كان له رأى أراد أن يعديه إلى الغير ، وهو ألا يصير عند الإنسان شيء وغيره محتاح ، هذه مسألة لا يمنعها الدين ، ولا يفرضها .

هناك فرق بين مسألة يمنعها الدين أو يفرضها ، وبين مسألة ترتضيها أنت وتتطوع بها ، إن طبع أبى ذر خير جدًا ، ولكنه ليس بإمكان كل لشئ أن يستوعبوه ، فلا تحمل الناس عليه ، ولذلك قال له النبي محمد صلى الله عليه وسلم : « ستبعث أمة وحدثك »^(١) .

(١) قال ابن إسحاق : حدثني بريدة بن سفيان الأسلمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربرة ، وأصابه بها قدره ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه ، فأوصاهما أن عسلاني وكفناي ، ثم ضعاني على قارعة لطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق . وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عمار فلم يرعهم إلا بالجيزة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام ، فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه قال فاستهل عبد الله بن مسعود بيكي ويقول : صدق رسول الله ﷺ -

إذن .. الإنسان الذى يملك شيئاً ويريد أن يتركه كله ، هل يمنعه هذا الدين ؟
لا .. هو حر .. فليست قضية إرامية ، وهذا بخلاف الآراء الشيوعية : إنهم
يريدون أن يجعلوا من التطوع فى الأمور التى لم يفرضها الإسلام فرضاً إلزامياً
وقضية إلزامية .

مثلاً : عثمان بن عفان .. عبد الرحمن بن عوف .. الزبير بن العوام ..
طلحة .. سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .. كل هؤلاء مبشرون بالجنة .. أعطاهم
رسول الله ﷺ ضماناً أنهم فى الجنة .. فهل أكسب أبا در وأخسر عثمان ،
وأخسر ابن عوف ، وأخسر أبا عبيدة ، وأخسر طلحة ، وأخسر سعيد بن زيد .
نقول لهم : أبو ذر أراد أن يفرض على نفسه أمراً ، هذا الأمر كل واحد حر
فى أن يفرضه على نفسه أو لا يفرضه .. فمن تطوع خيراً فهو خير له .
كونهم يريدون أن يجعلوا منه الأصل فهذا هو الخطأ ، لماذا ؟ لأن الصحابة
الذين كان أبو ذر واقفاً معهم لا يقلون عن أبى ذر إن لم يزيدوا عليه ، لأن
المشرع بشر هؤلاء بالجنة ، ولم يشر أبا در بالجنة ^(١) .

- تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه ،
ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى مسيره إلى تبوك . السيرة النبوية لابن هشام [غزوة تبوك : موت أبى هر] .
(١) روى ابن ماجة [١٣٣] وأبو داود [٤٦٤٩] عن زيد بن عمرو بن نفيل قال : كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال : « أبو بكر فى الجنة ، وعمر فى
الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلي فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير فى الجنة ،
وسعد فى الجنة ، وعبد الرحمن فى الجنة » فقيل : من التاسع ؟ قال : « أنا » .
وروى الترمذى [٣٧٤٧] عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر فى الجنة وعمر فى الجنة =

- وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة . وفي كنز العمال [٣٦٧٣٦] : عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : لما طعن عمر بن الخطاب وأمر بالشورى دخلت عليه حفصة فقالت له : يا أبت ! إن الناس يزعمون أن هؤلاء الستة ليسوا برضا ، فقال : اسدونني ، فأسدوه فقال ما عسى أن يقولوا في علي بن أبي طالب ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : يا علي ! مد يدك في يدي تدخل معي يوم لقيامة حيث أدخل ما عسى أن يقولوا في عثمان بن عفان ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول . يوم يموت عثمان تصلي عليه ملائكة السماء قلت : يا رسول الله ! لعثمان خاصة أم للناس عامة ؟ قال : لعثمان خاصة ، ما عسى أن يقولوا في طلحة بن عبيد الله ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة وقد سقط رحله من يسوي لي رحلي وهو في الجنة ؟ فبدر طلحة بن عبيد الله فسواه له حتى ركب ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا طلحة ! هذا جبريل يقرئك السلام ويقول : أنا معك في أهوال يوم القيامة حتى أنجيئك منها ! ما عسى أن يقولوا في الزبير بن العوام ! رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد نام فجلس الزبير يذب عن وجهه حتى استيقظ فقال له : يا أبا عبد الله ! لم ترل ؟ فقال : لم أزل بأبي أنت وأمي ! قال : هذا جبريل يقرئك السلام ويقول : أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك جهنم ، ما عسى أن يقولوا في سعد بن أبي وقاص ! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم بدر وقد أوترقه سه أربع عشرة مرة يدفعها إليه ويقول : ارم فذك أبي وأمي ! ما عسى أن يقولوا في عبد الرحمن بن عوف ! رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : وهو في منزل فاطمة والحسن والحسين يكيان جوعا ويتضوران فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يصلنا بشيء ؟ فطلع عبد الرحمن بن عوف بصحفة فيها حيسة =

إذن .. فكل واحد له الحرية المطلقة في أن يتطوع من جنس ما افترضه الله تعالى عليه ، شريطة ألا يلزم غيره باتباع ذلك ، وكونهم يريدون أن يشفقوا المسائل نقول لهم : أبو ذر أراد أن يلتزم مذهبا يلزم به نفسه ، فلا شيء في ذلك ، أما أن يلزم به الناس ، فلا (١) .

= ورغيفان بينهما إهالة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كفاك الله أمر دنياك !
وأما أمر الآخرة فأنا لها ضامن . ورواه الطبراني في الأوسط [٣١٧٢/٢٨٧/٣] .
(١) جاء في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية : ذهب أبو ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه إلى أن ادخار المال الزائد عن حاجة صاحبه - من نفقته ونفقة عياله - هو ادخار حرام وإن كان يؤدي زكاته وكان رضي الله تعالى عنه يُفتى بذلك ، ويحث الناس عليه ، فنهاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما - وكان أميراً على الشام - عن ذلك : لأنه خاف أن يضره الناس في هذا ، فلم يترك دعوة الناس إلى ذلك ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فاستقدمه عثمان إلى المدينة المنورة ، وأنزله الربطة ، فبقى فيها إلى أن توفاه الله تعالى .

وكان أبو ذر رضي الله عنه يحتج لما ذهب إليه بجملة من الأدلة ، منها قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَتَّقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، ويقول : إن هذه الآية محكمة غير منسوخة .

ويحتج بما رواه الإمام أحمد في مسنده [١٠١/١] وقال الأرناؤوط : حسن لغيره . عن علي رضي الله تعالى عنه أنه مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين ، أو درهمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيتان ، صلوا على صاحبكم » .



= وبما رواه ابن أبي حاتم [٣٤٩] عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى دقه » . وروى ابن ماجه [١٨٥٦] عن ثوبان قال : لما نزل في الفضة والذهب ما نزل قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضح على بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنا في أثره فقال : يا رسول الله أى المال نتخذ ؟ قال . ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة . وصححه الألبانى .

العصية في الإسلام

السؤال . هل هناك عصية في الإسلام ، ومن تكون ؟

الجواب : لا عصية في الإسلام إلا لله تعالى وحده .. فلا عصية للنفس ، ولا للجنس ، ولا للبيئة ، ولا لأي شيء في الوجود غير الله وحده .. والأحاديث في تحريم العصية لغير الله كثيرة منها : لما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، تنادى المهاجرون : يا للمهاجرين ، وقال الأنصار : يا للأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها منتنة » ^(١) . وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِمَّنْ آلَهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

وأما سلوك النبي ﷺ وأصحابه فقد سجله الله تبارك وتعالى إبان الحرب التي كانت بين الفرس والروم ، فالفرس كفار يعبدون النار ، ويكفرون بالله ورسوله محمد ﷺ .. والروم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالمسيح ، ولكنهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ ، ومع ذلك حزن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله

(١) أخرج مسلم [٢٥٨٤/٦٣] عن عبد الله قل : كنا مع النبي ﷺ في عراة ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ! وقال المهاجري : يا لمهاجرين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ » قالوا : يا رسول الله ! كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبي فقال : قد فعلوها . والله ! لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

تعالى عنهم حينما هُزم الروم أهل الكتاب على أيدي الفرس عُباد النار حتى
 نزل القرآن يعلن أن الروم سوف ينتصرون .. ويعلن فرح المسلمين بانتصار
 الروم أهل الكتاب على الفرس الوثنيين ، قال تعالى : ﴿الْقَوْمُ غَلِبَتِ الرُّومُ ۚ فِي
 أَذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ
 الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ تَعَدُّ وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ ۚ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ
 مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الروم] .

وذلك لأن العداء بين المسلمين والفرس في القمة ، لأنهم ينكرون وجود الله .
 أما الخلاف بين المسلمين وبين أهل الكتاب فهو خلاف حول نبوة محمد ﷺ
 أو حول تصور الإله .. ولكن مبدأ وجود الله والإيمان به متفق عليه بينهم ، ومن
 هنا كان قلب رسول الله ﷺ وقلوب المؤمنين به مع المؤمنين برسالة سماوية
 وكانت عصبية محمد ﷺ لربه أقوى من عصبية لنفسه ؛ لأن الذين كفروا به هم
 كانوا أقرب إلى قلبه من الذين كفروا بالله .. وكانت البشرية بانتصار أهل
 الكتاب على الكفار مصدر فرح للمؤمنين .. لأنهم جميعاً يؤمنون بوجود إله ؛
 وإن كانوا يختلفون في الرسول الذي بلغ ، وامنهج الذي جاء به ^(١) .

(١) روى أحمد في المسند [٢٧٦/١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في
 قوله تعالى : ﴿الْقَوْمُ غَلِبَتِ الرُّومُ ۚ﴾ [الروم] . قال : غلبت وعلت قال : كان
 المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أهل أوثان ، وكان المسلمون
 يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبي بكر فذكره
 أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « أما إنيهم سيغلبون » ، قال :
 فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لنا كذا
 وكذا ، وإن طهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلاً خمس سنين فلم
 يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون » ؛ قال :
 أراه قال : « العشر ؟ » - قال : قال سعيد بن جبير : البضع : ما دون العشر - =

- ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ اَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ ﴾ إلى قوله :

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] قال : يفرحون ﴿ يَنْصُرِ اللَّهُ ﴾ .

وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

وروى الترمذى [٣١٩٤] عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى ، قال :

لما نزلت ﴿ اَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ ﴾ فِي اَذْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ

سَكَنُوا ... ﴿ [الروم] فكانت فارس وم نزلت

هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم

أهل كتاب ، وفى ذلك قول لله تعالى : ﴿ ... وَيَوْمَئِذٍ يَقَرَّحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ فكانت قريش تحب

ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله

تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق يصيح فى نواحي مكة ﴿ اَلَمْ يَغْلِبِ

الرُّومُ ﴾ فِي اَذْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَكَنُوا ... ﴿ فِي يَضْعِ

سَيِّئَةٍ ... ﴾ قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بينا وبينكم ، رعم

صاحبك أن الروم ستغلب فارسا فى بضع سنين ، أفلا تراهنك على ذلك ؟ قال :

بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان ،

وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك

وسطا تنتهى إليه ، قال : فسمحوا بينهم ست سنين ، قال : فمضت الست سنين

قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت

الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين لأن الله

تعالى قال : ﴿ فِي يَضْعِ سَيِّئَةٍ ﴾ ، قال : « وأسم عند ذلك ناس كثير » .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث نيار بن مكرم

لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وحسنه الألبانى .

[تفسير سورة الروم] .

الإسلام والملكية الفردية

السؤال : ما هي نظرة الإسلام للملكية الفردية ؟

الجواب : الملكية أمر غريزي لاستيفاء أسباب الحياة في النفس البشرية وما دامت هكذا ، فأنت تسعى في الكون وتعمل ، لكي يصير لك ملك ، فإذا سعيت ولم يكن لك ملك صُدمت عواطفك ، وصُدمت غرائزك فكل واحد يصير حاملاً ، وما دام أصبح حاملاً ، فلا يكون له طموح .

الإسلام قدر كل هذا وقال : إن هناك ملكية ، وأعطانا تقنيًا عقدًا لهذه الملكية ، فأت مثلاً تولد وليس لك جيوب .. أى : تولد وليس معك شيء ، وتخرج من الدنيا بكفن ليس له جيوب ، لقد دخلت الدنيا بلا جيوب ، وتخرج منها بلا جيوب ، وهذه قضية معروفة ومُسلم بها لدى الجميع . إذن .. فعندما لا يكون لك مال فمن أين تأتي به ؟ أنت لا تفتح صنبورًا فينزل منه مال ، إنما هناك كفاح وعمل لكي تأكل ويصير لك مالاً ، إذن لا بد أن تعمل . لذا جاء الإسلام وقال : كل إنسان في الحياة اسمه عامل ، ليس هناك عامل وغير عامل ، حتى الخليفة عامل ، وقيمة كل امرئ بما يُحسسه ، كلنا عامل يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال الرجل نستعمله على العمل ثم يقول : هذا لكم ، وهذا لي »^(١) .

(١) أخرج البخاري [٧١٧٤] ، ومسلم [٢٦/١٨٣٢] واللفظ له عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار يقال له ابن النسيئة « قال عمرو وابن أبي عمر . على الصدقة » فلما قدم قال : هذا لكم وهذا لي ، أهدي لي . قال : فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه . وقال : « ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمه حتى يطرأ يهدي إليه أم لا . والذي نفس =

فهل أهدى إليك لأنك عامس ؟ فالمال مال الدولة ، والحق سبحانه يقرر في قضية عقدية أن المال كله لله . وهذه هي الحقيقة : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ بِهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، ليس المال لكم .. إنما أنتم مستخلفون فيه .. وهناك في آية أخرى يقول الله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ [الذاريات : ١٩] . تُسبب المال إليهم مرة ، وتُسبب لله تعالى مرة .. إذن الحكاية شركة « مضاربة » أنت لم تولد بالمال ، ولكن ذهبت تسعى في كون الله الذي خلقه ، وأخذت تجمع عناصر يسرها الله تعالى لك كي يكون هناك عمل ، فأنت لك عمل فقط ، وليس لك في رأس المال شيء ، المال كله لله ، لذا فأنت تأخذ أجرة عملك فقط والباقي لله تعالى ، ولما كان سبحانه هو الغني فلا حاجة له في شيء من عباده قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ [الذاريات : ٥٧] ، وإنما أمر بتوجيهها للسائل والمحروم والفقير وابن السبيل وغيرهم من خلق الله المحتاجين ^(١) .

= محمد بيده لا يبال أحد منكم بها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بغير له رُغَاءٌ . أو بقرة لها خوار . أو شاة تَغِيرُ » . ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتِي إبطيه . ثم قال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ ؟ » مرتين .

(١) قال الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه : ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده .

الفصل التاسع . الاقتصاد والمال :

لكل مجتمع اقتصاد خاص ، تتمثل فيه فسمته وعقائده ومثله ، ونظرته إلى الفرد والمجتمع ، وإلى المال ووظيفته ، وفكرته عن الدين والدنيا ، والعنى والفقير فيؤثر ذلك كله في علاقته بإنتاج الثروة ، وطرائق تداولها وتوزيعها واستهلاكها ومن ذلك يشأ نظامه الاقتصادي ، والحديث عن لاقتصاد الإسلامى يطول ، وقد ألفت فيه وفي نواح منه بحوث شتى ، وكتب جملة ، وقدمت عشرات الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراه . وحسبنا ها أن تأخذ فكرة من =



القواعد الأساسية التي يقوم عليها بناء الاقتصاد في المجتمع الإسلامي ، وأهم هذه القواعد هي :

- ١ - اعتبار المال خيرًا ونعمة في يد الأخيار .
- ٢ - المال مال الله والإنسان مستخلف فيه .
- ٣ - الدعوة إلى العمل والكسب الطيب ، واعتباره عبادة وجهادًا .
- ٤ - تحريم موارد الكسب الحبيث .
- ٥ - إقرار الملكية الفردية وحمايتها .
- ٦ - مع الأفراد من تملك الأشياء الضرورية للجماعة .
- ٧ - منع المالك من الإضرار بغيره .
- ٨ - تنمية المال بما لا يضر الأخلاق والمصلحة العامة .
- ٩ - تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة .
- ١٠ - الاعتدال في الإنفاق .
- ١١ - إيجاب التكافل بين أبناء المجتمع .
- ١٢ - تقريب الفوارق بين الطبقات .
- ١٣ - اعتبار المال خيرًا ونعمة في يد الصالحين .

التكليف الشرعى .. ومتطلبات العصر

السؤال

البعض يعتذر من عدم الوفاء بالتكليف الشرعى بأنه لا يستطيع الموازنة بين متطلبات العصر المادية وبين ما يجب عليه تنفيذه من الأوامر ، فكيف الخلاص من هذه المشكلة ؟

الجواب : لو احتكمنا دائماً إلى متطلبات العصر لأصبح العصر هو المكلف فالذى يقبله العصر نفعله ، ولذى لا يقبله العصر لا نفعله .. ثم نهبط تبعاً لهذا ، والمفروض أن التكليف إنما جاء ليأخذنا ويرفعنا .. لا أن يجاءنا نهبط فهل كلما جد شيء فى العصر نهبط إليه ؟

لا .. لا نقب المطلوب إلى ساقط .. والساقط إلى مطوب .

الله سبحانه وتعالى يعلم حين شرع لنا الإيمان أننا قد يصيبنا خلخلات .. لكنه لم يترك هذه الحلخلات بلا علاج .. لقد شرع لها العلاج بما يثبت الإيمان ولم يترك الشيطان ينفرد بنا . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨] . كل هذه الأشياء تبعث الإيمان .. وليس لى أن أقول : إن الله لو شاء لثبتي ، وأترك بقاء على هذا ما شرع لنا ليثبت به الإيمان .

الله سبحانه وتعالى أعطانا أسباباً .. وعلينا أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [المل ٦٢] ، « فالمضطّر » هو : الذى استنفد كل الأسباب الممنوحة له من الله تعالى .

لكن أدعو الله تعالى قبل أن أستنفد أسبابي ، كأن أقول : يا رب نجحني بدون أن أذاكر دروسي فهذا خطأ فاحش لا يجب على مؤمن الوقوع فيه . لقد أعطاني الله عقلاً وقوة وطاقة .. وقوة على الذهاب إلى المدرسة أو المعهد الذي أدرس فيه ، وأساتذة يدرسون .. فإذا استنفدت كل هذه الأسباب أقول : يا رب نجحني ، لماذا ؟

لأن اجتماع هذه الأسباب لا يعطى في الحقيقة نجاحاً ، فقد أعمل كل شيء ويأتيني مثلاً مرض ليلة الامتحان لا يمكنني من أدائه . إذن .. فالأسباب شيء ، والواقع شيء ، والواقع الذي سيكون عليه الحدث شيء آخر .. فيجب أن أتوجه إلى الله بالدعاء بعد أن أستنفد كل أسبابي . لكننا الآن لا نسأل الله عن اضطرار ، بل يكون عندي ما يكفيني من الرزق وأسأله المزيد لأولادي في المستقبل مثلاً !!

إننا نسأل الله عن ترف لا عن حاجة ، ثم نقول : لقد سألنا الله فلم يحيينا (١) .

(١) قال القرطبي في تأويل قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ، قال بن عباس : هو ذو الصلوة المجهد . وقال السدي الذي لا حول له ولا قوة . وقال در النور : هو الذي قطع العلائق عما دور الله . وقال أبو جعفر وأبو عثمان السابري : هو المفلس . وقال سهل بن عبد الله : هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها . وجاء رجل إلى مالك بن دينار ، فقال : أنا أسألك بالله أن تدعولي فأنا مضطر ، قال : إذن فاسأله فإنه : ﴿ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ . قال الشاعر :

وإني لأدعو الله والأمر ضيق على فما ينفك أن يتخرجنا
ورب أخ سدت عنه وجوهه أصاب لها لما دعا الله مخرجنا =



وهي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت » ^(١) .

(١) رواه أبوداود الطيالسي في مسنده [٨٦٩] .

العقوبات في الإسلام

السؤال : العقوبة في الإسلام ، ما معناها ، وما حدودها ؟

الجواب : إن غير المسلمين شرعوا عقوبات ، وأيضا أصحاب الديانات الوضعية شرعوا عقوبات .. لأنهم عرفوا أن هناك جرائم لا بد من الصرب على يد مرتكبيها ، ونحن لدينا نص في القانون يقول : لا عقوبة إلا بجريم .. ولا تجريم إلا بنص .. لا يستطيع أحد أن يجرم عملاً إلا إذا قال أولاً : إن ذلك العمل جريمة .. إذن .. فلا يمكن أن تجرم أحداً إلا بنص ، ولا تعاقب أحداً إلا بارتكاب جريمة .

وتشريع الله للعقوبات ، لا بد أن ينشأ عن تجريم يحدد أنواع الجرائم ، فالذى يقام عليه حكم الله ، إما أن يكون حداً ، وإما أن يكون قصاصاً ، والحدود ممنوعة لله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يعفى عنه^(١) .

والقصاص الذى جعله الله للنفس البشرية التى اعتدى عليها بالقتل ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ [الاسراء: ٣٣] .

(١) أخرج البخارى [٦٧٨٨] ، ومسلم [٨/١٦٨٨] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة ، حب رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » . ثم قام فاختلفت فقال : « أيها الناس ! إنما أهلك الذين قبلكم ، إهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإني إنما أرى أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . وفى حديث ابن رُمح : « إنما هلك الذين من قبلكم » .

إذن .. فالعقوبات إما جرائم ، وإما قصاص .. القصاص صاحبه ولى الأمر وهو المعول عليه فى البت فيه : ﴿ فَمَنْ عُيِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ [البقرة : ١٧٨٠] .
أما الحد فلعقوبة لله ، مثل السارق الذى تجاوز النصاب ، أما السارق ما دون حد النصاب ، فالتعزير حق للوالى حينما يجد حالات من هذا القبيل ، فيفرض عقوبة لا تصل إلى الحد المقرر فى هذا الشأن .



اختلاف الفقهاء فى الفتيا

السؤال :

اختلاف الفقهاء فى بعض المسائل الفقهية ،
هل ذلك نعمة أم نقمة ؟

الجواب : أنزل الله سبحانه وتعالى الإسلام منهجاً يحكم حركة حياة الإنسان ، لأن غير الإنسان محكوم بمنهج قهرى قسرى لا يستطيع أن يتحول عنه . فما السبب فى أن الإنسان هو الذى حكم بمنهج افعل ولا تفعل ، وغيره فى الوجود يفعل بدون منهج وبدون اختيار ؟ ذلك أن الإنسان يملك أداة الاختيار بين البدائل ، وهى العقل ومعنى الاختيار بين البدائل هو وجود شىء على ألوان متعددة ، والعقل يرحح واحدة فيها .

إذن .. فالبدائل موجودة وآلة الاختيار بينها وهى العقل موجوده فحين لا توجد بدائل لا يوجد اختيار ، وحين توجد بدائل ، ولكن لا يوجد عقل كالمجنون مثلاً ، فلا تكليف ، لأنه لا يوجد تكليف لمن لم يوضح عقله (١) . إذن .. فى الاختيار بين البدائل بدون شىء قهرى عليه يكرهه يكون الحكم بالتكليف ، فإن وجدت قوة تكرهه على أن يفعل غير ما اختاره من البدائل ، نقول : سقط عنك الحكم .

فحين شرع الله الإسلام لمكلف مختار يعلم أن فى الإنسان شيئاً . أنه فى أشياء مسير وفى أشياء محير ، ففى الأمور الكلية العامة الأضدية ألزم الله فيها

(١) روى أبو داود [٤٤٠٣] عن على رضى الله عنه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رفع القسم عن ثلاثة . عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل » . وصححه الألبانى .

ورواه ابن ماجه [٢٠٤١] عن عائشة رضى الله عنها وفيه . « » وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق » . وصححه الألبانى .

بالحكم ، ولم يجعل للإنسان فيها اختيارًا .. لأن وجودها على لون واحد هو المقصود للإصلاح . مثل حركة الكون كلها ، فما أراد الله واضحًا أتى به محكمًا لا اختلاف فيه ، ففرض خمس صلوات لم يختلف على ذلك أحد ، فلم يقل واحد بأنها أربعة ، وآخر بأنها سبعة مثلاً ، وبعد ذلك قال : الصبح ركعتان ، ولم يختلف على ذلك أحد ، إذن فالأمر الأصلي في التكليف لم يتركه الله مجالاً للاجتهاد ، بل جاء به واضحًا محكمًا .

هذا يمثل الجانب الإلزامي للإنسان المؤمن ، وهو مأمور بها ، وحكم بها الله عليه كما هي بدون اجتهاد من الإنسان ، كذلك جعل الحق سبحانه وتعالى في الأحكام مجالاً للاختيار ، وبذلك يصح كل ما يختار الإنسان هنا داخلًا فيما يريد الحق ، ومثال ذلك إذا أعطيت ولدي جنيهاً وطلبت منه شراء برتقال ، فذهب وأحضر برتقال يوسمي ، أو برتقال بلدي ، أو برتقال سكري مثلاً ، فإذا اشترى أيًا منها أو خليطًا منها لا يكون قد خرج عن حدود طليبي ، ولكنه لا يستطيع أن يشتري موزًا أو شايًا أو سكرًا مثلاً ؛ لأنه بذلك يخرج عن حدود طليبي ؛ وبذلك فلا يظن ظان بأن الأئمة اختلفوا في أصل من الأصول أراد الله محكمًا ، فما أراد الله محكمًا لا اختلاف فيه أبدًا .. وجعل الأمر المحكم فيما يفسد لو لم يكن هكذا ، إنما الأمر الذي يصلح على لونين أو ثلاثة أو أكثر تركه الله مبهمًا ، ليعطي للإنسان حرية الاختيار فيه ؛ لأن الله الذي خلق الإنسان قدر اختلاف الزمان والمكان ، ولم يشأ الله أن يجبر الناس على الأحكام الفرعية .. بل تركها للاختيار ، والاجتهاد في إطار الصلح العام .

أيضًا كان اصحابه رضوان الله تعالى عليهم يشاهدون الرسول صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة من لنهار والليل حسب ظروف كل منهم ، ولم يكونوا جميعًا يجتمعون لديه في مواعيد محدّدة مثل المدرسة التي تفتح

أبوابها في الصباح ، ثم تعلقها في المساء ، فيحصل كل التلاميذ على قدر واحد من المعرفة ، ولكن كل واحد من الصحابة كان يأخذ قدرًا مختلفًا عن الآخر حسب وقت تواجده مع الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا وجده أحدهم في وقت ما يفعل أمرًا من الأمور غير المحكمة بطريقة معينة فيقول لقد فعل الرسول كذا ، ويراه آخر فيقول . لقد فعل النبي كذا ، ولكن هل فعل النبي ما قاله هذا ، ولم يفعل ما قاله الآخر ؟ هذا هو المنطق .

إذن .. فالاختلاف إنما جاء في أمور الشارع قصدها قصدًا بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ^(١) [النساء : ٨٣] .

مثلاً حينما انتهى النبي عليه الصلاة والسلام من غزوة الأحزاب لم يكن قد خلع لباس الحرب بعد ، جاءه جبريل عليه السلام وقل له : اذهب إلى بني

(١) قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ أى : لم يحدثوا به ولم يفشوه حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به ويفشيه . أو أولو الأمر وهم أهل العلم والفقهاء ، عن الحسن وقتادة وغيرهما . السدى وابن زيد : الولاة . وقيل : أمراء السرايا . ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ أى : يستخرجونه ، أى لعلموا ما ينبغى أن يفشى منه وما ينبغى أن يكتُم .

والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجه والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر ، وسمى النبط نبطاً ؛ لأنهم يستخرجون ما فى الأرض . والاستنباط فى اللغة الاستخراج ، وهو يدل على الاجتهاد إذا عدم النص والإجماع .

الجامع لأحكام القرآن [النساء : ٨٣] .

قريظة لتأديبهم فقال صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه : « من كان يؤمن بالله ورسوله ، فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة »^(١) .

فاختلف الصحابة ، قالوا : إن العصر لا تصح إلا في بني قريظة ، ولكن في الطريق كانت الشمس تقترب من المغرب ، فقال البعض . إن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يتعحلا ، ولكن الوقت يمر ولا بد من أداء الصلاة في وقتها ، فصلى البعض العصر في الطريق قبل المغرب ، وآخرون آخروا الصلاة إلى أن وصلوا إلى بني قريظة .

وهذا النص محتمل ، ولكن لا خلاف على أن الجميع يريدون أداء صلاة العصر ، ولكن للحدث زمان ومكان ، وعندما قال الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يُصلي العصر إلا في بني قريظة » فقد حدد المكان ولما وجد الناس الشمس كادت تعيب تحكم عنصر الزمن ، فأخذ البعض بعنصر الزمن ،

= وقد استنبط الإمام عبيد بن الأبرار رضي الله تعالى عنه مدة أقل الحمل . وهو ستة أشهر - من قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [لأحقاف : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [بقرة . ٢٣٣] فإذا فصلنا الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر ؛ ومثله كثير .

الجامع لأحكام القرآن [النساء : ٥٩] .

(١) أخرج البخاري [٩٤٦-٤١١٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من غزوة الأحزاب . « لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم . لا نصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يرد من ذلك فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدا منهم .

وأخذ الآخرون بعصر المكان ، ولما قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ما حدث ، أقر هذا وأقر هذا .

إذن .. فإن احتهادات الأئمة جاءت لأن الله أراد لنا أن نجتهد ؛ ولأن الله لم يرد أن تأتي الأحكام على الإنسان في قالب من الحديد لا يتصر - فيها ؛ وذلك حتى لا يمنع الإنسان من حرية الحركة الفكرية ، وحتى يوحد مجتهدون فيما أباح فيه الاجتهاد . ومثال ذلك آية الوضوء حينما قال الله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ ^(١) [المائدة: ٦٠] . عندما تحدث الحق عن الوجه في الوضوء لم يحدد غايته .. لم يقل إلى كذا ؛ لأن الوجه لا يختلف فيه العرب أبداً ، ولكن اليد يختلف في تحديدها ، فبعضهم يرى أن اليد هي الكف .. والبعض يرى أنها تصل إلى الكوع .. والآخر يرى أنها تصل إلى الكتف ، والله يريدنا إلى المرفق .

(١) أخرج البخاري [١٥٩] ومسلم [٣/٢٢٦] عن حمراء مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ؛ أنه رأى عثمان : دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرار فغسلهما ، ثم أدخل يمينه في الإناء ، فمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجله ثلاث مرار إلى الكعبين ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . وعن إبراهيم قال : قال صالح بن كيسان : قال ابن شهاب : ولكن عروة يحدث عن حمراء ، فلما توضأ عثمان قال : ألا أحدثكم حديثاً لولا آية ما حدثكموه ؟ سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه ، ويصلي الصلاة ، إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها » . قال عروة : الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [البقرة ١٥٩] .

إذن .. فحينما يريد الله التحديد فهو يحدد لكى يمنع الاختلاف .. ولو لم يحدد الحق إلى المرافق واجتهد الأئمة فى ذلك لقلنا لكل مجتهد : إنه اجتهد يصح ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ فنقل من غسل وهو إسالة الماء إلى المسح وهو المسح بالماء بدون أن تقطر فلماذا قال : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ ؟ ولو قال : امسحوا رؤوسكم هل كان يوجد مجال للاختلاف ؟ ولو أراد الله مسح ربع الرأس ، أو نصفه لقال ذلك ، ولكنه جاء بحرف الباء التى تحمل معان كثيرة ، فيصبح كل من يأخذ بمعنى من معانى الباء ، يصبح آخذاً بالنص .

إذن .. فحين يجتهد الفقهاء ، فهم يذهبون إلى ما يحتمله النص ، كما اجتهدهم فى فهم النص ^(١) .

(١) قال الحافظ ابن كثير : قوله . ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اختلفوا فى هذه الباء : هل هى للإلصاق ؟ وهو الأظهر ، أو للتعويض ؟ وفيه نظر ، على قولين . ومن الأصوليين من قال : هذ مجمل فليرجع فى بيانه إلى السنة . وقد ثبت فى الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازنى ، عن أبيه : « أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى - وكان من أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم : هل تستطيع أن تربى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء ، فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين ، ثم مصمض واستششق ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ، ثم مسح رأسه بيده ، فأقبل بهما وأدير ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه ، ثم غسل رجله ^(١) . »

(١) رواه البخارى [١٩١] ، ومسلم [١٨/٢٣٥] .

= وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكرّب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله (١). ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس ، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية . وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ، وهو مقدار ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزاء ! واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة ، قال : « تحلف النبي صلى الله عليه وسلم فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء ؟ فأتيته بمطهرة ، فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ، ومسح بनावيته وعلى العمامة وعلى خفيه » . وذكر باقي الحديث ، وهو في صحيح مسلم وغيره (٢) .

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية ؛ لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك ، وأنه يقع عن الموقع ، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، فهذا أولى . وليس لكم فيه دلالة على جوار الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس غير تكميل على العمامة . والله أعلم .

ثم اختلفوا في أنه : هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً ، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه ؟ على قولين :

فروى عبد الرزاق عن حمران بن أبان ، قال : « رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما ، ثم تمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه =

(١) رواه أبو داود [١٢٤] وصححه الألباني .

(٢) رواه مسلم [٨١/٢٧٤] .

أما الالتزام بهذه المذاهب ، فالذى له قدرة على فهم كل المنصوص عليه له
ألا يتقيد بمذهب ، ولكن بما يهتدى إليه من النص ، فيرجح ما يرجحه ما دام
أهلاً للاجتهاد ، وعنده أدوات الاجتهاد وعدته من علم بالقرآن وعلم بالسنة ،
واللغة العربية وحلافه ، ولكن من لا قدرة له على ذلك ، فيقلد من يثق فى
علمه .

وعندما جاءت المذاهب الأربعة ، واستوعبت كل الأمور وأصبح كل من
لا يملك القدرة على الاجتهاد ، يتبع مذهباً معيناً يصبح الجميع يتمس منه

= ثلاثاً ، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم
مسح برأسه ، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ، ثم اليسرى ثلاثاً ، ثم قال : رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم قال : من توضأ
نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفر له من تقدم
من ذنبه . وأخرجه البخارى ومسلم بنحوه .

وفى سنن أبى داود عن عثمان فى صفة الوضوء : « ومسح برأسه مرة واحدة »
وكذا من رواية عبيد خير عن على مثله .

واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذى رواه مسلم فى
صحيحه عن عثمان : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثاً ثلاثاً » .
وروى أبو داود عن حمران ، قال : « رأيت عثمان بن عفان توضأ » - فذكر
نحوه ، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق . قال فيه : « ثم مسح رأسه ثلاثاً .
ثم غسل رجليه ثلاثاً ، ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ
هكذا ، وقال : من توضأ هكذا كفاه » . تفرد به أبو داود . ثم قال .
وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

عمدة التفسير [٩٣/٤-٩٥] .

نصاً يجتهد فيه ، ولا يأتي بحكم من عنده . وما دام الشارع قد ترك الحكم مجالاً للاجتهاد فيه ، ففى ذلك إذن منه بأن كل ما يصل إليه مجتهد حق ، فما دما اتفقنا على الأصل محكما ، وترك الفرع مبهماً ، يصبح الاجتهاد ضرورة ، والمجتهد إذا أصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر ، لذا يجب على كل مؤمن تحرى الدقة والاحتياط وسؤال المجتهد عن دليله وحجته^(١) .

(١) أخرج البخارى [٧٣٥٢] ، ومسلم [١٥/١٧١٦] عن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر . قال احافظ فى الفتح [٣١٨/١٣ ٣١٩] . قوله باب أحر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ يشير إلى أنه لا يلزم من رد حكمه أو فتوه إذا اجتهد فأخطأ أن يائم بذلك بل إذا بدل وسعه أُجر فإن أصاب صوعف أجره لكن لو أقدم فحكم أو أفتى بغير علم لحقه الإثم كما تقدمت الإشارة إليه . قال ابن المنذر : وإنما يؤجر الحاكم إذا أخطأ إذا كان عالماً بالاجتهاد فاجتهد ، وأما إذا لم يكن عالماً فلا . واستدل بحديث القضاة الثلاثة وفيه : ... وقاض قضى بغير حق فهو فى النار ، وقاض قضى وهو لا يعلم فهو فى النار ، وهو حديث أحرجه أصحاب السنن عن بريدة بالماظ مختلفة ، ويؤيد حديث الباب ما وقع فى قصة سليمان فى حكم داود عليه السلام فى أصحاب الحرث . وقال الخطائى فى معالم السنن : إنما يؤجر المجتهد إذا كان جامعاً لآلة الاجتهاد فهو الذى يعذره بالخطأ بحلاف المتكلف فيحاف عليه ثم إنما يؤجر العالم لأن اجتهاده فى طلب الحق عبادة ، هـ ، إذا أصاب ، وأما إذا أخطأ فلا يؤجر عى الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط ، كذا قال وكأنه يرى أن قوله وله أجر واحد مجاز عن وضع الإثم .

الاجتهاد في الإسلام

السؤال : ما هو الاجتهاد وما هي أحكامه ؟

الجواب : إن آفتنا أن القوم المنفلتين دينيًا يريدون أن يحضعوا كل شيء في الدين لآرائهم .. والآخرين يريدون أن يحضعوا كل شيء للاجتهاد أيضًا .
نقول لهم : كلاكما مخطئ ، فمعنى الاجتهاد أن تبدل وسع الجهد في أن تعرف الرأي ، وهذا لا يعنى أنها تحتاج إلى بحث ، ولكن المحكمات غاية النفس . والعالم لا يفسد بأى رأى من الآراء فى المسموح فيه بالاجتهاد .. ولكنه يفسد بالأول .. فالذى يفسد به أولاً هو الذى قال لك لا .. أنا الذى سأتحمله .. شيء آخر إن الناس يريدون أن يحضعوا كل قضايا الدين إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »^(١) .. كل شيء يريدون أن يدخلوا فيه هذا الحديث .. علينا أن نفهم أسباب ورود ذلك الحديث ؛ حتى إذا قسنا عليه نكون على بينة .

هذا الحديث ورد فى أمر علمى تجريبي ، وأمر التجربة ليس منوطاً بالمسجع .. أمر التجربة منوط بالأسباب والمسببات المادية . والتجربة المادية لا يدخلها الهوى فالعالم يدخل معمله التجريبي ، وليس له هوى فى نفسه إلا أن يصل إلى الحقيقة .. وما هى الحقيقة ؟ هى ما تهدى إليه العناصر السماء .. والتفاعلات لا يدخل إليها الهوى أبداً فكأن الله ضمن فى التجربة المادية ألا يدخلها الهوى .

(١) جرد من حديث أخرجه مسلم [٢٣٦٣/١٤١] عن أس رضى الله تعالى عنه .

ولكن فى الأمور النظرية يأتى الهوى ، ولكنه قسمها قسمين : قسم يتدخل فيه تدخل لا يسمح لكم بالاجتهاد فيه ، وقسم آخر من أجل أن يعطيكم حرية البحث فيه حتى لا تكونوا قوالب حديدية ، وأخذ التكليف على أنها هكنا .. ولكن ليصبح عندك حيوية حركية ، وحيوية اختيار .. ولكن التجربة المادية هذه يستوى فيها الناس لا أحد يختلف فيها لماذا ؟ لأن الهوى لا يدخل فيها . أقول دائماً : إننا نلاحظ أن هناك معسكرين الآن : المعسكر الشرقى الروسى ، والمعسكر الأمريكى الغربى الرأسمالى ، وهذان المعسكران على طرفى نقبض فى الكلام النظرى فقط ، إنما فى الأمور المادية هل هناك كهرباء روسى ، وكهرباء أمريكى ؟ أبداً .. بل العكس المعسكر الروسى يريد أن يسرق ما عندهم من تجارب مادية ، وفى المقابل المعسكر الأمريكى الغربى يريد أن يسرق من الروسى ما عنده ولكن فى المسائل النظرية نجد سداً حديدياً يمنع ذلك .. فهذه يمعونها والأخرى يسرقونها ، وهذا دليل على أن مسألة التجربة المادية يصح لك أن تتدخل فيها بالفكر الذى خلقه الله لك ، وبالمادة الذى خلقها الله لك ، وبالطاقة المخنوقة من الله لك .

إذن .. التجارب العملية أنت حر فيها ، وبذلك وضع الإسلام مبدأ العلم التجريبى ، ولكن الأمور النظرية التى تختلف فيها الأهواء جعلها الله تعالى على أمرين :

الأول : شكل محكم .. إن اختلفنا فيه نشقى .

الثانى : إن اختلفنا فيه لا نشعب ، وإن كنا سنتعب من ناحية التعصب ، والتعصب كما نقول دائماً : إنه جبروت الضعيف .

إذن .. فيجب أن نستقبل قضايا الإسلام على أساس أن كلمة : أسلم تقضى مسلماً وهو الإنسان .. ومسلماً إليه .. ومسلماً فيه .. أنا لا أسلم نفسى إلى مساو من الشر .. وإنما أسلم زمامى لمن أثق أنه أقدر منى وأحكم .

هذا هو معنى الإسلام ، وهذا يعنى أن أؤمن بما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ ، عند هذا الحد انتهت المسألة ، ولتأمل دقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولتأمل الشجاعة الإيمانية فى أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أشار بالألا يلقحوا النخل حيث قال لهم : « لو لم تفعلوا لكان خيرا لكم » فلم يفعلوا ، ولم يصلح ، فقل لهم : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم »^(١) .

ولكن انصر إلى المسائل النظرية التى اختلفوا فيها ، ثم انظر إلى المسائل المادية تجد أن صاحب المسائل المادية ، هو العالم المعنى الذى لا يعلم الناس شقائه الذى يعيشه وهو وحده فى معمله بين أدواته ولا أحد يدرى به ، ويمكن أن يرهد فى أكله وشربه وهدامه .. من أجل تجربة يقوم بها .. ولا يشعر الناس به إلا عندما تنتهى التجربة ويخرج على الناس بابتكار جديد أو اختراع جديد يمد الناس ، ولكن من الذى شقى بها ؟ هو وحده فى معمله .

ولكن المسائل النظرية يعم بها صاحبها ، ويشقى بها المجتمع إلى أن يثبت كلامه ، أو يحىء شخص آخر بنظرية جديدة أو قانون جديد .

إذن .. فلقد أراحنا الله مما يُشقى بداية .. صحيح أن التجارب سترغمكم فيما بعد على أن تصلوا إلى ما شاء الله ، ولكنه سبحانه رحمة بعباده أراد أن يريحهم من عناء التجربة ؛ لأنه رب وخالق ، ولا يوجد صانع يريد أن يحطم صنعته ، كل صانع يحب صنعته .. والله يحب خلقه ، ولذلك فقد حذر من مسائل الهوى ، وأباح الاجتهاد .

(١) أخرج مسلم [٢٣٦٢/١٤٠] عن رافع بن خديج رضى الله تعالى عنه قال : قدم نبى الله ﷺ المدينة وهم يأبرون المحل ، يقولون : يلقحون النخل فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا » فتركوه ففصت أو فنقصت ، قال : فذكروا ذلك له فقال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فحدوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأى فإنما أنا بشر » .

الغيب

السؤال ما هو مفهوم الغيب في الشريعة الإسلامية ؟

الجواب : الغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ عَنِ الْمَغِيبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ ﴾ [الحج : ٥٢] .

وفي هذا دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا من أعلمه الله كالأنبياء والرسل عن طريق الوحي ليدل على صدق رسالتهم .

وقمة الغيب هي الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسوله ، والإيمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور عينية (١) .

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه مسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ وتقية الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربها . وأن ترى الحفاة العراة ، العالة ، رعاء الشاة ، يتطاولون في =

= البنيان . قال : ثم انطلق فلثت ميًا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه حبريل . أتاكم يعلمكم دينكم .

وقال انقرطبي : قال العلماء رحمه الله عليهم : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب

واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم

استشى من ارتضاه من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطرق الوحي إليهم ،

وجعله معجزة لهم ودلالة صدقة على نبوتهم . وليس المنجم ومن ضاهاه ممن

يصرّب بالحصى وينظر فى الكتب ويهزجر بالطير ممن ارتضاه رسول فيطلعه على

ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه . قال

بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم فى سفينة ركب فيها إنسان على

اختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم المثلث والسوقة ، والعالم والجاهل ،

والغنى والفقير ، والكبير والصغير ، مع اختلاف طوالعهم ، وتباين مواليدهم ،

ودرجت نجومهم ؛ فعمهم حكم الغرق فى ساعة واحدة ؟ فإن قال المنجم

قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذى ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن

هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد

منهم ، وما يقضيه طالعها الخصوص به ، فلا فائدة أبدا فى عمل المواليد ،

ولا دلالة فيها على شقى ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه

استحلال دمه على هذا التنجيم .

ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

حكم المنجم أن طالع مولدى يقصى على بميتة الغدء

قل للمحرم صحة الطوفان هل ويد الجميع بكوكب الفرق

وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما أراد لقاء الخوارج :

أتلقاهم والقمر فى العقرب ؟ فقال رضى الله تعالى عنه : فأين قمرهم ؟ وكان

ذلك فى آخر الشهر . فانظر إلى هذه الكسمة التى أجاب بها ، وما فيها =

.....
= من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم ، والإقحام لكل جاهل يحقق
أحكام النجوم .

وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تسر في هذه الساعة وسر في
ثلاث ساعات يمضين النهار . فقال له على رضى الله تعالى عنه : ولم ؟ قال :
إليك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ،
وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طبت .
فقال على رضى الله تعالى عنه : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده -
من كلام طويل يحتاج فيه بآيات من التنزيل - فمن صدقك في هذا القول لم
أمن عليه أن يكون كمن اتخد من دون الله ندا أو ضدا ، اللهم لا طير إلا
طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير في
الساعة التي تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم
النجوم إلا ما نهتدون به في ظلمات البر والبحر ؛ وإنما المنجم كالساحر ،
والساحر كالكافر ، والكافر في النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر في النجوم
وتعمل بها لأحلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت ، ولأحرمتك العطاء ما كان
لى سلطان . ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهي وقعة
النهر وان الثابتة في الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها
وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد
ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصرو وسائر البلدان -
ثم قال : يا أيها الناس ! توكلوا على الله وثقوا به ، فإنه يكفى بمن سواه .

الجامع لأحكام القرآن [الجن : ٢٦-٢٧] .

وقال القرطبي في تأويل قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٢٣] .
الغيب في كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه :
غابت الشمس تغيب ، والعيبة معروفة . وأغابت المرأة فهي مغيبة إذا غاب -

= عنها روحها ، ووقعا في غيبة وغيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة :
الأحمة ، وهى حماع الشجر يغاب فيها ، ويسمى المطمئن من الأرض :
الغيب ؛ لأنه غاب عن البصر .

واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية :
الله سبحانه . وضعفه ابن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال
آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به
الرسول عليه الصلاة والسلام مما لا تهتدى إليه العقول من أسرار الساعة
وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزن والجنة والنار .

قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .
قلت وهذا الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين
قال للنبى صلى الله عليه وسلم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : « أن تؤمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » . قال :
صدقت . وذكر الحديث ^(١) . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل
من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

قلت . وفى التنزيل : ﴿ وَمَا كُنَّا بِمُحِيطِينَ ﴾ [الأعراف : ٧] ، وقال : ﴿ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩٠] ، فهو سبحانه غائب عن الأبصار ،
غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ، فهم يؤمنون أن لهم
ربا قادرا يجازى على الأعمال فهم يحشونه فى سرائرهم وخلوتهم التى
يعيبون فيها عن الناس باطلاعه عليهم ، وعلى هذا تتفق الآي ولا تتعارض ،
والحمد لله .

وقيل : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : ضمائرهم وقلوبهم بخلاف المفاقين ، وهذا قول
حسن .

(١) سبق تحريجه .

وقال الشاعر : وبالغيب أما وقد كان قوما يصلون للأوثان قبل محمد

الجامع لأحكام القرآن [٦٠٠ : ٣] .

وأخرج البخاري [٧٣٧٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » . وقال تعالى : ﴿ وَعِندُ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأعام : ٥٩] .

قال القرطبي . جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك . وفي صحيح مسلم [٢٨٧/١٧٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] .

ومفتاح جمع مفتاح ، وهذه اللغة الفصيحة . يقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهي قراءة ابن السميعة « مفاتيح » ؛ وانفتح عبارة عن كل ما يحل غلقا محسوسا كالقفل على البيت ، أو معقول كالنظر .

وروى ابن ماجه في سننه [٢٣٧] وحسنه الألباني عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الناس مفاتيح للحير مغاليق لدشر ، وإن من الناس مفاتيح للشهر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه » .

وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المعيب عن الإنسان ؛ ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس =

وحيثما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول :
 ما دام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم . وأخبرنا الحق سبحانه
 وتعالى عن ليوم الآخر ، فعلينا إذن أن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذى أخبرنا به
 هو الله جل جلاله .

إذن .. فحيثية الإيمان بالغيب أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أخبر به .
 ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك هذا الشيء ..
 فأنت لك روح فى جسدك تهلك الحياة ، أرايتها ؟ ، أسمعتها ؟ ، أذقتها ؟ ،
 أشممتها ؟ .. ألمستها ؟ .. الجواب بالطبع لا .. فبأى وسيلة من وسائل
 الإدراك أدركت أن لك روحاً فى جسدك ؟ بالطبع بأثرها فى إحياء الجسد .
 إذن .. فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله .. فكيف تريد وأنت
 العاجز عن إدراك مخلوق فى جسدك وذاتك وهو الروح ، أن تدرك الله
 سبحانه وتعالى .

= افتح على كذا ؛ أى أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنده علم
 الغيب ، ويده الطرق الموصلة إليه ، لا يملكها إلا هو ، فمن شاء اطلعه عليها
 أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه . ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على
 رسله ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطِيعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران . ١٧٩] وقال : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا
 يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [آل عمران . ١٧٩] وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ... ﴾ [الجن . ١٧]
 وقيل : المراد بالمفاتيح خزائن الرزق ؛ عن السدى والحسن ومقاتل والضحاك :
 خزائن الأرض . وهذا مجاز ، صر عنها بما يتوصل إليها به . وقيل : غير هذا
 مما يتضمنه معنى الحديث أى : عنده الآجال ووقت نقضائها . وقيل : عوائب
 الأعمار وخوائم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأول المختار . والله أعلم .

ونحن إذ آمنّا بالله جل جلاله ، فلا بد أن نؤمن بكل ما يخبرنا به وإن لم نره ..
ولقد أراد الله تبارك وتعالى - رحمة بعقوبنا - أن يقرب لنا قضية الغيب
فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشيء ، وإدراك هذا الوجود
شيئان منفصلان تمامًا

فالجراثيم والميكروبات مثلاً موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ بداية
الخلق .. وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض فى أجسادهم من ارتفاع فى
الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب .. فلما ارتقى العلم وأذن
الله لخلقه أن يروا هذه الجراثيم ، جعل بعض العقول قادرة على أن تكتشف
المجهر ، الذى يعطينا الصورة مكبرة ؛ لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن
تدرك هذه المخلوقات الدقيقة .. فلما تقدم العلم واكتشف المجهر .. استطعنا أن
نرى هذه الجراثيم .. وعرفنا أن لها دورة حياة وتكاثر إلى آخر ما كشف عنه
العلم الحديث .

إذن .. فإن عدم قدرتنا على رؤية الشيء لا يعنى أنه غير موجود .. حيث
أن آلة الإدراك وهى البصر عاجزة عن أن تراه ؛ لأنه غاية فى الصغر ، فإذا ما
جئت بالمجهر ووضعتة على هذه الجراثيم كبرها لك وبالتالي تدخل فى نطاق
وسيلة رؤيتك التى هى العين .

وكذلك رؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلاً على أنها خلقت ساعة أن
رأيناها ، بل هى موجودة تؤدى مهمتها .. سواء رأيناها أم لم نرها .
فلو حدثنا أحد عن هذه الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين ..
هل كنا نصدق كلامه ؟ .. الله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك
فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الإنسان ويدرك بعد ذلك .. وكان
المفروض بعد تقدم العلم وإدراك ما كنا لا ندركه ، أن يزداد المؤمن يقينا
ويؤمن غير المؤمن .

العمل فى الإسلام

السؤال :

هل يفرق الإسلام بين عمل وآخر ؟

الجواب : بالطبع لا .. الإسلام لا يفرق بين عمل وعمل فكل حركة فى الحياة سواء كانت فكرية أو غير فكرية طالما هى تنطلق من منهج الله تعالى وهدى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فهى عمل شريف .
اخلافة نفسها اعتبرها أبو بكر رضى الله تعالى عنه حرفة .. وكلمة حرفة ههنا تعنى : مهنة ، كما تقول : طبيب ، أو مهندس ، كذلك : « سمكرى » أو « سباك » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم سمي كل من ولاه عاملاً من العمال ، فالإسلام لا يعترف بالفرقة بين الأعمال ما دامت على منهج الحق .. سبحانه .
وقيمة كل امرئ بما يحسنه ^(١) .

(١) حرض الإسلام معتقيه على بذل الجهد فى عمارة الحياة الدنيا ، والسعى لكسب المال وتثمينه بالطرق المشروعة . قال تعالى : ﴿ إِنِّ الْآدِينَ ءَامِسُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُؤْتِيكَ هُمْ خَيْرُ الْآدِيَةِ ﴾ [البقرة ٧] وقال سبحانه : ﴿ إِنِّ الْآدِينَ ءَامِسُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم ٩٦] ، وجعل الأفضلية لتقوى ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات ١٣] ، وجعل النبى صلى الله عليه وسلم الذى يسعى على عياله من حل فهو المجاهد فى سبيل الله .

وأخرج البخارى [٢٢٦٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ما بعث الله نبيا إلا رعى العم » ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال . « نعم » ، كتب أروعها عني قراريط لأهل مكة .
وأخرج البخارى [١٩٦٣] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال =

السنة شقيقة القرآن

السؤال : يزعم البعض أنه لا داعي للسنة . أو أن القرآن وحده يكفي ، فما موقفنا منهم ، وبماذا نرد عليهم ؟

الجواب : استمرار السنة النبوية حتى يومنا هذا معجزة من باطر معجزة القرآن وعي الدين يشككون في السنة أن يفتبوا إلى أن تشككهم في بقائها يؤدي بهم إلى الشك في معجزة القرآن نفسها .. ذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٤] .

ففي السنة النبوية بيان ما نزل في القرآن .

- رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدكم فيعطيه أو يمنعه » .

وروى ابن ماجة [٢١٣٨] عن المقدم بن معد يكرب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده ... » وصححه الألبانى .

وفي الحديث القدسى الذى ذكره السرخسى فى المسوط المجلد الخامس كتاب الكسب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « عبادى حرك يديك أنزل عليك الرزق » .

وروى البخارى [٢٠٧٢] عن المقدم رضى الله تعالى عنه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

وقال الحق في آية أخرى . ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [٧] فإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَعْ
قُرْآنَهُ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [٨] [القيمة]

فنسب البيان الذي كلف الله به رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ذاته تعالى في
قوله : ﴿ لَتَسِينَنَّ لِلنَّاسِ ﴾ [الحل : ٤٤٠] ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٩] ، فلو
لم يكن البيان النبوي حقيقة ملزمة لما جاء في القرآن منسوبا إلى الله تعالى .
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا ءَاتَكُمْ الرَّسُولُ فَاْخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [احضر ٧] .

وهذا يدل على أن لرسول صلى الله عليه وسلم عملاً مع القرآن .. وما دام
له عمل مع القرآن فلا بد أن يقوله أو يفعله أو يقره ، وهذه لمن عاصروه .. ومن
لم يعاصروه مطلوب منهم أن يأخذوا ما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم
أيضا ، ولذلك لا بد من أن يبقى قوله وفعله وتركه وإقراره ، ما بقى الدين .
وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ عن ربه ثلاثا وعشرين سنة ،
وكلامه وفعله وتقريره صلوات الله تعالى عليه وسلامه لفعل الغير أممه ، فبالله
ليقل لنا المتشككون في السنة كم ترك النبي صلى الله عليه وسلم من حديث
وهو يبين ما أنزل إليه من ربه كما أمره ربه ؟

إذن .. فلو استعرضنا ما بقى لنا من صحيح الحديث وجدنا أن ما بقى أقل
بكثير مما كان يتوقع أن يكون قد تركه .. فقد ترك صلى الله عليه وسلم
الكثير من الحديث حتى نصحح المقاييس والمصافى التي نأخذ عنها ما قاله
رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأن يُتْرَكَ شيء مما قاله خير من أن يدخل
على حديثه شيء مما لم يقله ^(١) .

(١) وليس معنى هذا أنه فقد شيء من السنة المشرفة ، فالبيان النبوي موضح للقرآن
و مفسر له ، وما بأيدينا وما تضمنه المخطوطات ودور الكتب فيه الكفاية -

والذين أرادوا أن يكون مرجعاً في كل أمر هو القرآن فقط . عليهم أن يوجدوا لنا في القرآن تفاصيل أركان الإسلام فقط .. لا أقول كل تعاليم الدين .. إن هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم واجترأوا على هذه الفرية بقولهم هذا هم بأنفسهم شهود على أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق النسبة إليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم ذكرهم ، وأخبر عن وجودهم في مستقبل الزمان ، فلو لم يقولوا ما قالوه من إنكار السنة ولزوم القرآن وحده لما وجدنا مصداقاً من الواقع لحديثه صلى الله عليه وسلم عنهم .

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك الرجل مُتَكِنًا على أريكته يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي فَيَقُولُ : سَمِعْنَا وَبَيَّكُم كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَمْنَاهُ ، أَلَا وَإِنْ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » (١) .

فلو لم يكن هؤلاء قد افترخوا هذه الفرية لقال المشككون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولم يحدث . إذن .. فقولهم هذا دليل على صدق ما يدعون كذبه .



= للبيان ، وقد حفظه الله تعالى من عبث العابثين ، فمعلوم أن للحديث الواحد روايات عديدة وكل صحابي حصر المجلس الذي قيل فيه رواه وأخذه عنه خلق كثير وجم غفير .

(١) رواه ابن ماجه [١٢] عن المقدم بن مغيرة يكره الكندي رضي الله تعالى عنه وصححه الألباني [١٢] .

الإسلام والعلم

السؤال .

هل يتعارض العلم مع الدين ؟ وهؤلاء
الذين يزعمون أن الدين ضد العلم
ويروجون للعلمانية بهذا المفهوم : فما القول
فيهم ؟

الجواب : إذا كانت العلمانية من العلم فهي بهذا المفهوم تسير في كل
مجالاتها على وفق ما يحىء به العلم .. فما هو العلم ؟ العلم قضية يقينية ،
يمكن أن أقيم عليها الدليل ؟

إذن .. فكلمة علمانية التي هي من العلم لا تأتي مطلقاً إلا في الأمور المادية .
وهي الأمر المادى التجربة لا تجامل ، لكن الأمر النظرى كيف يكون يقينياً ؟
لا يمكن .

ومن الذى قال : إن الدين ضد العلم ؟ الدين أول ما نزل . نزل يحض على
العلم ^(١) ، وهو قضية يقينية لا خلاف عليها ، وهناك دليل عليها في الأمور

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [النشأ] .

وإشارة للحديث الذى رواه البخارى [٣] ومسلم [٢٥٢/١٦٠] « اقْرَأْ . قَالَ :

« مَا أَنَا بِقَارِيٍّ » قَالَ : فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ :

اقْرَأْ . قَالَ قُلْتُ . مَا أَنَا بِقَارِيٍّ قَالَ . فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ

ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِيٍّ فَأَخَذَنِي فَغَضَّبَنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ

مِنِّي الْجَهْدَ . ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ

يَعْلَمْ ۝ ﴾ [النشأ] فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَائِرُهُ =

المادية ، وما جاء دين - وخاصة الإسلام - ليناھض العلمانية بمعنی العلم ، بل
 ھى فیہ بأوسع معانی الكلمة ، وإنما هؤلاء أرادوا أن یقحموا كلمة علمانية على
 شئ لا یدخل فی قضية العلم ، وھى الأمر النظرى ، یريدون أن یحولوا الأمر
 النظرى إلى علم .

فقول فی ذلك : إن هذا ليس علماً ؛ لأنه ليس قضية یقينية ، فالخطأ أبھم
 أرادوا بالمقابلة « دولة علمانية » فی مقابل « الدولة الدينية » فقول لهم : إن
 المقارنة خصاً ؛ لأن الدين - وخاصة الإسلام - جاء محرضاً على العلم .. لكنه
 یضع العلم فی مجاله الذى یجلو فیہ القضايا الیقينية والحقیقية .

- حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ : « رَمَلُونِي رَمَلُونِي » فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ
 الرُّوعُ . ثُمَّ قَالَ لَخَدِيجَةَ : « أَيُّ خَدِيجَةَ ! مَا لِي » وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ . قَالَ : « لَقَدْ
 حَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : كَلَّا . أَتَشِرُّ . فَوَاللَّهِ لَا يُحْزِيكَ اللَّهُ
 أَبَدًا . وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّجِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَغْدُومَ
 وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ
 وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا . وَكَانَ
 امْرَأً تَنْصَرَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ
 مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ . وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : أَيُّ
 عَمِّ اسْمِعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ . قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ : يَا بَنُ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبِرْهُ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا التَّامُوسُ
 الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا . يَا لَيْتَنِي
 أَكُونُ حَيًّا جِئْتُ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَوْ
 مُخْرِجِي هُمْ » قَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي وَإِنْ
 يُذَرِّكُنِي يَوْمُكَ أَنْتَصِرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا .

والعلمانية الصحيحة الخاضعة للعلم التجريبي لا تدقّض الدين ، والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالأمور التي يمكن أن تختلف فيها الأهواء ، وقرر فيها رأى الدين فلا اجتهاد فيها ، والأمور التي تخضع للتجربة لم يكلم فيها بشيء .

يعنى به الأمور العلمية التي يكون الحكم فيها للتجربة لا لكلام أحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا ألا نأخذ الأمور التجريبية من كلام أحد ، ولكن من التجربة نفسها ، أما الأمور التي لا تجربة فيها فهي موحودة في منهج الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الانعام ١٥٣] . وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّعَ الْهَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [النور ٧١] . فالعلمانية بهذا التفسير لا تقابل الدين .

والعلمانية في محالها لصحيح هي مع الإسلام ، وإنما الإسلام ضد العلمانية أى : الشعوية إلا إنكم طرحتم قضية العلم في قضية الأهواء .. والأهواء لا تعطى عدلاً ، أما بخصوص التضاد في حقيقة الأصل ، فهو عبر موجود بين العلمانية بمفهومها الصحيح وبين الإسلام .



وما ربك بظلام للعبيد

السؤال .

جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى لا يظلم
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وأنه سبحانه ليس بظلام للعبيد
نرجو توضيح المعنى الكريم ؟

الجواب : يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ
حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .
هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم فى آية أخرى
يقول الله جل جلاله : ﴿ وَمَا رَتُّكَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ ﴾ [قصص : ٤٦] .
وقد يأتى واحد ويقول : إن معنى « ظلام » أى : شديد الظلم ، « بمعنى :
ليس بظلام .. لا تنفى الظلم ولكنها تنفى المبالغة فى لظلم ، نقول : إنك لم
تفهم المعنى ، فإن الله لا يظلم أحداً ، الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك
وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد ، والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت :
﴿ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، والعبيد هم كل خلق الله .. فلو أصاب كل واحد منهم أقل
من ذرة من الظلم مع هذه الأعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو
أنه قليل فى كميته إلا أن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية
الأولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى .. والآية الثانية نفت الظلم أيضاً
عن الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين
تنطبق عليهم الآية الكريمة (١) .

(١) أخرج مسلم [٥٥/٢٥٧٧] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ فيما
رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى
وجعلته بينكم محرماً . فلا تظالموا . يا عبادى ! كلُّكم صال إلا من هَدَيْتُهُ . =

فاستهدوني أهدكم . يا عبادي ! كلكم حائع إلا من أطعمته . فاستطعموني
أطعمكم . يا عبادي ! كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسوني أكسكم .
يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً .
فاستغفروني أعفر لكم . يا عبادي ! إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني . ولن
تبلغوا نفعي فتفجعوني . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم
كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي !
لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد
ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم
وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص
ذلك مما عندي إلا كما ينقضي المحيط إذا أُدخل البحر . يا عبادي ! إنما هي
أعمالكم أحصيتها لكم ، ثم أوفيكُم إياها . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن
وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

قال العلامة ابن رجب في كتاب جامع العلوم والحكم [ص : ٣٥٠] ما نصه :
قال الإمام أحمد : هو أشرف حديث لأهل الشام بقوله صلى الله عليه وسلم
فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي » يعني . أنه مع
نفسه من الظلم لعباده كما قال عر وجل : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] .
وقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ١٠٨] . وقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [عامر ٣١] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴾ [قصص ٤٦] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الشَّيْءَ
شَيْئًا ﴾ [يوس ٤٤] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الساء ٤٠]
وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ
ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه ١١٢] والهضم : أن ينقص من جزاء حسناته ،
والظلم : أن يعاقب بذنوب غيره .

ومثل هذا كثير في القرآن ، وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكن لا يفعله . فصلا منه ، حودا وكرما وإحسانا إلى عباده وقد فسر كثير من العلماء الظلم بأنه : وضع الأشياء في غير مواضعها ، وأما من فسر بالتصرف في ملك الغير بغير إذنه وقد نقل نحوه عن إياس بن معاوية وغيره - فإنهم يقولون : إن الظلم مستحيل عليه وغيره متصور في حقه ؛ لأن كل ما يفعله فهو تصرف في ملكه وقوله « وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » يعني : أنه تعالى حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم فحرم على كل عبد أن يظلم غيره مع أن الظلم في نفسه محرم مطلقا ، وهو نوعان : أحدهما : ظلم النفس ، وأعظمه الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الشِّرْكُ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق فعده وبألله ، فهو وضع الأشياء في غير مواضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن وعيد للظالمين إنما أريد به المشركون كما قال الله عز وجل : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ثم يليه المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر .

والثاني : ظلم العبد لغيره وهو المذكور في هذا الحديث ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع . « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » . وروى عنه : أنه خطب بذلك في يوم النحر من يوم عرفة وفي اليوم الثاني من أيام التشريق . وفي رواية : ثم قال : « اسمعوا مني تعيشوا ، ألا لا تظالموا ، ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » . وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

= وفيهما عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 إن الله ليملئ لنظامي حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ
 إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .
 وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظنة لأخيه فيتحلل منها فإنه ليس ثم
 دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات
 أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه » .

قوله : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي
 كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عار
 إلا من كسوته فاستكسبوني أكسبكم . يا عبادي إنكم تحطئون بالليل والنهار
 وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم » .

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم ودفع
 مضارهم في أمور دينهم ودنياهم ، وإن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئا من
 ذلك كله ، وإن من لم يتفصل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في
 الدنيا ومن لم يتفصل الله عليه بمغفرة ذنوبه أو خطاياہ فإنه يحرمهما في الآخرة .
 قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
 مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف ١٧] ومثل هذا كثير في القرآن ، وقال تعالى : ﴿ مَا يَسْتَجِ
 اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر ٢] وقال : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود ٦٠] .
 وقال تعالى حاكيا عن آدم وزوجه عليهما السلام أنهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا
 أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]
 وعن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي
 أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] .

= وقد استدلل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل . فقال لقومه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿ ٧٦ ﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٧٧ ﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿ ٧٨ ﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿ ٧٩ ﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿ ٨٠ ﴾ وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿ ٨١ ﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿ ٨٢ ﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ [الشراء]

فإن من تفرد بخلق العبد وهدايته ، وإحيائه وإماتته في الدنيا ومغفرة ذنوبه في الآخرة ؛ مستحق أن يفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع والاستكانة له . قال الله عز وجل ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَقَبْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] .

وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة . وفي الحديث : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع » وكان بعض لسلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعنف شاته . وقوله : « كلکم صال إلا من هديته » قد ظن بعضهم أنه معارض بحديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل . « خلقت عبادي حنفاء - وفي رواية مسلمين - فاجتالتهم الشياطين » وليس كذلك فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره والتهيو والاستعداد له بالقوة لكن لا بد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم كما قال الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : ٧٨] وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الصفي : ٧] والمراد : =

= وجدك غير عالم بما عمك من الكتاب والحكمة كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِمَّنْ كُنْتَ تَذَرِي مَا أَلْكَتَ وَلَا الْإِيمَنُ

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق فإن هداه الله تعالى سبب له من يعلمه

لهدى فصار مهدياً بالفعل بعد أن كان مهدياً بالقوة وإن هداه الله فيض له

من يعلمه ما يعير فطرته كما قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد

على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

وأما سؤال المؤمن من الله الهداية : فإن الهداية نوعان : هداية مجملة : وهي

الهداية للإسلام والإيمان ، وهي خاصة للمؤمن . وهداية مفصلة : وهي هداية

إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام ، وإعاقته على فعل ذلك . وهذا

يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً . ولهذا أمر الله عباده أن يقرأوا في كل ركعة

من صلاتهم قوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [البقرة : ٦] وكان النبي

صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه بالليل : « اهدني لما اختلف فيه من

الحق بإذنك إليك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وبهذا يشمت العاطس فيقال له : « يهديكم الله » كما جاءت به السنة

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن يسأل الله السداد والهدى ، وعَلَّمَ

الحسن أن يقول في قنوت انوتر : « اللهم اهديني فيمن هديت » .

وأما الاستغفار من الذنوب : فهو طلب المغفرة ، والعبد أحوج شيء إليه لأنه

يخطئ بالليل والنهار . وقد تكرر في القرآن ذكر التوبة والاستغفار والأمر بهما

والحث عليهما . وخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أس رضي الله تعالى

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين

التوابون » .

- وخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة » .
 وخرج من حديث الأعر المزني رضي الله تعالى عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .
 وخرجه النسائي ولفظه . « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم واستغفروه فإني أتوب إلى الله وأستغفره كل يوم مائة مرة » .

وخرج الإمام أحمد من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه يقال كان في لساني ذرب على أهبي لم أعدده إلى غيره فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أين أنت من الاستغفار يا حذيفة إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .
 ومن حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إني أستغفر الله مائة مرة وأتوب إليه » .

وروى النسائي من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال كنا جلوسا فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ما أصححت غداة قط إلا استعصرت الله مائة مرة » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال إن كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة يقول : « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم » .
 وروى النسائي في السنن الكبرى [١٠٢٨٨] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : ما رأيت أحدا أكثر أن يقول : « أستغفر لله وأتوب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول . « اللهم احملني من الدين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » .

= وقوله : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني »
يعني أن العباد لا يقدرّون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ، فإن الله تعالى في نفسه غني
حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه وإنما هم ينتفعون بها ،
ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها . قال الله سبحانه وتعالى . ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَاحِرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٧٦]
وقال : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٤٤]
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : « ومن يعص الله ورسوله
فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حميداً ﴾ [النساء : ١٣١] .

وقال حاكيا عن موسى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً
فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حميدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢]
وقال : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِآلِهِ النَّفْسُ مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧]
والمعنى : أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن
يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها
طعامه وشرابه بعلاة من الأرض وطلبها حتى أعشى وأيس منها واستسلم للموت
وأيس من الحياة ثم علسه عبه فام واستيقظ وهي قائمة عنده ، وهذا أعلى
ما يتصوره المحنوق من الفرح . هذا كله مع غناه عن طاعات عباده إليه وأنه إنما
يعد نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبه
لنفعهم ودفع الضر عنهم ، فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويطيعوه ويتقوه
ويطيعوه و يتقربوا إليه ، ويحب أن يعموا أنه لا يعجز الذنوب غيره وأنه قادر
على مغفرة ذنوب عبده . كما في رواية عبد الرحمن بن غنم عن أبي در لهدا =

= الحديث : « من علم منكم أنني ذو قدرة على المغفرة ثم استغفرني غفرت له ولا أبالي » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن عبدا أذنب ذنبا فقال : يا رب إنني فعلت ذنبا فاغفر لي . فقال الله : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنوب قد غفرت لعبدي » .

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه لما ركب دابته حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا وقال : سبحانك إنني ظلمت نفسي فاعفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . ثم ضحك وقال إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لي ذنوبي ، يعلم أنه لا يعفر الذنوب غيري » .

رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » .

كان بعض أصحاب ذي النون يطوف ينادي : أه أين قلبي ؟ من وجد قلبي ؟ فدخل يوما بعض السكك فوجد صبيا يبكي ، وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار وأغلقت الباب دونه ، فجعل الصبي يلتفت يمينا وشمالا لا يدري أين يذهب ولا أين يقصد فرجع إلى باب الدار فجعل يبكي ويقول : يا أماه من يفتح لي الباب إذا أعلقت بابك عني ومن الذي يدنيني إذا غضبت علي ؟ فرحمته أمه فنظرت من خلل الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكا في التراب ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها وجعلت تقبله وتقول : يا قرّة عيني يا عزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك وأنت الذي تعرضت لما حل بك ، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروها . فتواجد الفتى ثم صاح وقال : قد وجدت قلبي . قد وجدت قلبي . =

= وتفكروا في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ فَقَدْ أَفْلَحَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

فإن فيه إشارة إلى أن المذنبين ليس لهم من يلجأون إليه ويعولون عليه في مغفرة ذنوبهم غيره . وكذلك قوله في حق الثلاثة الذين خلفوا : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ

الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاحَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَنَضَابَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ

وظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة ١١٨] فرتب توبته على ظنهم أن لا ملجأ من الله إلا إليه ،

فإن العبد إذا خاف من مخلوق ؛ هرب منه وفر إلى غيره . وأما من خاف من

الله فما له من ملجأ يلجأ إليه . ولا مهر يهرب إليه إلا هو فيهرب منه إليه

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « لا ملجأ ولا منجأ

ملك إلا إليك » وكان يقول : « أعوذ بربضاك من سحقك وبعورك من

عقوبتك وبك منك » .

قال الفصيح بن عياض رضي الله تعالى عنه : « ما من ليلة احتلظ ظلامها

وأرعى الليل سربال سترها إلا نادى الحليل جل جلاله : من أعظم مني جودا

والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب ، أكلوهم في مضاجعهم كأنهم لم

يعصوني ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيدي وبينهم ، أجود بالفضل

عني لعاصي وأتفضل عني المسيء ؟ من ذا الذي دعاني فلم أستجب إليه ؟ أم

من ذا الذي سألتني فلم أعصه ؟ أم من الذي أناخ بياني فحيتته ؟ أنا الفضل

ومني الفضل ، أنا الجواد ومسي الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم . ومن كرمي أن

أغفر للعاصين بعد المعاصي ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألتني وأعطيه ما لم

يسألني ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني . فأين إلى غيره يهرب

الخلائق ؟ وأين عن بابه يتشجى العاصون ؟ » حرجه أبو نعيم .

= ولبعصهم في المعنى قائل :

- أسأت ولم أحسن وجئتك تائباً وأني لعبد عن مواليه يهرب

يؤمل غفرانا فإن خاب ظنه فما أحد منه على الأرض أخيب

فقوله بعد هذا : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقيا قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم ، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم ، فإنه سبحانه العتي بداته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان . ومن الناس من قال : إن إيجاده لخلقهم على هذا الوجه الموجود أكمل من إيجاده على غيره وهو خير من وجوده على غيره وما فيه من الشر : فهو شر إصافي نسبي بالنسبة إلى بعض الأشياء دون بعض ، وليس شراً مطلقاً بحيث يكون عدمه خيراً من وجوده من كل وجه بل وجوده خير من عدمه وقال : هذا معنى قوله : « بيده الخير » .

ومعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « والشر ليس إليك » يعني أن الشر المحض الذي عدمه خير من وجوده ؛ ليس موجوداً في ملكك ، فإن الله تعالى أوجد خلقه على ما تقتضيه حكمته وعدله ، وخص قوماً من خلقه بالفضل وترك آخرين منهم في العدل لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وهذا فيه نظر ، وهو يحالف في الحديث من أن جميع الخلق لو كانوا على صفة أكمل خلقه من البر والتقوى ؛ لم يزد ذلك في ملكه شيئاً ولا قدر جناح بعوضة ، ولو كانوا على صفة أنقص خلقه من الفحور ؛ لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً . فدل على أن ملكه كامل على أي وجه كان ، لا يزد ولا يكمل بالطاعة ولا ينقص بالمعاصي ولا يؤثر فيه شيء .

= وفي هذا الكلام دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هي القلوب ، فإذا بر القلب واتقى ؛ برت الجوارح وإذا فجر القلب فجرت الجوارح . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره .
فقوله . « لو أن أولكم وآحرکم وإسکم وجنکم قامو في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » .

فالمراد بهذا . ذكر كمال قدرته سبحانه وكمار ملكه وأن ملكه وحزائنه لا تعد ولا تنقص بالعطاء ولو أعطي الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد . وفي ذلك حث لخلق عبي سؤاله وإنزال حوائجهم به .
وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يد الله ملأى لا تغيضها نفقة . سحاء الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السماوات والأرض : فإنه لم يعرض ما في يمينه » .
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » .

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : إذا دعوتكم الله فارفعوا في المسألة فإن ما عنده لا ينفده شيء ، وإذا دعوتكم فاعزموا فإن الله لا مستكره له .
وفي بعض الإسرائيليات يقول الله عز وجل : « أيؤمل غيري للشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم ؟ ويرجى غيري ويترك بابه بالبكرات ويبدى مفاتيح الخرائن وبابي مفتوح لمن دعاني ؟ من ذا الذي أملني لنائبة فقطعت به ؟ أو من ذا الذي رجاني لعظيم فقطعت به ؟ أو من ذا الذي طرق بابي فلم أفتحه له ؟ أنا عاية الآمال فكيف تنقطع الآمال دوني ؟ أبحيل أنا فيخلسي عدي ؟ أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لي ؟ فما يمنع المؤمنين أن يؤملوني ؟ =

= لو جمعت أهل السماوات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد أمه لم ينقص ذلك من ملكي عضو ذرة ، كيف ينقص ملك أنا قَيْمُهُ ؟ فيا يؤسا للقائطين من رحمتي ، ويا يؤسا لمن عصاني وتوثب علي محارمي .

وقوله : « ولم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر » لتحقيق أن ما عنده لا ينقص البتة ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [الحل ٩٦] فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئا وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلا فإنه لا ينقص من البحر البتة ، ولهذا ضرب الخضر لموسى عليهما السلام هذا المثل في نسبة علمهما إلى علم الله عز وجل وهذا لأن البحر لا يزل تمده مياه الدنيا وأنهارها المجارية فمهما أخذ منه لم ينقصه شيء لأنه يمده ما هو أزيد مما أخذ منه . وهكذا طعام الجنة وما فيها ؛ فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ وَفَكَهَنُوا كَثِيرًا ۖ لَا مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ ﴾ [الواقعة] .

وقد جاء : « كلما نزعت ثمرة ؛ عاد مكانها مثلها » وروي : « مثلها فهي لا تنقص أبدا » ويشهد لذلك : قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة لكسوف : « ورأيت الجنة فتناولت منها عقودا وبو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ورواه الإمام أحمد من حديث جابر ولفظه : « ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئا » .

وهكذا لحم الطير الذي يأكله أهل الجنة يستخلف ويعود كما كان حيا لا ينقص منه شيء .

= وقد روي هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه فيها ضعف ،
وقاله كعب ، وروي أيضا عن أبي أمامة الباهلي من قوله : قال أبو أمامة :
وكذلك الشراب يشرب منه حتى تنتهي نفسه ثم يعود مكانه . وروى بعض
العلماء الصالحين بعد موته بمدة في المنام فقال : « ما أكلت مد فارتكم إلا
بعض فرخ أما علمتم أن طعام الجنة لا ينفد » .

وقد تبين في الحديث اندي رواه الترمذي وابن ماجه السبب الذي لأجله لا ينقص
ما عند الله بالعطاء بقوله : « ذلك بأني جواد واجد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائي
كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردت إنما أقول له كن فيكون »
وهو مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] .

وفي مسند البرار بإسناد فيه نظر من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حزن الله الكلام فإذا أراد الله شيئا قال له
كن فكان » .

فهو سبحانه إذا أراد شيئا من عطاء أو عذاب أو غير ذلك قال له : ﴿ كُنْ
فَيَكُونُ ﴾ فكيف يتصور أن ينقص هذا ، وكذلك إذا أراد أن يخلق شيئا قال
له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

كما قال : ﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وفي بعض الآثار الإسرائيلية : « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام :
يا موسى . لا تحاف عيري ما دام لي السطان . وسلطاني دائم لا يقطع ،
يا موسى . لا تهتمس برهي أبدا ما دامت ممسوعة لا تمسي أبدا ، يا موسى . =

= لا تأس بغيري ما وجدتني أيسا لك ، منى طلستني وجدتني ، يا موسى .
لا تأمن مكري ما لم تجز الصراط إلى الجنة .
وقال بعضهم :

لا تحضر مخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك بالدين
واستغرق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والسور
وقوله « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها » يعني : أنه
سبحانه يحصي أعمال عباده ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها . وهذا كقوله :
﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة] ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة] وقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ
أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ
سُوءٍ قَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٢٠] .
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْعَاهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَنُشُوءٌ ﴾ [المجادلة : ٦] .

وقوله : « ثم أوفيكم إياها » الظاهر أن المراد توفيتها يوم القيامة كما هو تعالى :
﴿ وَإِنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ويحتمل أن
المراد : يوفي عباده جراء أعمالهم في الدنيا والآخرة كما في قوله : ﴿ مَنْ
يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر ذلك بأن المؤمنين يجارون
بسيئاتهم في الدنيا ، وتدخر لهم حسناتهم في الآخرة فيوفون أجورهم ، وأما
الكافر فإنه يعجل له في الدنيا ثواب حسناته وتدخر له سيئاته فيعاقب بها في
الآخرة ويوفيه جرائها من خير أو شر ، فالشر يجازى به مثله من غير ريدة
إلا أن يعفو الله عنه ، والخير تصاعف الحسنه عنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة =

= ضعف . إلى أضعاف كثيرة لا يعلم قدرها إلا الله ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] وقوله : « فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه كما قال عمر وجل ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

وقال على رضي الله تعالى عنه : « لا يرجو عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه » . فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته ؛ أعانه ووفقه لطاعته . وكان ذلك فضلا منه ورحمة ، وإذا أراد خذلان عبد ؛ وكَّله إلى نفسه وخلق بينه وبينها ، فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتباع هواه وكان أمره فرطا وكان ذلك عدلا منه فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ، فما بقي لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل . فقوله بعد هذا : « فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » إن كان المراد من وجد ذلك في الدنيا ؛ فإنه يكون حينئذ مأمورا بالحمد لله على ما وحده من جزاء الأعمال الصالحة الذي عجل له في الدنيا كما قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحل ٩٧] ويكون مأمورا بلوم نفسه على ما فعلت من الذنوب ، التي وجد عاقبتها في الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ ذَوْنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] فالمؤمن إذا أصابه في الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار .

وهي المسند وسنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافاه الله منه ؛ كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له »

فيما يستقل من عمره ، وإن المنافق إذا مرض وعوفي ؛ كان كالغير عقله أهله وأطلقوه لا يدري بما عقلوه ولا بما أطلقوه .

وقال سلمان الفارسي : « إن المسلم ليستلى فيكون كفارة لما مضى ومستعتبا فيما بقي ، وإن الكافر يتلى فمثلته كمثل البعير أطلق فلم يدرك لما أطلق وعقل » وإن كان المراد : من وجد خيرا أو غيره في الآخرة ؛ كان إخبارا منه بأن الدين يحدون خيرا في الآخرة يحمدون الله على ذلك ، وأن من وجد غير ذلك فلا يلوم إلا نفسه حين لا ينفعه اللوم . فيكون الكلام لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

والمعنى : أن الكاذب عليه ؛ يتبوأ مقعده من النار . وقد أخبر الله تعالى عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله على ما رزقهم من فضله فقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الزمر : ٧٥] ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وأخبر عن أهل النار أنهم يلومون أنفسهم أشد المقت فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَدَّعْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

- وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ

أَنْفُسِكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكُفُّوا عَنْكُمْ ﴾ [عمر ١٠] .

وقد كان السلف الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة حذرا من لوم النفس عند انقطاع الأعمال على التقصير . وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا : « ما من ميت يموت إلا ندم ؛ إن كان محسنا ندم على أن لا يكون أرحم ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون استعيب » وقيل لمسروق لو قصرت عن بعض ما تصنع من الاجتهاد فقال : « والله لو أتاني آت فأخبرني أن الله لا يعبدي لأحتهدت في العبادة . قيل . كيف ذاك ؟ قال . حتى تعدرني نفسي إن دخت النار أن لا ألومها ؛ أما بلعك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا أُقِيمُ بِالتَّفْسِيرِ الْوَأَمَةِ ﴾ [القيامة ٢] إنما لاموا أنفسهم حين صاروا إلى جهنم الربانية وحيل بينهم وبين ما يشتهون وانقطعت عنهم الأماني ورهعت عنهم الرحمة وأقبل كل امرئ منهم يلوم نفسه .

وكان عامر بن عبد قيس يقول : « والله لأجتهدن ثم والله لأحتهدن ، فإن نجوت فرحمة الله ، وإلا لم ألم إلا نفسي . وكان زياد بن عياش يقول لابن المنكدر ولصفيوان بن سميم : الجد لجد والحذر الحذر . فإن يكن الأمر على ما نرجو كان فضلا ، وإلا لم تلوما إلا أنفسكما » وكان مطرف بن عبد الله يقول : « اجتهدوا في العمل فإن يكن الأمر ما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درحات ، وإن يكن الأمر شديدا كما نحاف ونحذر لم نقل : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [طاهر ٣٧] يقول : قد عملنا فلم ينفعنا ذلك » .

حماية عقائد الناس

السؤال : ما هي الجهة المنوطة بحماية عقائد الناس مما ينشر في وسائل الإعلام المختلفة ؟

الجواب : هل المسألة دين أو عبث ؟ إن كان الأمر عبثًا فلندع لأهل العبث أن يتحدثوا فيه .. أما إن كان دينًا فلماذا لا يكون أهل الذكر من العلماء هم أهل الاختصاص والمراجعة فيه ؟ (١) .

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وأولى الأمر منكم ، يعني أهل الفقه والدين .

وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العلية : العلماء . والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولى الأمر ، من الأمراء والعلماء . وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ ﴾ [المائدة : ٦٢] .

وقال سبحانه تعالى : ﴿ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الحل : ٤٣] . وفي الحديث الشريف الصحيح المتفق على صحته ؛ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ؛ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني » (١) .

(١) رواه البخاري [٧١٣٧] ، ومسلم [٣٣/١٨٢٥] .

- فهذه أوامر بطاعة العماء والأمرء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أى اتبعوا كتابه ، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى خذوا سنته ﴿ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، أى فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى معصية الله ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله ؛ كما تقدم فى الحديث الصحيح : « إنما الطاعة فى المعروف » ^(١) .
 روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا طاعة فى معصية الله إند الطاعة فى المعروف » ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَرَ فِي شَيْءٍ قَرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، قال مجاهد وغير واحد من السلف . أى إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شىء تنارع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يردوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] . فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهادته بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال !؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] . فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ٥٩] . أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، والرجوع فى فصل النزاع إليهما ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وأحسن عاقبة ومآلا ، كما قاله السدى وغير واحد ، وقال مجاهد : وأحسن جراء ، وهو قريب .

عمدة التفسير [٢٠٨/٣-٢٠٩] .

- (١) أخرجه البخارى [٦٧٢٦] ومسلم [٣٩/١٨٤٠] عن على رضى الله تعالى عنه .
 (٢) رواه مسلم [٣٩/١٨٤٠] ، وأبو داود [٢٦٢٥] .

وأحب أن أقول إن الأزهر الشريف بلجاجة المختلفة هو أقدر جهة في مصر
لبیان كل ما يتعلق بدين الله وأصيف بأن الفتاوى الفردية الآن محتاجة لإعادة
نظر ، فالمشاكل معقدة والأمور متشابكة بعد هذا الانفتاح الكبير الذي يراه
ونلاحظه مما جعل العالم كله أمة واحدة .



مواجهة الإلحاد

السؤال : كيف يواجه المسلمون الذين يروجون

للإلحاد أو من يقف معهم ؟

الجواب : قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَ مِثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

لا أذهب إليهم .. أعطى مناعة لمن هو معي .. يقاطعون المجتمع كله ..
أقول للناس جميعاً احذروا هؤلاء .

ولتدبر قوله تعالى : ﴿ سَمِعْتُمْ ﴾ يعنى : مجرد السماع يحتاج إلى موقف .
وهناك فى سورة الأنعام قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) [الاسم : ٦٨٠] قال سبحانه فى آية

(١) قال ابن كثير فى تأويل قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أى : بالكذب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أى : حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من تكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها ، فإن جلس أحد منهم ناسياً ، فلا يقعد بعد الذكر ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . ولهذا ورد فى الحديث :
« رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ^(١) .

(١) روى ابن ماجه [٢٠٤٥] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٣] .

الأنعام : ﴿ رَأَيْتَ ﴾ وقال في آية النساء : ﴿ سَمِعْتُمْ ﴾ إذن .. مجرد الرؤية أو السماع للدين يخوضون توجب المقاطعة .

ولكن كيف تأتى المقاطعة لهؤلاء الذين يخوضون في آيات الله ؟

- وقال السدى عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَإِنَّمَا يُجِيبُكَ الشَّيْطَانُ ﴾ قال : إن نسيته ذكرت فلا تحلس معهم . وكذا قال مقاتل بن حيان . وهذه الآية هي المشار إليها في قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

أى : إنكم إذا جلستم معهم وأقررتهم على ذلك فقد ساويتهم في الذى هم فيه .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جِسَائِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام ٦٩] . أى : إذا تحسروهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك فقد برئوا من عهدهم وتخلصوا من إثمهم .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ ذُكِّرُوا ﴾ [الأنعام ٦٩] ، أى : ولكن أمرناكم بالإعراس عنهم حيث تذكروا لهم عما هم فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ذلك ولا يعودون إليه .

عمدة التفسير [٤٧-٤٨/٥] .

وفى رواية عمده [٢٠٤٣] عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٢] .

وفى روية عمده [٢٠٤٤] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتي عما توسوس به صدورها ، ما لم تعمل به أو تتكلم به . وما استكرهوا عليه » ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [١٦٦٣] .

القانون المدنى حين يجرم واحدا من المجتمع يحبسهُ ليعزله عن المجتمع .. ولكن الإسلام لا يفعل ذلك .. بل يحبس المجتمع كله عنه ، فالجاني حر ولكن الجنى عليه وهو المجتمع - محبوس عنه .. وهذا أشد أنواع المقاطعة .

الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك مع الثلاثة الخلفين ، حبس المجتمع عنهم ، ليس المجتمع فقط ، بل حبس عنهم أخص من فى المجتمع وهم زوجاتهم .. وتأمل كيف يكون حال من لا يجد زوجته تتعامل معه أو حتى تقربه .

لذلك وصف القرآن حال من قاطعتهم الأمة فقال فى الثلاثة الخلفين :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ [التوبة ١١٨]

وقد يقول قائل : زمان كان المجتمع ملتزما .. والآن الناس لا تقاطع .. أقول : ابحث لماذا أصبح المجتمع غير ملتزم قبل أن تبحث عن المحرفين ..

الأصل ألا تتعامل معه ، وإذا أعطيناه نعطي له مكرفة لا مكافأة .

والذى يجعل المجرم يستشرى فى إجرامه أن المجرم يجد احتراما ولو ظاهرياً من جيرانه ، ولو أن أى أحد فعل إجراما وقوطع لعاد صالحا وصالح المجتمع .. ولكن مع الأسف يُكرّم من قبل المتفعين والأفاقين !..

إننى أقول للمنحرفين : أعطوني قضية من أقضية الحياة ، اعقل المجرم لا يحكم بصدقها وحقها . لماذا عندكم حفيظة على الإسلام .. ؟



يظهره على الدين كله .. كيف ؟

السؤال :

ما معنى قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٣]

الجواب : الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .
يظهره طواعية أو جبراً .. اختياراً أو قهراً .. بملكة الإيمان أو برفع الحاجة ..
فلا تخافوا يا أحبائ الله على دين الله . إن ربكم سبحانه يقرر في آية أحب أن تذكروها دائماً ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخَظَّنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ ﴾ [النع : ٢٨] .

نلاحظ أن : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ ﴾ جاءت بالرفع على الاستئناف لا بالنصب عطفاً على : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ ،
لماذا ؟ لأنها غليظة ابتداء .. لم تكن سفلى ثم صارت غليظة .. لا .. وإنما هي عليا من الأصل .. وكلمة الكفر سفلى بكلمة الإيمان ^(١) .

(١) جاء في الجزء السادس من كتاب البداية والنهاية للمحافظ ابن كثير تحت عنوان :
باب ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من الكائنات المستقبلية في حياته وبعده .
وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها ، ولكن نحن نشير =

إلى طرف منها وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وذلك منترع من القرآن ومن الأحاديث ، أما القرآن فقال تعالى في سورة المزمل - وهي من أوائل ما نزل بمكة - : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْسَلٌ وَمَا هُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِخَيْرِكُمْ فِي شَيْءٍ لَّيْسَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ الْقَدَرُ ﴾ [المزمل : ٢٠] ومعصوم أن الجهاد لم يشرع إلا بالمدينة بعد الهجرة . وقال تعالى في سورة القمر - وهي مكية - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ﴾ [القمر : ١٧] . ووقع هذا يوم بدر وقد تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من لعريش ورماهم بقبضة من الحصباء فكان الصر والطفر ، وهذا مصداق ذلك . وقال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَتَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ ﴾ [المسد : ١-٤] . فأخبر أن عمه عبد العزى بن عبد المطلب الملقب بأبي لهب سيدخل النار هو وامراته ، فقدّر الله عز وجل أنهما ماتا على شركهما لم يسلمتا ، حتى ولا ظاهرا ، وهذا من دلائل البوة الباهرة ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] . فأخبر أن جميع الخديقة لو اجتمعوا وتعاضدوا وتناصروا وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته وحلاوته وإحكام أحكامه وبيان حلاله وحرامه وغير ذلك من وجوه إعجازه لما استطاعوا ذلك ، ولما قدروا عليه ولا على عشر سور منه ، بل ولا سورة ، وأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا ، ولن لنفي التأييد في المستقبل ، ومثل هذا التحدي وهذا القطع وهذا الإخبار الجازم لا يصدر إلا عن واثق بما =

= يخبر به ، عالم بما يقوله ، قاطع أن أحدا لا يمكنه أن يعرضه ، ولا يأتي بمثل ما جاء به عن ربه عز وجل ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥] . وهكذا وقع سواء بسواء ، مكن الله هذا الدين وأظهره ، وأعلاه ونشره في سائر الآفاق ، وأنفذه وأمضاه ، وقد فسر كثير من السلف هذه الآية بخلافة الصديق ، ولا شك في دخوله فيها ، ولكن لا تختص به بل تعمه كما تعم غيره ، كما ثبت في الصحيح : « إذا هلك قيصر فلا فيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيده لتعقر كورهما في سبيل الله »^(١) . وقد كان ذلك في زمن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وأرضاهم وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] . وهكذا وقع وعم هذا الدين ، وعلم وعلا على سائر الأدبيات ، في مشارق الأرض ومعاربها ، وعلت كلمته في زمن الصحابة ومن بعدهم ، ودلت لهم سائر البلاد ، ودان لهم جميع أهلها ، على اختلاف أصنافهم ، وصار الناس إما مؤمن داخل في الدين ، وإما مهادن باذل الطاعة والمال ، وإما محارب خائف وجل من سطوة الإسلام وأهله . وقد ثبت في الحديث : « إن الله زوى لي مشارق الأرض ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما روى لي بها »^(٢) . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح: ١٦] . وسواء كان هؤلاء هوازن أو أصحاب =

(١) رواه البخاري [٦٢٥٤] عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه واللفظ له ، ومسلم [٧٥/٢٩١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه مسلم [١٩/٢٢١٥] وأبو داود [٤٢٥٢] والترمذي [٢١٧٦] وابن ماجه [٣٩٥٢] عن ثوبان .

مسيحة ، أو الروم ، فقد وقع ذلك ، وقال تعالى . ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً
 تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ
 وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٦ ﴾ [الفتح] . وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها وكان
 الله على كل شيء قديرًا ﴿ ٢٧ ﴾ [الفتح] . وسواء كانت هذه الأخرى حير
 أو مكة فقد فتحت وأخذت كما وقع به الوعد سواء بسواء ، وقال تعالى .
 ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 آمِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ
 دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧] . فكان هذا الوعد في سنة الحديبية
 عام ست ، ووقع إنجازه في سنة سبع عام عمرة القضاء كما تقدم . وذكرنا
 هناك الحديث بطوله ، وفيه أن عمر قال : يا رسول الله ألم تكن تخبرنا أنا
 سأأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال :
 لا . قال : فإنك تأتيه ونطوف به . وقال تعالى . ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ
 أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .
 وهذا الوعد كان في وقعة بدر لما حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من
 المدينة ليأخذ غير قريش ، فبغ قريشا خروجه إلى غيرهم ، فنفروا في قريب من
 ألف مقاتل ، فلما تحقق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قدومهم
 وعده الله إحدى الطائفتين أن سيظفره بها ، إما العير وإما النفير ، فرد كثير من
 الصحابة - ممن كان معه - أن يكون الوعد للنفير ، لما فيه من الأموال وقوة
 الرجال ، وكرهوا لقاء النفير لما فيه من العدد والعدد ، فخار الله لهم وأنجز لهم
 وعده في النفير بهم بأسه الذي لا يرد ، فقتل من سراتهم سبعون وأسر سبعون
 وفادوا أنفسهم بأموال جريئة ، فجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة ، وبهذا
 قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
 الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٧] . وقد تقدم بيان هذا في غزوة بدر ، وقال تعالى :
 ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ =

- خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [الأنفال : ٧٠]
وهكذا وقع فإن الله عوض من أسلم منهم بحيرى الدنيا والآخرة . ومن ذلك
ما ذكره البخري أن العباس جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
يا رسول الله أعطني ، فأني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلي ، فقال له : خذ ،
فأخذ في ثوب مقدار لم يمكنه أن يقله ، ثم وضع منه مرة بعد مرة حتى أمكنه
أن يحمله على كاهله ، وانطلق به كما ذكرناه في موضعه مبسوطا .
وهذا من تصديق هذه الآية الكريمة ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً
فَسَوْفَ يُعْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وهكذا وقع
عوضهم الله عما كان يغدو إليهم مع حجاج المشركين ، بما شرعه لهم من
قتال أهل الكتاب ، وضرب الجزية عليهم وسلب أموال من قتل منهم على
كفره ، كما وقع بكفار أهل الشام من الروم ومجوس الفرس بالعراق ، وغيره من
البلدان التي انتشر الإسلام على أرجائها ، وحكم على مدائنها وفيقاتها قال
تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] . وقال تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا
أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنْعَرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة : ٩٥] .
وهكذا وقع لما رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك كان قد تخلف عنه
طائفة من المنافقين ، فجعلوا يحلفون بالله لقد كانوا معذورين في تخلفهم ،
وهم في ذلك كاذبون ، فأمر الله رسوله أن يحري أحوالهم على ظامرها ، ولا
يفضحهم عند الناس ، وقد أطلعه الله على أعيان جماعة منهم أربعة عشر
رحلا كما قدمناه لك في غزوة تبوك ، فكان حذيفة بن اليمان ممن يعرفهم
بتعريفه إياه صلى الله عليه وسلم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ
الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] .
وهكذا وقع ، لما اشتروا عليه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه من بين أظهرهم ، =

= ثم وقع الرأى على القتل ، فعد ذلك أمر الله رسوله بالخروج من بين أظهرهم ، فخرج هو وصديقه أبو بكر ، فكما في غار ثور ثلاثا ، ثم ارتحلا بعدها كما قدمنا ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ بِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَنَا مَعَكَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُسُودِهِمْ ثُمَّ تَرَوْهُمْ وَجَمَعَ كُلَّ كَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْأَسْفَلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] . وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِبِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا لَا يَلْسُوثُ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] . وقد وقع كما أخبر فين الملأ الذين اشتوروا على ذلك لم يثبتوا بمكة بعد هجرته صلى الله عليه وسلم إلا ريثما استقر ركابه الشريف بالمدينة وتابعه المهاجرون والأنصار ، ثم كانت وقعة بدر فقتلت تلك النفوس وكسرت تلك الرؤوس ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك قبل كونه من إخبار الله له بذلك ، ولهذا قال سعد بن معاذ لأمية بن حلف : أما إنني سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يذكر أنه قاتلك ، فقال : أنت سمعته ؟ قال . نعم . قل : فإنه والله لا يكذب ، وسيأتي الحديث في بابه . وقد قدمنا أنه عليه السلام جعل يشير لأصحابه قبل الوقوع إلى مصارع لقتلى ، فما بعدى أحد منهم موضعه الذي أشار إليه صوات الله وسلامه عليه . وقل تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ فِي الْقُرْآنِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . وفي آذَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عِبَادِهِمْ سَبْعِلُونَ ﴿١٠٠﴾ فِي يَضِيعُ سَبِيلُ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخِيفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الروم : ١٠٣] . وهذا الوعد وقع كما أخبر به ، وذلك أنه لما عبت فارس الروم فرح المشركون ، واعتم بذلك =

المؤمنون ، لأن النصارى أقرب إلى الإسلام من المجوس ، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن الروم ستعذب القرس بعد هذه المدة بسبع سنين ، وكان من أمر مرهنة الصديق رؤوس المشركين على أن ذلك سيقع في هذه المدة ، ما هو مشهور كما قررنا في كتابنا التفسير ، فوقع الأمر كما أحبر به القرآن ، غبت الروم فارس بعد عليهم غلبا عظيما جدا ، وقصتهم في ذلك يطول بسطها ، وقد شرحناها في التفسير بما فيه الكفاية وله الحمد والمنة . وقال تعالى : ﴿ سَرَّيْنَهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وكذلك وقع ، أظهر الله من آياته ودلائله في أنفس البشر وفي الآفاق بما أوقعه من الناس بأعداء السيرة ، ومحالفي الشرع ممن كذب به من أهل الكتدين ، والمجوس والمشركين ، ما دل ذوي البصائر والنهي على أن محمدا رسول الله حقا ، وأن ما جاء به من الوحي عن الله صدق ، وقد أوقع به في صدور أعدائه وقلوبهم رجسا ومهابة وحرقا ، كما نت عنه في الصحيحين أنه قال : بصرت بالرعب مسيرة شهر ، وهذا من التأييد والنصر الذي آتاه الله عز وجل ، وكان عدوه يخافه ويبه ويبنه مسيرة شهر ، وقيل . كان إذا عزم على عزو قوم أرعوا قبل مجيئه إليهم ، ووروده عليهم بشهر صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين . وقال السيوطي في الدر المنثور : أخرج أحمد ومسلم والحاكم وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعد اللات والعري » . فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : يا رسول الله إني كنت أظن حين أنزل الله ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أن ذلك سيكون تاما فقال : إنه سيكون من ذلك إن شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى من كان في قلبه مثقال حبة من حردل من حير فيبقى من لا خير فيه يرجعون إلى دين آبائهم » وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله =

= تعالى عنه ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ [التوبة ٣٣٠] يعيسى بالتوحيد والقرآن والإسلام . وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ قال : يظهر الله نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر الدين كله فيعطيه إياه كله ولا يحفى عليه شيء منه وكان لمشركون واليهود يكرهون ذلك . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليطهره على الدين كله ، فديننا فوق الملل ، ورجالنا فوق نسائهم ولا يكون رجالهم فوق نسائنا . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في سننه عن جابر رضي الله عنه في قوله ﴿ يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني صاحب ملة إلا الإسلام حتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير وذلك إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام ١٠

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله تعالى عنه في قوله : ﴿ يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال : الأديان ستة . الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا . فالأديان كلها تدخل في دين الإسلام ، والإسلام لا يدخل في شيء منها ، فإن الله قضى فيما حكم وأنزل أن يظهر ديه على الدين كله ولو كره المشركون . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في قوله : ﴿ يُظَاهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ قال : خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ يقول . تعينوه بالنفر معه في عزوة تبوك . عاتبهم الله بعد انصراف نبيه عليه السلام من تبوك . قل النقاش : هذه أول آية نزلت من سورة « براءة »

شعار حرية الفكر

السؤال : البعض يدافع عن الملاحدة تحت شعار

واسع وهو شعار حرية الفكر ؟

الجواب : إن أصل التدين يعصم الفكر من أن يخوض في مسألة الهوى ويلونها لذلك فالمسائل التي ليس فيها هوى الدين ، الدين لم يتعرض لها .. والرسول صلى الله عليه وسلم حسمها في المسائل التجريبية العملية كما قال في مسألة تأييد النخل : « أستم أعلم بأمور دنياكم »^(١) . فالدين يتدخل في حرية فكر تخدم هوى .

والمعنى : إن تركتم نصره والله يتكفل به ، إذ قد نصره الله في مواطن القلة وأظهره على عدوه بالعلنة والعرة . وقيل . فقد نصره الله بصاحبه في العار بتأييده له وحمده على عنقه وبوفاته ووقايته به بنفسه ومواساته له بماله . قال الليث بن سعد : ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق . وقال سفيان بن عيينة حرح أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَأَيُّكُمْ يَحْمِلُ لَكُمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] . أي : من الملائكة . والكناية في قوله : ﴿ وَأَيُّكُمْ ﴾ ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والضميران يختلفان وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ أي كلمة الشرك . ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفَالِقُ ﴾ قيل : لا إله إلا الله . وقيل : وعد النصر .

(١) روى ابن ماجة [٢٤٧١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع صوتا فقال : « ما هذا الصوت ؟ قالوا : المحل يؤبرونها ، فقال : لو لم يفعلوا لصبح فلم يؤبروا عامدا فصار شيبا فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به وإن كان من أمور دينكم فإلى » . وصححه الألباني [٢٠٠٣] .

وقلنا : إن الموجات الحضارية فى العلم لها موجه مادية وموجه نظرية ..
المادية خاضعة للعلم المعملى .. وهذه هل اختلعت المعسكرات فيها : لا ..
ليس هناك كهرباء أمريكية وكهرباء روسية .. المعمل لا يجامل !..
لذا تجد المعسكرات المتحاربة تسرق من بعضها نتائج العلم المادى ولكنها
تغلق أبوابها أمام العلم النظرى .

الدين جاء ليمنع الهوى فى العلم النظرى .. والآفة كلها من تحكم الهوى ،
فالدين يعمنون هواهم فيما جاء فيه حكم من الله تعالى نقول لهم : لقد ختم
أمانة الله فيكم وصددتم عن غاية الدين فيكم .

لدا عندما أراد الله أن يعصى رسوله المناعة قال فيه : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ ﴾ [النجم] فسهج الله حارس لبشرية رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

والذين يتبعون أهواءهم لا رأى لهم ، لأن آفة الرأى الهوى كما يقول أهل
العلم .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْهَوَىٰ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمن : ٧١] .

إذن .. فالله يعصمنا من الأهواء ، حتى يكون هوى واحد هو الذى
يحكمنا والرسول يشرحها فيقول : « حتى يكون هواه تبعا لما حثت به »^(١) .
فعندما تجد فى الأمر احتلافا فى الأهواء فانظر إلى أمر الله فيه .. افعل
ولا تفعل .. فإن لم تفعل فى أمر قال الله فيه « أفعل » حدث الفساد .. وإن

(١) رواه ابى حارى فى كتاب قرّة العينين برفع اليدين فى الصلاة رقم [٤٥] وقال
الحافظ فى الفتح [٢٩٠/١٣] أخرجه الحسب بن سفيان وغيره ورجاله ثقات ،
وقد صححه النووى فى آخر كتاب الأربعين له .

فعلت في أمر قال الله فيه « لا تفعل » حدث الفساد .. ومالم يقل الله فيه « افس .. ولا تفعل » فمعناه أن الأمر يصلح بوجوده وعدمه ^(١) .

(١) يعنى الإسلام أن أول حوار في تاريخ الكون بدأ بين رب أنكون وواحد من

- إن الإسلام قد قدم لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ما يمكن وصفه بأعدل برنامج للتعايش والتآخي ونصر القيم التوحيدية الأصيلة التي يفترض أنها تجمع بين أصحاب الرسالات الثلاثة يقول ربا : ﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] انتهى الإنصاف ! لم يطلب منهم ولا حتى الإيمان بمحمد ، أى صورة سيكون العالم عليها لو أن أهل الكتاب استجابوا لهذه الدعوة النبيلة .

الإسلام أول من أقام دولة متعددة الأديان موحدة المواطنة فى ديننا . تعدد واختلاف البشر دينيا وقوميا هو ظاهرة أبدية تعبر عن إرادة الله الذى خلقهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وليست خطأ عارضا لابد أن يزول بوحدة مزعومة للجنس البشرى !

الإسلام هو الدين الوحيد الذى أعطى الشرعية للأسرة المتعددة الأديان فيجلس على المائدة الواحدة العم المسلم والمخالة أو الختان المسيحي أو اليهودي .

هذا عن المسلمين فماذا عن غيرهم ؟

وحتى اليوم وفى نهاية التاريخ والضم العالمى الجديد ومشارف القرن الحادى والعشرين والطريق إلى المريح مازالت مدفعية المنتصرين تلك المساحد وترفع الصليب ، أو صمام الإله راما فوق المآذن ، فعل ذلك الفرنسيون فى منتصف القرن التاسع عشر والبلغار والصرب والهدوك فى نهاية القرن العشرين ، ولكن هل من حادثة واحدة لحرق كنيسة أو كهنة أو صعود المسلمين فى القرن السابع أكرر السابع فوق كنيسة أو كنيس لوضع شعار لا إله إلا الله يوم اكتسحت جيوش المسلمين العالم ؛ هل أحرقوا كنيسة أو حطموا صليبا ، أو قتلوا قسا أو حاخاما ؟ ! =



- ماذا تعنى حرية الفكر عند الشيوعيين ؟

تعنى حرية إنكار وجود الله ، حرية نشر الإلحاد ، حرية التطاول على الأنبياء ، حرية انتهاك حرمت الله ، حرية تشويه المقدسات ، حرية تأييد كل من يهاجم العقائد ، حرية إلغاء المؤسسات الإسلامية ، حرية مصادرة آراء الأزهر الشريف ، حرية تجريد الإنسان من فطرته ، حرية الدفاع عن كل زنديق ومارق .
بعد هذا أفصحن الدين يقعق لنا بالشنان أو يحشى منا على حرية المتدينين والأديان ؟!

الأنوار الكاشفة للشيخ محمد منولى الشعراوى [٧٥-٧٩] .

الخلافة الإسلامية

السؤال :

كيف الرد علي من يزعم أن الخلافة الإسلامية
تقوم علي حكم شرعي فاسد رهيب نتاج ظلمات
الجاهلية وتم في ظل رغبة كل من المهاجرين
والأنصار في تصفية كل طرف للطرف الآخر
وسعي كل منها للإمارة لحماية نفسه من الإبادة ؟

الجواب : ربما كانت هناك شبهة من هذا الزعم لو بقيت الخلافة في
المهاجرين والأنصار وحدهم . ولكن الإسلام انسح إلى حضارات كبيرة
اجتذبت الإسلام ، لأنه خلصها من مساوئها .

فلو أن الإسلام بقي في الأوس والخزرج والمهاجرين لصح هذا الزعم ، ولكنه
جابه القوتين العظميين في العالم في وقت واحد ، يعنى لم يجابه كلا منهما
على حدة .

وبحن بهذا نشئت أن الأمة جاءت بنظام قبلته الأمم الحضارية وعاشت به ،
وبحن نعم : إنها أمة أمية ، فلا يجوز أن يقال إنها قفزة حضارية .
مع أنه خلص حضارتى الفرس والروم من مساوئهما ، وارتضاه أهل هاتين
الحضارتين نظاماً لهم ؟ ^(١) .

(١) نقلاً عن كتاب الأنوار الكاشفة لما في كتاب العشماوى من الخطأ والتضليل
والمجافاة التى شرفت مكتبتنا بنشره ردّاً على كتاب الخلافة الإسلامية للمستشار
محمد سعيد العشماوى .

وهذه شذرات من بعض ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ونقده الأئمة
الأعلام إلينا عن خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه المطهرين : -

= قال القرطبي في تفسير سورة البقرة [٢٥٣] . وهكذا القول في الصحابة إن شاء الله تعالى اشتركوا في الصحبة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل فهم متفاضلون بتلك مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليهم وحسبك بقوله الحق : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [التح : ٢٩] إلى آخر السورة . وقال : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح : ٢٦] ثم قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ ﴾ [الحديد : ١٠] وقال : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] فعم وخص ونفى عنهم الشين والنقص رضي الله عنهم أجمعين ونفعنا بحبهم آمين . وقال القرطبي في تفسير سورة الفتح [٢٩] روى أبو عروة الريري من ولد الربيع : كما عد مالك بن أنس فذكروا رجلا يتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ مالك هذه الآية ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ حتى بلغ « يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » . فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه عيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ذكره الخطيب أبو بكر . قلت : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله . فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين قال الله تعالى : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ الآية . وقال : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] . وقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ ضَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ إلى قوله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] ثم قال عمر من قائل : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ -

.....
= وَالْإِيمَنَ مِنْ قَلْبِهِمْ ﴿﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [بخش ٩٠] .

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حير الناس قربي ثم الذين يلونهم » وقال : « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » خرجهما البخاري . وفي حديث آخر : « فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد فالنصيف هو النصف هنا . وكذلك يقال للعشر عشر وللخمس خمس وللثمن ثمين وللربع ربع . وفي البزار عن حابر مرفوعاً صحيحاً : « إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - فجعلهم أصحابي » . وقال : « في أصحابي كلهم خير » . وروى عويم بن ساعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وراءاً وأحتاباً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله مه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة فحذار من الوقوع في أحد منهم كما فعل من طعن في الدين فقال : إن المعوذتين ليستا من القرآن وما صح حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقة بن عامر وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها فروايتهم مطروحة . وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقة بن عامر بن عيسى الجهلي ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرًا عظيمًا . فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى =

= كذب فهو خارج عن الشريعة مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتى أحق واحد منهم تكديبا فقد سب لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سب أصحابه فالمكذب لأصغرهم - ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وألرمها كل من سب واحدا من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم فاحتج بعضهم بالحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع بعضهم الحديث ورادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه وصرخوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد حان نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فنظر إلي الرشيد نظر مغضب وقمت من المجلس فاصرفت إلى مرلي فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب فدخل فقال لي : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول وتحط وتكفر فقلت : اللهم إنك تعلم أنني دافعت عن صاحب نبيك وأجللت نبيك أن يظلم على أصحابه فسلمي منه . فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب حاسر عن ذراعيه بيده السيف وبين يديه النطع فلما بصر بي قال لي : يا عمر ابن حبيب ما تلقاني أحد من الرد والدفع نقولي بمثل ما تلقيتني به فقلت : يا أمير المؤمنين إن الذي قلته وجادلته عنه فيه ارداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما حاء به إذا كان أصحابه كذايين فالشريعة باطلة والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق وللكاح والحدود كله مدود غير مقبول فرجع إلى نفسه ثم قال : أحييتي يا عمر بن حبيب أحياك الله وأمر =

= لي بعشرة آلاف درهم . قلت . فالصحابه كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياءه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم فينزم البحث عن عدالتهم . ومهم من فرق بين حالهم في بدو الأمر فقال إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء فلا بد من البحث . وهذا مردود فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : « معفرة وأجرا عظيما » . وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبينهم بإخياره لهم بذلك . وذلك غير مُسقط من مرتبتهم وفضلهم إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد وكل مجتهد مصيب .

روى أبو داود [٤٦٠٧] عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحر بن حجر قالا : أتينا العرياض بن سارية وهو ممن نزل فيه : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة ٩٢٠] فسلمنا وقلنا أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين فقال العرياض صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . وصححه الألباني .

- روى البخارى [٣٦٩١] ومسلم [٢/٢٣٨٢] عن أبي سعيد الخدري رضي
 لله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال إن
 عبدا خيره الله بين أن يؤتیه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختر ما عنده
 فيكى أبو بكر وقال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له وقال الناس انظروا إلی
 هذا الشيخ يحبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن
 يؤتیه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فدينك بآبائنا وأمهاتنا فكان
 رسول لله صلى الله عليه وسلم هو الخیر وكان أبو بكر هو أعلمنا به وقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا
 بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتحدث أبا بكر إلا خبة الإسلام
 لا يقيين في المسجد خوذة إلا خوذة أبي بكر .

روى البخارى [٣٤٧٤] ومسلم [١٤/٢٣٨٩] عن بن أبي مليكة عن بن
 عباس رضي الله تعالى عنهما قال إني لواقف في قوم فدعوا الله الهمر بن
 الخطاب وقد وضع على سريره إذا رجل من خلفي قد وضع مرفقه على منكبي
 يقول رحمك الله إن كنت لأرحو أن يجعلك الله مع صاحبك لأنني كثيرا مما
 كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كنت وأبو بكر وعمر
 وفعلت وأبو بكر وعمر وانطلقت وأبو بكر وعمر فإن كنت لأرجو أن يجعلك
 الله معهما فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب .

روى البخارى [٣٤٦٤] ومسلم [١٧/٢٣٩٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى
 عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بيا أنا نائم رأيتني على قلب
 عليها دلو فتزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فتزع بها ذنوبا
 أو دويين وفي نرعه صعف والله يغفر له ضعفه ثم استحالت غربا فأخذها ابن
 الخطاب فلم أر عمقريا من الناس يرع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن . =

روى أحمد في المسند [٤٠٨/٣] عن نافع بن عبد الحرث قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل حائطاً فقال لي أمسك علي الباب فجاء حتى جلس على القف ودلي رجليه في البئر فضرب الباب قلت من هذا قال أبو بكر قلت يا رسول الله هذا أبو بكر قال ائذن له وبشره بالجنة قال فأذنت له وبشرته بالجنة قال فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر ثم ضرب الباب فقلت من هذا فقال عمر فقلت يا رسول الله هذا عمر قال ائذن له وبشره بالجنة قال فأذنت له وبشرته بالجنة قال فدخل فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر قال ثم ضرب الباب فقلت من هذا قال عثمان فقلت يا رسول الله هذا عثمان قال ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء فأذنت له وبشرته بالجنة فجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على القف ودلي رجليه في البئر . ورواه أبو داود [٥١٨٨] وقال الألباني : حسن الإسناد .

وروى الترمذي [٣٧٠١] عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار قال الحسن بن واقع وكان في موضع آخر من كتابي في كنه حين جهز جيش العسرة فينثرها في حجره قال عبد الرحمن فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقلبنا في حجره ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين . وحسنه الألباني .

وروى الترمذي [٢٢٢٦] عن سفينة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك ثم قال لي سفينة أمسك خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان ثم قال لي أمسك خلافة علي قال فوجدناها ثلاثين سنة . وقال الألباني : صحيح .

وروى البخاري [٣٤٨٣] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجده وقال اثبت أحد فما عليك إلا بي أو صديق أو شهيدان . =

= روي الترمذی [٣٧١٢] عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا واستعمل عليهم علي بن أبي طالب بمضى في السرية فأصاب جارية فأنكروا عليه وتعاهد أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إذا لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه بما صنع علي وكان اسلمون إذا رجعوا من السفر بدأوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم فلما قدمت السرية سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قام الثاني فقال مثل مقالته فأعرض عنه ثم قام الثالث فقال مثل مقالته فأعرض عنه ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والعضب يعرف في وجهه فقال ما تريدون من علي ما تريدون من علي ما تريدون من عبي إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي وقال الألباني : صحيح .

الاتجاه العسكرى في الإسلام

السؤال :

يزعم بعض أعداء الإسلام أن الاتجاه العسكرى فى الإسلام بدأ بغزوة خيبر . ذلك أن أهلها لم يكونوا من المشركين . كما أن أهل خيبر لم يكونوا قد أساءوا إلى السى أو إلى الإسلام بشيء ؟

الجواب : هذا كلام لا يستطيع اليهود أنفسهم أن يقولوه ، لماذا ؟ لأن وقائع التاريخ تكذبه . والمسلمون لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن حاول بنو النضير أن يقتالوا النبى صلى الله عليه وسلم حين كان عندهم ، وذلك بإلقاء حجر عليه من أعلى أحد المنازل ، فأخبره الله بهذه المؤامرة ، فترك المكان ، وقرر بعدها إجلاء بنى النضير فخرجوا من المدينة ، وذهب زعمائهم إلى خيبر . وهناك دبروا لإشعال حرب ضد النبى صلى الله عليه وسلم فذهب وفد منهم إلى مكة ، واتفقوا مع أبى سفيان ومع قبيلة غطفان على ذلك .

يعنى يهود خيبر اشتركوا فى تكوين الأحزاب ، وحدثت غزوة الخندق .. ونقض بنو قريظة العهد أيضاً . فهل بعد ذلك يزعم أحد بأن يهود خيبر لم يسيئوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم^(١) ؟

(١) لما حدث للأحزاب ما حدث أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان يأتيه بحبرهم ، فوجدهم وقد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره برحيل القوم ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رد الله عدوه بغيظه ، لم ينالوا خيراً ، وكفاه الله قتالهم ، فصدق وعده ، وأعر جنده ، وبصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فدخل المدينة ووضع السلاح ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وهو يعتسل فى بيت أم سلمة ، =

- فقال : أَوْضَعْتُمُ السِّلَاحَ ؟ إِنْ الْمَلَائِكَةُ لَمْ تَضَعِ بَعْدَ أُسْلِحَتِهَا ، انْهَضْ إِلَى غُرُ هَؤُلَاءِ ، يَعْنِي بَنِي قَرِظَةَ ، فَنَادَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ كَانَ سَامِعًا مَطِيعًا ، فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ »^(١) ، فَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ سِرَاعًا ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرُ بَنِي قَرِظَةَ مَا قَدِمْنَاهُ ، وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ الْحَنْدَقِ وَيَوْمَ قَرِظَةَ سَحْوَةَ عَشْرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ مِمَّنْ أَلَّبَ الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يُقْتَلْ مَعَ بَنِي قَرِظَةَ كَمَا قَتَلَ صَاحِبُهُ حُجَيْبُ بْنُ أَخْطَبٍ ، وَرَغِبَتْ الْخَزْرَجُ فِي قَتْلِهِ مَسَاوَاةً لِلْأَوْسِ فِي قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ جَعَلَ هَذَيْنِ الْحَيَّتَيْنِ يَتَصَاوِلَانِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخِيَرَاتِ ، فَاسْتَأْذَنُوهُ فِي قَتْلِهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فَانْتَدَبَ لَهُ رِجَالٌ كُلُّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمَةَ ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ ، وَهُوَ أَمِيرُ الْقَوْمِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَنَيْسٍ ، وَأَبُو قَتَادَةَ ، وَالْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَمُسْعُودُ بْنُ سَنَانَ ، وَخُزَاعِيُّ بْنُ أَسُودٍ ، فَسَارُوا حَتَّى أَتَوْهُ فِي خَيْرٍ فِي دَارِهِ ، فَتَزَلُّوا عَلَيْهِ لَيْلًا ، =

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ [٦٩/٤١١٩] ، وَمُسْلِمٌ [١٧٧٠] عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ : « لَا يَصْبِرِينَ أَحَدُكُمْ عَصْرًا ، لَا فِي بَنِي قَرِظَةَ » ، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا نَصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ نَصَلِّي لَمْ يَرِدْ مِنَّا ذَلِكَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ يَعْنِفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ ، لَعَفَ الْبُخَارِيُّ ، وَلَقِظَ مُسْلِمٌ : نَادَى فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الْأَحْزَابِ : « لَا يَصَلِّينَ أَحَدٌ انْظَهَرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ » ، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوُتَ لَوْ قَدْ فَصَلُوا دُونَ بَنِي قَرِظَةَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا نَصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ ، قَالَ : فَمَا عَنَفَ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ .
وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْهِ . أَنَّهُ لَا يَبَاقُ عَلَى مَنْ أَحْزَنَ بِظَاهِرِ حَدِيثٍ أَوْ آيَةٍ ، وَلَا عَلَى مَنْ اسْتَنْطِيطَ مِنَ النَّصِّ مَعْنَى يَخْصُصُهُ .

= فقتلوه ، ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلهم ادعى قتله ، فقال : « أروني أسيافكم » فما أروه إياها ، قال لسيف عبد الله بن أنيس : « هذا الذي قتله أرى فيه أثر الطعام » (١) .

وقال ابن الجوزي : وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

وكان حُيَّ بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى ينجزهم قال لهم كعب بن أسد يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا أيها شتم ، فقالوا : وما هي ؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون عين دماءكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أيتم على هذه فهلهم فليقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بينا وبين محمد ، فإن بهلك نهلك ، ولم نترك وراءنا نسلاً نحشي عليه وإن ظهر فنعمرى لتجدن النساء والأبناء ، قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ! قال : فإذا أيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غزوة ، قال : نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ! قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه حازماً ليلة واحدة من الدهر .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر ، أخا بني عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - نستشيرهم في =

(١) زاد المعاد [٢٧١/٣ - ٢٧٦] .

- أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قام إليه الرجال وحبش إليه النساء والصبيان ييكون في وجهه ، فرق لهم وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن نزل عبي حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى خلقه : إنه الذبح . قال أبو لبابة : فوالله ما رالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد حُنت الله ورسوله ، ثم انطلق أهر لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتط في المسجد إلى عمود من عمدته . وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ، وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد حنت الله ورسوله فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان قد استبطأه قال : « أما إنه لو كان جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » ، فنزلت توبته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت أم سلمة ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السُخر وهو يصحك ، قلت : مم تضحك أضحك الله سكت ؟ قال : « تيب على أبي لبابة » ، قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله . قال : « بلي إن شئت » . قال : فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، قالت : فثار الناس إليه ليُطلقوه فقال . لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده ، فلما مرّ عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

وذكر بن هشام أن أبا لبابة أقام مرتبطاً بالجذع ست ليال تأتبه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فترتبطه بالجذع .

والآية التي نزلت في توبته : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة . ١٠٢] وأنزل الله في أبي لبابة ، فيما روي عن عبد الله بن قتادة : ﴿ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا =

= لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلُمُونَ ﴿٢٧﴾ [الأعداء ٢٧] .

ثم إن ثعلبة بن سَعْيَةَ وأَسِيدَ بن سَعْيَةَ وأَسَدَ بن عَمِيرَ وهم نفر من بني هَذِيلَ ليسوا من بني قريظة ولا بني النصير ، نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحرزوا دماءهم وأموالهم ، وكان إسلامهم فيما زعموا عتًا كان ألقاه إليهم من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن الهيثيان القادم عليهم قبل الإسلام متوكلًا لخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم محققًا لنبوته ، فنفع الله هؤلاء الثلاثة بذلك واستنقذهم به من النار .

وخرج في تلك الليلة عمر بن سعد بن مقرظي ، فمرّ بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنه محمد بن مسلمة ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سعد ، وكان عمرو قد أتى أن يدخل مع بني قريظة في عذرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لا أغدر بمحمد أبدا ، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه : اللهم لا تحرمي إهاله عثايت الكرام ! ثم حلى سبيله ، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يُدر أين توجه من الأرض إلى يوم هذا ، فذكر شأنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذاك رجل نجاه الله بوفائه ، وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برؤمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت رؤيته ملقاة ولا يدري أين ذهب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه تلك المقالة . قاله أعلم أي ذلك كان ، ولما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم تواترت الأوس فقالوا : يا رسول الله إنهم موالينا دون الخرح ، وقد فعلت في موالينا إخواننا بالأمس ما قد علمت يريدون بني قَيْقَاعَ وما كان من حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ونزولهم على حكمه ، وكيف سأله إياهم عيذ الله بن أبي -

- ابن سُلَول فوهبهم له ، فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم ؟ » قالوا : بلى . قال :
« فذاك إلى سعد بن معاذ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة
من أشتم يقال لها : رُفيدة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها
على خدمة من كانت به صبيحة من المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم في الخندق : « اجعلوه في خيمة
رُفيدة حتى أعوده من قريب » ، فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من آدم
- وكان رجلاً جسيماً - ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهم يقولون : يا أبا عمر أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا قار : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في
الله لومةٌ لائم !

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال
بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه .
فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى سيدكم »^(١) فأما المهاجرون من قريش
فيقولون : إنما أراد الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عثم بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم المسلمين ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مَوليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ :
عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه : إنَّ الحكم فيهم لما حكمتُ ؟ قالوا : نعم .
قال : وعلى من ها ها - في الساحة التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم =

(١) أخرجه البخاري [٣٠٣٤] ومسلم [١٧٦٨/٦٤] .

- عليه وسلم - وهو مُعرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » . قل سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتقسّم الأموال وتُشيبى الذراري والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أزقة »^(١) . ثم استأثروا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة في دار امرأة من بنى النجار ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فغندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يُخرج بهم إليها أرسالاً ، وفيهم عدو الله حُيى بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة ، قالوا لكعب بن أسد - وهم يُذهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً - : يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟ قال : أفى كل موطن لا تغفلون ! ألا ترون أن الداعى لا يتزع وأن الذهاب لا يرجع ؟ هو والله القتل . فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتى بعدو الله حُيى بن أخطب وعليه حلة فُفَاحِيَّة^(٢) قد شقها عليه من كل ناحية قَدْرَ أُنْمَلَةٍ لثلاً يُشَلِّبُهَا ، مجموعة يدها إلى عنقه بحبل ، فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكن من يَحْدِلُ الله يُحْدِلُ ! ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى إسرائيل ! ثم جلس فضربت عنقه . فقال في ذلك جبل بن جؤال الثعلبي :

(١) الطبقات لابن سعد [٧٤/٢] .

(٢) الفقاح . الزهر إذا اشقت أكمته ، والمراد أنها كانت تصرب إلى الحمرة ، قال ابن هشام : ففاحية : ضرب من الوشى .

= لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يُخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عُذرها وقنقل يعني العز كل يقنقل^(١)
بل ابتغى عدو الله ذل الأبد فوجده ، وجاهد الله فجهده فأصبح برأيه
القائل^(٢) وسعيه الخاسر من الذين لهم حزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب
النار .

وقُتل من نساء بنى قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها ، قالت عائشة
أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها : والله إنها لعندي تُحدث معي وتضعك ظهرا
وبطنا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها في السوق إذ هنف
هاتف باسمها : أين فلانة قالت : أنا والله قلت لها : ويلك ما لك ؟ قالت :
أقتل ، قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أخذته ، فانطلق بها فضربت عنقها ،
فكانت عائشة تقول : والله لا أنسى عجا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها
وقد علمت أنها تُقتل .

قال ابن هشام : هي التي طرح الرخا عبي خلاد بن سويد فقتلته .
وكان الزبير بن باطا القرطي قد مرّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية ،
أحذه يوم بُعث فجرّ ناصيته ثم خلّي سبيله . فجاءه ثابت لما قُتل بنو قريظة
وهو شيخ كبير فقال . يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني ؟ قال : وهل بجهل مثلي
مثلك ، قال : فإني أردت أن أجزيك بيدك عندي . قال : إنّ الكريم يجزي
الكريم ، ثم أتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنه
كان لزيير على مئة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « هو لك » ، فأتاه فقال : إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد وهب لي دمك فهو لك قل : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما =

(١) قنقل : سعى وتحرك .

(٢) القائل : المحطّ .

= يصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله امرأته وولده ، قال « هم بك » . فأتاه فقال : قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك . قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ماله ؟ قال : « هو لك » ، فأباه ثابت فقال : قد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك ، فقال : أى ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى ، كعب بن أسد ؟ قال : قُتل . قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حُتى بن أحطب ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل مُقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فزنا عزال بن شموال ؟ قال قُتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة ؟ قال : ذهبوا فقتلوا ، قل : فإنى أسألك ياثابت بيدي عندك ألا ألحقنتى بالقوم ، فوالله ما هى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله فتيمة دلوا ناضح حتى ألقى الأحبة ، فقدّمه ثابت فضرب عنقه .

فلما بلغ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قوله : « ألقى الأحبة » قال : يلقاهم والله فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل كل من أبى منهم ، قال عطية القرظى : كنت غلاماً فوجدونى لم أبى فحلوا سلى .

وكان رفاعه بن شموال القرظى رجلاً قد بلغ فلاد بتلّعى بست قيس أم المنذر ، أنخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى حالات رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلّت القبليتين معه وبايعته بيعة النساء فقالت : يا نبي الله بأبى أنت وأمي هب لي رفاعه ، فإنه زعم أنه سيصلّى ويأكل لحم لحمل . فوهبه لها فاستحيته .

= ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منها الخمس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم ، وللفرس سهمان وللفارسه سهم ، وللراجل ومن ليس له فرس سهم ، فكانت الخيل يوم بني قريظة ستة وثلاثين فرساً ، وكان أول فيء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس ، فعلى سُنَّتِها وما مضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت المقاسم ومضت السنة في المغازي .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي بسبأيا من سبأيا بني قريظة إلى نجد فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن حُصاة من بني عمرو بن قريظة ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه ، وكان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك فتركها . وكنت حين سبأها قد تعصّت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد في نفسه لذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع رقع نعين خلفه فقال : إن هذا لشعبة بن سَعْيَةَ يبشرني بإسلام ريحانة ، فجاءه فقال : يا رسول الله قد أسلمت ريحانة ، فسرّه ذلك من أمره ^(١) . هذا عن بني قريظة ، أما ما ورد في شأن خير فروى ابن هشام في السيرة وابن كثير في البداية والنهاية وغيرهما :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية مكث بها ذا الحجة مُنْسلَخ سنة ست ، وبعض المحرم من سنة سبع ، ثم خرج في بقية منه إلى خير غازياً . =

(١) الاكتفاء [١٧٦/٢ - ١٨٦] بتصرف .

= وكان الله تبارك وتعالى وعده إياها بالحديبية بقوله عز من قائل : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٠] يعنى بالمعجل صلح الحديبية ، والمغانم الموعود بها فتح خيبر .

فخرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مستنجزا ميعاد ربه ، ورائقا بكفائته ، ونصره ، ودفع الراية إلى على بن أبى طالب ، وكانت بيضاء ، فسلك على عَصْر^(١) فبنى له فيها مسجدا ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرُّحَيْع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر وكانوا لهم مطاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن عطفان لما سمعت بمنزله من خير جمعوا ، ثم خرجوا ليطاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا مَثْقَلَةً^(٢) سمعوا خلفهم فى أموالهم ، وأهليهم حسنا ظنوا أن القوم قد حالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيبر .

قال أبو معتب بن عمرو : لما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر ، قال لأصحابه ، وأنا فيهم : « قفوا » ثم قال : « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا أَدْرَيْنَ فَإِنَا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا » ثم قال . « أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ » قال : وكان يقولها لكل قرية دخلها^(٣) .

(١) عصر : جبل بين المدينة ووادى الفرع .

(٢) المثقلة : المرحلة من الطريق .

(٣) رواه ابن هشام [٣٢٩/٢] عن ابن إسحاق حدثني من لا أتهم عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي عن أبيه . عن أبي معتب بن عمرو ، والرجل المبهمة سماه البيهقي =

= وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً لم يُغزو عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً ، أغار فتزلنا خبير ليلاً فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب ، وركبنا معه ، فركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقبلنا عمال خبير عادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومكائيلهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس معه ! فادبروا هرباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خربت خبير ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ ^(١) . » =

في روايته « صالح بن كيسان » فيما ذكره ابن كثير في « البداية » [١٨٣/٤] ، لكن الراوى عنه هو إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف ، لكن يشهد به ما أخرجه الحاكم [٤٤٦/١] و [١٠١/٢] ، والهيثمي [٢٥٢/٥] وابن السني [٥٢٥] من حديث صهيب رضي الله تعالى عنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها : « اللَّهُمَّ رَبِّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلَن ... » وآخر من حديث أبي ليابة بن المنذر قال الهيثمي في « المجمع » [١٣٤/١٠] رواه الطبراني في « الأوسط » وإسناده حسن .

(١) رواه ابن هشام [٢٩٩/٤] عن ابن إسحاق وروى البخاري [٢٩٤٣] عن حميد قال : سمعت أنسا رضي الله تعالى عنه يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح . فنزلنا خبير ليلاً . »

وروى مسلم [١٣٦٥/١٢٠] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خبير . قال : فصلينا عندها صلاة العداة بعلس . فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة فأجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خبير . وإن ركبتني لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم =

قال ابن إسحاق : وتدنى ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتحها حصناً حصناً ، وكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مشكمة ، ألقيت عليه رحي منه فقتلته ، ثم القموص حصن ابن الحقيق وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سبايا منهن صفية بنت حيي بن أخطب ، وكانت عبد كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وبنتي عم لها ، فاصطفى صفية لنفسه بعد أن سأله إياها دحية الكلبي ، فلما اصطفاها لنفسه ، أعطاه ابنتي عمها ، وكان بلال هو الذي جاء بصفية وبأخرى معها فمرّ بهما على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهما التى مع صفية صاحتا ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أغربوا عنى هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحيرث خلفه ، وألقى عينا رداءه ، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه ، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أتزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » .

وكانت صفية قد رأت فى المنام ، وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجار محمدا ! فلطم وجهها لطمة خضر عينيها منها . فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته بالخبر . -

= وابحسر الإرار عن فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم . وأبى لأرى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم . فلما دخل القرية قال : « الله أكبر ! حرب حبير . إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ مَسَاءَ صَاحُ الْمُنْدَرِينَ ﴾ [الصافات : ١٧٧] . قالها ثلاث مرار . قال وقد خرج القوم إلى أعمالهم . فقالوا : محمد . قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا : والخميس . قال : وأصبناها عنوة .

(١) تدنى : جعل يأخذ الأدنى فالأدنى .

= ولما أعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير أو ببعض الطريق ، وبات بها في قبة له بات أبو أيوب الأنصاري متوشحاً بالسيف يحرسه ، ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى مكانه قال : « ما لك يا أبا أيوب ؟ » قال . يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وكانت حديثة عهد بكفر فحفظتها عيك ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كثر بني البصير ، فسأله عنه فوجد أن يكون يعلم مكانه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل من يهود فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟ قال : نعم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت ، فأحرق منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقي فأبى أن يريه ، فأمر به الزبير بن العوام فقال : عذبه حتى تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محمد ابن مشلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة . وفشت السبايا من خير في المسلمين ، وأكل المسلمون لحوم الحمر من حمرها .

قال ابن عقة : كانت أرضاً وحيدة شديدة الجهد ، فجهد المسلمون جهداً شديداً وأصابتهم مشغبة شديدة ، فوجدوا أحمر إنسية ليهود لم يكرنوا أدخلوها الحصن فانتحروها ، ثم وجدوا في أنفسهم من ذلك ، فذكروها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهم عن أكلها .

قال أبو سليط فيما ذكر ابن إسحاق : أنا نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الإنسية ، والقذور تفور بها فكفأناها على وجوهها -

وذكر أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام يومئذ في الناس ، فنهاهم عن أمور سماها لهم ، قال مكحول : نهاهم يومئذ عن أربع : إتيان الحبالى من النساء ^(١) ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغنم حتى تقسم .

وحدث جابر بن عبد الله ولم يشهد خبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم فى لحوم الخيل .

وافتح رُوَيْصَع بن ثابت قرية من قرى العرب ، يقال لها جَزْبَة ^(٢) فقام خطيباً فقال : يا أيها الناس إني لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خبير ، قام فينا فقال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مَغْنَمًا حتى يُقَسَم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فئء المسلمين حتى إذا أعجفها دُها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فئء المسلمين حتى إذا أخنقه رده فيه » ^(٣) .

وقال عبادة بن الصامت : نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خبير أن نبيع أو نتاع نير الذهب بالذهب العيّن ، ونير الفضة بالورق العين ، وقال : « ابتاعوا نير الذهب بالورق العين ، ونير الفضة بالذهب العين » ^(٤) .

(١) أى : من السبايا قبل استبرائهن بالوضع .

(٢) جربة : جزيرة بالعرب من ناحية قابس .

(٣) رواه أبو داود [٢٧٠٨] وحسنه الألبانى : [٢٢٥٦] عن رُوَيْصَع بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه .

(٤) السيرة لنسوة لابن هشام [المجلد الرابع ذكر المسير إلى خبير فى المحرم سنة سبع] .

ولما أصاب المسلمين بخير ما أصابهم من الجهد أتى بنو ستم من أسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله لقد جُهِدْنَا ، وما بأيدينا من شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يعطيهم إياه ، فقال : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ وَأَنْ لَيْسَتْ بِهِمْ قُوَّةٌ وَأَنْ لَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ » فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غنائاً ، وأكثرها طعاماً وودكاً ، فغدا الناس ، وفتح الله عليهم حصن الصُعب بن معاذ ، وما بخير كان أكثر طعاماً وودكاً منه .

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حار انتهوا إلى حصنهم « الوطيح » و « السلالم » وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً ، فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشرة ليلة ، وخرج مَرْحَب اليهودي من حصنهم قد جمع سلاحه وهو ينادي من يبارز . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لهذا ؟ » قال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس .

قال : « فقم إليه اللَّهُمَّ أَعِثْهُ عَلَيْهِ » فما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمرية ^(١) من شجر العُشر ^(٢) فحمل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه ، وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فَنَنٌ ، ثم حمل مَرْحَب على محمد بن مسلمة فاتقاه بدرقته ، فوقع سيفه فيها فعَضَّتْ به فأمسكته ، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

ثم خرج بعد مَرْحَب أخوه ياسر وهو يقول : من يبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوام ، فيما ذكر هشام بن عروة ، فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب : يقتل -

(١) عمرية : قديمة معمرة .

(٢) العُشر : شجر فيه حراق لم يقتدح الناس في أجود منه .

= ابنى يا رسول الله ؟ قال : بل ابنك يقتله إن شاء الله فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير .

وحدث سلمة بن عمرو بن الأكوع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : « لأعطين الراية عداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار » ^(١) فدعا علياً بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وهو أمرمد فقتل فى عينه ثم قال : « نخذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » . فخرج وهو يهرول بها هرولة وأنا خلفه نتنع أثره ، حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال . أنا على بن أبى طالب . قل لليهودى : علوتم ، وما أنزل على موسى ، أو كما قال ، فما رجع حتى فتح الله على يديه .

وقال أبو رافع ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : خرجنا مع على رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده ، فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرع ، فنقد رأيتى فى نفر معى سبعة وأنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما ثقلبه .

وحدث أبو اليسر كعب بن عمرو قال : لما لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ذات عشية إداقبلت غم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحو محاصروهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رجل يطعمنا من هذه العنم ؟ » فقال أبو اليسر : أنا يا رسول الله ، قال : « فافعل » قال : فخرجت أشد مثل الظليم ، فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مولياً قال . « اللهم أمتعنا به ! » قال : فأدرك العنم ، وقد دخلت أولاهها =

(١) أخرجه مسلم [١٨٠٧/١٣٢] .

= الحصن فأخذت شاتين من أحرأها فاحتصنتهما تحت يدي ، ثم أقبلت بهما
أشد كأنه ليس معي شيء ، حتى ألقيتهما عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم فديحوهما فأكلوهما . فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله موتاً ،
فكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال : أُمِّتُوا بِي لَعَمْرِي حتى كنت من
آخرهم !

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر في حصنهم « الوطيح » و
« السَّالَم » حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم ، وأن يحقن لهم
دماءهم ففعل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها
الشق ونظافة والكتيبة ، وجميع حصونهم إلا ما كان من ديث الحصنين ، فلما
سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن يسيرهم ، وأن يحقن لهم دماءهم ، ويحلوا له الأموال ففعل .
فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
يعاملهم في الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأغمر لها ،
فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن إذا شئنا أن نخرجكم
أخرجاكم فصالحه أهل فدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فينا بين المسلمين .
وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يُجلبوا عليها
بخيل ولا ركاب .

فما طمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت به رينب بنت الحارث امرأة
سلام بن مشكم شاة مصلية ^(١) ، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إليه ؟ فقبل
لها : الدراع ، فأكثر فيه من السم ، ثم سُمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها فلما
وضعتها بين يديه تناول الدراع فلاك منها مضغة فلم يشعها ، ومعه بش بن انراء
ابن مَرُور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر

(١) مصلية : مشوية .

فأساغها وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » ثم دعا بها فاعترفت فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت بغت من قومي ما لم يحفّ عليك فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ؛ وإن كان نبياً فيخبر ، فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) . ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .

وذكر بن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الكتف من تلك الشاة فانتهش منها وتناول بشر عظماً فانتهش منه ؛ فلما اشترط ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمته استرط بشر ما فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارفعوا أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرني أنني نُعيت فيها » فقال بشر بن البراء : والدي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أكلت ، فما معنى أن ألفظها إلا أنني أعظمت أن أنقصك طعامك ، فلما أسعت ما في فمك لم أكن أرغب بنفسى عن نفسه ، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها نعي . فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان ، وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حوّل .

قال جابر بن عبد الله : واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الكاهل ، حجه أبو طيبة موسى بن يياضة ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذي توفي منه قد دخلت عليه أم بشر بنت البراء بن معرور تعودده فيما ذكر ابن إسحاق فقال لها : يا أم بشر إن هذا لأوان وجدت انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع ابنتك بخير ^(٣) . =

(١) أخرجه البخاري [٤٢٤٩] ، وأبو داود [٤٥٠٩] ، وأحمد في المسند [٤٥١/٢] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

(٢) استرط : ابتلع .

(٣) أخرجه البخاري [٤٤٢٨] من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها .

قال : فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة .

وشهد خير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساء من نساء المسلمين فرضح لهن عليه السلام من الفء ولم يصرب لهن بسهم ، حدثت بنت أبي الصلت عن امرأة غفارية سمعتها قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بنى غفار وهو يسير إلى خير فقلنا : يا رسول الله قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا فنداوى الجرحى وبعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : « على بركة الله » قالت : فخرجنا معه فمما افتتح خير رصخ لنا من الفء ، وأخذ هذه القلادة التي ترمى في عنقي فأعطانيها ، وعلّقها بيده في عنقي ، هو الله لا تفارقي أبداً . قالت : فكانت في عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تدفن معها .

واستشهد بخير من المسلمين نحوًا من عشرين رجلاً منهم عامر بن الأكوع عم سلمة بن عمرو بن الأكوع ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال له في مسيره إلى خير : « انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هَنَاتِكَ ! »^(١) فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

والله لولا الله ما اهتديا ولا تصدقنا ، ولا صلينا

إنا إذا قوم بَنَسُوا علينا وإن أرادوا فتنة أيينا

فأنزلن مكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحمك الله » فقال عمر بن الخطاب : وجبت والله يا رسول الله لو مُتعتنا به ! فقتل يوم خير شهيدا ، وكان قتله أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلما شهيدا فمات منه ، فكان المسلمون قد شكوا فيه وقالوا . إنما قتله سلاحه ، حتى سأل ابن أخيه سمة رسول الله =

(١) أخرجه البخاري [٤١٩٦] .

- صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأحبره بقول الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه لشهيد » وصلى عليه فصلى عليه المسلمون .

ومنهم الأسود الراعى من أهل خيبر ، وكان من حديثه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم كان فيها أجيرا لرحل من يهود ، فقال : يا رسول الله اعرض على الإسلام ، فعرضه عليه فأسم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخفى أحداً أن يدعو به إلى الإسلام ؛ ويعرضه عليه ، فلما أسم قال : يا رسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم وهى أمانة عندى فكيف أصنع بها ؟ قال « اضرب وجوهها فإنها سترجع إلى ربها » أو كما قل . فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرما بها فى وجوهها وقال : ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك ، وخرجت مجتمعة كأى سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قط ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع خلفه وسجى بشملة كانت عليه فالتفت إليه رسولا ، الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا : يا رسول الله لم أعرضت عنه ؟ قال : « إن معه الآن زوجتين من الحور العين ا » .

وذكر ابن إسحاق عن عبيد الله بن أبى نجيح أن شهيد إذا ما أصيب نزلت روجته من الحور العين عليه يفضان التراب عن وجهه ويقولان : تَرَبَّ الله وجه من تَرَبَّك وقتل من قتلك .

قال : ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجاج بن علاط السلمي ثم البهزى فقال . يا رسول الله إن لى بمكة مالا عند صاحبى أم شيبه بنت أبى طلحة ومالا متفرقا لى تجار أهل مكة فأذن لى يا رسول الله . =

= فأذن له قال : إنه لا بد لي يا رسول الله من أن أقول . ^(١) قال : « قل » . قال الحجاج : خرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البصاء رجالاً من قريش ينسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر ، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً ، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوني ولم يكونوا علموا بإسلامي قالوا : الحجاج بن علاط ؟ عنده والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القاطع سار إلى خيبر ، وهي بلد يهود وريف الحجاز ، قلت : قد بلغني ذلك وعندي الخبر ما يسرّكم ، قال : فالتبطوا ^(٢) بجنبي ناقتي يقولون : إيه يا حجاج ؟ قلت : هُرم هزيمة لم يسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسراً ، قالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم ، قل : فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم .

قال : فقلت . أعيوني على جمع مالي بمكة على غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب به من أهل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك ، فقاموا فجمعوا إلى مالي كأحطّ جمع سمعت به ، وحثت صاحبتني فقلت : مالي ، وقد كن لي عندها مال موضوع لعلى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار .

قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف لي جنبي وأنا في خيمة من حيام التجار فقال : يا حجاج ما هذا الذي جئت به ؟ =

(١) أقول : أي احتال عليهم بكلام لا أعتقده .

(٢) التبطوا : مشوا بجانبها .

- قلت : وهل عندك حِفْظ لما وضعتُ عندك ؟ قال : نعم . قلت : فاستأخر عني حتى ألقاك على حلاء فإنني في جمع مالي كما ترى فانصرف عني حتى أفرغ ، قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة وأجمعت الخروج لقيتُ العباس فقلت : احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل ، فإنني أخشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت . قال : أفعل ، قلت : فإنني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً بيت ملكهم يعني صفية بنت حبي ، ولقد افتتح خير وانثى^(١) ما فيها وصارت له ولأصحابه ، قال : ما تقول يا حجاج ؟ قلت : إني والله فاكتم عني ولقد أسلمتُ وما جئت إلا لأحد مالي فرقاً من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاث فأطهر أمرك فهو والله على ما نحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث ليس العباس حلة له وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فما رآوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله لتجند لحز المصيبة ! قال : كلا والله الذي حلفتهم به لقد فتتح محمد خير وترك عروساً بابتة ملكهم وأحرر أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : ما جاءك بهذا الخبر ، قال : الذي جاءكم مما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مُشْدماً وأخذ ماله فانطلق ليلاحق بمحمد وأصحابه فيكون معه ، قالوا : يالَ عباد الله ! انفلت عدو الله ، أما والله لو علمت لكان بنا وله شأن . ولم ينشئوا أن جاءهم الخبر بذلك^(٢) .

وذكر ابن عُقبة أن نبي فزارة قديموا على أهل خير في أول أمرهم ليعينوهم فراسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خير شيئاً سماه لهم ، فأبوا عليه وقالوا : حيرانا وحلفاؤنا ، =

(١) انثى : استخرج .

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف [٩٧٧١] ، وأحمد في المسند [١٣٨/٣] ، وذكره الهيثمي في المجمع [١٥٤/٦] وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والبرار والطبراني ورجاله ثقات .

= فلما فتح الله خير أتابه من كان هنالك من بنى فزارة فقالوا : الذى وعدتنا ؟ فقال : لكم ذو الرقية ، لحبل من جبال خير ، قالوا : إذن نقاتلك ، قال : موعدكم جرفاء ^(١) ، فلما سمعوا ذلك من رسول الله خرجوا هارين . قال ابن إسحاق : وكانت المقاسم على أموال خير على الشق ونظاة والكتيبة ، وكانت الشق ونظاة فى أشههم المسلمين وكانت الكتيبة خمس الله وسههم النبى صلى الله عليه وسلم وسههم ذوى القربى والمساكين ^(٢) وطعم أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وطعم رجال مشوا بين رسول لله صلى الله عليه وسلم وبين أهل فذك بالصلح .

وقسمت خير على أهل الحديدية من شهد خير ومن عاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسهم من حضرها ، وفى هذه العزوة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم سهام الخيل والراجل ، فجعل للفرس سهمين وللفارسه سهماً وللراجل سهماً ، فجرت المقاسم على ذلك فيما بعد ، ويومئذ عرّب العربى من الخيل وهجن الهجين .

ودكر ابن عقبة أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير نفر من لأشعرين فيهم أبو عامر الأشعرى قدموا إلى المدينة مع مهاجرة الحبشة ورسول لله صلى الله عليه وسلم بخير فمضوا إليه وفيهم أبان بن سعيد بن العاص والطهيل يعنى ابن عمرو الدؤسى دا النور ، وأبو هريرة ونفر من دوس فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم - ورأيه الحق - أن لا يخيب مسيرهم ولا يطل سفرهم فشرکہم فى مقاسم خير وسأل أصحابه ذلك فطابوا به نفساً . ولم يذكر ابن عقبة جعفر بن أبى طالب فى هؤلاء القادمين على رسول الله =

(١) جرفاء : قال فى معجم البلدان : ويوم جرفاء من أيام العرب ، ولعله موضع

(٢) زاد الطيرى : وابن السبيل .

= فقتلوه ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون عليه ، وكتب إليهم أن يدوه أو يأذنوه بحرب . فكتبوا يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده وأقرهم على ما سق من معاملته إياهم .

فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرهم أبو بكر الصديق على مثل ذلك حتى توفي ثم أقرهم عمر صديقاً من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في وجهه الذي قبضه الله فيه : « لا يحتسمن بجزيرة العرب دينان » فقحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبوت فأرسل إلى يهود فقال : إن الله قد أدن في حلائكم ، قد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحتسمن بجزيرة العرب دينان »^(١) فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتني به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فليخرجهم للجلاء ، فأجلى عمر منهم من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد الله بن عمر : خرجت أنا والريير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بحير نتعاهدها ، فلما قدما تفرقا في أموال فعدت عليّ تحت اللبا ففدعت يداي^(٢) من مرفقي فلما أصبحت استصرخ عليّ صاحباي فأتياي فأصلحا من يدي ؛ ثم قدما بي على عمر فقال : هذا عمل يهود ثم قام في الناس خطيباً فقال : أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاملاً بيهود خير على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد غدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما بلعكم مع غدوتهم على الأبصار قبله لا شك أنهم أصحابه ليس لنا هلك عدو غيرهم فمن كان له مال بحير فليحرق به ، فإنى مخرج يهود ، فأخرجهم . =

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية [٢١٩/٤] .

(٢) فدعت يداها : اعوجت مفاصلها ، كأنها قد زالت عن مواضعها .

ولما أخرج عمر رضى الله عنه يهود خيبر ركب فى المهاجرين والأنصار وخرج معه بجبار بن صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ويزيد بن ثابت هما قسما خيبر على أصحاب السهمين التى كانت عليها ، وذلك أن الشق والنطاة اللتين هما سهمتا المسلمين قسمت فى الأصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثمانية عشر سهماً ؛ ثم قسم كل قسم من هذه الثمانية عشر سهماً إلى مائة سهم لكل رجل سهم ولكل فرس سهمان ؛ وكانت عدة الدين قسمت عليهم ألف رجل وأربع مائة رجل ومائتى فرس فذلك ألف سهم وثمانمائة سهم ^(١) .

ثم من الذى قال صبغة سياسية ؟ نقول كلمة سياسة هى للبشر أى فكر بشر يقود بشراً . أما أمر الخالق فهو منهج يلتزم به مخلوق .

أما العسكرية : فمن الذى حمل السيف ليفرض العقيدة ؟ الذى حمل السيف هم أناس . هؤلاء الناس من الذى حمل عليهم السيف ؟ هل فرضت عليهم العقيدة بالسيف ؟ .. لا . فقد عاش المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاماً

مقهورين ومغلوبين ؛ إذن .. فمن الذى حمل السيف ؟ نقولها : ثانياً ؟ وتتناقض أقوالهم فيقولون إنه فرض الجزية . ومعنى فرض الجزية على قوم أنه تركهم على دينهم كما يحون وإلا لو دخل بالسيف ما كان قد فرض الجزية لأن لسيف كان هو الحكم . وإنما حمل السيف لا لفرض العقيدة وإنما ليحمى اختيار العقيدة . فأنا سأقول كلاماً ومن يتعرض لكلامى ويمنع الناس من سماعه ، أو يصددهم عنه سأقاتله .

إذن .. جاء السيف ليحمى صحة اختيار العقيدة بدليل أن من يحتار عقيدته يبقى على ما هو عليه وإنما أنت ستعيش فى أمة مسلمة والأمة المسلمة -

(١) الاكتفاء [٢٥١/٢ - ٢٧١] بتصرف .



= فرضت على المؤمن بها أن يدفع لبيت المال ما يقيم حركة حياة الناس ، فأنت من أحل أن تدخل في هذه الدولة وتنتفع بما لها من خدمات لا بد من دفع الجزية لأنك لو احتجت ستأخذ منه . ويبقى فرض الجزية نقضاً لقضية حمل السيف (١) .

(١) عن كتاب الأنوار الكاشفة لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى .

مفتريات حول القرآن

السؤال :

بعض المستغربين يقول : إن القرآن الكريم الذى يعتبره المؤمنون وحياً إلهياً تعهد الله بحفظه يحتوي على أخطاء لغوية ؟ كيف يمكن الرد على تلك المزاعم ودحض ذلك الفكر الضال ؟

الجواب : هذا كلام من لا يعرف شيئاً عن اللغة العربية . فالقرآن الكريم نزل فى قوم هم أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان ولو كان فيه أخطاء نحوية ولغوية كما يدعى المدعون ، لكان القوم الذين عاندوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعارضوه فى المعجزة ، أول من تكلم عن هذه الأخطاء ، ولكنهم كانوا مبهورين بالإعجاز القرآنى ، حتى إنهم كانوا يتخفون وراء أستار الكعبة ، ليستمعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلو القرآن بجوار الكعبة ، وكانوا يحاولون منع القادم إلى مكة من الذهاب للرسول ، حتى لا يؤخذ ببلاغة القرآن .

وهناك حكاية ذكرت فى كتب السيرة النبوية عن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكانوا يلقبونه بـ « ربحانة قريش » لفصاحته وبلاغته وعلمه باللغة ، كانت قريش أرسلت الوليد هذا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليجادله فى أمر الدين الجديد .. فلما جلس قرأ عليه النبى شيئاً من القرآن ، فإذا بحلاوة الإعجاز القرآنى تأسره ، فرجع إلى قريش بوجه متغير ، يعنى كان ذاهباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بوجه فيه شمم ، ولكنه عاد بوجه فيه علامات المأخوذ ، فسألوه : ماذا سمعت من محمد ؟

فأجابهم : والله سمعت كلامًا ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .
وإن به لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعديق ، وإنه
ليعلم ولا يعلم عليه ، وما هو بقول بشر^(١) .

هذا كلام رجل كافر بالإسلام ، وهو قمة من قمم البلاغة والبيان ، بل إنه
من أساطين اللغة في عصره .

والأمثلة كثيرة على تحدى القرآن ببلاغته وفصاحته للعرب . فإذا جاءك من
يقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية فقل له إنك لا تعرف اللغة .. لماذا ؟
لأن اللغة لهجات مختلفة في الجزيرة ، ولغة قريش كانت هي السائدة ،
والقبائل كانت تصب عندها في مواسم الحج فتأخذ خلاصة اللغات . ولكن
الله لم يشأ أن تبقى سيادة لقريش في هذا ، فأدخل في القرآن الكريم لهجات
لا يعرفها أحد ، حتى يمنع قريشًا من أن تقول : إن لها السيادة .

وأكثر من هذا فإن القرآن تحدى بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأبوا بسورة
أو بآية من مثله .. وطبعا عجزوا .. وكل من حاول أن يحاكي القرآن جاء
بكلام سخر الناس منه .

هل بعد هذا يأتي رجل لا يعرف اللغة : لا نحوا ولا صرفا ولا فقها ،
ويقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية !؟^(٢) .

(١) القصة ذكرها القرطبي في التفسير [٧٤/١٩] ، واليهفي في الاعتقاد
[٢٦٨/١] ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٢٦٠/٣] ، وابن عبد البر
في الاستيعاب [٤٣٣/٢] ، وابن حجر في الإصابة [٢٤٥/٢] .

(٢) نقلًا عن كتاب الأنوار الكاشفة . وقال : قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي في شك .

= ﴿ وَمَا نَزَّلْنَا ﴾ يعني القرآن والمراد المشركون الذين تحدوا فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلام الله وإنا لفي شك منه فنزلت الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفراء : ألهمتكم . وقال ابن كيسان : فإن قيل كيف ذكر اشهداء هاهنا وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا أو ليحسروا بأمر شهدوه وإنما قيل لهم . ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ فالجواب : أن المعنى استعينوا بمن وحدتموه من عمدائكم وأحضرهم ليشاهدوا ما تأتون به فيكون الرد على الجميع أوكد في الحجة عليهم . وفي مختصر تفسير ابن كثير : قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثله ما جاء به إن رعمتم أنه من عند غير الله فعرضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك . قال ابن عباس ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ : أعوانكم أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩] وقال في سورة سبحان : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣] وقال في سورة يونس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٢٨] وكل هذه الآيات مكية . ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبري =

والزمخشري ورازى وأكثر المحققين) ورجح ذلك بوجوه من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكاتبهم وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وقال بعضهم: من مثل محمد يصي من رجل أمي مثله والصحيح الأول لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ و ﴿وَلَنْ﴾ لنفي التأييد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أحبر خيراً جازماً قاطعاً غير حائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض مثل أبد الأبدى ودهر الدهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْحَكَتْ ءَابَتْهُمْ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود ١] فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يُحاذى ولا يُداني . فقد أخبر عن مغنيات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأعام ١١٥] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في اشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل في الشعر «إن أعده أكذبه» وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالها في وصف النساء أو الخيل أو

الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ذقة أو حرب أو شيء من
 المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الحفي
 أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي
 بيوت القصيد وسائر ما هدر لا طائل تحته. وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية
 نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب
 وتصريف التعبير فإنه إن تأملت أحاره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت
 مبسطة أو وحيزة وسواء تكررت أم لا وكلما تكرّر حلا وعلا لا يخلق عن
 كثرة الرد ولا يمل منه العلماء وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر
 منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وإن وعد أتى بما يفتح
 القلوب والآذان وشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في
 الترغيب : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧٠] وقال : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
 الْأَعْيُنُ وَأَمَّا فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [لرحف : ٧١] وقال في التهيب .
 ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْصِفَ بِكُمْ جَابَ الْبَرِّ ﴾ [الإسراء : ٦٨٠] ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ
 أَن يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَنُورُ ﴾ ١١ ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نُنِيرُ ﴾ ١٢ [الملك] وقال في الزحر : ﴿ فَكُلًّا
 أَخَذْنَا بِدُنْيِهِ ﴾ [المكنوت : ٤٠٠] وقال في السوعظ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن
 مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ١٣ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ ١٤ ﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يُمْتَحِنُونَ ﴿ ١٥ ﴾ [الشراء] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.
 وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل
 معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء كما قال
 ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن : يا أيها
 الذين آمنوا فأزعمها سمعتك فإنها خيرٌ يأمر به أو شر ينهى عنه ولهذا قال =

تعالى . ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف ١٥٧] الآية وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والدار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من السعير والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات وزهدت في الدنيا ورعبت في الأخي وثبتت على الطريقة المثلى وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وإنما كان الذي أوتيته وحياً » أي الذي اختصاصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بحلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم وله عليه الصلاة والسلام من الآيات لدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمدة . تنبيه ينبغي الوقوف عليه : قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ وقوله في سورة يوس ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعنى كل سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها وهذا ما لا أعلم فيه راعاً بين الناس سلفاً وحلفاً . وقد قال الرازي في تفسيره : إن قيل قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن فإن قلتم إن الإتيان بمثل هذه السور خارج =

= عن مقدور البشر كان مكابرة والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين « قلنا » : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال اشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] . وقال الحافظ ابن كثير في الجزء السادس من كتاب البداية والنهاية : كتاب دلائل النبوة . وهو معنوية وحسية فمن المعنوية إنزال القرآن عليه وهو أعظم المعجزات وأبهر الآيات وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي أعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك وأن هذا مالا سبيل لأحد إليه أبدا قال الله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وهذه الآية مكية وقال في سورة الطور وهي مكية ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُكُمْ نَكْلَ لَا يَوْمُؤْنَ ۝١٧٦ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ۚ إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ ۝١٧٧ ﴾ [الطور] أي إن كنتم صادقين في أنه قاله من عنده فهو بشر مثلكم فأتوا بمثل ما حياء به فانكم مثله وقال تعالى في سورة البقرة وهي مدنية معيدا للتحدي ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِنَارِ الْآتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُغَدَّتِ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٣٤ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْنَاهُ قُلْفًا فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ =

= أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ مَا
أُنزِلَ يَلْعَلُ يَلْعَلُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣١﴾ [هود] وقال
تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِشُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ [يونس] فبين تعالى أن الخلق
عاجزون عن معارضة هذا انقرآن بل عن عشر سور مثله بل عن سورة منه
وأنهم لا يستطيعون ذلك أبدا كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾
أي فإن لم تفعلوا في الماضي ولن تستطيعوا ذلك في المستقبل وهذا تحدتان وهو أنه
لا يمكن معارضتهم له لا في الحال ولا في المال ومثل هذا التحدي إنما يصدر عن
واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله ولو كان من منقول من
عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس
له ومعلوم لكل ذي لب أن محمدا صلى الله عليه وسلم من أعقل خلق الله بل
أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في نفس الأمر فما كان ليقدم هذا الأمر إلا وهو
عالم بأنه لا يمكن معارضته وهكذا وقع فانه من لدن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وإلى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه وهذا
لا سبيل إليه أبدا فانه كلام رب العالمين الذي لا يشبهه شيء من خلقه لا في ذاته
ولا في صفاته ولا في أفعاله فأني يشبه كلام المخلوقين كلام الخلق وقول كمار
قريش الذي حكاه تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣١] كذب
منهم ودعوى باطلة بلا دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولو كانوا صادقين لأتوا
بما يعارضه بل هم يعلمون كذب أنفسهم كما يعلمون كذب أنفسهم في قولهم =

﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَسْتَبْهَأَ فِيهِ ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٠﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ
 الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١﴾﴾ [المرقان]
 أي أنزله عالم الخفيات رب الأرض والسموات الذي يعلم ما كان وما يكون وما
 لم يكن لو كان كيف يكون فإنه تعالى أوحى إلى عبده ورسوله النبي الأمي الذي
 كان لا يحسن الكتابة ولا يديرها بالكلية ولا يعلم شيئاً من علم الأوائل وأخسار
 الماضين فقص الله عليه خبر ما كان وما هو كائن على الوجه الواقع سواء بسواء
 وهو في ذلك يفصل بين الحق والباطل الذي اختلفت في إirاده جملة الكتب
 المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ
 وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَلِيلٍ هَذَا قَاصِرٌ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] وقال تعالى :
 ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٢﴾ مَنْ أَعْرَضَ
 عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٣﴾ خَلِيدٍ بِهِ وَسَاءَ لِمِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جِمْلًا ﴿١٤﴾ ﴾
 وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
 وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
 كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكَ إِذَا تَلَّازَمَبَ الْمُتَطَلُّونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي
 صُورِ الْذِّبِ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا
 أُرِفَ عَلَيْهِ آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٧﴾
 أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً
 وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت] فبين تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب المشتمل على
 علم ما كان وما يكون وحكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا انبي الأمي
 وحده كان من الدلالة على صدقه . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُمْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
 بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَهَئِهِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ =

= مَا يَكُوتُ لِيَ أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ قِلْقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ أَحَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ [يوس] يقول لهم : نبي لا أطيق تبديل هذا من تلقاء نفسي وإنما الله عز وجل هو الذي يمحو ما يشاء ويثبت وأنا مبلغ عنه وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به لأنني نشأت بين أظهركم وأنتم تعلمون نسي وصدقي وأمانتي وأنا لم أكذب على أحد منكم يوما من الدهر فكيف يسعني أن أكذب على الله عز وجل مالك الضر والنفع الذي هو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم وأي ذنب عنده أعظم من الكذب عليه ونسبة ما ليس منه إليه كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٨﴾ لَأَحْذَنَّا مِنْهُ بِالْبَيِّنِ ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَنْقُصَنَّ مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٢٠﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٢١﴾ [الحاقة] أي لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجربا عنه ويمسعا منه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى فِي الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ سَائِطُونَ أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُورِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنعام : ٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿١٩﴾ [الأنعام : ١٩] وهذا الكلام فيه الإخبار بأن الله شهيد على كل شيء وأنه تعالى أعظم الشهداء وهو مطلع علي وعليكم فيما جئتكم به عنه وتتضمن قوة الكلام قسما به أنه قد أرسلني إلى الخلق لأنذرهم بهذا القرآن فمن بلعه منهم فهو نذير له كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلَنَّا مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ [هود : ١٧] ففي هذا القرآن من الأخبار الصادقة عن الله وملائكته =

= وعرشه ومخلوقاته العلوية والسفلية كالسماوات والأرضين وما بينهما وما فيهن أمور عظيمة كثيرة مبرهنة بالأدلة القطعية المرشدة الى العلم بذلك من جهة العقل الصحيح كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٩] وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا عَرَبِيٌّ ذِي بَيِّنَاتٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر] وفي القرآن العظيم الأخبار عما مضى على الوجه الحق وبرهانه ما في كتب أهل الكتاب من ذلك شاهدا به مع كونه نزل على رجل أُمِّي لا يعرف الكتابة ولم يعان يوما من الدهر شيئا من علوم الأوائل ولا أخبار الماضين فلم يمجأ الناس إلا بوحي إليه عما كان من الأخبار النافعة التي ينبغي أن تذكر للاعتبار بها من أخبار الأمم مع الأنبياء وما كان منهم من أمورهم معهم وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين بعبارة لا يستطيع بشر أن يأتي بمثلها أبد الآبدين ودهر الداهرين ففي مكان تقص القصة موجزة في غاية السبيل والمصاحبة وتارة تسط فلا أحلى ولا أجلى ولا أعلى من ذلك السياق حتى كأن التالي أو السامع مشاهد لما كان ، حاضر له معاين للخبر بنفسه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَئِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ لَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَنتُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا دِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [يوسف] إلى أن قال في آخرها : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي =

= بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ [يوسف : ١١١]
وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٣٦﴾ سَنُرِيهِمْ
آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣٧﴾ [فصلت] وعد تعالى أنه سيظهر آيات القرآن
وصدقه وصدق من جاء به بما يخلقه في الآفاق من الآيات الدالة على صدق
هذا الكتاب وفي نفس المنكرين له المكذبين ما فيه حجة عليهم وبرهان قاطع
لشبههم حتى يستيقنوا أنه منزل من عند الله على لسان الصادق ثم أرشد إلى
دليل مستقل بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي في
العلم بأن الله يطلع على هذا الأمر كفاية في صدق هذا الخبر عنه إذ لو كان
مفتريا عليه لعاجله بالعقوبة البليغة كما تقدم بيان ذلك ، وفي هذا القرآن إخبار
عما وقع في المستقبل طبق ما وقع سواء بسواء ، وكذلك في الأحاديث حسب
ما قررناه في كتابنا التفسير وما سنده من الملاحم ولفتن كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ
أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [المرمز : ٢٠] وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ،
وكذلك قوله تعالى في سورة اقتربت وهي مكية بلا خلاف : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ
وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَآمْرٌ ﴿١٦﴾ [القمر] وقع
مصدق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك إلى أمثال هذا من الأمور البينة الواضحة
وسياقي فصل فيما أخبر به من الأمور التي وقعت بعده عليه السلام طبق ما
أخبر به ، وفي القرآن الأحكام العادلة أمرا ونهيا المشتملة على الحكم البالغة التي
إذا تأملها ذو الفهم والعقل الصحيح قطع بأن هذه الأحكام إنما أنزلها العالم
بالخفيات الرحيم بعباده الذي يعاملهم بلطفه ورحمته وإحسانه ، قال تعالى : =

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] أي صدقا . الأخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ، وقال تعالى : ﴿ الرَّ كِتَابُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه . وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة : ٣٣] أي العمم النافع والعمل الصالح وهكذا روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لكميل بن زياد هو كتاب الله فيه حير ما قبلكم وحكم ما بينكم ونبا ما بعدكم وقد بسطا هذا كله في كتابا التفسير بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة ، فالقرآن العظيم معجز من وجوه كثيرة من فصاحته وبلاغته ونظمه وتراكيبه وأساليبه وما تضمنه من الأخبار الماضية والمستقبلية وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجليلة ، والتحدى ببلاغة ألفاظه يخص فصحاء العرب والتحدى بما اشتمل عليه من المعاني الصحيحة الكاملة وهي أعظم في التحدي عند كثير من العلماء ، يعم جميع أهل الأرض من الملتين أهل الكتاب وغيرهم من عقلاء اليونان والهند والفرس والقبط وغيرهم من اصناف بني آدم في سائر الأقطار والأمصار ، وأما من زعم من المتكلمين أن لاعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضة مع إنكار ذلك أو هو سلب قدرتهم على ذلك فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأجرم ، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق وقولهم هذا كفر وباطل وليس مطابقا لما في نفس الأمر ، بل القرآن كلام الله غير مخلوق ، تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون عوا كبيرا ، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الأتيان بمثله ولو تعااضدوا وتناصروا على ذلك بما لا تقدر الرسل الدين هم افصح الخلق وأعظم الخلق وأكرمهم أن يتكلموا بمثل كلام الله وهذا القرآن الذي يبلعه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأساليب كلامه -

عليه السلام المحفوظة عنه بالسند الصحيح إليه لا يقدر أحد من الصحابة ولا من بعدهم أن يتكلم بمثل أساليبه في فصاحته وبلاغته فيما يرويه من المعاني بألفاظه الشريفة بل وأسلوب كلام الصحابة أعلى من أساليب كلام التابعين وهلم جرا إلى زماننا وعلماء السلف أفصح وأعلم وأقل تكلفا فيما يروونه من المعاني بألفاظهم من علماء الخلف وهذا يشهد من له ذوق بكلام الناس كما يدرك تفاوت ما بين أشعار العرب في زمن الجاهلية وبين أشعار الموالين الدين كانوا بعد ذلك ولهذا جاء الحديث الثابت في هذا المعنى وهو فيما رواه الامام أحمد قائلا حدثنا حجاج ثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » . وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الليث بن سعد به ومعنى هذا أن الأنبياء عليهم السلام كل منهم قد أوتي من الحجج والدلائل على صدقه وصحة ما جاء به عن ربه ما فيه كفاية وحجة لقومه الذين بعث إليهم سواء آمنوا به ففازوا بثواب إيمانهم أو جحدوا فاستحقوا العقوبة وقوله وإنما كان الذي أوتيت أي حله وأعظمه الروحي الذي أوحاه إليه وهو القرآن الحجة المستمرة الدائمة القائمة في زمانه وبعده ، فان البراهين التي كانت للأنبياء انقضى زمانها في حياتهم ولم يبق منها إلا الخبر عنها ، وأما القرآن فهو حجة قائمة كأنها يسمعه السامع من في رسول الله صلى الله عليه وسلم فحجة الله قائمة به في حياته عليه السلام بعد وفاته ولهذا قال فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة أي لاستمرار ما أتاني الله من الحجة البالغة والبراهين الدامعة ، فلهذا يكون يوم القيامة أكثر الأنبياء تابعا .

اتخاذ أنداد من دون الله

السؤال : يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أندادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢]
فما هو الند ؟ .

الجواب : كلمة : ﴿ أَدَادًا ﴾ جمع نَدٍّ ، والند هو الظير أو الشبيه ، وأى عقل فيه ذرة من فكر يعتمد عن مجرد التفكير فى مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيها ولا نظيرا ، ولا يُشَبِّهُ بالله تعالى أحدا ؛ فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى أفعاله ، واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .
ولا توجد مقارنة بين صفات الخالق سبحانه وتعالى وصفات المخلوق .
والله خلق لكل منا عقلا يفكر به ، فلو عرضنا هذه المسألة على العقل لرفضها تماما ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . أى تعرفون هذا جيدا بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماما .

فمن ذا الذى يستطيع أن يدعى أنه خالقكم والذين من قبلكم ؟! ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه هو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل السماء سقفا محفوظا ، أو أربل المطر وأنبت الزرع ؟ بالطبع لا أحد .

إذن .. فأنتم تعلمون أن الأمر كله لله وحده ، ومادام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد . فالقضية محسومة إبتداء للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أندادا ؟ لأنهم يريدون دينا بلا منهج . يريدون أن يرضوا فطرة الإيمان التي خلقها الله فيهم . وفي الوقت نفسه يتبعون شهواتهم .

عندما فكروا في هذا وجدوا أن أحسن طريقة هي أن يختاروا لأنفسهم إلها بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئا ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تُبيح ما حرم الله ، وتُحل الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من أفعالنا شيئا ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله ، ومن نعم الله ، والفوز بالجنة في الآخرة (١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نهي . ﴿ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي أكفاء وأمثالا ونظراء واحدها ند . وقال أبو عبيدة ﴿ أَندَادًا ﴾ أضداد . قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وحبر والجملة في موضع الحال والخطاب للكافرين والمنافقين عن ابن عباس . فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى . فالجواب من وجهين : أحدهما - ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرق فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد . الثاني - أن يكون المعنى وأنت تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم والله أعلم . وفي هذا دليل على الأمر =

= باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد. وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد. وفي مختصر تفسير ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المعم على عبده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم المعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً: أي مهداً كالفرش مقرر موطأة مثبته كالرواسي الشامخات. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ وهو السقف كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آبَائِهِا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٣٢] ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والشمار رزقاً لهم ولأنعامهم. ومضمره: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت: يا رسول الله أي الذنوب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خالقك» الحديث. وكذا حديث معاذ: أتدري ما حق الله على عباده؟ «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» هو جزء من حديث أخرجه الشيخان «الحديث» وفي الحديث الآخر: «لا يقول أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان». وعن ابن عباس قال: قال رجل للبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله يد؟ قل ما شاء الله وحده» أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس.

وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم. قال ابن عباس قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة ٢١] للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والدين من قبلكم، وعنه أيضاً ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره =

- من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَأَنْتُمْ تَقْمُونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره . وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه . قال أبو العالية : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي عدلاء شركاء وقال مجاهد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَقْمُونَ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل . ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة .

روى الإمام أحمد [١٣٠/٤] عن احرث الأشعري أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن نبلعهن وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال . فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعده على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن . أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بوزق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي عنته إلى غير سيده فأيكم سره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأمركم بالصلاة فإن الله عز وجل يصب و به لوجه عبده ما لم يلتفت ، فإذا صلبتم فلا تلتفتوا ، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن حذوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشؤوا يديه إلى عقه وقدّموه ليضربوا عقه فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى -

- فلكُ نفسه . وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً وإن مثل ذلك كمثلي رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصصاً حصصاً فتحصن فيه وإن العبد أحصى ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله . فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهم من حنأ جهنم » قالوا : يا رسول الله وإن صام وصلى قال : « وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سخطهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » هذا حديث حسن ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، أبو خلف موسى بن خلف وإن اختلف فيه متبع ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح . وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده فإن من تأمل هذه الموجودات عليم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الرب تعالى فقال : يا سبحان الله إن البحر يبدل على البعير وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ! ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير . وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنعيمات . وعن أبي حنيفة أن « بعض الزنادقة » سأله عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني بإبي معكر في أمر قد أخبرت عنه دكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها - وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتحترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه =

= من الأشياء المحكّمة ليس لها صانع ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق اتوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم « الإبريسم : الحرير » وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقرة والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً وتأكله الطيأة فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البضاء وباطنه كالذهب والإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مريح يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة . وقال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقال آخرون : من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارات ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها وانظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [طاهر : ٢٧] وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنباتات المختلف الطعوم والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت وإليه أنيب . والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً .

وقال الحافظ في الفتح : وَقَوْلِهِ جَلُّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكُمْ رَبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [فصلت : ٩] . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا =

- **أَخْرَجَ** ﴿ [المرقاة ٦٨٠] . ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أَنِ اشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ 》 وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ 》 ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ 》 وَ ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ 》 ﴿ قَدْ لِكَ إِيمَانُهُمْ وَهُمْ يَعْْبُدُونَ غَيْرَهُ وَمَا ذُكِرَ فِي خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَكْثَابِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ لَقَدِيرًا 》 وَقَالَ مُحَاهِدٌ مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ بِالرَّسَالَةِ وَالْعَذَابِ . ﴿ لَيْسَتْ لَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ 》 الْمُبْلَغِينَ الْمُؤَدِّينَ مِنَ الرُّسُلِ 》 وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ 》 عِنْدَنَا 》 وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ 》 الْقُرْآنُ 》 وَصَدَّقَ بِهِ 》 الْمُؤْمِنُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا الَّذِي أُعْطَيْتَنِي عَمِلْتُ بِمَا فِيهِ . قوله : « باب قول الله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا ، وقوله : وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » ثم ذكر آيات وآثرا إلى ذكر حديث ابن مسعود « سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الند بكسر النون وتشديد الدال يقال له النديد أيضا وهو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره وقيل ند الشيء من يشاركه في جهره وهو ضرب من المثل لكن المثل يقال في أي مشاركة كانت فكل ند مثل من غير عكس قاله الرابع قال والضد أحد المتقابلين وهما الشيطان المحتعان اللدان لا يجتمعان في شيء واحد ، فقارق الله في المشاركة ووافقه في المعارضة قال ابن بطال : غرض البحاري في هذا الباب إثبات نسبة الأفعال كلها لله تعالى سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهي لله تعالى خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله تعالى فيكون شريكا وندا ومساويا له في نسبة الفعل إليه ، وقد به الله تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصحة بهي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فتضمنت الرد على من يرغم أنه يخلق أفعاله . وقال الكرمانى : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفي الشريك عن الله سبحانه وتعالى فكان المناسب ذكره في أوائل « كتاب التوحيد » لكن ليس المقصود -

= هنا ذلك ، بل المراد بيان كون أفعال العباد بحلق الله تعالى ، إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله وشركاء له في الحق ولهذا عطف ما ذكر عنه وتضمن الرد على الجهمية في قولهم لا قدرة للعبد أصلا ، وعلى المعتزلة حيث قلوا لا دخل لقدرة الله تعالى فيها ، والمذهب الحق أن لا حبر ولا قدر بل أمر بين أمرين فإن قيل لا يحلو أن يكون فعل العبد بقدرة منه أولا ، إذ لا واسطة بين النفي والإثبات ، فعلى الأول يثبت لقدر الذي تدعيه المعتزلة وإلا ثبت الجبر الذي هو قول الجهمية فالجواب أن يقال : بل للعبد قدرة يفرق بها بين النار من المارة والساقط منها ولكن لا تأثير لها ، بل فعله ذلك واقع بقدرة الله تعالى ، فتأثير قدرته فيه بعد قدرة العبد عليه وهذا هو المسمى بالكسب ، وحاصل ما تعرف به قدرة العبد أنها صفة يترتب عليها الفعل والترك عادة وتقع على وفق الإرادة انتهى .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شَرْحَبِيلَ قَالَ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ . قَالَ رَجُلٌ . يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ .. قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ خَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ آلهِهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْكَذَابُ ﴿ [الفرقان] . الآية روى البخارى ومسلم عن أبى موسى صلى الله تعالى عنه ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله : إنهم ليدعون له ولدا ، أو يجعلون له أندادا وهو مع ذلك يعافهم ويرزقهم .

وفى حاشية السندي على النسائي [٣٧٧٢] أَخْبَرَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى قَالَ ٤ : حَدَّثَنَا لُفْضُلُ بْنُ مُوسَى ، قَالَ : حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ عَنْ مَعْبُدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ قُتَيْبَةَ امْرَأَةٍ مِنْ جُهَيْنَةَ : « أَنْ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّكُمْ تُدَدُونَ وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلُقُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ يَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يَشْتِ » . قال السندي : قوله : « إنكم تنددون » ضبط بتشديد الدال الأول أي تتحدون أندادا .

لا إكراه فى الدين

السؤال : ما قول فضيلتكم فى أن المسلمين

يكرهون الناس على الدخول فى الدين ؟

الجواب : لو كان الإسلام يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك ما يعرف فى كتب الفقه بالجزية ^(١) .

إذن .. فالإسلام لم يُكره أحدًا على اعتناقه ، وإنما حماه من القوة التى تسيطر عليه حتى لا يُكرهه أحد على ترك دينه ، وهو حر بعد ذلك فى أن يسلم أو لا يسلم .

وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه ، فسهامهم قد ارتدت إليهم . وهنا يثور تساؤل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن الحروب فى الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، ويحجرونهم عليها فجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحرارًا فى أن يختاروا ما يعتقدون أنه الحق ،

(١) قال الأصفهاني : الجزية : ما يؤخذ من أهل الدمة ، وتسميتها بذلك للاجترأ بها عن حقن دمهم . قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة ٢٩٠] ، ويقال : جازيك فلان ، أى : كافيك .

ويقال : جزيته بكذا وجزيته ، ولم يجرى فى القرآن إلا جزى دون جازى ، وذلك أن المجازاة هى المكافأة ، وهى المقابلة من كل واحد من الرجلين ، والمكافأة هى : مقابلة نعمة بنعمة هى كفؤه . وهى المقابلة من كل واحد من الرجلين ، ونعمة الله تعالى عن ذلك ، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة فى الله عز وجل . [راجع : البصائر ٣٨١/١] وهذا ظاهر .

[مفردات ألفاظ القرآن - كتاب الجيم] .

ومعلوم أن الإنسان إذا كان على حريته فلا يمكن أن يختار إلا الحق ، ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة ٢٥٦] . لا يفطنون إلى أن العلة واضحة في قوله سبحانه من الآية نفسها : ﴿ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) .

إذن .. فالمسألة واضحة فلماذا تُكره الناس وقد وضع أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نمنع الذين يحرصون بالقوة عقائدهم الباطلة على الناس ، فأنت تستطيع أن تُكره القلب ، لكن لا تستطيع أن تُكره القلب . ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ونهذا يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ نَبَغَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٠٠] .

إن الله لا يريد أعناقاً ، ولو كان يريد سبحانه أعناقاً لما استطاع أحد أن يخرج عما قدره سبحانه ، من يُريد الله أن يبتليه بمرض أو موت فلن ينجو من قدره ، إن الحق يريد إيمان قلوب لا حضوع قوالب . فالذى يجبر الآخرين على الإيمان بالإكراه لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس ، ولو كان مؤمناً به لما فرضه على الناس بالقسر ، إنهم سيقبلونه عن طوعية واحتيار عندما يتبين لهم أنه الحق المناسب لصالح حياتهم .

ونحن نرى حولنا النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعاً ، فعندما تتخلى هذه الحكومات عن السوط والبطش فإن الشعوب تتخلى عن تلك الأفكار المعارضة للحكومات . والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، فهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عاماً ، ثم أذن الله به

(١) لم أجدها .

بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان من الضروري أن يتأخر أمر القتال ، لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويرى الغير فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَقَّ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ ﴾ [الأحراب : ٤٨] . لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الدعوة للإسلام ستدخل كل البيوت ، وسيضم البيت الواحد كافرين ، ومؤمنين ، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصار في كل بيت معركة .



الإسلام .. التحقق والتطبيق

السؤال : كيف يتم تحقيق الإسلام في ظل الظروف الحالية ؟

الجواب : يظن الناس أن الدعاة إلى الله تعالى هم الذين تعلموا في الأهرم الشريف فقط ، وأن الذين يلبسون العمام هم الذين عليهم البلاغ والوعظ والإرشاد ، نعم هذا صحيح ، ولكن يجب على كل من علم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ، فهو حينئذ عالم به ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع »^(١)

(١) رواه الترمذی [٢٦٥٧] عن عبد الله بن مسعود عن أبيه رضي الله تعالى عنه ، وصححه الألبانی [٢١٤٠] .

قال المناوي في فيض القدير : « نضر الله امرء » بفتح النون وضاد معجمة ، قال التوربشتي : الحسن والرونق يتعدى ولا يتعدى . قال الحافظ العراقي : روى مشدداً ومخففاً ، ومعناه ألبسه النظرة وخلوص اللون ، يعني : جملة الله وزينه ، أو معناه : أوصله الله إلى بضرة الجنة وهي نعيمها ، قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [الانفطار : ٢٤] ، ﴿ وَخُوءَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢] ، ﴿ وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٢] . وقال جرير :

طرب الحمام بدكر كن فشاقتي لا زلت في فنن الرياض الاضر
« أي مورف عض » : وقيل : معناه حس الله وجهه في الناس أي جاهه وقدره ، ثم إن قوله نضر يحتمل الخير والدعاء ، وعلى كل فيحتمل كونه في الدنيا ، وكونه في الآخرة ، وكونه فيهما .

وفي عون المعبود : قال الخطابي : معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة ، يقال نضره الله ونضره بالتحفيف والتثقيب وأجودهما التحفيف . انتهى .

وهذا يعنى أنك طالما علمت حكما من أحكام الله فقد أصبحت ملما به ،
وهما يجب أن نلتفت لفتة ، هذه الفتنة هي : أن نحمل أمانة الإسلام كعلم
ونحيا الإسلام كتطبيق ، وهذا هو مانسميه تحقيق الإسلام وتطبيق الإسلام ،
فهب أننا بتلينا بقوم أبعادونا عن تطبيق الإسلام كمنهج سلوكى للبشر فماذا
يكون موقفنا ؟ موقفنا على الأقل أن نكون أمة تحقيق الإسلام ، أى تحمل
الإسلام كعلم إلى أن يأذن الله بعودة المنهج الإسلامى كواقع للحياة ، ومنهج
سلوكى للبشر مرة أخرى ، أما أننا نقول : مادمنا لم نحقق الإسلام كواقع
فنتركه كعلم ، فهذا غير صحيح ، ولنبقى هذه الشمعة المضيئة ونحافظ عليها
حتى لا تنطمئ لعل رجلاً يأتى فيأخذ من هذه الشمعة قبسا يصيره الله شعلة
عظيمة تنشر ضياءها على ربوع الدنيا ، ومن هنا أقول لبعض الشباب المتسرع
فى قطف الثمرة : إن كنت ترى أن بلدك لم تحقق الإسلام منهجاً وسلوكاً ،
فأنت مطالب أن تحفظ الإسلام وتحافظ عليه علماً وتحقيقاً حتى تحفظ دين الله
للدنيا ، حتى يأذن الله لمن شاء أن يجرى الخير على يديه ليطبق منهج الله ،
إياكم أن تقولوا وما غناؤنا بعلم الإسلام ؟ أقول : فلنجعل الإسلام مد تمقا وإن
لم يكن مطبقاً وبعد ذلك طبق الإسلام فيما ولايتك فيه على نفسك وقد قلت
قديماً إنه لو أن كل واحد منا طبق الإسلام فيما له ولاية عليه لسقط الحاكمون
بغير الإسلام وحدهم ، ولو أن الحكام يعدمون أن الناس يحبون منهج الله
أنهم يروهم يطبقونه فى نفوسهم لتقربوا إلى شعوبهم بتطبيق منهج الله ، لأن
الحكام دائماً يحاولون إرضاء الشعوب ، فمهمتنا إذن محصورة فى أمرين :
نسعى ونلح ونجاهد فى أن نطبق الإسلام ونصفيه علماً بجلى عقيدة الإسلام
تجنية صافية تبين حقيقة القرآن ، وبأن الله ضامن القرآن كنوزاً سيفضى الله
تعالى بأسرارها حين تأتى ساعة ميلادها .

إذن .. فعملنا الآن يحب أن : نجلى الإسلام عقيدة ، ونجلى الإسلام عبادة ،
ونجلى الإسلام معاملة .

الإنبابة والقضاء فى العبادة

السؤال :

ما حكم الإنبابة والقضاء فى آءاء العبادة ؟

الجواب : لا يجوز لإنسان أن يبب غيره ، لىؤدى الصلاة عنه ، لأنها عبادة بءنية والعجز عن آءائها بعيد ، لأنها تؤدى بأية كيفية مستطاعة من قيام أو قعود ، أو اضطجاع ، أو إيماء بالرأس ، أو العين ، أو بحريائها على القلب ، وكذلك الصوم عبادة بءنية لا ينوب فيها أحد عن أحد ، فمن لم يستطع أفطر ، وقضى عند الاستطاعة ، أو أخرج فءية إن لم توجد فرصة للاستطاعة كالعجز ، والمريض مرضا لا يرجى شفاؤه على تفصيل موجود فى كتب الفقه ^(١) .

أما الزكاة فتجوز الإنبابة فى إخراجها من مال المزكى ، لأنها عبادة مالية يتحقق الغرض منها بوصول الزكاة إلى من يستحقها بأية وسيلة تكون .

وكذلك الحج عبادة بءنية ومالية معا ، تجوز الإنبابة لمن عجز بءنه واستطاع بماله .

فقد ثبت أن امرأة من خثعم قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فريضة الله على عباده فى الحج أءركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » ^(٢) .

(١) لمريد من المعرفة راجع كتابى : « أحكام الصلاة وصفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم كأنك تراه » . و « أحكام الصيام » كلاهما لفصيلة الشيخ الإمام وهما من منشورات مكتبة التراث الإسلامى .

(٢) أخرجه البخارى [١٥١٣] ، ومسلم [٤٠٧/١٣٣٤] عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما .

والمراد بالقضاء ما كان بعد الوفاة : فمن مات وعليه صلاة لم يؤدها ، لا يجوز لأحد أن يصلي عنه ، لأنها كما سبق عبادة بديية لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم نص بجوز قضائها عن الميت .

ومن مات وعليه ركاة لم يخرجها ، أو دين وجب إحراحهما من تركته قبل تقسيم أنصبة الورثة ، لأنهما دين يقدم مع الوصية على التوارث لقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ ﴾ [النساء ١١] .

والحج واجب على المستطيع ، ومن مات ولم يحج وحب على غيره أن يحج عنه لورود الحديث الصحيح بذلك ، فقد قالت امرأة من جصينة للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أُمِّي بذرت الحج ، ولم تحج حتى ماتت فهل أحج عنها ؟ فقال : « نعم ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا فدين الله أحق بالوفاء »^(١) .

هذا في القضاء ، أما من أراد أن يقدم قربة يستفيد بها الميت ، فيمكن ذلك بالدعاء والاستغفر والصدقة بنية أن يكون الثواب للميت ، وكذلك بقراءة القرآن عند بعض الأئمة ، وبالْحج أيضًا ليهب ثوابه إليه^(٢) .



(١) أخرجه البخارى [١٨٥٢] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

(٢) صدر عن مكتبة التراث الإسلامى كتاب « فقه الجنائز » وهو مهم جدًا فى هذا الموضوع ، ولا تعالى إنا قلنا إنه فريد فى موضوعه وأدلته ، ويجب ألا يخلوا منه بيت .

التأمين .. حلال أم حرام ؟

السؤال : هل التأمين علي الحياة حلال أم حرام ؟
الجواب : هذه المسائل لم يعد يفتى فيها واحد فتوى فردية ، لأن هذه المسائل أصبحت من مهمات التجمعات العلمية الفقهية ، ثم أنا شخصيًا لا أفهم ماذا تعني شهادات الاستثمار ، فكيف أفتى فيها ، أنا لا أعرف نظامها ، فلا بد أن يأتي اقتصاديون وبيئونها ، حتى أستطيع أن أقول هذا حلال وهذا حرام .. وإنما أنا شخصيًا عندما تسألني أقول لك : لا أقبل واحدة منها على نفسي .

ثم مسألة التأمين . نحن قلنا : إن أمان المؤمن في يد الله . أنا أو من ضد من ؟ التأمين يعلم بلادة الحس الإيماني .. عندما تحدث لي حادثة أقول : الفلوس قادمة ولا أقول : يا رب احفظني .. الحادثة التي تحدث لي في مالي أو في شيء قد يكون مقصود لله فيها أن يطهرني .. ولنا في الذين تركوا أولادهم ضعفاء ثم نراهم بعد مدة سادة (١) .

الإسلام عندما يطبق ككل لا يحتاج مسألة التأمين هذه على الإطلاق . الإسلام بقاء لا بد أن يوجد كله من أساسه دون تلفيق أو حشر .
و حين دخل مقاتل بن سليمان على المنصور في يوم بيعته بالخلافة . قال : عظمي يا مقاتل . قال : أعظلك بما رأيت أم سمعت ؟ قال : بل بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خلف أحد عشر ولدًا ، وترك ثمانية عشر دينارًا كُف منها بخمسة ، واشترى له قبرًا بأربعة . ووزع الباقي على ولده .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا ﴾ [النساء : ٩] .

وكذلك مات هشام بن عبد الملك فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع من النقد دون الضياع والقصور ثمانين ألفاً .

والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت في يوم واحد ولدًا من ولد عمر بن عبد العزيز يحمل مائة فرس في سبيل الله . وولدًا من ولد هشام يسأل الناس في الطريق . إذن .. فقولوا لي بالله عليكم ضد من أؤمن ؟!

وتروى كتب السيرة أن عمرو بن العاص قال لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم : يا أمير المؤمنين ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟

قال : أما المطعم فقد سئمت أطيبه . وأما اللباس فقد ملت ألبسه ، وحظي الآن في شربة ماء بارد في يوم صائف تحت ظل شجرة .

وسأل معاوية عمرو قائلًا : وأنت ماذا بقي لك من متاع الدنيا يا عمرو ؟

قال : أرض خوار^(١) ، بها يمن حزارة ، تدر على في حياتي ولولدي بعد مماتي .

وكان يسقيهما وردان الخادم ، فأراد أن يداعبه معاوية فقال : وأنت

يا وردان ؟ قال : صنعة معروف أصنعها في أعناق قوم لا يؤدونها في حياتي

حتى تكون لعقبي في عقبهم . قال معاوية : غلبنا اليوم العبد يا عمرو .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَيَخْشَ الَّذِينَ كُتِبَ لَهُم مِّنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتُهُ ضِعْفًا

خَافُوا عَلَيْهِمْ فَيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلَيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٩] ^(٢) .

(١) الخوار . النخلة الغريزة الحمل . القاموس المحيط [باب الرء فصل الخاء] .

(٢) جاء في الجزء الثاني من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزائري [مباحث الحجر - أسباب الحجر] :

يرجع سبب الحجر في الشريعة الإسلامية على التحقيق إلى شئ واحد وهو مصلحة النوع الإنساني كما هو الشأن في كل قضية من قضاياها الكريمة ، فهي دائماً ترمى في تشريعها إلى ما فيه سعادة الإنسان جماعة وأفراداً . فمن قواعدها العامة وأسسها القويمة أنها قضت بضرورة التعاون بين الناس ، =

- فعرصت على القوى أن يعين الضعيف بقدر ما يتاح له ، وحتمت على الكبير أن يساعد الصغير الذى يتولى أمره ويخلص له كل الإخلاص حتى لا تضيع عليه فرصة ينتفع بها فى دينه ودنياه . فمن ابتلاه الله من الأطفال بفقد من يعطف عليه عطفاً طبيعياً من والد أو أخ أو قريب كان له فى غيره عوضاً ، فقد كلف الله الحاكم أن يختار له من يقوم بأمر تربيته والنظر فى مصلحته والعمل على تنمية ثروته ، كما يقوم بذلك أقرب الناس إليه وأصدقهم به . وقد أوصى الله تعالى الأولياء والأوصياء على اليتامى والمساكين ، وحذرهم عاقبة إهمالهم والطمع فى أموالهم ، بما تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ويخافون بطشه وعفاه . وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ تَوَكَّرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء : ٦] إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسُفْلُونَ سَعِيرًا ﴿ [النساء : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُوَا لِيَتَمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ٦] ، وفى الآية دلالة على أنه يصح للوصى الفقير أن يأخذ أحر عمله من مال القاصر بما هو معروف بين الناس ، فانظر كيف حذر الأوصياء فى الآية الأولى بما هو ممكن قريب الوقوع ؟ وكيف رغبهم فى حكم معاملة القاصر ؟ فإن الوصى الذى له أولاد صغار صغار قد يموت ويتركهم ، فليظن على أى وجه يحب أن يعامل الناس أولاده فيعامل به من أقامه الله وصياً عليه ، ليعلم أنه إذا اتقى الله تعالى فى قوله وفعله كان قدوة حسنة لأبائه فيقلون عنه الفضيلة ، فضلاً عما فى ذلك من ترك حس الذكرى وطيب الأثر ، ولذلك فى قلوب الناس منزلة رفيعة تحب إليهم مودة دريته الضعفة ، ويسهل عليهم خدمتهم .

إذن .. فماذا فعل التأمين ؟

من الجائز جدًا أن نعمل جمعية تضامن . فإذا حدث لواحد منا مصيبة نتضامن معه . إذن .. فأنا وأنت الدافعون . وهم المفقون . إنما اليوم تعمل الشركات بقانون الاحتمال ، فالمنتفع بالفائض كله من المال هو الشركة . إنما إذا اجتمع عشرة وتعهدوا بأن الذى يحدث له شيء يرفعه الآخرون .. فأهلاً وسهلاً .. هذا تضامن إسلامي وإخوة إسلامية .. ولقد عملنا فى جدة نظامًا للتجار فى هذا الشأن .. أنا سألتهم .. الشركات التى تؤمنون عندها على بضائعكم ألهما عمل فى حفظ هذه البضائع ؟ هل للشركات عمل فى حزمها ؟ هل لها عمل فى مراقبتها ؟ قالوا : لا . قلت : ولماذا تأخذ الفلوس ؟ قالوا : تأخذها بقانون الاحتمال ، وليس لها عمل .. لو كان لها مندوب يعمل على حزم البضائع أو غير ذلك لكادت حلالاً ، لأن لها عملاً وخدمة تؤديها . فقلت للتجار : أنتم لمستوردون فى حدة ، خمسون واحدًا ، فلماذا لا تتضامنون مع بعضكم بأن الذى يحصل لبضاعته شيء يسنده الباقيون ؟ وهنا يكون التأمين على الواقع وليس على الاحتمال . فقالوا : تعمل الشركات ، ونضع احتياطات من النقود فى الصندوق حتى لا نطلب وقت أن تحدث الكارثة ؟ فقلت لهم : ليكن كذلك .



الانفجار السكاني

السؤال :

يتحجج البعض بأن الانفجار السكاني من
معوقات التنمية الاقتصادية ؟ فما رأى
فضيلتكم فى ذلك ؟

الجواب : هناك انفجار سكاني .. هذا صحيح .. وعندما نحكم المقاييس
والمعايير والخط البياني .. يكون هناك خطر كما يقولون من هذا العدد الهائل
لماذا ؟

لأننا نعلم العدد الذى سيأتى ، ولم نخطط له ، ولا فى ماذا نستخدمه ،
ولا سألنا أنفسنا ماذا أعددنا من الحركة فى الأرض لمواجهة هذا العدد !!
ماذا فعننا فى المقابل ؟ قلنا : إننا سنقل السكان ، إذن .. فنحن « قدرنا »
ولكن على الطرف السلبي ، ولم نقدر على الطرف الإيجابي ، يدل من أن
نقول : إن هذا العدد سيحتاج إلى أرض كذا ، وإلى مصانع كذا .. ثم
نعمل من أجل زيادتها ، جئنا للناحية الضعيفة وقلنا : لا .. ننقص العدد .
إذن .. قدرنا بمعدل الزيادة كل عام كذا .. فى سنة كذا يكون كذا ..
صحيح عدد رهيب .. انفجار سكاني لابد فى المقابل أن نريد الإنتاج ؟
إذن .. فنحن اتجهنا إلى الجانب السلبي الذى يعين على الكسل ، ولم
نذهب إلى الجانب الإيجابي لننتج كذا ونفعل كذا وكذا ، وملتزم ونصنع حصة
ملتزمة ، لقد ذهنا إلى الناحية التى لا تحتاج إلى مجهود ، وطالبنا الناس بتقليل
عدد السكان .

ونحن إذا أخذنا المسألة فى حياة الأفراد العاديين أنفسهم ، نجد أن أسلوب
المعاجة يختلف .. مثلاً الشخص يقول لنفسه : عندي ثلاثة أولاد . ودحلى
الشهرى مائتى جنيه ، فهل ذلك يكفي ؟ لا .. لا يكفي ، إذن لابد أن أجد

عملاً إضافياً في فترة المساء . أعمل في محل تجاري ، أو أعمل على تاكسي ، أو أقف في كشك ، وهكذا يسوى الأفراد حياتهم .. أنت هنا تواجه زيادة تبعات الحياة ، ولا تأتي للتبعات نفسها وتقول : لا .. أنقصها ، وهناك شخص آخر لم يفعل ذلك ..

فحينما تزيد عليه تبعات الحياة ، يكون الضيق .. بينما من تنبه قبل أن تحل الأزمة لم يحدث عنده الضيق .

ونحن كمجتمع لم نفعل مقدماً لمواجهة زيادة تبعات الحياة ، ولذلك حينما يقال . إن النبي عليه الصلاة والسلام استعاذ من الفقر ، وكثرة العيال ، بقول : نعم استعاذ من اجتماعهما !! فأنت لماذا قدرت على كثرة العيال ، ولم تقدر على الفقر ؟ لماذا لم تتحرك في الحياة لتغلب على الفقر ؟ « هياك أباس قدروا على الثانية ، فلم يهتموا بالأولى » .. أى : استطاعوا التغلب على الفقر ، فلم يضرهم كثرة العيال ^(١) .

(١) روى البخارى [٦٣٤٧] ومسلم [٥٣/٢٧٠٧] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من سوء القضاء ، ومن درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء » .

قال النووي : الاستعاذة من (سوء القضاء) يدخل فيها سوء القضاء فى الدين والدنيا والبدن والمال والأهل . وقد يكون ذلك فى الخاتمة . « درك الشقاء » المشهور فيه فتح الرء . وحكاة القاضى وغيره أن بعض رواة مسلم رواه بإسكانها . وهى لعة . ودرك الشقاء يكون فى أمور الآخرة والدنيا ومعناه أعوذ بك أن يدركنى شقاء .

« شماتة الأعداء » هى فرح العدو بسية تنزل بعدوه يقال منه : شمت يشمت فهو شامت . وأشتمته غيره .

= « جهد البلاء » روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه فسر به بقله المال وكثرة العيال . وقال غيره : هي الحال الشاقة .

مسلم بشرح النووي [٣٨/٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَقِيحُوا نَارَ اللَّهِ وَرِزْقُهُمْ وَإِنَّمَا كُنَّ لِحَافَةً لَّكُمْ إِنَّا فَاعِلُونَ بِهِمْ وَلَوْلَا تَقْوَاهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَآلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ الْخَلْقِ وَكَلَّاكُمْ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

التفسير : هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته ، فنهى الله تعالى عن ذلك ، وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَقِيحُوا نَارَ اللَّهِ وَرِزْقُهُمْ وَإِنَّمَا كُنَّ لِحَافَةً لَّكُمْ إِنَّا فَاعِلُونَ بِهِمْ وَلَوْلَا تَقْوَاهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَآلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ الْخَلْقِ وَكَلَّاكُمْ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّا فَاعِلُونَ بِهِمْ وَلَوْلَا تَقْوَاهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَآلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ الْخَلْقِ وَكَلَّاكُمْ كَبِيرًا ﴾ : أى : ذنباً عظيماً ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » ، قال : قلت له : إن ذلك لعظيم . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم أن تزاني حليلة جارك »^(١) .

مختصر تفسير ابن كثير [الإسراء - ٣١] .

(١) رواه البخارى [٤٢٠٧] ومسلم [١٤١/٨٦] .

باب

القضاء والقدر والرزق

جسم الإنسان

السؤال : هل جسم الإنسان يسير بإرادة الله تعالى أم بإرادة الإنسان ؟

الجواب : جسم الإنسان مقهور لله سبحانه وتعالى في معظم أعضائه .. بل هو مقهور لله في كل ما يتصل بحياة الإنسان ووظائفها .. ففى أجسادنا أعضاء كثيرة لا نعرف عنها شيئاً .. ولا نحس بها إلا إذا أصابها المرض أو التلف ، ولكنها ما دامت تؤدي مهمتها بشكل طبيعي فنحن لا نحس بها . فإذا نظرنا إلى دورة الحياة فى أجسادنا .. نحن نأكل الطعام و نعضه بأسناننا ، ثم ينزل من الفم إلى البلعوم ومنه إلى المعدة ليُهضم فى عملية ميكانيكية معقدة ، ثم إلى الأمعاء الدقيقة ليمتص الجسم ما يحتاجه منه ، ثم بواسطة الدم يحمل إلى أجزاء الجسم المختلفة ليكون وقود حياة للإنسان ، وتخرج الفضلات من الأنحاء .

فإذا ما تأملنا دورة الطعام هذه ، فهل نملك مما يحدث من تفاعل بين أجسادنا وبين الطعام شيئاً ؟ . الحقيقة لا .. فعندما ينزل الطعام الى المعدة وتفرز عليه العصارات المختلفة .. هذه مسألة قهر .. فلا أحد بإرادته يقول لمعدته افرزى العصارات اللازمة للطعام .. ولا أحد يستطيع أن يوقف فرز هذه العصارات حتى لا تهضم الطعام .. ولكنها عملية تتم داخل أجسادنا ولا نشعر بها .. فإذا عُرض علينا فيلم يوضح لنا ماذا يحدث فى المعدة التى احتضنت كل هذه العمليات دون أن ندري عنها شيئاً ، لوجدنا عظمة الله وقدرته ولا يملك الإنسان تجاه ذلك إلا أن يقول : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الكبد مثلاً .. ومعلوم للكافة عظمة مهمته وأهميتها ، والسؤال : هل نشعر بعمله حين يبدأ العمل أو بمهامه التي يقوم بها ؟ .. بالطبع لا .. فالكبد قائم بعمله في الجسد .. دون أن نعرف أو نشعر بهذه العملية التي تتم داخل أجسادنا .. بل ربما طوال العمر ما دام لا يحدث اختلال في وظائفه فإننا لا نشعر بوجوده .

والقلب تلك المضغة الصغيرة التي وضع فيها سر الحياة ، هل نستطيع أن نجعل القلب ينض حين نريد ؟ .. أو يتوقف عن البض عندما نريد ؟ وفي رئتيك عملية تبادل الأكسوجين وثنائي أكسيد الكربون مستمرة ليلاً ونهاراً ، وبو توقفت الرئتان عن العمل لتوقفت حياة الإنسان ، فهل أنت الذي تدير هذا التبادل ؟ أو هل تستطيع أن تتحكم فيه ؟

وكذلك الدورة الدموية التي هي حسدك .. هل تستطيع أن تتحكم فيها وتطلب منها أن تضخ الدم هنا وتمنع عن الضخ هناك | عشرات الأشياء التي يتكون منها الدم .. من كرات حمراء وكرات بيضاء وغير ذلك هل تدري عنه شيئاً ؟

إن هناك معارك تدور داخل شرايينك .. يدخل الميكروب أو الفيروس جسد المريض .. وتبدأ كرات الدم البيضاء في التصدي له .. وتعدّ له من أنواع المقاومة ما يقضي على الميكروب ويعيد لك الصحة .. أأنت تفعل ذلك ؟ بالطبع لا .

إذن .. فكل هذا مقهور لله سبحانه وتعالى .. لا تدري أنت عنه شيئاً .. وإذا رأيته فإنك تدهل من أن كل هذا يحدث في جسمك .. وأنت لا تستطيع أن توقفه أو تسيره .

إذن .. كل هذه العمليات التي تدور في جسدك .. لا إرادة لك فيها ..
ولا سلطان لك عليها .. أى أنها لا تأخذ منك أية تعليمات .. وأنت
لا تستطيع أن تجعلها تعمل أو تتوقف .. وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى ..
فلو أن هذه الأشياء تخضع لإرادتك لكانت مصيبة كبرى .
تصور أنه مطلوب منك أن تأمر القلب أن يdq .. والمعدة أن تعمل ، والرئة
أن تتنفس .. لن يكون عندك وقت لتفعل هذا .. وإذا كان عندك الوقت لما
استطعت أن تسعى فى الحياة .. وأن ترتقى بحضارتك .. وأن تطبق منهج الله ..
بل لم تكن لتستطيع أن تنام .. وكيف تنام والقلب يعمل بأمر منك .. إنه
سيتوقف ساعة نومك .. وكيف يستطيع الطفل الصغير الذى لا يدرك شيئاً ..
أن يجعل هذه الأجهزة تعمل ولا تترقف .



كل ميسر لما خُلق له

السؤال :

إذا كان الله سبحانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء فكيف إذن يكون الحساب عدلاً ؟ وهل يملك أحداً من أمره شيئاً أمام مشيئة الله سبحانه وتعالى ؟

الجواب : هذا السؤال لا تجده إلا على ألسنة الذين أسرفوا على أنفسهم وعصوا الله .. فلا تجد أحداً يقول بالمقابل .. إذا كان كل شيء مكتوباً .. فلماذا يدحelnى الله الحجة وينعمى فيها ؟ .. ذلك سؤال لا تسمعه أبداً .. وإنما تسمع دائماً من يقول لك إن الحساب ليس عدلاً .. لأن كل شيء مكتوب ، وكل شيء هو من قدر الله .

الله سبحانه وتعالى قد أعطى للإنسان حرية الاختيار فى حياته .. ومن هنا جاء السؤال .. ذلك أن الحرية المموحة للإنسان .. يظن بعض الناس أنها تتصادم مع مشيئة الله .. مع أن الحقيقة غير ذلك تماماً .

ويحتج بعض الناس خطأ ببعض آيات من القرآن الكريم ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإسراء : ٣٠] .

وقوله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٤٨] .

وقوله جل جلاله : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٨] .

وإذا كان ذلك كذلك .. فكيف نحاسب يوم القيامة ؟

نقول : إن الله سبحانه وتعالى له ما يشاء فى كونه .. ولا يوجد فى كون الله شىء يخرج عن مشيئة الله .. تلك هى الحقيقة التى نبدأ بها .. ومع هذه الحقيقة فإن الناس هم الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وخلق الله هم الذين يفعلون ما يجعلهم يستحقون عذاب الله .. أو يستحقون رحمته .. كما يقول الله جل جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤] .

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يُعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى يمين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية ^(١) ، وبعد ذلك نخص كل رسول بآية ومعجزة ، وأنزل منهجاً بـ « افعل » و « لا تفعل » ،

(١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها سبحانه كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُلُوكِ الَّتِي بِحَرِّى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِوِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرِّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٦] .

وين في آيت الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن نمتنع عنه^(١) ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذي أضربه دائماً : هو التلميذ الذي يرهب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قدجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة في ذلك هو إعلان النتيجة .
ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده لأنه مُزْرَعٌ عن ذلك ، فضلاً عن أن حلقه ليس عندهم نعم يريدونها ، فهو الذي أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أي ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان نفسه^(٢) .

(١) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ تَحْنُ نَزَعُكُمْ وَإِنْسَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنُ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

(٢) كنا في جازة في بقيق الغرق . فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقعد وقعدنا حوله . ومعه مخرصة . فكس فجعل ينكت بمخرصته . ثم قال : « ما منكم من أحد ما من نفس منهوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار . وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة »

قال فقال رجل : يا رسول الله ! أفلا نمكث على كتابنا ونندع العمل ؟ فقال : « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة . ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة » .

= فقال : « اعملوا فكل ميسر » .

أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة . وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة . ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۖ ⑤ رَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَيَّرُهُ لِلْيُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ نَحَلَ وَاسْتَعَى ⑧ وَكَذَّبَ بِأَخْسَى ⑨ فَسَيَّرُهُ لِلْعُسْرَى ⑩ ﴾ [الليل] .

« بقيع الغرقد » : هو مدفن المدينة .

« محصورة » : المحصورة ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف وغيرهما .

« فنكس » أي : خفص رأسه وطأصأه إلى الأرض على هيئة المهموم .

« يكت » أي : يخط بها خطا يسيرا مرة بعد مرة وهذا فعل المفكر المهموم . « أفلا نمكث على كتابنا » قال القاضي : يعني إذا سبق القضاء بمكان كل نفس من الدارين وما سبق به القضاء فلا بد من وقوعه فأني فائدة في العمل فندعه .

قال الطبري : هذا الذي انقح في نفس الرجل هي شبهة النافيس القدر وأحباب عليه اسلام تما لم يبق معه إشكال . وتقدير جوابه أن الله سبحانه غيب عنا المقادير . وجعل الأعمال أدلة على ما سبقت به مشيئته من ذلك . فأمرنا بالعمل فلا بد لنا من امتثال أمره .

وروى لبحارى [٦٥٩٦] ومسلم [٩/٢٦٤٩] عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال : قيل : يا رسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال : نعم قال : قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له .

العمل .. والإيمان بالقدر

السؤال :

بعض المشككين فى عدل الله سبحانه وتعالى يحاولون إدخال اليأس فى قلوب الناس حتى يصرفوهم عن العبادة حيث يقول هؤلاء : إذا كان الحق سبحانه وتعالى خلق للجنة أهلها ، وخلق للنار أهلها ، فما هو جدوى العمل إذن ؟

الجواب : الإنسان خلق مختارًا .. ولكن هل أعطى الإنسان مطلق الاختيار ؟ .. بعض الذين يدعون أنهم متحررون .. ويتبعون عقولهم وأفكارهم .. يقولون بحماسة : نعم نحن لنا مطلق الاختيار .. بل إن بعض الناس قد ذهب إلى أبعد من ذلك .. فقالوا إن الإنسان الذكى يستطيع أن يصنع قدره .. وأن يضع نفسه فى المكان الذى يريد من الحياة .
نقول لهؤلاء جميعًا : كفاكم جهلًا .. فإن ما تقولونه يكذبه الواقع ، وتكذبه الحياة بكل أحداثها .. الإنسان لم يعطه الحق سبحانه وتعالى اختيارًا مطلقًا .. وإنما أعطاه الاختيار الذى يتناسب مع مهمته فى الحياة . فالله سبحانه وتعالى حكيم ، ولذلك فكل شىء يفعله بحكمة .. والله تبارك وتعالى عليم .. فكل شىء يتم فى كونه بعلم وليس بفوضى أو بعموية .. أو بأشياء تحدث هكذا لا ترابط بينها .

وإذا استعرض كل ما شريط حياته .. بل إذا نظر داخل نفسه وداخل جسده ، يجد أن هناك أشياء كثيرة لا تخضع لحيته أو اختياره .. بل إن معظم حياة الإنسان لا تخضع لاختياره .

ونبدأ القصة من أولها .. عندما يأتي الإنسان إلى هذا الكون .. لحظة مولده .. أهو الذي اختار مكان مولده ؟ .. أو يوم مولده ؟ أو ساعة ميلاده ؟ .. لا أحد منا يختار لحظة ميلاده في الدنيا .. بل كلنا يأتي للحياة بقدر الله سبحانه وتعالى .. فبداية الحياة بكل بشر ليست من اختياره .. ومكان هذه البداية ليس من اختياره .. وجنسه .. هل هو ذكر أم أنثى ؟ ليس من اختياره .. وجنسيته هل هو عربي أم بريطاني أم أمريكي ؟ لا اختيار له فيها .. ثم بعد ذلك يأتي جسده .. أطويل هو أم قصير ؟ .. ما هو لون عينيه ؟ .. ما هو لون شعره ؟ .. ما هي صورة وجهه ؟ .. من هو أبوه ومن هي أمه ؟ .. هل هو صحيح السمع سليم البصر ؟ .. هل هو سليم اليدين والقدمين ؟ .. في جسده عيب أو مرض أم هو صحيح ؟ .. كل هذا وغيره لا اختيار للإنسان فيه .. ومن هنا فقد بيهنا الحق سبحانه وتعالى .. إلى محدودية الاختيار في الإنسان منذ لحظة ميلاده .. وفي ذلك يقول جل جلاله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٦٠] .

وهكذا نسب الحق تبارك وتعالى كل ما يتعلق بلحظة الميلاد والتكوين البشري إلى طلاقة قدرته وحده .. ولم يعط للإنسان اختياراً في أن يولد أبيض أو أسود .. صحيحاً أم مريضاً .. ولا في صورة وجهه .. ولا في تكوين جسده (١) .

(١) أخرج مسلم [٣/٢٦٤٥] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « الشقى من شقى في بطن أمه والسعيد من وعط بغيره فأتى رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟ فقال له الرجل : =

= أتعجب من ذلك ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال يا رب أذكر أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول : يا رب أجله ، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا رب : رزقه ؛ فيقضى ربك ما شاء ، ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على أمر ولا ينقص » .

وأخرج مسلم [٢/٢٦٤٥] عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله تعالى عنه قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول : « إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك ، قال زهير حسبته قال الذي يخلقها ، فيقول يا رب : أذكر أم أنثى ؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى ، ثم يقول : يا رب أسوى أم غير سوى ؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوى ، ثم يقول : يا رب ما رزقه ، ما أجله ، ما خلقه ، ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً » .

وأخرج البخاري [٤٦٦٦] عن عبي رضي الله تعالى عنه ، قال ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض ، فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، قالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابها وندع العمل ؟ قال . اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَالْفَقْرَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴾ [البر ٦] .

وأخرج البخاري [١٢٩٦] ومسلم [٧/٢٦٤٧] عن علي رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار ؛ قالوا : =

= يا رسول الله فلم نعمل أفلا نتكل ؟ قال : فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴾ [البيل] . وأخرج مسلم [٢٦٤٨ / ٨] عن جابر رضى الله تعالى عنه قال : جاء سراقه بن مالك بن جعشم قال : يا رسول الله ! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيما العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام . وجرت به المقادير ، أم فيما نستقبل ؟ قال : لا . بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قال : فقيم العمل ؟ قال : قال رهير . ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه . فسألت : ما قال : فقال اعملوا فكل ميسر .

قال النووي فى شرح مسلم : « وفى هذه الأحاديث كلها : دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة فى إثبات القدر ، وأن جميع الوقعات بقضاء الله تعالى وقدره ، خيرها وشرها نفعها وضرها ، وقد سبق فى أول كتاب الإيمان قطعة صالحة من هذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء ٢٣٠] . فهو ملك لله تعالى ، ويفعل ما يشاء ، ولا اعتراض على المالك فى ملكه ، ولأن الله تعالى لا علة لأفعاله ، قال الإمام أبو المطهر السمعاني : سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محص القياس ومجرد العقول ، فمن عدل عن التوقيف فيه صل وناء فى بحار الخيرة ، ولم يبلغ شفاء النفس ، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب ، ولأن القدر سر من أسرار الله تعالى التى ضربت من دونها الأستار ، واختص الله به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة ، وواجبا أن نقف حيث حد لنا ، ولا نتحاوزه ، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم ، فلم يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، وقيل : إن سر القدر ينكشف قبل دخولها ، والله أعلم .

- وهى هذه الأحاديث . السهى عن ترك العمل ، والالتكال على ما سبق به القدر بل تجب الأعمال ، والتكاليف التى ورد الشرع بها ، وكل ميسر لما خلق له ، ولا يقدر على غيره ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعملهم كما قال تعالى : ﴿ فَسَيَسِّرُهُمُ لِلْعُسْرَى ﴾ [البقره : ١٠٠] ، كما صرحت به هذه الأحاديث .

قال الله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٧] .

قال القرطبي : مثل نعمة الكافرين في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقتة وأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء بعد ما كانوا يرجون فائدته ونفعه . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى .

وقيل : ظلموا أنفسهم بأن زرعوا في غير وقت الزراعة أو في غير موضعها فأدبهم الله تعالى لوضعهم الشيء في غير موضعه .

وقال ابن جرير الطبري : يعنى بذلك جل ثناؤه : شبه ما ينفق الذين كفروا: أي : شبه ما يتصدق به الكافر من ماله فيعطيه من يعطيه على وجه القرية إلى ربه وهو لوحداية الله جاحد ولحمد صلى الله عليه وسلم مكذب في أن ذلك غير نافع له مع كفره وأنه مصمحل عند حاجته إليه ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كسبه ريح فيها برد شديد ﴿ أَصَابَتْ ﴾ هذه الرياح التي فيها البرد الشديد ﴿ حَرْثَ قَوْمٍ ﴾ يعنى : زرع قوم قد أملوا إدراكه ورجوا ريعه وعائدة نفعه ﴿ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ يعنى أصحاب الزرع عصوا الله -



= وتعدوا حدوده ﴿ فَأَهْصَكْتُمْ ﴾ يعني : فأهلك الريح التي فيها الصر زرعهم ذلك بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم .
يقول تعالى ذكره : فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته حين يلقاه يبطل ثوابها ويميت رجاءه منها .
وخرج المثل للنفقة والمراد بالمثل : صبيح الله بالنفقة فين ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ فهو كما قد بينا في مثله من قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ [البقرة . ١٧] وما أشبه ذلك . فتأويل الكلام : مثل إبطال الله أجر ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر .

الفرار من قدر الله

السؤال :

هل يمكن الفرار من قدر الله سبحانه
وتعالى للنجاة من الموت أو المرض أو
القتل أو غير ذلك ؟

الجواب : الفرار من الموت مستحيل ^(١) ، والموت به أجل محدد ، لا يتأخر
دقيقة ولا يتقدم ^(٢) ، ولقد ستر الله سبب الموت وستر زمنه ^(٣) ، حتى لا يفهم
أحد أنها عملية ميكانيكية .. يولد الإنسان ثم يتقدم به العمر فيموت .. أى
أن هناك رمنا محددًا لحياة كل فرد فينا .. نولد فإذا بلغنا الستين أو السبعين
نموت .. ولذلك فإن الله تعالى جعل الموت بلا أسباب .. فالجنين يموت فى
بطن أمه .. والمريض يموت بسبب المرض .. والصحيح يموت ولا نعرف لموته
سببًا .. والطفل يموت والشاب يموت والعجوز يموت .
إذن .. فهذا يحدث بأمر الله ، ولا تدفعه الأسباب ، وربما تجد مريضين
بمرض واحد ، ويعالجان عند طبيب واحد ، أحدهما يموت بعد أيام والآخر
يعيش لسنوات طويلة .

على أن هناك جدلاً يثيره بعض الناس فى مسألة الموت فيأتى واحد ويقول
أنا أحكم على هذا بالإعدام فموت .. أو أنا أستطيع أن أميت من أريد .. بأن

(١) إشارة لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .
(٢) إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ [الأعراب : ٢٤] .

(٣) إشارة لقوله الله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

أمسك مدفعًا أو مسدسًا أو سكينًا ، وأقتل الإنسان الذي أريده أن يموت فيموت .

إدب .. فالحديث عن الأجل نجد بعض الناس يحاولون التشكيك فيه .. وهم يدعون أن الموت يمكن أن يكون في يد بشر ، فإذا أردت أن أميت إنسانًا قتلته فمات ، نقول لهم : إنكم خلطتم بين الموت وبين القتل ، الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يميت .. أما الإنسان فإنه لا يميت ولكنه يقتل .. وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران ١٤٤] . إذن .. فالموت غير القتل ، لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ، والحق جل جلاله فرق بين الموت والقتل في آيات كثيرة من انقرآن الكريم منها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ ^(١) [آل عمران ١٥٦] .

(١) قال الله تعالى . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَاحَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ٢٥٨] .

قال القرطبي : في قصص هذه الحاجة روايتان . إحداهما أنهم خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم : أتعبدون ما تحتون فقالوا : فمن تعبد قال : أعبد ربي الذي يحيي ويميت . وقال بعضهم : إن نمرود كان يحتكر الطعام فكانوا إذا احتجوا إلى الطعام .

.....
= يشترونه منه فإذا دخلوا عليه سجدوا له فدخل إبراهيم فلم يسجد له فقال :
مالك لا تسجد لي ؟

قال : أنا لا أسجد إلا لربي .

فقال له نمروذ : من ربك ؟

قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت .

وذكر زيد بن أسلم أن النمروذ هذا قعد يأمر الناس باميرة فكلما جاء قوم يقول :
من ربكم وإلهكم فيقولون أنت فيقول : ميروهم . وجاء إبراهيم عليه السلام
يمتار فقال له : من ربك وإلهك ؟

قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت فلما سمعها نمروذ قال : أنا أحيي وأميت
فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر وقال لا تمبروه فرجع إبراهيم
إلى أهله دون شيء فمر على كتيب رمل كالدقيق فقال في نفسه : لو ملأت
غراتي من هذا فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم فذهب بذلك فلما
بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغراتين ونام هو من الإعياء فقالت
امراته : لو صنعت له طعاما يجده حاضرا إذا انتبه ففتحت إحدى الغراتين
فوجدت أحسن ما يكون من الحواري فخبزته فلما قام وضعته بين يديه فقال :
من أين هذا ؟ فقالت : من الدقيق الذي سقت . فعلم إبراهيم أن الله تعالى
يسر لهم ذلك .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي صالح قال : انطلق إبراهيم النبي عليه
السلام يمتار فلم يقدر على الطعام فمر بسهنة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى
أهله فقالوا : ما هذا ؟ فقال : حنطة حمراء ففتحوها فوجدوها حنطة حمراء
قال : وكان إذا زرع منها شيئا جاء سنبله من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا .
وقال الربيع وغيره في هذا القصص : إن النمروذ لما قال أنا أحيي وأميت =

= أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر فقال : قد أحييت هذا وأميت هذا فلما رد عليه بأمر الشمس بهت .

وروي في الخبر : أن الله تعالى قال وعرتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى أتني بالشمس من المغرب يعلم أنني أنا القادر على ذلك . ثم أمر نمرود بإبراهيم فألقي في النار وهكذا عادة الجبابرة فإنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتعلوا بالعقوبة فأجابه الله من النار على ما يأتي .

وقال السدي : إنه لما حرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ولم يكن فل ذلك دخل عليه - فكلمه وقال له : من ربك ؟

فقال : ربي الذي يحيي ويميت .

قال النمرود : أنا أحيي وأميت وأنا أخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتا ولا يطعمون شيئا ولا يسقون حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت اثنين فحيا وتركت اثنين فماتا . فعارضه إبراهيم بالشمس فبهت .

وذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما وصف ربه تعالى بما هو صفة له من الإحياء والإماتة لكنه أمر له حقيقة ومجار قصد إبراهيم عليه السلام إلى الحقيقة وفرع نمرود إلى المجاز وموه على قومه فسلم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وحاءه بأمر لا مجاز فيه ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي : انقطعت حجته ولم يمكنه أن يقول أن الآتي بها من المشرق لأن ذوي الأبواب يكذبونه .

وذكر ابن هشام في السيرة في المجدد الرابع تحت عنوان : ذكر ما أزل الله في أحد من القرآن . تحذيرهم أن يكونوا ممن يحشون الموت في الله قال : قال الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ =

.....
= حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ [آل عمران : ١٥٦]

أي : لا تكونوا كالمنافين الذين يهود إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله عز وجل وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا لو أصاعونا ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ يجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم « لقلة اليقين بربهم » ﴿ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ ﴾ أي : يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من ذلك من أجلهم بقدرته .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧] أي . إن الموت لكائن لا بد منه فموت في سبيل الله أو قتل خير لو علموا وأيقنوا مما يجمعون من الدنيا التي لها تأخرون عن الجهاد تخوف الموت واقتل لما جمعوا من زهرة الدنيا رهادة في الآخرة ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٨] أي ذلك كان ﴿ رَلَّ إِلَى اللَّهِ تَحَشَّرُونَ ﴾ : أي أن إلى الله المرجع فلا تغرنكم الدنيا ، ولا تغتروا بها وليكن الجهاد وما رغبكم الله فيه من ثوابه أثر عندكم منها .

وروى البخاري [٥٣٩٧] ومسلم [٩٨/٢٢١٩] عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسمرغ نقيه أمراء الأجداد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام .

قال ابن عباس : فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا يرى أن ترجع عنه وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرى أن تُقدمهم على هذا الوباء فقال : ارتفعوا عني ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلخوا سبيل المهاجرين =

.....
= واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عني ثم قال : ادع لي من كان ها هنا من
مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم علي رحلان
فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تُقَدِّمَهُمْ على هذا الرباء فنادى عمر في الناس :
إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرِ فَأُصْبِحُوا عليه

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر الله فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا
عبيدة ! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرايت لو كان لك إبل هبطت واديا
له عدوتان إحداهما حصبة والأخرى جدبة أليس إن رعى الحصبة رعىها
بقدر الله وإن رعى الجدبة رعىها بقدر الله قال : فحاء عبد الرحمن بن
عوف وكان متغييا في بعض حاجته فقال : إن عندي في هذا علما سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « إذا سمعتم به بأرض فلا تُقَدِّمُوا عليه
وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » .
قال : فحمد الله عمر ثم انصرف .

قال الحافظ في الفتح : هذا الطاعون الذي وقع بالشام حينئذ هو الذي يسمى
طاعون عمواس : سمي بذلك لأنه عم وواسى . قوله : « حتى إذا كان بصرغ » :
مدينة افتتحها أبو عبيدة وهي واليرموك والحجاية متصلات بينها وبين المدينة
ثلاث عشرة مرحلة .

وقال ابن عبد البر : قيل : إنه واد بتيوك وقيل : بقرب تيوك .
وقال الخازمي : هي أول الحجاز وهي من منازل حاج الشام وقيل : بينها وبين
المدينة ثلاث عشرة مرحلة . قوله . « لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح
وأصحابه » هم . خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة
وعمر بن العاص وكان أبو بكر قد قسم البلاد بينهم وجعل أمر القتال إلى
خالد ثم رده عمر إلى أبي عبيدة وكان عمر رضي الله تعالى عنه قسم

الشام أجنادا : الأردن جند وحمص جند ودمشق جند وفلسطين جند وقسرين جند وجعل على كل جند أميرا ومهم من قال : إن قنسرين كانت مع حمص فكانت أربعة ثم أفردت قنسرين في أيام يزيد بن معاوية . قوله : « فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه » راد يونس في روايته « فإني ماض لما أرى فانظروا ما أمركم به فامضوا له قال فأصبح على ظهر » . قوله : « فقال أبو عبيدة » وهو إذ ذاك أمير الشام « أفرارا من قدر الله » أي . أترجع فرارا من قدر الله . وهي رواية هشام بن سعد « وقالت طائفة منهم أبو عبيدة : أمن الموت نهر إنما نحن بقلر لن يصبنا إلا ما كتب الله لنا » . قوله : « فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة » أي لعاقبته أو لكاد أولى منك بذلك أو لم أتعجب منه ولكني أتعجب منك مع علمك وفضلك كيف تقول هذا ويحتمل أن يكون المحذوف . لأدبته أو هي للتمي فلا يحتاج إلى جواب والمعني أن غيرك ممن لا فهم له إذا قال ذلك يعذر . قوله : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » في رواية هشام بن سعد « إن تقدمنا فبقدر الله وإن تأخرنا فبقدر الله » وأطلق عليه فرارا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فرارا شرعيا . والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه مهني عنه . ولو فعل لكان من قدر الله وتجنبه ما يؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما فر منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله فهما مقامان : مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب كما سيأتي تقريره . ومحصل قول عمر : « نفر من قدر الله إلى قدر الله » أنه أراد أنه لم يفر من قدر الله حقيقة وذلك أن الذي فر منه أمر خاف على نفسه منه فلم يهجم عليه والذي فر إليه أمر لا يحاف على نفسه منه إلا الأمر الذي لا بد من وقوعه سواء كان ظاعنا أو مقيما .

الموتة الصغرى والكبرى

السؤال :

كيف يتوفى الله الأنفس حين موتها ؟ وفي
نفس الرقت النفس التي لم تمت في منامها
يمسكها حتي يقضي فيها بالموت ؟

الجواب : قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَرَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] أشياء تحدث لنا ونحن
نائمون .. نحلم بها ونراها ولا تحدث خارج منطقة العقل والذاكرة .. لأننا
حينما نستيقظ من النوم نستطيع أن نحكى ما رأيناه فى المنام بدقة .. فكأن
ذاكرتنا تعي ما رأيناه وإلا ما استطعنا أن نصفه .. وآلة إدراك بصرى غير العين
شاهدت مشاهدة واضحة .. فيها تفاصيل كثيرة .. وإلا ما استطعنا أن نصف ما
شهدناه فى الأحلام .. والحوار الذى حدث مع أولئك الذين انتقلوا إلى العالم
الآخر .. حوار نعيه ونعرفه لأننا نستطيع أن نتذكره وأن نرويّه .. ربما بنفس
العبارات والكلمات ..

إذن .. فالإنسان فى لحظة واحدة .. ينتقل من قوانين إلى قوانين أخرى
لا نعرف عنها شيئاً .. ولكنها قوانين نخضع لها فى ساعة النوم .. ولكن
السؤال هنا .. هل هذه القوانين التى نخضع لها أثناء النوم لنا فيها إرادة
واختيار ؟ .. أى هل يستطيع واحد منا وهو نائم أن يختار الأحداث التى يراها فى
المنام ؟ .. ويقول سأرى كذا ونأرى كذا ؟ .. أو سأحدث مع فلان ولن
أحدث مع فلان ؟ .. أو سأقول كذا ولن أقول كذا ؟ .. أو يقول سأذهب فى
منامى الليلة إلى أوروبا وفى منامى القادم إلى « روسيا » ؟ .. بالطبع لا .. لأن

الإنسان وهو نائم .. خرج عن منطقة الاختيار البشرى .. فلم يعد مختارًا فيما يرى وما لا يرى .. ولم يعد مستطيعًا أن يختار الكلمات التي يتحدث بها .. وتلك التي يخفيها في نفسه ولا ينطق بها .. ولا هو متحكم في أى شيء يراه .. ومع أن الرؤية تتفق مع منطق العقل البشرى .. فإذا جاءك إنسان وقال لك : إني رأيت في المنام كذا وكذا ، فإنك لا تكذبه .. بل لا تناقشه .. ولكن تعرف أن هناك منامًا ورؤيا في النوم .. لأنك أحيانًا تتعرض لذلك .. فأنت لا تتهمه بأنه جاء بشيء لا يقبله العقل من ناحية ما حدث .. ولكنك تعطى لقوانين العقل فى اليقظة إجازة .. أى لا تتخذها مقيسًا لما يحدث فى النوم .. ولا ندخل الرؤيا التي يراها أى إنسان فى مجال النقاش العقلى .. ولا نجادله فيها .. لأنك تعرف بحكم تجربتك أنت . أن الإنسان قد يرى فى منامه أشياء لا تحصع لقوانين العقل فى اليقظة .

ولكن أحدًا لا يستطيع ولن يستطيع أن يعطيا تفسيرًا علميًا للقوانين التي يخضع لها الإنسان وهو نائم .. وكيف ينتقل نفس الشخص من قانون إلى قانون فى لحظة واحدة .. ثم يعود إلى قانون اليقظة بمجرد أن يستيقظ من نومه .. ثم يعود مرة أخرى لقوانين انوم عندما ينام .. ولا يستطيع إنسان مهما بلغ علمه أن يحدد لنا كيفية هذا الانتقال من قانون لقانون .. ولا كيف يتم .. ولكننا نعرف أن النوم حقيقة وتجربة يمر بها كل إنسان .. بل ونعرف أيضًا أننا فى قوانين النوم نخرج عن مقاييس الزمن .. ولذلك عندما أنام الله سبحانه وتعالى أهل الكهف .. ثلاثمائة سنة وتسعًا بالتقويم الهجرى .. ثم استيقظوا لم يعرفوا كم الوقت الذى مر عليهم وهم نائمون ؟ ولذلك رغم أنهم ناموا هذا الفترة الطويلة .. ماذا قالوا عندما استيقظوا ؟ .. يقول الحق

سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : ١٩]

إذن .. فالإنسان النائم لا يحس بالزمن .. ولذلك فإن أهل الكهف قاسوا فترة نومهم على عادة الإنسان في النوم .. وهو أن ينام جزءًا من اليوم .. فإن كان متعبًا ومجهدًا قد ينام يومًا بأكمله .. ولكن أكثر من ذلك لا يحدث عادة .

وإذا أردنا أن نقيس ذلك على أنفسنا .. فإننا عندما ننام ونستيقظ من النوم .. لا نعرف عدد الساعات التي قضيناها ونحن نائمون إلا إذا نظرنا إلى آلة من آلات قياس الوقت كالساعة .. أو علامة من علامات قياس الوقت كالليل والنهار .. كأن يكون قد نمنا في ضوء النهار واستيقظنا في ظلمة الليل أو العكس .. ولكن عدد الساعات بالتحديد لا يمكن أن يعرفها بشر منا .. إلا إذا نظرنا إلى الساعة .

وبقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يريحنا من البحث عن قوانين النوم ويعرفنا أننا بنصل إليها .. فقال حل حلاله . ﴿ اللَّهُ يَنفُخُ الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَصَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٤٢٠] . وبذلك نعرف أن النوم يخضع لقوانين البرزخ .. ونحن لا نعرف شيئًا عن قوانين الحياة في البرزخ .. إلا ما أخبرنا الله به .. ولذلك فإننا لن نعرف شيئًا عن قوانين النوم .. إلا أن هناك أشياء يبصر بها الإنسان غير العينين اللتين تبصر بهما في اليقظة .. وأن هناك ما يعطى الإنسان الحركة غير القدمين اللتين يتحرك بهما في عالم اليقظة .. وأن هناك كلامًا ينطقه بغير اللسان الذي

ننطق به في عالم اليقظة .. وأن عالم البرزخ لا يعتمد على حواس الجسد
المادى التى تكون معطلة تمامًا أثناء النوم .. إنما هناك حواس أخرى موجودة
فينا .. نستخدمها في عالم البرزخ .. وأن عالم البرزخ ليس فيه اختيار بشرى ..
كما أن النوم ليس فيه اختيار بشرى .. وأنه ليس فيه إحساس بالزمن .. كما
أننا لا نحس بالزمن وقت النوم .. وأنا نلتقى فيه عن انتقلوا إلى رحمة الله
قبلنا .. كما يحدث في عالم النوم .



الحرية في مجال التكليف

السؤال :

الحق سبحانه وتعالى أعطي الإنسان الحرية المطلقة في مجال التكليف في أن يفعل أو لا يفعل ، ثم يحاسبه على عمله .. كيف ؟

الجواب : أنت مقهور في معظم أجزاء جسدك .. وهذا القهر جاء من الله جل جلاله رحمة بك كي تستطيع الحياة والعمل والسعى ، وإلا لو كنت مختاراً في جسدك لما أمكنك أن تبقى على قيد الحياة .

إذن .. فمعظم أجزاء جسم الإنسان مقهورة لله سبحانه وتعالى .. تعمل بالقهر وليس بالاختيار .. وتعمل ما شاء الله سبحانه وتعالى لها أن تعمل .. وتتوقف حين يأمرها الخالق بالتوقف .

إذن .. فليس لك اختيار في معظم أجزاء جسدك .. وليس لك علم بها .. إلا ما أراد الله لك أن تعلم عنها .. فإذا شاء جل جلاله إخفاء علم في جسدك عن البشرية كلها .. أخفاه .. وإذا كنت تستغرب هذه العبارة .. فإن الحق سبحانه وتعالى أخفى عن عباده أمر الروح ..

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وليقول لنا علماء الدنيا كلها أين الروح التي تعطى الحياة للجسد ؟ .. هل هي في القلب الذي ينبض ؟ .. أو في العقل لذي يفكر ؟ .. أو في الدورة الدموية التي لا تتوقف ؟ .. أو في القدم التي تتحرك ؟ .. أو في العين التي تبصر ؟ .. أو في الأذن التي تسمع ؟ .. أين هي ؟ .. سؤال لا يستطيع العلم

أن يجيب عنه .. فهو سر لا يعلمه إلا الحق سبحانه وتعالى .. وسيبقى سرًا
لا يعلمه إلا الله (١) .

إذا كانت الروح وهى مخلوق فى جسدك .. تحس بوجودها وتعرف آثارها
لأنها هى التى تعطيك الحياة .. ولا تعرف عنها شيئًا .. لأن الله سبحانه

(١) روى البخارى [١٢٥] ومسلم [٢٧٩٤ / ٣٢] عن عبد الله رضى الله تعالى
عنه قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم فى خرب المدينة وهو
يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن
الروح وقال بعضهم : لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه .
فقال بعضهم : لنسأله فقام رجل منهم فقال : يا أبا القاسم ما الروح فسكت
فقلت : إنه يروى إليه فقمت فلما انجلى عنه فقال : ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .
قال الخطابي ذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به
حياة الجسد .

وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الإنسان
وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل .
وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا بيني آدم لهم أيد وأرجل .
والصحيح الإبهام لقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي : هو أمر عظيم
وشأن كبير من أمر الله تعالى مبهما له وتاركًا تفصيله ليعرف الإنسان على
القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى
معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك
تعزيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق محاور له دلالة على أنه عن إدراك حاله
أعجز .

وتعالى ستر عمنها عنك .. فكيف تقول : إن جسدك يخضع لإرادتك ؟ ..
لا إنه يخضع لإرادة من خلقه .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الأشياء .. التي سخرها الله لإرادتك في جسدك ..
فاللسان مثلاً سخره الله لإرادتك .. لذلك فهو يطيعك إذا أردت أن تشهد أن
لا إله إلا الله .. وينطق بها ، وهو يطيعك إذا أردت أن تنطق كلمة الكفر
والعياذ بالله .. وعينك تطيعك إذا أردت أن تنظر إلى ما هو حلال .. أو أردت
أن تتأمل في آيات الله في كونه .. وهى كذلك إذا أردت أن تنظر إلى محارم
غيرك ، أو إلى ما حرمه الله عليك .

واليد تطيعك إن أردت أن تساعد بها عاجزاً على عبور الطريق .. وتنطيعك
إن أردت أن تعتدى بها على ضعيف .. أو تقتل بها عدوك .. والقدم تطيعك
فى الذهاب إلى المسجد .. أو فى الذهاب إلى أماكن اللهو والفجور .

هذه الجوارح كلها إذا أمرتها بالطاعة أطاعت ، وإذا أمرتها بالمعصية أطاعت ،
لأنها من أدوات الاختيار المسخرة لك .. ولكن لا بد أن تعرف حقيقتين
مهمتين .. أولاهما : أن هذه الأشياء كلها مسبحة لله سبحانه وتعالى .. والله
جل جلاله قد خلق جسمك من تراب .. وذرات التراب التى خلق منها
الجسد .. اختارت القهر على الطاعة .. ولذلك فهى مسبحة بذاتها .. تطيع
الكافر فيما يريد .. ولكنها فى نفس الوقت تلعنه .. ويوم القيامة تشهد عليه
وتكون شهادتها من أسباب دخوله النار .. وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :
﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) [النور : ٢٤] .

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله =

= فجحد وخاصم فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك فيقول : كذبوا ؛ فيقال : احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ثم يدخلهم النار .
وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته فما ينطق لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تعتاله أو توليه أو كلمة نحوها ويداه ورجلاه يشهدون عليه بما كانوا يوليها ثم يدعى الرجل وخوله فمثل ذلك » .
وأخرج أحمد وابن مردويه عن بهر بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تدعون مقدمة أفواهكم بالفدام وإن أول ما يبين عن أحدكم فرجه وكفه » .
وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما ينطق من ابن آدم يوم القيامة فحذه » .
وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يستنطق من ابن آدم جوارحه في محاقير عمله » .
فيقول وعزتك يا رب إن عندي المضرات العظام » .
وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول وابن مردويه عن أبي أمامة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز الصراط رجل يتلوى على الصراط كالعلام حين يضربه أبوه . ثل يده مرة فتصيبها النار وتزل رجله مرة فتصيبها النار فتقول له الملائكة : أرأيت إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت سويًا أخبرنا بكل عمل عملته فيقول : أي وعرته لا أكتمكم من عملي شيئًا فيقولون له . قم فامش سويًا . فيقوم فيمشي حتى يحاوز الصراط فيقوبون له : أخبرنا بأعمالك التي عملت فيقول في نفسه : =



= إن أحبرتهم بما عملت ردوني إلى مكاني فيقول : لا وعزته ما عملت ذبنا قط فيقولون : إن لنا عليك ينة فيلتفت يمينا وشمالا هل يرى من الآدمير من كان يشهد في الدنيا أحد . فلا يراه فيقول : هاتوا بينتكم الله على فيه فتنتطق يده ورجلاه وجلده بعمله فيقول : أي وعزتك لقد عملتها وإن عندي العظام المضرات فيقول : أذهب فقد غفرتها لك .

وأخرج ابن مردويه وابن حرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول عظم يتكلم من الانسان بعد أن يختم على فيه فخذ من جانبه الأيسر » . كما في الدر المنثور .

الأمانة .. والاختيار

السؤال :

الناس تعلم أن الأمانة التي حملها الإنسان ثقيلة ، ولكن بالرغم من ذلك حملها الإنسان .. والسؤال : هل حملها رغماً عن الله سبحانه وتعالى ؟ وهل الإنسان هو الذى أعطى لنفسه حرية الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ؟

الجواب : أخذها بمشيئة الله .. لا هذا خرج عن المشيئة .. ولا هذا خرج عن المشيئة .. وبذلك يكون الإنسان قد تخلق مختاراً .. لأن الله سبحانه وتعالى أراد له أن يكون مختاراً .. وعدل الله أبى أن يقهر الإنسان على الاختيار .. ولكن الاختيار عُرض على الإنسان فقبله .. والعرض جاء بمشيئة الله . والسؤال هنا لماذا تخلق الإنسان مختاراً ؟ .. نقول إن كل خلق الله سبحانه وتعالى .. المقهور على الطاعة ، إنما يثبت لله صفات الجلال والقهر .. فى أنه يستطيع أن يقهر من يشاء على ما يشاء .. ولكن هناك صفة المحبوبة لله سبحانه وتعالى فى كونه .. وهذه الصفة لا يمكن أن يثبتها لله إلا خلق يأتونه عن حب وليس عن قهر .. يعبدونه لأنهم يحبونه .. ويطيعونه لأنهم يحبون طاعته .. ولا يتم ذلك إلا أن يكون هذا الخلق قادراً على الإيمان وقادراً على عدم الإيمان .. قادراً على الطاعة وقادراً على المعصية (١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ٧٧ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ =

- الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٧﴾ [الأحزاب] .

قال القرطبي . لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين أمر بالترام
أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول
الجمهور .

روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله
عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على
السموات والأرض فلم تطلقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال وما فيها يا رب
قال : إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت ، فاحتملها بما فيها فلم يلبث في
الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها » .
والأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد . وقد اختلف في تفاصيل
بعضها على أقوال .

فقال ابن مسعود : هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها .
وروي عنه أنها في كل الفرائض وأشدّها أمانة المال .
وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها .
وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة وإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء
من دينه غيرها .

وفي حديث مرفوع « الأمانة الصلاة » إن شئت قلت قد صليت وإن شئت
قلت لم أصل . وكذلك الصيام وغسل الجنابة .
وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه
وقال هذه أمانة استودعتكها فلا تلسها إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك =

- فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له .

وقال السدي : هي ائتمان آدم ابه قاييل على ولده وأهله وخيانتة إياه في قتل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له . « يا آدم هل تعلم أن لي بيتا في الأرض ؟ قال : « اللهم لا قال : « فإن لي بيتا بمكة فأتته » فقال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبته وقال للأرض : احفظي ولدي بالأمانة فأبته وقال للجبال كذلك فأبته فقال لقاييل احفظ ولدي بالأمانة فقال : نعم تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه فذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا حَهُولًا ﴾ الآية .

وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال قالت وما فيها قيل لها : إن أحسنت حوزيت وإن أسأت عوقبت . فقالت : لا . قال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه قال : وما هي قال : إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يا رب . قال مجاهد : فما كان بين أن أتحمّلها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : الأمانة الفرائض عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم أمر أن يعرض الأمانة على الخلق فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض

= والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها قال بعض المتكلمين. ومعنى ﴿عَرَضْنَا﴾ أظهرنا كما تقول : عرضت الجارية على البيع .

والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فَأَبَيَّتْ أَنْ يَحْمِلَهَا﴾ أي : أن يحملن وزرها كما قال جل وعز : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت : ١٣] . قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ .

قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بربه . فيكون على هذا الجواب مجازا مثل : ﴿وَسَّئِلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف : ٨٢] . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب أي أظهر . لهن ذلك فلم يحملن وزرها وأشفقت وقالت : لا أبغي ثوبا ولا عقابا وكل يقول : هذا أمر لا نطيقه ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخرن له قال الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية صرب مثل أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد . الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقول : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر : ٢١] - ثم قال : - ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر : ٢١] .

قال القفال : فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال وورد عليها من الخبر ما لا =

- يخرج إلا على ضرب المثل وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من الحجر أي إنا إذا قايستنا ثقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت فعبّر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : ﴿ عَرَضْنَا ﴾ بمعنى عارضنا لأمانة السماوات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطيور والوحش وعهد إليه عهداً أمره فيه وبهاه وحرم وأحل فقبله ولم يزل عاملاً به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده ويقلده من الأمانة ما تقلده فأمره أن يعرض ذلك على السماوات والذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى فأبين أن يقبلنه شفقاً من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ولم يهب منه ما تهيبت السماوات والأرض والجبال . ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ حَهُولًا ﴾ بحافه ما تقلد لربه . قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً مما قال ! وذلك أنه ردد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة إلا أنه يومئ في مقاله إلى أنه سلطه على جميع ما في الأرض وعهد الله إليه عهداً فيه أمره ونهيه وحله وحرامه وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السماوات والأرض والجبال =

= فما تصنع السماوات والأرض والجبال بالحلال والحرام وما التسليط على الأنعام والطير والوحش ! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله في أعناق ذريته من بعده. وفي مبدأ الخبر في التريل أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم ثم ذكر أن الإنسان حصلها أي من قبل نفسه لا أنه حمل ذلك فسماه ﴿ ظَلُومًا ﴾ أي لنفسه ﴿ حَهُولًا ﴾ مما فيها .

وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر فحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض ابن الفضل الكوفي حدثنا السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود قال : لما خلق الله الأمانة مثلها صخرة ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السماوات والأرض والجبال ليحملنها وقال لهن : إن هذه ﴿ ظَلُومًا ﴾ ولها ثواب وعليها عقاب قلوا : يا رب لا طاقة لنا بها وأقبل الإنسان من قبل أن يدعي فقال للسماوات والأرض والجبال : ما وقوفكم قالوا : دعانا ربما أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها قال : فحركها بيده وقال : والله لو شئت أن أحملها لحملتها فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لازددت قالوا : دونك ! فحملها حتى بلغ بها حقويه ثم وضعها وقال : والله لو شئت أن أزداد لارددت قالوا : دونك فحملها حتى وضعها على عاتقه فلما أهوى ليضعها قالوا : مكانك ! إن هذه « الأمانة » ولها ثواب وعليها عقاب وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها وحملتها أنت من غير أن تدعي لها فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة إنك كنت ظلوما جهولا. وذكر أخبارا عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها . ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ أي التزم القيام بحقها وهو في ذلك ظلوم لنفسه . وقال قتادة : للأمانة جهول بقدر ما دخل فيه . وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير .

- وقال الحسن : جهول بربه . قال : ومعنى ﴿ يَحْمِلَهَا ﴾ حان فيها . وقال :
 الزجاج والآية هي الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل .
 وقال ابن عباس وأصحابه والضحاك وغيره : ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ آدم تحمل الأمانة
 فما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة .
 وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال
 وما فيها قال : إن أحسنت حزيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما
 فيها بين أذني وعاتقي . فقال الله تعالى له : إني سأعيبك ، قد جعلت لبصرك
 حجابا فأعلقه عما لا يحل لك ، ولفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على
 ما أحلت لك . وقال قوم : ﴿ الْإِنْسَانُ ﴾ انواع كله . وهذا حسن مع عموم
 الأمانة كما ذكرناه أولا .

وقال السدي : الإنسان قاييل . فالله أعلم . وجاء في الدر المنثور في التفسير
 بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي
 حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله
 ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ الآية . قال : الأمانة الفرائض عرضها الله على
 السموات والأرض والجمال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك
 واشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها ثم عرضها
 على آدم فقبلها بما فيها . وهو قوله ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
 يعني غرا بأمر الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه
 في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الأمانة :
 ما أمروا به وبهوا عنه .

وفي قوله ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ قال : آدم .

.....
= وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : ان الله عرض الأمانة على السماء الدنيا فأبى ثم التي تليها حتى فرغ منها ثم الأرض ثم الجبال ثم عرضها على آدم عليه السلام فقال : نعم . بين أذني وعاتقي قال الله تعالى : ﴿ فثلاث آمرك بهن فإنهن لك عون . لأنني جعلت لك بصرا وجعلت لك شفرتين ففضلهما عن كل شيء نهيتك عنه وجعلت لك لسانا بين لحين فكفه عن كل شيء نهيتك عنه وجعلت لك فرجا وواريته فلا تكشفه إلى ما حرمت عليك . »

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن جرير رضي الله عنه في الآية قال : بلعني أن الله تعالى لما خلق السماوات والأرض والجبال قال : ﴿ إني فارض فريضة وخالق جنة ونارا وثوابا لمن أطاعني وعقابا من عصاني فقالت السماء : خلقتني فسخرت في الشمس والقمر والنجوم والسحاب والريح والغيوب فأنا مسخرة على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبني ثوابا ولا عقابا ، وقالت الأرض خلقتني وسخرتني : فجرت في الأنهار فأخرجت مني الثمار وخلقتني لما شئت فإنا مسخرة على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبني ثوابا ولا عقابا ، وقالت الجبال : خلقتني رواسي الأرض فأنا على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبني ثوابا ولا عقابا فلما خلق الله آدم عرض عليه فحملة ﴿ إِنِّي كَانُ ظَلُومًا ﴾ ظلّمه نفسه في خطيئته ﴿ جَهُولًا ﴾ بعاقبة ما تحمل . »

وأخرج ابن أبي حاتم عن محاهد رضي الله عنه في الآية قال : لما خلق الله السماوات والأرض والجبال عرض الأمانة عليهن فلم يقبلوها فلما خلق آدم عليه السلام عرضها عليه قال : يا رب وما هي قال : هي إن أحسست أجرتك وإن أسأت عذبتك قال : فقد تحملت يا رب قال : فما كان بين أن أتحملها =

إلى أن أخرج إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأثير في كتاب الاضداد والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ قال عرضت على آدم عليه السلام فقبل . حذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك قال : قبلتها بما فيها ، فما كان إلا قدر ما بين الظهر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أشوع في الآية قال عرض عليهن العمل وجعل لهن الثواب فضجحن إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن فقلن : ربنا لا طاقة لنا بالعمل ولا نريد الثواب .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن الأرواعي : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عرض العمل على محمد بن كعب فأبى فقال له عمر رضي الله عنه : أتعصي فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله تعالى حين عرض ﴿ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ﴾ هل كان ذلك منها معصية قال : لا . فتركه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الله قال لآدم عليه السلام « إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم تطعها فهل أنت حاملها بما فيها قال : أي رب وما فيها قال : إن حميتها أجرت وإن ضيعتها عذبت قال : قد حملتها بما فيها قال : فما عبر في الجنة إلا قدر ما بين الأولى والعصر حتى أخرجه إبليس من الجنة » قيل للضحاك : وما الأمانة قال : هي الفرائض وحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤتم ولا معاهدا في شيء قليل ولا كثير فمن فعل فقد خان أمانته ومن انتقص من الفرائض شيئا فقد خان أمانته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال : يعني به الدين والفرائض والحدود ﴿ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قيل لهن : إن تحملنها وتؤدين حقها . فقلنا : لا نطيق ذلك ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ قيل له : أتحملها قال : نعم . قيل : أتؤدي حقها فقال : أطيع ذلك قال الله ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ أي ظلوما بها جهولا عن حقها ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ [الأحراب ٧٣٠] قال : هذا اللذان حاناها ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ قال : هذا اللذان أدياها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ قال : الفرائض .

وأخرج الفريابي عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ قال : الدين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمانة ثلاث . الصلاة والصيام والغسل من الجنابة » .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : من الأمانة أن اتهمت المرأة على فرجها .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الورع والحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال : أول ما خلق الله من الأساس فرجه ثم قال : هذه أمانتي عندك فلا تضيعها إلا في حقها . فالفرج أمانة والسمع أمانة والبصر أمانة .

.....
- وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : من تضيع الأمانة : النظر في الحجرات والدور .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ومن الأمانة إلا ومن الخيانة ان يحدث الرجل أحاه بالحديث فيقول : اكتم عني . فيفشيهِ » .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها »

وأخرج الطبراني وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى والبيهقي والضياء عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ... ﴾ قال : هما اللذان ظلماهما واللذان خاناها : المنافق والمشرک .

وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن الحكم بن عمير وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الأمانة والوفاء نرلا على ابن آدم مع الأنبياء فارسلوا به فمهم رسول الله ومنهم نبي ومنهم نبي رسول الله ونزل القرآن وهو كلام الله ونزلت العربية والعجمية فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألستهم ولن يدع الله شيئا من أمره مما يأتون ومما يجتنون وهي الحجة عليهم إلا بينت لهم فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن من القبيح ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب لعالم يعلمها و =

خلق يقول يا رب إننى أحبك ولذلك آمنت بك .. دون أن يكون هناك قهر
بل حب . يا رب إننى أحب طاعتك ولذلك أطيعك .. لا عن قهر ولكن عن
حب .. سأفعل يا رب ما أمرتنى به وابتعد عما نهيتنى عنه .. وإن كنت قادراً
يا رب على أن أفعل المعصية .. يزينها لى هوى نفسى .. ويزينها لى شياطين
الإنس والجن .. ولكن يا رب حبك فى قلبى أكبر من حب الدنيا كلها ..
وكل ما تريده منى يا إله الكون أن أفعله .. سأفعله ، لأننى أحبك يا الله ..
وأحب رضاك .

هذا هو معنى الاختيار فى الكون .. الله سبحانه وتعالى لا يريد قوالب
تخضع .. ولكنه يريد قلوباً تخضع .. ولذلك فهو يريد أن يأتيه الإنسان بقلب
طائع عن حب .. والإيمان هو اختبار لحب الله فى القلب .. فإذا كان حب
الله فى قلبك عظيماً .. كان إيمانك بمنهجه أعظم .. وإذا كان حبك لله
ضعيفاً .. ابتعدت عن منهجه ^(١) بمقدار هذا الضعف .

= يعرفها ويكرها ولا يحملها حتى وصل الي والى أمتي فلا يهلك على الله إلا
هالك ولا يعفله إلا تارك والحذر أيها الناس وإياكم والوسواس الخناس فانما
يلوكم أيكم أحسن عملاً « والله أعلم .

(١) روي البخاري [١٦] ومسلم [٦٧/٤٣] عن أنس عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله
أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في
الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

قال الحافظ فى الفتح : وفى قوله « حلاوة الإيمان » استعارة تخيلية شبه رغبة
المؤمن فى الإيمان بشيء حلو وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه وفيه =

= تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرا والصحيح يذوق حلاوته على ما هي عليه وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك فكانت هذه الاستعرة من أوضح ما يقوي استدلال المصنف على الزيادة والنقص . قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤٠] فالكلمة هي كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأعصانها اتساع الأمر واجتتاب السهي وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جني الثمرة وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها . قوله : « أحب إليه » منصوب لأنه خبر يكون قال البيضاوي : المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهي إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل والعاقبة يقتضي رجحان جانب ذلك [١ / ٦١] تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك . عبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة . قال : وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى وأن لا مانع ولا مانع في الحقيقة سواء وأن ما عداه وسائط وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه اقتضى ذلك أن يتوجه بكلية نحوه : فلا يحب إلا ما يحب ولا يحب من يحب إلا من أجله . وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا . ويخيل إليه الموعد كالواقع فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة وأن العود إلى الكفر لقاء في النار . =

انتهى ملخصا . وشاهد الحديث من القرآن قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ - إلى أن قال - ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ثم هدد على ذلك وتوعد بقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ . « فائدة » : فيه إشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل فالأول من الأول والأخير من الثاني . وقال غيره : محبة الله على قسمين فرض وبدب : فالفرض : المحبة التي تبعث على امتثال أوامره والانتهاز عن معاصيه والرضا بما يقدره فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدم هوى نفسه . والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في أرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع . وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم . إلى الثاني يشير حديث : « لا يزني الزاني وهو مؤمن » . والندب : أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات والمتصف عموما بذلك نادر . قل : وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم ويزاد أن لا يتلقى شيئا من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ولا يسلك إلا طريقته ويرضى بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجا مما قضاه ويتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك .

وقال الشيخ محيي الدين : هذا حديث عظيم أصل من أصول الدين . ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين وإيثار ذلك على أعراض الدنيا ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك الرسول . إنما قال : « مما سواهما » ولم يقل : « ممن » ليعم من يعقل ومن لا يعقل . قال : وفيه دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية . =

= وأما قوله للذي خطب فقال ومن يعصهما « بئس الخطيب أنت » فليس من هذا لأن المراد في الخطب الإيضاح وأما هنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ ويدل عليه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قاله في موضع آخر قال : « ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه » .

واعترض بأن هذا الحديث إنما ورد أيضا في حديث خطبة النكاح . وأجيب : بأن المقصود في خطبة النكاح أيضا الإيجاز فلا نقص . وثم أجوبة أخرى منها : دعوى الترجيح فيكون حيز المنع أولى لأنه عام . والآخر يحتمل الخصوصية ولأنه ناقل والآخر مبني على الأصل ولأنه قول والآخر فعل . ورد بأن احتمال التخصيص في القول أيضا حاصل بكل قول ليس فيه صيغة عموم أصلا ومنها دعوى أنه من الخصائص فيمتنع من غير النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا يمتنع منه لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسوية بحلافه هو فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك . وإلى هذا مال ابن عبد السلام . ومنها دعوى التفرقة بوجه آخر وهو أن كلامه صلى الله عليه وسلم - هنا جملة واحدة فلا يحسن إقامة الظاهر فيها مقام المصمر وكلام الذي خطب جملتان لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المصمر . وتعقب هذا بأنه لا يلزم من كونه لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المصمر أن يكره إقامة المصمر فيها مقام الظاهر فما وجه الرد على الخطيب مع أنه هو - صلى الله عليه وسلم - جمع كما تقدم ويجاب : بأن قصة الخطيب - كما قلنا - ليس فيها صيغة عموم بل هي واقعة عين فيحتمل أن يكون في ذلك المجلس من يحشى عليه توهم التسوية . ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تشية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما فإنها وحدها لا عية إذا لم ترتبط بالأخرى . فمن يدعي حب الله مثلا -

- ولا يحب رسوله لا يفعله ذلك ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] فأوقع متابعتة مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد . وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصبيين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] فأعاد « أطيعوا » في الرسول ولم يعبه في أولي الأمر لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول . انتهى ملخصاً من كلام البيضاوي والطيبي . ومنها أحوية أخرى فيها تكلم :
 منها أن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ومنها أن له أن يجمع بخلاف غيره .
 قوله : « وأن يحب المرء » قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء . قوله : « وأن يكره أن يعود في الكفر » .
 زاد أبو نعيم في المستخرج من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن المثنى شيخ المصنف : « بعد إذ أنقذه الله منه » وكذا هو في طريق أخرى للمصنف والإيقاد أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة .
 وعلى الأول فيحمل قوله : « يعود » على معنى الصيرورة بخلاف الثاني فإن العود فيه على ظاهره . فإن قيل : فلم عدى العود بفي ولم يعبه يالئ فالجواب : أنه ضمنه معنى الاستقرار وكأنه قال : يستقر فيه .
 ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٨٩] . « تنبيه » :
 هذا الإسناد كله بصريون . وأخرجه لمصنف بعد ثلاثة أبواب من طريق شعبة عن قتادة عن أنس واستدل به على فضل من أكره على الكفر فترك البتة إلى أن قتل وأخرجه من هذا الوجه في الأدب في فضل الحب في الله ولفظه =



= في هذه الرواية : « وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » .

وهي أبلغ من لفظ حديث الباب لأنه سوى فيه بين الأمرين وهنا جعل الوقوع في نار الدنيا أولى من الكفر الذي أنقذه الله بالخروج منه في نار الآخرة وكذا رواه مسلم من هذا الوجه وصرح النسائي في روايته والإسماعيلي بسماع قتادة له من أنس والله الموفق .

وأخرجه النسائي من طريق طلق بن حبيب عن أنس وزاد في الخصلة الثانية ذكر البغض في الله ولفظه : « وأن يحب في الله ويبغض في الله » وقد تقدم للمصنف في ترجمته : « والحب في الله والبغض في الله من الإيمان » وكأه أشار بذلك إلى هذه الرواية .

لماذا نحاسب يوم القيامة ؟

السؤال :

كيف يمكن فهم قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [طه : ٨٠] والحساب يوم القيامة ؟

الجواب : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٤٨] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سجد : ٩٢] .

فطالما الهداية من الله والإضلال كذلك فلماذا نحاسب يوم القيامة ؟
نقول : إن الله سبحانه وتعالى يحكم في ملكه ما يشاء .. ولا يوجد في كون الله شيء يخرج .. أ. يستطيع أن يخرج عن مشيئته سبحانه .. تلك هي الحقيقة التي نبدأ بها .. ومع هذه الحقيقة فإن الناس هم الذين يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .. وخلق الله هم الذين يفعلون ما يجعلهم يستحقون عذاب الله .. أو يستحقون رحمته .. كما يقول الله جل جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ^(١) [يوس : ٤١] .

(١) في مختصر تفسير ابن كثير : يقول الله تعالى . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي . لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباعضا ولا شحنا . ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على القليل والنقيير والقطمير . لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ وَلَسَخَّرْنَا الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكدا باللام .

أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي : ويتجاوز عن سيئها . وفي الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة للإمام الغزالي : الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى قال . إن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وإرادته ومشئته . ومه الشر والخير ولنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣٠] ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة « ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » وقول الله عز وجل ﴿ أَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ﴾ [السجدة : ١٣] ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرها ولا يريد لها وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك اجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستكف منها إذ لو كان ما يسهر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستكف من رعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى ، وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له فإن قيل . فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد فك : الأمر غير الإرادة .

وبداية .. فإن الله تبارك وتعالى .. خلق كل خلقه على أساس الاختيار .. ولكن هناك خلق اختاروا مرة واحدة .. فاختاروا أن يكونوا مقهورين .. وهناك خلق آخر اختاروا أن يعطوا الاختيار المتعدد .. بحيث أصبح لكل منهم اختيار طوائف فترة حياته الدنيوية .. هناك الملائكة ، وهؤلاء ستر الله عنا كيف خلقوا .. وهم كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ نَهَارًا لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

وكذلك هم : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) [التحریم ٦] . هؤلاء الملائكة هم الذين يوكل الله سبحانه وتعالى إليهم ما يشاء في كونه .. فكل شيء في الكون موكل به ملك حسبما يشاء الله جل جلاله .. منهم حملة العرش والملائكة المقربون إلى الحق سبحانه وتعالى .. والعالون ،

وبذلك إذا صرب السيد عبده فعاتبه السدطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان - فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه - فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السدطان فهو يأمره بما لا يريد أمثاله ولو لم يكن أمرا لما كان عدوه عند السلطان ممهدا ولو كان مريدا لامثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال .

(١) قال القرطبي قوله سبحانه وتعالى : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم ٦] أي : لا يخالمونه في أمره من زيادة أو نقصان . ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي : في وقته فلا يؤخروه ولا يقدمونه . وقيل : أي لذتهم في امتثال أمر الله كما أن سرور أهل الجنة في الكون في الجنة ذكره بعض المعتزلة . وعندهم أنه يستحيل التكليف غدا . ولا يخفى معتقد أهل الحق في أن الله يكلف العبد اليوم وغدا ولا يذكر التكليف في حق الملائكة . والله أن يفعل ما يشاء .

وملائكة الموت ، والملائكة المكلفون بالإنسان كالحفظة الكرام .. الذين يكتبون ما يفعله البشر من أعمال وغيرهم وغيرهم .

ومن الأجناس التي اختارت القهر .. فهي مقهورة على اختيار منها .. كل أجناس الكون ما عدا الإنس والجن .

فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى . ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا حَهُولًا ﴾ ^(١) [الأحزاب . ٧٢] .

(١) قال الأستاذ سيد قطب في الظلال : إن السماوات والأرض والجبال - التي اختارها القرآن ليحدث عنها - هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي يعيش الإنسان فيها أو حيالها فيبدو شيئاً صغيراً ضئيلاً . هذه الخلائق تهـ شـ بارئها بلا محاولة وتهتدي إلى ناموسه الذي يحكمها بخلقتها وتكوينها ونظامها وتطيع ناموس الخالق طاعة مباشرة بلا تدبير ولا واسطة . وتجري وفق هذا الناموس دائبة لا تنـي ولا تتخلف دورتها جزءاً من ثاية وتؤدي وظيفتها بحكم خلقتها وطبيعتها غير شاعرة ولا محتارة . هذه الشمس تدور في فلكها دورتها المنتظمة التي لا تحتل أبداً . وترسل بأشعتها فتؤدي وظيفتها التي قدرها الله لها و تجذب توابعها بلا إرادة منها فتؤدي دورها الكوني أداء كاملاً . وهذه الأرض تدور دورتها وتخرج زرعها وتقوت أبنائها وتواري موتها وتتجـر يابيعها . وفق سنة الله بلا إرادة منها وهذا القمر وهذه النجوم والكواكب وهذه الرياح والسحب وهذا الهواء وهذا الماء وهذه الجبال وهذه الوهاد .. كلها . كلها .. تمضي لشأنها يـدون ربها وتعرف بارئها وبحصع لمشيئته بلا جهد منها ولا كد ولا محاولة .. لقد أشفقت من أمانة النبعة . أمانة الإرادة . أمانة المعرفة الداتية . أمانة المحاولة الخاصة وحملها الإنسان الإنسان الذي =

= يعرف الله يادركه وشعوره . ويهتدي إلى ناموسه بتدبره وبصره . ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده . ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه ومقاومة انحرافاته ونرغاته ومجاهدة ميوله وشهواته .. وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مريد . مدرك . يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم القليل القوة الضعيف الحول المحدود العمر الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع وإنها لمخاطرة أن يأخذ علي عاتقه هذه التبعة الثقيلة .

ومن ثم : ﴿ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه ﴿ جَهُولًا ﴾ لطاقته .

هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة . حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى باريه والاهتداء المباشر لناموسه و الطاعة الكاملة لإرادة ربه . المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال .. الخلائق التي تعرف مباشرة وتهتدي مباشرة وتطيع مباشرة ولا تحول بينها وبين باريها وناموسه وإرادته الخوائل . ولا تقعد بها المشبطات عن الانقياد والطاعة والأداء .. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة وهو واع مدرك مريد . فإنه يصل حقا إلى مقام كريم ومكان بين خلق الله فريد . إنها الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة .. هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله . وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى وهو يسجد الملائكة لآدم . وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الاسراء : ٧٠] .. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله . ولينهض بالأمانة التي اختارها والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .. ذلك كان ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٣] .

نعرف أن السموات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات عُرضت عليها الأمانة أو حرية الاختيار .. أى عُرض عليها أن تكون مختارة قادرة على الطاعة .. وقادرة على المعصية .. ولكن أجناس الكون ما عدا الإنس واجن رفضت الاختيار .. وقالت يا رب لا نقدر على أنفسنا .. ولا نقدر على حمل الأمانة فاجعلنا يا رب مقهورين .. ولولا أن الله سبحانه وتعالى أحبرنا بهذا في كتابه العزيز .. لما عرفنا أن الأمانة عُرضت على السموات والأرض والجبال وغيرها .. وأنهم اختاروا أن يكونوا مقهورين .. ورفضوا حمل الأمانة التي حملها الإنسان .

ولكن ما هي الأمانة ؟ .. الأمانة هي أن يأتبك إنسان على شيء يودعه عندك وترده له عندما يطلبه .. بشرط ألا يكون هناك شيء مكتوب .. أو شهادة من الناس على أنه قد أودع عندك هذا الشيء .

إذن .. فباختيار الإنسان حمل الأمانة .. ولكن هل حملها رغماً عن الله سبحانه وتعالى ؟ هل الإنسان هو الذى أعطى لنفسه حرية الاختيار أن يفعل أو لا يفعل .. أم أن الذى أعطاه هذه الحرية هو الحق سبحانه وتعالى ؟ .. طبعاً الإنسان لم يعط لنفسه شيئاً .. ولكن الله سبحانه وتعالى شاءت قدرته أن

= فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة وأحذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ويهتدي بنفسه ويعمل بنفسه ويصل بنفسه .. هذا كان ليحتمل عاقبه اختياره وليكون جزاؤه من عمله وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات . وليمد الله يد اعون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع وما يشدهم من جواذب وأثقال .. فذلك فضل الله وعونه . وهو أقرب إلى المعفرة والرحمة بعباده : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ذَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

يعطى الإنسان الاختيار فخلق مختاراً .. ولو أن الله جل جلاله شاء أن يخلق الإنسان مقهوراً لحدث ذلك .. ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الحقيقة فى قوله جل جلاله : ﴿ إِنْ شَاءَ نَزَّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ^(١) [الشعراء : ٤] .

وقوله جل جلاله : ﴿ أَقَلَّمْ يَاتِيصَ الدِّينَ ءَامِنُونَ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

(١) قال الأستاذ سيد قطب : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ملوية محنية حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم فهم عليها مقيمون . ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة . لقد جعل آيتها القرآن . منهاج حياة كاملة . معجزا فى كل ناحية : معجرا فى بناءه العبيرى وتسيقه الفنى باستقامته على خصائص واحدة فى مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلف خصائصه كما هى الحال فى أعمال البشر . إذ يبدو الارتفاع والانخفاض والقوة والضعف فى عمل الفرد الواحد المتغير الحالات . بينما تستقيم خصائص هذا القرآن التعبيرية على نسق واحد ومستوى واحد ثابت لا يتخلف يدل على مصدره الذى لا تختلف عليه الأحوال . معجزا فى بناءه الفكرى وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه ولا مصادفة . كل توجيهاته وتشريعاته تلتقى وتنسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبىها وتدفعها دون أن تتعارض جرئية واحدة من ذلك المنهاج الشامل الصخم مع جزئية أخرى ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تليبيتها .. وكلها مشدودة إلى محور واحد وإلى عروة واحدة فى اتساق لا يمكن أن تفتن إليه خبرة الإنسان المحدودة . ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان . هى التى أحاطت به هذه الإحاطة ونظمته هذا التشطيم . معجزا فى يسر مداحله إلى القلوب والنفوس ولمس معانيها وفتح =

إذن .. فإن أحداً في الكون لم يأخذ شيئاً إلا بمشيئة الله .. الأجساد التي اختارت القهر أخذت القهر بمشيئة الله سبحانه وتعالى .. والأجساد المختارة أخذت الاختيار بمشيئة الحق جل جلاله .. فكل ما في الكون خاضع لمشيئة خالقه .. المقهور على الطاعة أخذها بمشيئة الله تبارك وتعالى .



= مغاليقها واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين وفي تربيتهما وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات دون تعقيد ولا التواء ولا معازلة . لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخصعها وتضطرها إلى التسليم ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ولالأجيال كلها . وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان . فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب . لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى لا واقعا يشهد .. فأما القرآن فما هو ذا بعد أكثر من أربعة عشر قرناً كتاب مفتوح ومنهج مرسوم يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم - لو هدوا إلي اتخاذهم إمامهم - ويلبي حاجاتهم كاملة ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل وأفق أعلى ومصير أمثل . وسيجد فيه من بعدا كثيرا مما لم تجده نحن ذلك ، إنه يعطي كل طالب بقدر حاجته ويبقى رصيده لا ينفد بل يتجدد ويكن لم يكونوا يفتنون إلى هذه الحكمة الكبرى . فكانوا يعرضون عنه يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حيناً بعد حين .

الإتفاق وطيات الرزق

السؤال : كيف يكون الإتفاق من طيات ما كسبنا ؟

الجواب : يقول الحق سبحانه . ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِفَاحِشِيهِ إِلَّا أَن تُغْوُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَكِيمٌ ﴾ [البقرة . ٢٦٧] .
إن هذه الآية تعطى صورا تحدث في المجتمع البشرى . وكانت هذه الصور تحدث في مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام . فبعض من الناس كانوا يحصرون العذق من النخل ويعلقه في المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، والعذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من العروق الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح . وكان بعضهم يأتي بعذق غير ناضج أو بالحشَف وهو أرداد التمر ، فأراد الله أن يجيبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (١) .

(١) قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا ﴾ هذا خطاب لجميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم . واختلف العلماء في المعنى المراد بالإتفاق هنا فقال علي بن أبي طالب وعبيدة السلماني وابن سيرين : هي الزكاة المفروضة نهى الناس عن إتفاق الرديء فيها بدل الخيد . قال ابن عطية والطاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أن الآية في التطوع ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بمحتر جيد . والآية تعم الوجهين لكن صاحب الزكاة تعلق بأنها مأمور بها والأمر على الوجوب وبأنه نهى عن الرديء وذلك مخصوص بالفرص وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بالقليل فكذلك له أن يتطوع بنارل في القدر -

= ودرهم خير من ثمرة . تمسك أصحاب النذب بأن لفظة افعل صالح للنذب
صلاحيته للفرض والردىء مهى عنه فى النقل كما هو منهى عنه فى الفرض
والله أحق من اختيار له .

وروى البراء أن رجلاً علق فتوة حشف فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : « بمسما علق » فنزلت الآية خرجه الترمذي .

والأمر على هذا القول على النذب ندبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بجيد
مختار . وجمهور المتأولين قالوا : معنى ﴿ مِنْ طَيِّبَاتٍ ﴾ من جيد ومختار
﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

وقال ابن زيد : من حلال : ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

وفى مختصر تفسير ابن كثير : يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإتفاق والمراد به
الصدقة ههنا من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها يعنى التجارة
بتيسيره إياها لهم وقال علي والسدي : ﴿ مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ يعنى
الذهب والفضة ومن الثمار والرروع التى أنبتها لهم من الأرض قال ابن عباس :
أمرهم بالإتفاق من أطيب المال وأجوده وأفسه وبهاهم عن التصديق بردالة
المال ودنيئه وهو خبيثه فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ولهذا قال : ﴿ وَلَا
تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ أى تقصدوا الخبيث ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ ﴾ : أى
لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتعاصوا فيه فالله أغنى منكم فلا تجعلوا لله ما
تكرهون وقيل معناه : لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا
نفقتكم منه .

وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله
قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب
ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه =

- والذي نفسي بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قالوا : وما بوائقه يا نبي الله قال : غشه وظلمه - وه يكسب عبد مالا من حرام فيفق منه مبارك له فيه ولا يتصدق به فينبل منه ولا يتركه خف ظهره إلا كان راده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث » « رواه الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود مرفوعاً . »

قال ابن كثير : والصحيح القول الأول .

قال ابن جرير رحمه الله : عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ الآية قال نزلت في الأنصار كان الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطاتها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقماء السر يظن أن ذلك جائز فانزل الله فيمن فعل ذلك : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ « أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين . »

وقال ابن أبي حاتم : عن البراء رضي الله عنه « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه » قال : نزلت فينا كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فصر به بعصاه فسقط منه البسر والتمر هياكل وكان أناس ممن لا يرعون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيء فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ قال : لو أن =

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتي بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير . فالله طيب لا يقبل إلا طيباً . ولا يكون الإنفاق من رذال وردىء المال .

= أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذ إلا على إغماض وحياء فكنا بعد ذلك يحيى الرجل ما بصلاح ما عنده . وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ قال : « كسب المسلم لا يكون خيئاً ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الريف وما لا خير فيه » وقال الإمام أحمد عن عائشة قالت : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله بطعمه المساكين قال : « لا تطعموهم مما لا تأكلون » وعن البراء « ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه » يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير عن البراء بن عازب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « ولستم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه » يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه فكيف ترصون لي ما لا ترضون لأنفسكم وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي : وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير كقوله : ﴿ لَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ لِحُومِهِمْ وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَسْأَلُ النَّفْسَ مِنْكُمْ ﴾ وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه . وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أصعافاً كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد : أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : ﴿ وَمِمَّا
أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ وهو سبحانه يذكرنا دائماً حين يقول : ﴿ أَنْفِقُوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ألا تظن الكسب هو الأصل في الرزق . لا ، إن
الكسب هو حركة موهوبة لك من الله . إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة
موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من الله ، وفي أرض سخرها لك الله ،
إنها الأدوات المتعددة التي خصك بها الله وليس فيها ما تملكه أنت من
ذاتيتك . ولكن الحق يحترم حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق فيقول : ﴿ أَنْفِقُوا
مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ .

ويحذرنا الحق من أن نختر الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا ننفق مه
بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ أى لا يصح ولا يليق
أن تأخذ لأهنا طيبات الكسب ونعطى الله ردى الكسب وخبيثه؛ لأن
الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح
لننفق منه أو لنأكله . ﴿ وَلَسْتُمْ بِتَاجِدِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَفِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أى أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أن تأكل من
الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك؛ كأن يعرض عليك
البائع شيئاً متوسط الجودة أو شيئاً رديئاً بسعر يقل عن سعر الجيد .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور أوجه الإنفاق :
إن النفقة لا تنقص المال وإنما تزيده مبعمة مرة .
إن النفقة لا يصح أن يطلها الإنسان بالمن والأذى .
إن القول المعروف خير من الصدقة لمتبوعة بالمن أو الأذى .
إن الإنفاق لا يكون رياء الناس إنما يكون ابتغاء لمرضاة الله .
وهذه الآية الكريمة تعالج آفات الإنفاق سواء آفة الشح أو آفة المن أو الأذى ،
أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس ، أو الإنفاق من ردى المال .

الأحجة والأحجار هل تجلب الرزق

السؤال :

ما رأي الدين في الأحجة والأحجار
وغيرها مما يعتقد أنه يجلب الرزق ؟

الجواب : حول ما يعتقد بعض السذج من حرافات يأبأها العقل السليم خاصة بعض الأحجة والأحجار وغيرها وغيرها ، والتي يقال إنها تجلب الرزق !! هذا الاعتقاد في الحرافات موجود على مر العصور ، وفي معظم الدول ، حتى إنه في معابد البوذيين في كوريا واليابان يوجد نوع من الأحجار ذى لون حاص يقال إنها تجلب الرزق ويقبل الناس على شرائها وتعليقها في بيوتهم أو حول رقابهم .

كذلك هناك من يتفائل بحدوة الحصان فيضعها على باب منزله ، أو يعلق صورة مصغرة لها حول رقبتة !! كل هذا كلام خطأ وعودة لعبادة الأصنام بصورة أو بأخرى .. فاحجر لا ينفع ولا يضر يستوى في ذلك الحجر الكريم وغير الكريم .. وحدوة الحصان ما لها والرزق !؟

إن الرزق في السماء يختص به الرزاق سبحانه وتعالى ، ولا علاقة لشيء على ظهر الأرض أو في باطنها بالرزق .

ويجب أن نلنتف إلى دقائق الأسرار وإلى كنوز المعاني التي تتضمنها الآيات القرآنية وإلى تلك العطاءات الربنية التي يدخرها رب العزة لعباده الصالحين ..
الذين أحسنوا التوكل ^(١).

(١) روى أحمد في المسند [١٥٦ / ٤] عن عقة بن عامر الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا -

= يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا قال : إن عليه تميمة فادخل يده فقطعها فبايعه وقال من علق تميمة فقد أشرك . وقال الأرنأؤوط : إسناده قوى .
 روى ابن حبان في صحيحه [٦٠٨٦] عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من علق تميمة فلا أتم الله له ومن علق ودعة فلا ودع الله له . وقال الأرنأؤوط : خالد بن عبيد المعافري لم يوثقه غير المؤلف ، ولم يرو عنه غير حيوة بن شريح ومشرح بن هاعان حسن الحديث ، وباقي رجاله ثقات رجال لصحيح .

وفي مختار الصحاح : التَّيمِمَةُ عوذة تعلق على الإنسان وهي الحديث « من علق تميمة فلا أتم الله له » قيل هي خرزة وأما المعاذات إذا كتب فيها القرآن وأسماء الله تعالى فلا بأس بها و التَّئْتَامُ الذي فيه تَمْتَمَةٌ وهو الذي يتردد في التاء .
 وقال ابن الأثير في النهاية : وفي حديث عبد الله رضي الله عنه : التمائم جمع تميمة وهي خُرَزَات كانت العرب تُعَلِّقُهَا على أولادهم يُتَّقُونَ بها العين في زغمهم فأبطلها الإسلام . ومنه حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : ما أبالي ما أتيتُ إن تعلَّقتُ تميمة .

والحديث الآخر من علق تميمة فلا أتم الله له ، كأنهم كانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء وإنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا بها دفع المقادير المكتوبة عليهم فطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه .

وقال ابن منظور في لسان العرب قوله تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . يقال : رَزَقَ الخلقَ رَزْقاً ورَزْقاً فالرَّزْقُ بفتح الراء هو المصدر الحقيقي والرَّزْقُ الاسم يجوز أن يوضع موضع المصدر . ورَزَقَهُ الله يرزقه رِزْقاً حسناً : نعشه . والرَّزْقُ على لفظ المصدر : ما رَزَقَهُ إِيَّاهُ ولجمع أرزاق .

= وقوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قيل : رزقاً ههنا مصدر فقوله شيئاً على هذا منصوب برزقاً وقيل : بل هو اسم فشيئاً على هذا بدل من قوله رزقاً .
وفي حديث ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يبعث الملك إلى كل من اشتملت عليه رجم أمه فيقول له : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد . فيُختم له على ذلك^(١) .
وقوله تعالى : ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قيل : هو عب في غير حبه . وقوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ .
قال الزجاج : روي أنه رزق الجنة قال أبو الحسن : وأرى كرامته بقاءه وسلامته مما يلحق أرزاق الدنيا .

(١) روى البخارى [٧٤٥٤] بلفظ : خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً أو أربعين ليلة ثم يكون علقه مثله ، ثم يكون مضغة مثله ، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا دراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا دراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

ورواه مسلم [١/٢٦٤٣] بلفظ : إن أحدكم يجمع حقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات . يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا دراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا دراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .



= وقوله تعالى : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّصِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ انتصاب رِزْقاً على وجهين : أحدهما على معنى رَزَقْنَاهُمْ رِزْقاً لأن إنباته هذه الأشياء رِزق ويجوز أن يكون مفعول له المعنى فأنبتنا هذه الأشياء للرِّزق . وازترقه واشترزقه : طلب منه الرِّزق .

الرزق

السؤال :

ما هو الرزق ؟

الجواب : الرزق هو ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ، طيباً أو خبيثاً ، فكل ما تنتفع به هو رزق لك ، وكل ما لا تنتفع به وإن كنت تملكه - ليس رزقاً لك بل هو رزق غيرك ، وهناك فرق بين الكسب والرزق .. وبين العمل والرزق .. فلا يمكن أن تقول إن ما يكسبه إنسان يمثل رزقه ، ولا أن تقول إن عمله يمثل رزقه ، فما يكسبه الإنسان فيه رزقه ورزق زوجته ورزق أولاده ورزق آخرين لا يعلمهم . وكل واحد منهم يصل إليه رزقه تماماً دون أن ينقص شيئاً .

إننا نتعجب كثيراً عندما نرى كيفية وصول الرزق إلى الإنسان .. لا أحد يعرف مكان الرزق ، فقد يذهب بحثاً عنه إلى أكثر من مكان فلا يحصل على شيء ولا يصل إلى شيء ، ولكن الرزق يعرف دائماً مكان صاحبه . ويعرف عنوانه وكيف يصل إليه .. ولا يتوه عنه أبداً .. ذلك لأنه في السماء^(١).

(١) قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة إنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه ولله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم . وقال أهل المعاني : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ معناه وفي المطر رزقكم سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا =

مقدر من الله سبحانه وتعالى .. وما دام مقدرًا فلا بد أن يصل إلى صاحبه^(١) .
والناس تعتقد أن المقدر هو الرزق الحلال فقط ، لكن الحقيقة أن المقدر هو

= وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم نظيره : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [مرد : ٦] .

وقال سفيان الثوري : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي عند الله في السماء رزقكم .
وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب .
وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحمد ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطله في الأرض ! فدخل خربة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً فإذا هو في الثالثة بدوحة رطب وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوعلتين فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الله بالموت بينهما .
(١) قال الفرطبي قوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ﴿ كُلُوا ﴾ فيه حذف تقديره وقلما كلوا فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

وقال في موضع آخر : المراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه . وقيل : هو الأكل المعتاد .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمن : ٥١] .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أعبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه =

الرزق الحلال والرزق الحرام أيضًا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٧] .
فكأن هناك رزقًا طيبًا ورزقًا غير طيب .



حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام وغذي بالحرام ، فأني يستجاب لذلك^(١) .
قال النووي : يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة وغير ذلك . قوله صلى الله عليه وسلم : « وغذي بالحرام » هو يضم الغين وتخفيف الذال المكسورة . قوله صلى الله عليه وسلم : « فأني يستجاب لذلك » أي من أين يستجاب لمن هذه صفته وكيف يستجاب له .

(١) رواه مسلم [١٠١٥/٦٥] والترمذي [٢٩٨٩] وأحمد في المسند [٣٢٨/٢] .

أكل حقوق الناس

السؤال : ما هي عوامل ذهاب الرزق ؟

الجواب : حرمان المساكين والفقراء حقهم يذهب الله بسببه الرزق كما جاء في قوله تعالى الآيات : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ١٣ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ١٤ [القلم] .

إذ من موجبات زيادة الرزق والبركة تأدية حق الفقير والمسكين فيه (١).

(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَكُونُهُمْ كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ ١٤ وَلَا يَسْتَنْشُونَ ١٥ ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ١٣ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ١٤ ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ١٦ أَيْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴾ ١٧ ﴿ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴾ ١٨ ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ ١٩ ﴿ وَعَدَّوْا عَلَى حَرْمٍ قَدِيرِينَ ﴾ ٢٠ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ ٢١ ﴿ بَلْ عَنَّا مَحْرُومُونَ ﴾ ٢٢ ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ٢٣ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ٢٤ ﴿ فَأَقْلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴾ ٢٥ ﴿ قَالُوا بَوْنَلَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ٢٦ ﴿ عَسَى رَبِّنَا أَنْ يَبْدِلَ خَيْرًا مِّمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ٢٧ ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ٢٨ .

قال ابن كثير في البداية : هذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم فقابلوه بالكذب والمخالفة كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ ٢٨ ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْفَرَارُ ﴾ ٢٩ .

قال ابن عباس هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار التي قد انتهت واستحقت أن تجد وهو الصرام ولهذا قال إذ أقسموا فيما يسهم ليصرمنها أي ليجدنها وهو الاستغلال مصبحين =

أي وقت الصبح حيث لا يراهم فقير ولا محتاج فيعطوه شيئا فحلفوا على ذلك ولم يستثنوا في يمينهم فعجزهم الله وسلط عليها الآفة التي أحرقتها وهي السفعة التي اجتاحتها ولم تبق بها شيئا ينتفع به ولهذا قال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴾ ١٩ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ٢٠ أي : كالليس الأسود المنصرم من الصياء وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿ فَتَنَادَوْا مُصِيبِينَ ﴾ أي فاستيقضوا من نومهم فنادى بعضهم بعضا قائلين : ﴿ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي باكروا إلى بستانكم فاصرموه قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿ فَأَطْلِقُوا وَهُمْ يَنْحَفُونَ ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين أي اتفقوا على هذا واشتروا عليه ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ ﴾ أي انطلقوا مجددين في ذلك قادرين عليه مضمرين على هذه النية الفاسدة وقال عكرمة والشعبي وعدوا على حرد أي غضب على المساكين وأبعد السدي في قوله : إن اسم حرثهم حرد ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي وصلوا إليها ونظروا ما حل بها وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة بعد تلك النضة والحسن والبهجة فانقلبت بسبب الية الفاسدة بعد ذلك قالوا : ﴿ إِنَّا لَصَّالُونَ ﴾ أي قد نهينا عنها وسلكنا غير طريقها ثم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا وحرماننا بركة حرثنا ﴿ قَالَ أَوْسَطُكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد هو أعدلهم وخيرهم ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قيل تستثنون قاله مجاهد والسدي وابن جرير وقيل تقولون خيرا بدل ما قلتم من لشر قالوا : ﴿ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴾ ٢١ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴾ ٢٢ ﴿ قَالُوا يَوَيْلَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴾ ٢٣ [القلم] . فندموا حيث لا ينفع الندم واعترفوا بالذنب بعد العقوبة ؛ وذلك حيث لا ينجع وقد قيل إن هؤلاء كانوا إخوة وقد ورثوا هذه الحجة من أبيهم وكان يتصدق منها كثيرا فلما صار أمرها إليهم استهيجوا أمر أبيهم وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئا =

= فعاقبهم الله أشد العقوبة ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار وحث على ذلك يوم الجداد كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ثم قيل كانوا من أهل اليمن من قرية يقال لها ضروان وقيل من أهل الحبشة والله أعلم قال الله تعالى ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أي : هكذا نعذب من خالف أمرنا ولم يعطف على المحاويع من خلقنا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم وأحكم من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وقصة هؤلاء شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿ [السجدة : ٢٥] .

قيل هذا مثل مضروب لأهل مكة وقيل هم أهل مكة أنفسهم صربهم مثلا لأنفسهم ولا ينافي ذلك والله أعلم .

قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي كالليل المظلم عن ابن عباس والفراء وغيرهما . قال الشاعر :

تطاول ليلك الجون البهيم فما ينجاب عن صبح صريم

أي احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس أيضا : كالرماد الأسود . قال : الصريم الرماد الأسود ، بلغة خزيمة الثوري : كالزراع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم أي المقطوع ما فيه . وقال الحسن : صرم عنها الخير أي قطع فالصريم مفعول أيضا .

وقال المؤرج : أي كالرملة أنصرمت من معظم الرمل . يقال : صريمة وصرائم فالرملة لا تنبت شيئا ينتفع به .

= وقال الأخفش : أي كالصبح أنصرم من الليل .

= وقال المبرد : أي كالنهار فلا شيء فيها .

قال شمر : الصريم الليل والصريم النهار أي ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا .
وقيل : سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف ولهذا يكون فعل
بمعنى فاعل .

قال القشيري وفي هذا نظر لأن النهار يسمى صريما ولا يقطع عن تصرف .
﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ ينادي بعضهم بعضا ليقطعن ثمر نحيلهم إذا أصبحوا
بسدفة من الليل لئلا ينتبه المساكين ﴿ أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَاحِبِينَ ﴾
عازمين على الصرام والجداد .

قال قتادة : حاصدين زرعكم .

وقال الكلبي : ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل . فتحالفوا بينهم ليغدروا
غدوة قل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال :
هو أمر من الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال :
عذاب : علق من النار خرجت من وادي جهنم . وأخرج عبد بن حميد وابن
المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ قال : أتاها
أمر الله ليلا ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال : كالليل المظلم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « إياكم والمعاصي إن العبد ليدنب الذنب فينسى به الباب من العلم
وإن العبد ليدنب الذنب فيحرم به قيام الليل وإن العبد ليدنب الذنب فينسى فيحرم
به رزقا قد كان هبئ له ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ
مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ﴿ قَدْ حَرَمُوا خَيْرَ جَنَّتِهِمْ بِدَنِيهِمْ ۝ ﴾ .

فالزكاة والصدقة يطهران المال وينميانه ولا ينقصانه ، بينما أكل الربا واستغلال حاجة الفقير يحرق المال ويذهب به تمامًا .. مع أن الصدقة في ظاهرها نقص والربا في ظاهره الزيادة ولكن الحق سبحانه وتعالى يحق الربا ويربي الصدقات ^(١).

(١) روى مسلم [٢٥٨٨ / ٦٩] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « مَا نَقَصْتُ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ . وَمَا رَأَى اللَّهُ عَبْدًا يَعْمُرُ إِلَّا عِزًّا . وَمَا تَوَاصَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ » .

قال النووي قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال » ذكرها فيه وجهين : أحدهما معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فيه ، نقص الصورة بالبركة الخفية وهذا مدرك بالحس والعادة . والثاني أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة . قال الصنعاني في سبل السلام : فسر العلماء عدم النقص بمعنيين : الأول : أنه يبارك له فيه ويدفع عنه الآفات فيجبر نقص الصورة بالبركة الخفية . والثاني : أنه يحصل بالثواب الحاصل عن الصدقة جبران نقص عيها فكان الصدقة لم تنقص المال لما يكتب الله من مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة .

قلت : والمعنى الثالث أنه تعالى يخلفها بعوض يظهر به عدم نقص المال بل ربما زادته ودليله قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وهو مجزب محسوس .

وقال الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة : هو مبارك وفيه بركة وإلى هذه الزيادة أشير بما روي أنه : لا ينقص مال من صدقة » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وروايته فيه =

= « ما نقصت صدقة من مال » لا إلى النقصان المحسوس حسب ما قال بعض الخاسرين حيث قيل له ذلك فقال : بيني وبينك الميراث .
قال ابن جرير الطبري في تأويل قول الله تعالى ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأصل الزكاة : نماء المال وتشميره وزيادته . ومن ذلك قيل : زكا الزرع إذا كثر ما أخرج الله منه وزكت النفقة إذا كثرت . وقيل : زكا الفرد إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار به شفعاً . . وإنما قيل للزكاة زكاة وهي مال يخرج من مال لتشمير الله بإخراجها مما أخرجت منه ما بقي عند رب المال من ماله . وقد يحتمل أن تكون سميت زكاة لأنها تطهير لما بقي من مال الرجل وتخليص له من أن تكون فيه مظلمة لأهل السهمان كما قال جل ثناؤه مخبراً عن نبيه موسى صلوات الله عليه : ﴿ أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [الكهف: ٧٤] يعني بريئة من الذنوب طاهرة وكما يقال لرجل : هو عدل زكي لذلك المعنى . وهذا الوجه أعجب إلي في تأويل زكاة المال من الوجه الأول وإن كان الأول مقبولا في تأويلها . وإيتاؤها : إعطاؤها أهلها .

وفي الدر المنثور للسيوطي في تأويل قول الله تعالى ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ [البقرة: ٢٧٦] .

أخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ قال : ينقص الربا ﴿ وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ قال : يزيد فيها . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه ولبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » . وأخرج عبد الرزاق عن معمر قال : سمعنا أنه لا يأتي على صاحب الربا =

= أربعون سنة حتى يمحق . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والسنائي وابن ماجه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا فإن الله يقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » .

وأخرج الشافعي وأحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فريبها لأحدكم كما يري أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة تتصير مثل أحد وتصدق ذلك في كتاب الله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة / ١٠٤] . و ﴿ يَمْحُوُ اللَّهُ الرِّيَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وأخرج البزار وابن جرير وابن حبان والطبراني عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تارك وتعالى يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلا الطيب ويريبها لصاحبها كما يري أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة تتصير مثل أحد وتصدق ذلك في كتاب الله : ﴿ يَمْحُوُ اللَّهُ الرِّيَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن يتصدق بالتمرة أو بعدلها من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فتقع في يد الله ويريبها له كما يري أحدكم فصيله حتى تكون مثل التل العظيم ثم قرأ ﴿ يَمْحُوُ اللَّهُ الرِّيَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ ﴾ .
وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : أما ﴿ يَمْحُوُ اللَّهُ الرِّيَا ﴾ =

- فإن الربا يزيد في الدنيا ويكثر ويمحفه الله في الآخرة ولا يبقى منه لأهله شيء
وأما قوله ﴿ وَيُزِي أَلصَّدَقَتِ ﴾ فإن الله يأخذها من المتصدق قبل أن تصل إلى
المتصدق عليه فما يزال الله يربها حتى يلقي صاحبها ربه فيعطيه إياه وتكون
الصدقة الثمرة أو نحوها فما يزال الله يربها حتى تكون مثل الجبل العظيم.
وأخرج الطبراني عن أبي هريرة الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم « إن العبد لينصدق بالكسرة تربو عند الله حتى تكون مثل أحد » .
وفي مختصر تفسير ابن كثير : يخبر تعالى أنه يحق الربا أي يذهب إما بأن
يذهب بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به في
الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ
وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ الْخَيْثُ
بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا
ءَاتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ ﴾ .
وقال ابن جرير: في قوله : ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي
عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل »
وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل »^(١) وهذا من باب
المعاملة بنقيض المقصود كما قال صلى الله عليه وسلم : « من احتكر على
المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجدام »^(٢) .
وقوله تعالى : ﴿ وَيُزِي أَلصَّدَقَتِ ﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء
يربو أي كثره ونمأه وقرئ « يُرْبِي » بالضم والتشديد من التربية .

(١) رواه أحمد في المسند [٣٩٥/١] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

(٢) رواه أحمد في المسند [٢١/١] عن فروح مولى عثمان ، وقال الأرناؤوط : إسناده

ضعيف .

= قال البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تصدَّق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها يمينه ثم يريتها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل »^(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة وأخرجه مسلم بنحوه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عزَّ وجلَّ يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » . وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَتْلُمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾ رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح^(٢) .

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا تصدق من طيب تقبها الله منه وأخذها يمينه ورباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربوا في يد الله أو قال : في كف الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا »^(٣) رواه أحمد قال ابن كثير صحيح الإسناد ولكن لفظه عجيب .

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يربي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد »^(٤) =

(١) رواه البخاري [١٤١٠] ومسلم [١٠١٤/٦٣] .

(٢) رواه الترمذي [٦٦٢] وأحمد في المسند [٤٧١/٢] وقال الأرنؤوط حديث صحيح ، وهذا إسناد في المتابعات .

(٣) رواه أحمد في المسند [٢٦٨/٢] وقال الأرنؤوط . إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) رواه أحمد في المسند [٢٥١/٦] وقال الأرنؤوط : صحيح لغيره .

كذلك فإن أكل حقوق الناس يذهب الرزق واقرأ قوله سبحانه وتعالى :
﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا

= رواه أحمد وقد تفرد به من هذا الوجه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل لتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيريها كما يربي أحدكم فلوه أو وصيفه » (١)
رواه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة وهي أن المرابي لا يرصى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من العمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل . ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(١) روى بن أبي شيبة في مصنفه عن انقسام بن محمد قال : سمعت أبا هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيريها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد وصدق ذلك في كتاب الله عز وجل . ﴿ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ و ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ .

تَحْتَضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٧﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٨﴾ وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿١٩﴾ [العنكبوت .

إذن .. فأكل حقوق الناس وعدم رعاية الله في المال والاستيلاء على أموال
اليتامى والضعفاء يذهب الرزق ويمنعه^(١) .

(١) في مختصر تفسير ابن كثير : يقول تعالى منكرًا على الإنسان إذا وسع الله
تعالى عليه في الرزق ليختبره فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك بل
هو ابتلاء وامتحان كما قال تعالى : ﴿ أَيْخَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّتُ بِهِ فِي مَالٍ وَبَنِينَ
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه
وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له قال الله تعالى :
﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا فإن الله تعالى يعطي
المال من يحب ومن لا يحب ويصوب على من يحب ومن لا يحب وإنما المدار
في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنيا بأن يشكر الله على
ذلك وإذا كان فقيرا بأن يصبر وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾
فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث : « خير بيت في المسلمين بيت فيه
يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه عن
عبد الله من المبارك . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم كهاتين
في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام^(٢) أخرجه أبو داود
وَلَا يَخْصُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ يعني لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين
ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ ﴿ يعني الميرث
﴿ أَكْلًا لَمًّا ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴾ وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿ أي كثيرا فاحشا .

(١) رواه أبو داود [٥١٥٠] عن سهل رضي الله تعالى عنه ، وقال الألباني : صحيح .



= وروى ابن حبان في صحيحه عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل يحرم الرزق بالذنوب يصيبه ولا يرد القدر إلا بالدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر^(١) .

قال أبو حاتم : قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر لم يرد به عمومه وذلك أن الذنب لا يحرم الرزق الذي رزق العبد بل يكدر عليه صفاءه إذا فكر في تعقيب الحالة فيه ودوم المرء على الدعاء يطيب له ورود القضاء فكأنه رده لقلّة حسه بألمه والبر يطيب العيش حتى كأنه يزداد في عمره بطيب عيشه وقلة تعذر ذلك في الأحوال .

(١) رواه ابن حبان [٨٧٢] وقال الأرنؤوط : حديث حسن .

الشكر لله يحفظ النعمة

السؤال : ما هي عوامل حفظ وزيادة الرزق ؟
الجواب : هناك عوامل جعلها الله سبحانه وتعالى لحفظ الرزق وزيادته وليس معنى ذلك أنه إذا فعلنا ذلك فلا بد أن يكثر الرزق ، لا .. فلا شيء يحكم مشيئة الله في كونه ولكن علينا أن نبتغي الوسيلة وأن نسعى .
أول هذه العوامل هي الرضا بقضاء الله والشكر على القضاء والله سبحانه وتعالى يجازي من رضى بقضائه بأن يريده من نعمه ورزقه .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لِلْكَافِرِينَ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

(١) قال ابن القيم في عدة الصابرين [٩٥/١] : أخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله قال تعالى في الانسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ وقال عن نبيه سليمان : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لِلشَّادِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ والشافكرون هم الذين ثبتوا على نعمة =

= الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم وعلق سبحانه لمزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . انتهى

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة]

قال القرطبي : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

قال ابن عباس وغيره : يعني المطر والنبات وهذا يدل على أنهم كانوا في جذب . وقيل : المعنى لوسعنا عليهم في أرزاقهم ولأكلوا أكلا متواصلا وذكر فوق وتحت للمبالغة فيما يفتح عليهم من الدنيا ونظير هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢] ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٦٦] فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق كما في هذه الآيات ووعد بالمزيد لمن شكر فقال : ﴿ لِيَنْ شُكِّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقال : كان ابن مسعود يقرأ : « واذ قال ربكم » والمعنى واحد . ﴿ لِيَنْ شُكِّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم إعمامي لأزيدنكم من فصلي الحسن : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي . بن عباس : لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب والمعنى متقارب في هذه الأقوال والآية ص في أن الشكر سبب المزيد .

وسئل بعض الصالحاء عن الشكر لله فقال : ألا تتقوى بنعمه على معاصيه . وحكي عن داود عليه السلام أنه قال . أي رب كيف أشكرك وشكري لك =

نعمة مجددة منك علي . قال : يا داود الآن شكرتني . قلت : فحقيقة الشكر
على هذا الاعتراف بالنعمة للمنع . وألا يصرفها في غير طاعته وأنشد الهادي
وهو يأكل : أذاك رزقه ليقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقه فلم تشكر لنعته
ولكن قويت على معاصيه برزقه فعص باللقمة وخنفته العبرة .

وقال جعفر الصادق إذا سمعت النعمة الشكر فتأهب للمزيد .

وقال انسيوطي في الدر المنثور : أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع رضي الله عنه
في قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوتُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال . أحبرهم
موسى عليه السلام عن ربه عز وجل أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله
وأوسع لهم في الرزق وأظهرهم على العالمين . وأخرج عبد الله بن . بد وابن
المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوتُكُمْ
لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال : حق على الله أن يعطي من سأله ويزيد من
شكره والله معكم يحب الشاكرين فاشكروا لله نعمة . وأخرج ابن جرير وابن
أبي حاتم عن سفیان الثوري رضي الله عنه في قوله ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ قال :
لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون على الله من ذلك . ولكن يقول ﴿ لَئِنْ
شَكَرْتُمْ ﴾ هذه النعمة إنها مني ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ من طاعتي .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي زهير يحيى بن عطار
ابن مصعب عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أعطي
أحد أربعة فمنع أربعة : ما أعطي أحد الشكر فمنع الريادة لأن الله تعالى يقول :
﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإحابة لأن الله
يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ وما أعطي أحد الاستغفار فمنع
المعفرة لأن الله يقول : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَلَيْهِ عَاقَرًا ﴾ [روح ١٠] وما
أعطي أحد اتوبة فمنع التقبل لأن الله يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ =

= عَنْ عِبَادِهِ ﴿ [الشورى : ٢٥] . وأخرج أحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال : ثمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للجارية : اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها » . وأخرج البيهقي عن أنس - رضي الله عنه - : « أن سائلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه ثمرة فقال الرجل سبحان الله !... نبي من الأنبياء يتصدق بتمرة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثيرة فأتاه آخر فسأله فأعطاه فقال ثمرة من نبي لا تفارقتي هذه الثمرة ما بقيت ولا أزال أرجو بركتها أبدا . فأمر له النبي صلى الله عليه وسلم بمعروف وما لبث الرجل أن استغنى » .

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق مالك بن أنس عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال - لما قال له سفيان الثوري - رضي الله عنه - : لا أفوم حتى تحدثني - قال جعفر - رضي الله عنه : أما إنني أحدثك وما كثرة الحديث بخير لك يا منيان إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله قال في كتابه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَلَيْهِ عَاقِبًا ﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ ﴾ [روح] يعني في الدنيا والآخرة ﴿ وَتَحْمِلْ لَكُمْ حَظَّيْكُمْ وَتَحْمِلْ لَكُمْ أَنْتُمْ ﴾ [روح : ١٢٠] يا سفيان إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة . وأخرج ابن مروي عن ابن مسعود رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول : -

= ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول لأن الله يقول : ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ .

وأخرج البحاري في تاريخه والضياء المقدسي في المختارة عن أنس رضي الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة من ألهم الدعاء لم يحرم الإجابة لأن الله يقول : ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول لأن الله يقول : ﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله تعالى يقول : ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة لأن الله تعالى يقول : ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفْوًا﴾ ومن ألهم التفقة لم يحرم الخلف لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا : ٣٩] .

وذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء وليس بمرضي . وحكاها أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب « الحقائق » له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك : الحمد لله شكرا .

قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه لأن قولك شكرا إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم .

وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالجوارح والقلب والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل : الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح وهو أعم من الشكر لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد .

- وروي عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر وإن آدم عليه السلام قال حين عطس : الحمد لله . وقال الله لروح عليه السلام : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّشَ مِنِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٨٠] وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [إبراهيم ٣٠] . وقال في قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [اسمل ١٥٠] . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء ١١١] . وقال أهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ [ص ٣٤] . ﴿ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يوس ١٠] . فهي كلمة كل شاكر .

قال القرطبي : الصحيح أن الحمد ثناء على المدح بصفاته من غير سبق إحسان والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا فصار الحمد أعم هي الآية لأنه يزيد على الشكر . ويذكر الحمد بمعنى الرضا يقال : بلوه فحمدته أي رصيته . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء ٧٩] . وقال عليه السلام : « أحمد إليكم غسل الإحليل » أي أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق في قوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد لأن الحمد حاء وميم ودل فالحاء من الوجدانية والميم من الملك والبدال من الديمومية فمن عرفه بالوجدانية والديمومية والملك فقد عرفه وهذا هو حقيقة الحمد لله .

وقال شقيق بن إبراهيم في تفسير ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . =

= والثاني أن ترضى بما أعطاك .

والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه فهذه شرائط الحمد .
وقال سهل بن عبدالله الشكر: الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب
للمعصية في السر والعلانية . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في
تقصير الشكر لمنعم ولذلك قال تعالى : ﴿ أَعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]
فقال داود : كيف أشكر يا رب والشكر نعمة منك قال الآن قد عرفتني
وشكرتني إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة قال : يا رب فأرني أخفى نعمك
علي قال : يا داود تنفس فتمس داود فقال الله تعالى من يحصي هذه النعمة
الليل والنهار . وقال موسى عليه السلام : كيف أشكر وأصغر نعمة وضعتها
بيدي من نعمك لا يحازي بها عملي كله فأوحى الله إليه يا موسى الآن
شكرتني . وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر وعه قال : كنت بين
يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في
الشكر فقال لي : يا علام ما الشكر فقلت : ألا يعصى الله بعمره قال لي :
أحشى أن يكون حظك من الله لسانك قال الجيد فلا أزال أبكي على هذه
الكلمة التي قالها السري لي ، وقال الشبلي الشكر : التواضع والمحافظة على
الحسنات ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ومراقبة جبار الأرض والسموات
وقال ذو النون المصري أبو الميخ : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولنظيرك بالمكافأة
ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

وقال ابن جرير الطبري في تأويل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا
تَكْفُرُونِ ﴾ . يعني تعالى ذكره بذلك : اشكروا لي أيها المؤمنون فيما أنعمت
عليكم من الإسلام والهداية للدين الذي شرعته لأنبيائي وأصفيائي ﴿ وَلَا
تَكْفُرُونِ ﴾ يقول : ولا تمجدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي التي أنعمت -

فالشكر مجلبة للزيادة .. والرضا يجلب الخير ، ولقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم كيف أن الكفر بالنعمة يذهب الرزق ، وعدم الرضا يبدن الحال إلى أسوأ وأشد .. ويقص القرآن الكريم قصة سبأ فيقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ : ١٥٠] .

كان ذلك حال أهل سبأ أعطاهم الله رزقاً وفيراً جنات عن يمين وحنات عن شمال مملوءة بالخيرات ليأكلوا منها حيث شاءوا .. فهل رضوا وشكروا نعمة الله ؟ لا ، إنما قابلوها الرزق بالكفر والجحود وأعرضوا عن نعمة الله وعن شكر المعمر فماذا حدث لهم ؟ يكمل القرآن قصتهم للعظة والاعتبار فيقول : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ : ١٧] .

- عليكم ولكن اشكروا لي عليها وأريدكم فأتم نعمتي عليكم وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي فأني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته ومن كفرني حرمته وسلبته ما أعطيته . والعرب تقول : نصحت لك وشكرت لك ولا تكاد تقول نصحتك وربما قالت شكرتك ونصحتك . من ذلك قول الشاعر :

هم جمعوا يؤسى ونعمى عليكم فهلا شكرت القوم إن لم تقاتل
وقال النابغة في : « نصحتك » :
نصحت بني عوف يتقبلوا رسولي ولم تنجح لديهم وسائلي

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيننا إلى أن الكفر بالنعمة يزيلها ، وأن الكفر بالرزق يذهب ، وإننا لا بد أن نستقبل الرزق بالشكر .. وأن نستقبل كل أحداث الحياة بكسمة : « الحمد لله » .. فالحمد يزيد كل شيء .. والله محمود دائماً لأن قضاءه كله خير ولا يأتي منه سبحانه إلا الخير .. ولكن شهوات النفس هي التي تتحكم وتريد أن تجعل نفسها حكماً على أحداث الكون .. فما تريده وتشتويه تظن أنه خير ، وما لا تريده تظن أنه شر ، وهي لا تحكم على أساس إصلاح هذا الكون ، ولكنها تحكم على أساس المنفعة الشخصية .. ولو أفسدت كل شيء !!

ويلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى مذهبيات الرزق في آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قصة أصحاب الجنة الذين كان أبوهم صالحاً وكان يعطي الفقراء والمساكين من ثمار هذه الجنة ، فلما مات الأب قرر أولاده حرمان الفقراء والمساكين من حقهم فأحرق الله الجنة كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴾ ٢٢ أن لا يدخلوها اليوم علىكم ميّسكين ﴿ ٢١ ﴾ وَعَدَّوْا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿ ٢٥ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قَالُوا مُبِحَـنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿ ٣٠ ﴾ [القلم] .



زيادة الرزق ونقصانه

السؤال : هل الرزق يزيد وينقص ؟

الجواب : يتساءل كثير من الناس عن الرزق .. وهل يزيد وينقص ؟ أو أنه لا تعثره زيادة أو نقصان ؟ وهل هناك أشياء تحفظ الرزق من الزوال ؟ أو أن الإنسان رزقه محدد بصرف النظر عن سلوكه في الحياة الدنيا ؟ وهل هناك أعمال تجلب الرزق ، وأعمال أخرى تجعله شحيحاً ؟

إن بعض الناس يتحدث عن أحجار وأحجبة تزيد الرزق فهل ذلك صحيح ؟ وهل إنجاب البنات يوسع الرزق كما يقول كثير من الناس ؟

نقول : إن معنى تحديد الرزق أساساً هو عدم خضوعه لأسباب البشر ، لأنه خاضع لمشئة الله سبحانه وتعالى وحده ، وما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب فالمشيئة مطلقة . والله سبحانه وتعالى بيده الرزق . يزيده إن شاء . وينقصه إن شاء ويمسكه - أى يمنعه - إن شاء ، وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَحْوٌ وَ عُتُورٌ وَتَقُورٌ ﴾ [الملك ٢١٠] .

إن الله تعالى إن أمسك رزقه ، فلن يوجد رزاق غيره سبحانه يمد الناس باحتياجاتهم ، وسائل أن يسأل إذا كان الله تعالى هو الرزاق وحده فلماذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ [النساء ٥] .

نقول : إن من كرم الله سبحانه وتعالى أنه أطلق على خلقه صفة من صفاته حيث إنهم يرزقون غيرهم .. لقد قدر سعيهم في سبيل رزق فسبه إليهم رعم أن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى ولكه سبحانه جعل عباده وسيلة لمذولة الرزق لغيرهم . فالأب ينفق على أولاده وعلى زوجته ورزقهم مضمون في رزقه .. والرجل الصالح ينفق على الفقراء والعاجزين عن كسب الرزق .

ويجب أن نفهم أن هناك فرقاً بين الإيجاد من عدم ، وبين توجيه الشيء الموجود في يدك إلى يد غيرك^(١) .



(١) روى أحمد في المسند [٢٨٢/٥] وابن ماجه [٩٠-٤٠٢٢] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر . وروى الترمذى [٢١٣٩] عن سنان رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر . ورواه الرويانى [١/١٦٢] عن ثوبان به ، وراد فيه : إن في التوراة لمكتوب : يا ابن آدم اتق ربك ، وبر والديك ، وصل رحمك ، أمدد لك في عمرك ، وأيسر لك يسرك ، وأصرف عنك عسرك .

وفي تفسير ابن كثير عند تأويل قول الله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَرَمَتْ ﴾ [الرعد : ٣٩] اختلف المفسرون في ذلك : فقال الثوري ، عن ابن عباس : يدبر أمر السعة ، فيمحو الله ما يشاء ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت . وفي رواية « يمحو الله ويثبت » قال : كل شيء إلا الموت والحياة ، والشقاء والسعادة ، فإنه قد مرع مهما ، وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتعيران ، وقال منصور : سألت مجاهداً فقلت : رأيت دعاء أحداً ، يقول . اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامححه عنهم ، واجعله في السعداء ، فقال : حس ، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك ، فقال -

= ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُنَرَّكٍ﴾ الآيتين ، قال : يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو معصية ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يتغير ، وقال الأعمش عن أبي وائل : إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فامحه ، واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعدك أم الكتاب ، أخرجه ابن جرير .

وقال ابن جرير ، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويكي : اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذبا فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعدك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة . ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد ، عن ثوبان قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » ، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه^(١) .

وثبت فى الصحيح أن صلاة الرحم تزيد فى العمر^(٢) ، وفى حديث آخر : « إن -

(١) رواه أحمد فى المسند [٢٧٧/٥] وابن ماجه [٤٠٢٢] وقال الألبانى حسن دون قوله : « وإن الرجل ... » .

(٢) روى البخارى [٢٠٦٧] ومسلم [٢١/٢٥٥٧] عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « من أحب أن ييسط له فى ررقه ويتسأ له فى أثره فليصل رحمه .

- الدعاء والقضاء ليعتدجن بين السماء والأرض^(١) . وقال الكلبي : يمحو الرزق ويريد فيه ، ويمحو من أجل ويزيد فيه .

وقال العوفي عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة ، فهو الذي يمحو ؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت . قال علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] . يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٣٩] ، وحملة ذلك عنده في أم الكتاب النسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب ، وقال مجاهد : قالت كفار قريش لما نزلت ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : ٣٨] ، ما نرى محمدا يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر ، فأزلت هذه الآية تحويلاً ووعداً لهم : إنا إن شئنا أحدثنا له من أمراً ما شئنا ، ونحدث في كل رمضان ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم . وقال الحسن البصري ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ قال : من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى أحله ، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله .

(١) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الخبير : قوته يروى في الخبر الدعاء والبلاء يعتلجان . أي : يتدافعان . البزار والحاكم من حديث عائشة رفعت : لا ينفع حذر من قدر والدعاء ينفع أحسبه قال ما لم ينزل القدر - وإن الدعاء ليلقى البلاء فيتعالجان إلى يوم القيامة . وهي إساده زكريا بن منظور وهو متروك ، ورواه البرر من حديث أبي هريرة وفي إساده إبراهيم بن حثيم بن عراك عن أبيه قال لا يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد .

= وفي كشف الخفاء للعجلوني [١٢٩٧] الدعاء يرد لبلاء . وقال : رواه الطبراني وأبو الشيخ عن أبي هريرة وابن عباس مرهوعا ، ورواه الديلمي عنه بلفظ : « الدعاء يرد القضاء » في حديث أوله : « ير الوالدين يزيد في العمر » ، ورواه الطبراني عن أنس رفعه بلفظ : « أدعوا ، فإن الدعاء يرد القضاء » ، والطبراني أيضا عن سلمان رفعه « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر »^(١) ، والطبراني أيضا عن ثوبان رفعه بلفظ « لا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر »^(٢) ، الحاكم عن ثوبان أيضا بلفظ : « الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد في الرزق ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يذنبه » ، وفي لفظ : « بصيه »^(٣) ، وروى أحمد والطبراني أيضا عن معاذ بن جبل مرهوعا : « لن ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، فعليكم بدعاء عباد الله »^(٤) ، وروى الطبراني عن عائشة مرفوعا : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان إلى »

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٦١٢٨/٢٥١/٦] والترمذي [٢٢٢٥] وابن ماجه [٤٠٢٢] . وقال الألباني : حسن .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٤٤٢/١٠٠/٢] وابن ماجه [٤٠٢٢] والسلسلة الصحيحة للألباني [١٥٤] وأحمد في المسند [٢٨٠/٥] . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره دون قوله : « وإن العبد ليحرم الرزق » . وهذا إسناد ضعيف .

(٣) رواه الحاكم [٦٠٣٨/٥٤٨/٣] .

(٤) رواه أحمد في المسند [٢٣٤/٥] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب . ورواه الطبراني في الكبير [٢٠١/١٠٣/٢٠] وقال الهيثمي في المجموع [١٤٦/١٠] . وشهر بن حوشب لم يسمع من معاذ ، ورواية إسماعيل بن عياش عن أهل الحجاز ضعيفة .

= يوم القيامة»^(١) ، وللترمذي عن ابن عمر مرفوعا : « إن الدعاء ينفع مما نزل
ومما لم ينزل »^(٢) ، وأخرج أيضا حديث سلمان المار وقال حسن غريب ،
وأخرج أحمد حديث ثوبان ، وصححه ابن حبان والحاكم وتقدم له طريق
أخرى في : « إن الله لا يعذب نكاح الرزق » ، وأخرج أحمد وابنه حديث
معاذ ، وأخرج العسكري حديث عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعا بلفظ :
« لا ينفع حذر من قدر ، والدعاء يرد البلاء » ، وقرأ : ﴿ إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسْ لَمَّا
ءَامَسُوا ﴾ ، قال دعوا ، قالت : وإن كان شيء يرد الرزق ، فإن الصُّبْحَةَ تجمع
الرزق . وأرادت بالصُّبْحَةَ نوم الغداة لمن تعودها .

ودكر النووي في كتاب الأذكار ، كتاب جامع الدعوات . باب في آداب
الدعاء ؛ قال : قال الغزالي : فإن قيل : فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد
لـ ؟ فاعلم أن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لردّ البلاء
وجود الرحمة ، كما أن الترس سبب لدفع السلاح ، ولما سبب لخروج
الذات من الأرض ؛ فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان ، فكذلك الدعاء
والبلاء ، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح ، وقد قال
الله تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] ، فقدّر الله
تعسّى لأمر وقدّر سببه . وفيه من الفوائد ما ذكرناه ، وهو حصول القلب
والافتقر ، وهما بهاية العبادة والمعرفة ، والله أعلم .

(١) رواه التبراني في الأوسط [٢٤٩٨/٦٦/٣] .

(٢) رواه الترمذي [٣٥٤٨] وحسنه الألباني .

رزق الدنيا ورزق الآخرة

السؤال : ما الفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة ؟

الجواب : إننا إذا تحدثنا عن قضية الرزق فلا بد أن نفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة .. الرزق في الدنيا للكافر والمؤمن .. أما طيبات الرزق في الآخرة فهي للمؤمن وحده .

رزق الدنيا بالكد والسعي ، أما رزق الآخرة فهو مباشرة من الرزاق سبحانه ، فساعة يتمي الإنسان في الجنة شيئاً ما : يجده على الفور أمامه . ويجب أن نتنه إلى عدل الله في رزقه بالنسبة لطوائف المجتمع .. ذلك أن كل طائفة من صوائف المجتمع لها وقت تكون فيه على قمة الرزق الظاهر في المجتمع .

في فترة من الفترات كان الرزق في المال في أيدي خريجي الجامعات .. الذي يحصل على شهادة جامعية يحصل على أعلى دخل في المجتمع ، حتى تكونت طبقة تسمى طبقة خريجي الجامعات ، بحيث كان السؤال الأول لأي شاب يتقدم للزواج من فتاة . هل عنده شهادة جامعية أو لا ؟ ثم انقبت المسألة فأصبح الآن الحرفيون وأصحاب المهن هم على قمة الرزق المادي . وحكمة ذلك أن المجتمع قد اعتبر الشهادة الجامعية هي وسيلة اتساع رزق . وأراد الله سبحانه وتعالى أن نعم أنه لا توحيد وسيلة لاتساع الرزق إلا بمشيئته تبارك وتعالى .. فقلب الأمور .. وبدلاً من أن يكون المدخل لاتساع الرزق هو الشهادة الجامعية .. أصبح المدخل لاتساع الرزق هو الحرفة ، وذلك لحكمة يريد بها سبحانه وتعالى .



الحياة الدنيا

السؤال : إذا كان الله تعالى قدر وقضى فما قيمة الحياة والعمل فيها ؟

الجواب : بعض الناس يقول إذا كانت هذه هي الحقيقة .. وهذا هو المصير الذى لا فكاك منه فلماذا رحلة الحياة ؟

نقول : ليكن كل منا شهيداً على نفسه .. حتى لا يأتى يوم القيامة محادلاً ويقول يا رب لو احتبرتنى لفعلت كذا وكذا . وهذا هو نفس ما يحدث فى امتحانات نهاية العام .. فلو أن الجامعة اعتمدت الناحيتين على أساس آراء الأساتذة .. لزعم كل واحد من الطلبة أنه لو امتحن لكان الأول مع مرتبة الشرف ! لقد وضعت الجامعة نظام الامتحانات ليس لأنها تجهل لإجابات التى حددتها فى الأسئلة . وإنما ليكون الطالب شهيداً على نفسه . حتى إذا جاء مجادلاً جىء بأوراقه . وإذا حثت أنت مجادلاً يوم القيامة جاءوا بكتابك . إن الكسب الحرام يجلب غضب الله .. وهو مهما زاد عدده : قل نفعه ومحيت بركته . أما الكسب الحلال فإنه مهما قل عدده أشاع فى النفس السكينة ، وكثر نفعه وزادت بركته .. وغمره الرضا ، حتى إن صاحبه ليعجب من نفسه .. كما يعجب الآخرون .. كفى يكفى هذا المال القليل حاجته وحاجة زوجته وأولاده ؟ إناهم لا يعرفون الدروس الخصوصية التى استشرت وعمت الأسر المصرية فى هذا الزمان . إناهم ينحسرون بتفوق .. إناهم متحابون مترابطون .. محبوبون .. وما ذلك إلا ببركة الرزق الحلال الذى يعمون به .. بينما الرزق الحرام لا يجلب لمكتسبه إلا الهموم وسخط الله وغضبه .. ثم لا بركة فيه ولا انتفاع !

وكما يعلم : الرزق في الدنيا هو للمؤمن وللکافر .. لأنه عطاء ربوية ..
ولذلك فإنك تجد الكافر ربما كان له متاع في الدنيا أكثر من المؤمن .. لأنه
يأخذ أجره كله في الدنيا ولا أجر له في الآخرة ، وجزاءه النار والعياذ بالله ..
واقرا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ
إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْحَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود] .
إن الكافر قد يُعطى من نعيم الدنيا ويَتَّع بما فيها أكثر من المؤمن ، لأنه يؤتى
أجره كله في الدنيا .. أما في الآخرة فلا أجر له .. وإذا كان الرزق في الدنيا
للمؤمن وغير المؤمن .. فإن طيبات الرزق في الآخرة للمؤمنين وحدهم واقرا
قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ^(١) [الأعراف : ٣٢] .



(١) روى الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل : ١] .
عن النزال بن سبرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من نفس
منفوسة إلا قد كتب الله عليها ما هي لا قبته » وأعرابي عند النبي صلى الله
عليه وسلم مرتاد ، فقال الأعرابي : فما جاء بي أضرب من وادي كذا وكذا ،
إن كان قد فرغ من الأمر ١٩ فنكت لبي صلى الله عليه وسلم في
الأرض ، حتى ظل القوم أنه ود أنه لم يكن تكلم بشيء منه ، فقال ' بي صلى
الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له ، فمن يرد الله به خيرا يسره لسبيل
الخير ، ومن يرد به شرا يسره لسبيل الشر » ، فلقيت عمرو بن مرة ، فعرضت
عنه هذا الحديث ، فقال : قال النبي صلى الله عليه وسلم .. وراد فيه : =

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنَنَ لَهُ الْيُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ جَحَلَ ۖ وَاسْتَعَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنَنَ لَهُ الْعُسْرَى ۖ ﴾ [الدليل] .

وروى البخارى [٦٥٩٦] ومسلم [٩/٢٦٤٩] واللفظ له عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال . قيل . يا رسول الله ! أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال : « نعم » . قال : قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » .

وروى مسلم [١٠/٢٦٥٠] عن أبى الأسود الدئلى ، قال : قال لى عمران بن الحصين أرايت ما يعمل الناس ليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق ؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضى عليهم ، ومضى عليهم . قال : فقال : أفلا يكون ظنما ؟ قال : ففرغت من ذلك فرعا شديدا . وقلت : كل شيء خبق الله ومالك يده . ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] فقال لى : يرحمك الله ! إنى لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك . إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ! أرايت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : لا . بل شيء قضى عليهم ، ومضى فيهم . وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلَمَتْهَا أَجُورُهَا وَتَقَوَّاهَا ﴾ [الشمس] قوله : « ويكدحون فيه » الكدح هو السعى فى العمل . سواء أكان للآخرة أم الدنيا . وقوله « لأحزر عقلك » أى لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك .

الحلال والحرام فى الرزق

السؤال :

إذا كان الرزق مقدراً لماذا نحاسب

على الرزق الحرام ؟

الجواب : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ [النحل : ٧٥]

إذن .. فهناك رزق حسن ، ورزق غير حسن ، قد يقول بعض الناس ما دام الرزق مقدراً .. سواء أكان حلالاً أم حراماً فلماذا نحاسب على الرزق الحرام ؟
نقول : إن الله سبحانه وتعالى قدر رزق الإنسان . فإذا آمن الإنسان بذلك فمن تمتد يده إلى الحرام بُدأ ، لأنه يعرف أنه ما دام هذا رزقه فلا بد أنه آتية ، وما عليه إلا أن يصبر ، وإذا مرت به شدة أو أية ظروف أخرى تستدعى التحمل ، فعليه أن يستمسك بالإيمان ، فإن صبر على الرزق واستمسك بالإيمان أتاه رزقه كله حلالاً .. وإن لم يصبر على الرزق واعتراه الخوف مما قد يمر به من ضيق ، وملاً الفزع قلبه فإنه يمد يده إلى المال الحرام .

امتداد اليد إلى المال الحرام يأتى من الخوف من الفقر وعدم الاطمئنان . الإنسان يريد أن يؤمن مستقبله ومستقبل أولاده ، ولا أمان إلا فى يد الله . وإنسان آخر يريد أن يكون له رأسمال ليحميه من الفقر ، وثالث يعتقد أنه عن طريق الحرام يستطيع أن يملك ويحصل على الثراء .. كل هؤلاء جميعاً استطاع الشيطان أن يسيطر عليهم بالخوف وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا دَلَّكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥]

فكأن من وظيفة الشيطان أن يدخل الرعب إلى قلب الإنسان .. وأسهل طريق يدخل منه إلى القلب هو الرزق .. إنه يأتى ويوسوس إليك .. أطلع

القضاء والقدر والرزق

رؤساءك واشهد زورًا وإلا قطعوا رزقك .. افعل ما يطلبونه منك من معاص
ولا تعرض نفسك وأولادك للفقر .. افعل كذا .. وافعل كذا .. ويظل
الشيطان يُخَوِّف الإنسان فيوقعه في معصية بعد معصية ، حتى تصبح المعصية
في نفسه مسألة عادية تحدث كل يوم ، وتصبح النفس أمارة بالسوء لا تحاسب
نفسها على المعاصي .

وما دمت قد آمنت بالله واحدًا ورازقًا ، فإنه يتعين على أن أثق في كل
ما يخبرني به ثقة لا يعتريها شك .. حتى لا أعطي الشيطان فرصة يشوش
بها عليّ .. فعندما أسمع قول الحق سبحانه يقسم بذاته على صدقه في ضمان
الرزق لعباده بقوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ١٧ ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطِقُونَ ﴾ ١٨ [الناريات] .

فيجب أن أشعر بالأمان في حياتي لأن الرزاق سبحانه هو القائل ، وقوله
الحق والصدق ، ويجب أن أنتزع من النفس كل هواجسها فيما يتعلق بالخوف
على الرزق .



الرزق الحرام .. والقضاء والقدر

السؤال :

إذا كان الرزق مقدراً ومعلومًا ، وكل إنسان لا يأخذ إلا رزقه .. فهل الرزق الحرام يندرج تحت المقدر والمعلوم ؟ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتبه على ، فما هو ذنبي حتى أحاسب عليه في الآخرة ؟

الجواب : إن هذه القضية محتاجة إلى مناقشة مستفيضة حتى نلم بأبعادها فبدأ أولاً : بمعرفة من أين يأتي الرزق الحرام ؟ أو ما هو الدافع للإنسان ليمد يده لمال حرم ؟

إن الدافع كما قلنا هو الخوف من الفقر .. ويصور الله تعالى هذا الخوف الإنساني من الفقر عندما أمر المؤمنين أن يمنعوا المشركين من دخول مكة رغم ما يمثلونه لأهلها من انتعاش اقتصادي في ذلك الوقت ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِلَهٌ عَلَىٰ حَكِيمٌ ۝ (١) [التوبة : ٢٨] .

(١) قال السيوطي في الدر المنثور : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ۝ [التوبة : ٢٨] ، وهو العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله تعالى عنه . نادى علي رضي الله عنه بالأذان ، وذلك لتسع سين من الهجرة ، وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع لم يحج قبلها ولا بعدها منذ هاجر ، فيما نهى الله تعالى المشركين عن المسجد الحرام شق ذلك على المسلمين ، فأمر الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ =

= يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ فَأَغْنَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا الْخُرَاجِ : الْحِزْيَةُ الْجَارِيَةُ عَلَيْهِمْ بِأَحْدُونَهَا شَهْرًا شَهْرًا وَعَامًا عَامًا ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْرُبَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ ذَلِكَ إِلَّا صَاحِبُ الْحَرِيَةِ أَوْ عِيْدُ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأُخْرِجَ سَعِيدُ بْنُ مَصُورٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجِيئُونَ إِلَى الْبَيْتِ وَيَحِثُّونَ مَعَهُم بِالطَّعَامِ يَتَجَرَّوْنَ فِيهِ ، فَمَا نَهَوْا عَنْ أَنْ يَأْتُوا الْبَيْتَ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : فَمَنْ أَهْنُ لَنَا الطَّعَامُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ قَارَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ وَكَثُرَ خَيْرُهُمْ حِينَ ذَهَبَ الْمُشْرِكُونَ عَنْهُمْ . وَأُخْرِجَ ابْنُ حَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ شَقَّ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا . مَنْ يَأْتِيَا بِطَعَامٍ وَبِالْمَتَاعِ ؟ فَنَزَلَتْ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ الْآيَةُ .

وَأُخْرِجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَمَّا نَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : مَنْ أَيْنَ تَأْكُلُونَ وَقَدْ نَفَى الْمُشْرِكُونَ وَانْقَطَعَتْ عَنْكُمْ الْعِيرُ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ فَأَمَرَهُمْ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَأَغْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

وَأُخْرِجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْآيَةِ قَالَ : قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : قَدْ كُنَّا نَصِيبُ مِنْ مَتَاجِرِ الْمُشْرِكِينَ . فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَغْنِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَوْصًا لَهُمْ بِأَنْ لَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَوَّلِ بَرَاءَةٍ فِي الْقِرَاءَةِ وَفِي آخِرِهَا التَّأْوِيلُ .

إن الله سبحانه وتعالى وهو الخبير بالنفس البشرية لأنه خالقها - قد أعلمنا أن لإنسان يحاف من الفقر إذا تأثرت أسباب الرزق عنده. وقد منع الله تبارك وتعالى المشركين من أن يدخلوا إلى مكة أو يقتربوا من المسجد الحرام ، وكان معنى هذا بالنسبة لسكان مكة كسادًا في الرزق .. لأن هؤلاء المشركين كانوا يأتون كل عام إلى مكة في موسم الحج ويتاعون ويشترون ويفقون ويحدثون رواجًا اقتصاديًا يستمر أثره في العام كله .. فظن أهل مكة من المؤمنين أنه إذ مُنِع هؤلاء المشركون امتنعت أسباب الرزق . ولكن الله يطمئن أهل مكة بأن له سبحانه فضلًا كبيرًا .. وأنه سيغنيهم من هذا الفضل إذا توقفت الأسباب . ولكن هل يدخل اليقين إلى قلب كل إنسان وهو يرى أسباب الرزق تبتعد ؟ هل يحس الإنسان بالأمار ؟ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم ؟ هم الذين يحسون به . أم ضعاف الإيمان فإنهم يريدون شيئًا ماديًا يرتكنون إليه .



= وأخرج عبد الرزاق والساجس في ناسحه عن عطاء رضي الله عنه في قوله : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ قال : يريد الحرم كله . وفي لفظ : لا يدخل الحرم كله مشرك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ قال : الفاقة . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال : أغناهم الله تعالى بالجزية الجارية .

رزق الإيجاب .. ورزق السلب

السؤال : ما هو رزق الإيجاب ورزق السلب ؟

الجواب : الرزق هما رزقان .. رزق الإيجاب الذى يريد الدخل ، ورزق السلب الذى يمنع أن يفق هذا المال فيما لا طائل منه أو ما ليس فى حاجة إليه بحيث يستنفد كله أو جزء كبير منه .

والإنسان حين ينظر إلى رزق الإيجاب الذى يزيد ما عنده من مال .. لا بد أن ينظر أيضًا إلى رزق السلب الذى تسلب منه البركة .. والبركة تجعلك فى كثير من الأحيان تتعجب .. كيف يعيش فلان بمرتبه البسيط ؟ فإذا بحثت وجدت أن الله سبحانه وتعالى قد ملأ نفسه ونفس زوجته وأولاده بالقناعة . فالذى رزقه حلالاً لا تمتد عينه أبدًا إلى تلك الأشياء عالية الثمن التى لا يقدر عليها .. وإذا لفت أحدهم نظره إلى ذلك قال وهو يعد نظره عنها : هذه الأشياء ليست لنا .. يقونها وهو مؤمن بأن ما يحصل عليه فيه الكفاية وريادة وتجنده يأكل الطعام البسيط وهو سعيد سعادة كبيرة .. وينام الليل لا يؤرقه شيء .. لأن لديه ما يكفى مطالبه الأساسية فى الحياة .



الرزق .. وعطاء الربوبية

السؤال : ما هو نفع الرزق ؟

الجواب : الرزق هو ما يتمتع به الإنسان أو المرزوق ، وهذا الانتفاع له اتجاهان :

انتفاع « مادي » يستبقى به الإنسان حياته .
وانتفاع « في القيم » يثري به الإنسان حياته ، هذا رزق ، وهذا رزق .
ما هو الانتفاع المادي ؟ وما هو الانتفاع في القيم ؟
الحق سبحانه وتعالى له عطاءان : عطاء ألوهية .. وعطاء ربوبية . وكل منهما يختلف عن الآخر .

عطاء الربوبية .. أن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين .. رب المؤمن ورب الكافر .. رب من يعبده ورب من يكفر به ، ولأنه سبحانه رب كريم ، ولأنه عز وجل هو الذي استدعى خلقه إلى الحياة ، فكان لابد أن يضمن لهم استبقاء الحياة بالرزق ، ولذلك قدر في الأرض أقواتها ، وهذه الأقوات بالمقدرة هي الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ، وتتسع لرزق كل حي عليها ولا تنتهي إلى أن تقوم الساعة وننتهي الحياة على هذه الأرض^(١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَلِين ﴾ [ممت ١٠٠] قال السدي والحسن : أرراق أهلها ومصاحبهم . وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء . وقال عكرمة والضحاك معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أي أرراق أهلها وما يصلح لمعاشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأحرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد .

= قال عكرمة : حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل . وقال مجاهد والضحاك : السابري من سابور ، والطيايسة من الري ، والخبر اليمانية من اليمن .

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعنى : فى تئمة أربعة أيام . ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ، وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً ؛ أى فى تئمة خمسة عشر يوماً . قال معناه ابن الأنباري وغيره .
﴿ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى فى أربعة أيام مستوية تامة . الفراء : فى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين . واختاره الطبري . وقرأ الحسن ، البصري ويعقوب الحصري « سواء للسائلين » بالجر وعن ابن القعقاع « سواء » بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و « سواء » بمعنى استواء أى استوت استواء . وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي « فى أربعة أيام » مستوية تامة . والرفع عن الابتداء والخبر « للسائلين » أو على تقدير هذه « سواء للسائلين » . وقال أهل المعاني : معنى « سواء لسائلين » ولغير السائلين ؛ أى خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لا يسأل .

باب

الطهارة والصلاة

صفة الوضوء

السؤال : كيف أتوضأ الوضوء الصحيح ؟ وما

هي أركانه الصحيحة ، وما هي سننه ؟

الجواب : يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة ٦٠] .

الله سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في لوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هي السنن التي تمتاز بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شيء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرفقين وارجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى

مرة أو اثنتين أو ثلاثاً ليتأكد الإنسان تماماً من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأحرء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على مرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب ، وغسل الوجه معروف تماماً للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من مبيت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى الحية وهما العظامان اللذان تبيت عليهما الأسنان السفلى ، هذا في الطول ، وفي العرض يشمل الوجه ما بين شحمتي الأذنين . ولا أحد يختلف في تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بعناية ، فلم يقل : اغسل وجهك من كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه . هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسن فتحن بعسل الكفين إلى الرسعين أولاً ثم تمضمض ونستنشق إلى آخره .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التي هي من السن : إنها لم تأت هكذا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإن تغير أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمش على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له ، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله ، والسنة تقدمت لها على الأركان لحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى الحية وذلك طويلاً وما بين شحمتي الأذنين عرضاً .

وبعد غسل الوجه قال الحق : ﴿ وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ وميز الحق هنا الأيدي تحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أى أنه زاد عاية لم توحد فى الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تصبغ فى اللغة ويراد بها الكف ، مثال ذلك فى حكم الحق على السارق والسارقة .
﴿ فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨] .

وتطلق اليد أيضاً ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضاً ويراد بها إلى الكتف . فليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ : ﴿ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد ؛ لذلك قال : ﴿ وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ ^(١) .

(١) قال القرطبي ، قوله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] . ذكر تعالى أربعة أعضاء : الوجه وفرصه العسل ، واليدين كذلك ، والرأس وفرصه المسح اتماقا ، واحتلف فى الرجلين على ما يأتى ، لم يذكر سواها فدل ذلك على أن ما عداها آداب وسنن . والله تعالى أعلم .

ولابد فى غسل الوجه من نقل الماء إليه ، وإمرار اليد عليه ؛ وهذه حقيقة الغسل عندنا ، وقد بيناه فى « النساء » . وقال غيرنا : إنما عليه إجراء الماء وليس عليه ذلك بيده ؛ ولا شك أنه إذا انغمس الرجل فى الماء وعمس وجهه أو يده ولم يدلك يقال : غسل وجهه ويده ، ومعلوم أنه لا يعتبر فى ذلك غير حصول الاسم ، فإذا حصل كفى . والوجه فى اللغة مأخوذ من المواجهة ، وهو عضو مشتمل على أعضاء وله طول وعرض ؛ فحده فى الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى النحر ، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض ، وهذا =

= في الأمر ، وأما الملتحي فإذا اكتسى الذقن بالشعر فلا يخلو أن يكون خفيفاً أو كثيفاً ؛ فإن كان الأول بحيث تبيّن منه البشرة فلا بد من إيصال الماء إليها ، وإن كان كثيفاً فقد انتقل الفرض إليه كشعر لرأس ؛ ثم ما زاد على الذقن من الشعر واسترسل من اللحية ، فقال سحنون عن ابن القاسم : سمعت مالكا سئل : هل سمعت بعض أهل العلم يقول : إن اللحية من لوجه فليمر عليها الماء ؟ قال : نعم ، وتحليلها في الوضوء ليس من أمر الناس ، وعاب ذلك على من فعله . وذكر ابن القاسم أيضاً عن مالك قال : يحرك المتوضئ ظاهر لحيته من غير أن يدخل يده فيها ؛ قال . وهي مثل أصابع الرجلين . قال ابن عبد الحكم : تحليل اللحية واجب في الوضوء والغسل . قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حلّل لحيته في الوضوء من وحوه كلها صيفة^(١) . وذكر ابن خوير ممداد : أن الفقهاء اتفقوا على أن تحليل اللحية ليس بواجب في الوضوء ، إلا شيء روى عن سعيد بن جبير ؛ قوله ما بال الرجل يغسل لحيته قبل أن تست فإذا لبست لم يغسلها^(٢) ، وما بال الأمر يغسل دقه ولا يغسله دو اللحية ؟ قال الطحاوي : التيمم واجب فيه مسح البشرة قبل نبات الشعر في الوجه ثم سقط بعده عند جميعهم . فكذلك الوضوء .

- (١) رواه أحمد [٢٣٤/٦] عن عائشة رضي الله تعالى عنها بلفظ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ حلّل لحيته بالماء » وقال الأرباؤوط : حسن لغيره . وابن ماجه [٤٣١] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه وصححه الألباني ، وأبو يعلى في المسند [١٦٠٤/١٨٠/٣] عن حسان بن بلال المزني ، وقال محققه : إسناده ضعيف تضعف عبد الكريم بن أبي المخارق ، وباقي رجاله ثقات . والطبراني في المعجم الكبير [٨٠٧٠/٢٧٨/٨] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه .
- (٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه [١٣٢] .

- قال أبو عمر : من جعل غسل الدحية كلها واجبا جعلها وجها ؛ لأن الوجه مأخوذ من المواجهة ، والله قد أمر بغسل الوجه أمرا مطلقا لم يخص صاحب لحية من أمره ؛ فوجب غسلها بظاهر القرآن لأنها بدل من البشرة . قلت . أى لقرطبي - : واختار هذا القول ابن العربي وقال : وبه أقول ؛ لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غسل لحيته ^(١) ، أخرجه الترمذى وغيره ؛ فعين المحتمل بالفعل .

وحكى ابن المنذر عن إسحاق أن من ترك تخليل لحيته عامدا أعاد . وروى الترمذى عن عثمان بن عفان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحل لحيته ^(٢) ؛ قل : هذا حديث حسن صحيح ؛ قال أبو عمر : ومن لم يوجب غسل ما اسدل من اللحية ذهب إلى أن الأصل الأمور بغسله البشرة ، فوجب غسل ما ظهر فوق البشرة ، وما اسدل من اللحية ليس تحته ما يلزم غسله ، فيكون غسل اللحية بدلا منه . وختلفوا أيضا في غسل ما وراء العذار إلى الأذن ؛ فروى ابن وهب عن مالك قال : ليس ما خلف الصدع لذى من وراء شعر اللحية إلى الذقن من الوجه . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار قال بما رواه ابن وهب عن مالك . وقال أبو حنيفة وأصحابه : البياض بين العذار والأذن من الوجه . وغسله واجب ؛ ونحوه قال الشافعى وأحمد . يغسل البياض استحبابا ؛ قال ابن العربي : والصحيح عمدي أنه لا يلزم غسله إلا للأمر لا للمعذر . قلت : وهو اختيار القاضى عبد الوهاب ؛ وسبب الخلاف هل تقع عليه المواجهة أم لا ؟ والله تعالى أعلم . وبسبب هذا الاحتمال اختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا ؟ فذهب أحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهما إلى وجوب ذلك فى الوضوء

(١) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه [١٢٨] عن ابن سيرين قال : رأيته يغسل لحيته فقلت له : من السنة غسل اللحية ؟ فقال : لا .

(٢) رواه الترمذى [٣١] وقال الألبانى : صحيح .

والغسل ، إلا أن أحمد قال : يعيد من ترك الاستنشاق في وضوئه و' يعيد من ترك المضمضة .

وقال عامة الفقهاء : هما ستان في الوضوء والغسل ؛ لأن الأمر إنما يتناول الطاهر دون الباطل ، والعرب لا تسمى وجهها إلا ما وقعت به المواجهة ، ثم إن الله تعالى لم يذكرهما في كتابه ، ولا أوجبهما المسمون ، ولا أتفق الجميع عليه ؛ والمرايض لا تثبت إلا من هذه الوجوه . وأما العيدين فالتاس كلهم مجمعون على أن داخل العين لا يلزم غسله ، إلا ما روى عن عبد الله بن عمر أنه كان يضح الماء في عينيه ^(١) ؛ وإنما سقط غسلهما للتأخر بذلك والخرح به ؛ قال ابن العربي : ولذلك كان عبد الله بن عمر لما عمى يغسل عينيه إذ كان لا يتأدى بذلك ؛ وإذا تقرر هذا من حكم الوجه فلا بد من غسل جزء من الرأس مع الوجه من غير تحديد ، كما لا بد على القول بوجوب عموم الرأس من مسح جزء معه من الوجه لا يتقدر ؛ وهذا يبنى على أصل من أصول الفقه وهو : « أن ما لا يتم الواجب إلا به واجب مثله » والله أعلم . قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة : ٦] واختلف للناس في دخول المرافق في التحديد ؛ فقال قوم : نعم ؛ لأن ما بعد ﴿ إِلَى ﴾ إذا كان من نوع ما قبلها دخل فيه ؛ قال سيبويه وغيره ، وقد مضى هذا في « البقرة » مبينا . وقيل : لا يدخل المرفقان في الغسل ؛ والروايتان مرويتان عن مالك ؛ الثانية لأشهب ؛ والأولى عليها أكثر العلماء وهو الصحيح ؛ لما رواه الدارقطني عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرققيه ^(٢) . وقد قال بعضهم . إن ﴿ إِلَى ﴾ بمعنى مع ، كقولهم : الذود إلى الذود إبل ، أي مع الذود ، وهذا لا يحتاج إليه كما بيناه في « نساء » ؛ ولأن اليد =

(١) رواه عبد البراق في مصنفه [٩٩١] وابن أبي شيبة في مصنفه [١٠٦٩] والبيهقي في السنن الكبرى [٨٠٧] .

(٢) رواه الدارقطني في سننه [١٥] والبيهقي في السنن الكبرى [٢٥٩] .

- عبد العرب تقع على أطراف الأصابع إلى الكتف ، وكذلك الرجل تقع على الأصابع إلى أصل الفخذ ، فالمرق داخل تحت اسم اليد ، فهو كان المعنى مع المرافق لم يعد ، فلما قال : ﴿ إِلَى ﴾ اقتطع من حد المرافق عن الغسل ، وبقيت المرافق معسولة إلى الظفر ، وهذا كلام صحيح يجرى على الأصول لغة ومعنى ؛ قال ابن العربي : وما فهم أحد مقطع المسألة إلا القاضي أبو محمد فإنه قال : إن قوله : ﴿ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ حد للمتروك من اليدين لا للمعسول فيه ؛ ولذلك تدخل المرفق في الغسل .

قلت : وما كانت اليد والرجل تنطلق في اللغة على ما ذكرنا كان أبو هريرة يبلغ بالوضوء إبطه وساقه ويقول : سمعت نبيلى صلى الله عليه وسلم يقول : « تبلى الخلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء »^(١) .

قال القاضي عياض : والناس مجمعون على خلاف هذا ، وألا يتعدى بالوضوء حدوده ؛ لقوله عليه السلام : « فمن زاد فقد تعدى وظلم »^(٢) .
وقال غيره : كان هذا الفعل مذهباً له ومما انفرد به ، ولم يحكه عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما استنبطه من قوله عليه السلام « أنتم المر المحجلون »^(٣) .
ومن قوله : « تبلى الخلية » كما ذكر .

(١) رواه مسلم [٤٠/٢٥٠] وأحمد [٣٧١/٢] والسنن الكبرى [١٤٢] والبيهقي في السنن [٢٦٠] .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١١٠٩١/٦٢/١١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، وابن أبي شيبه في مصنفه [٥٨] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنهم ، وقال في مجمع الزوائد [٢٣١/١] وفيه سويد بن عبد العزيز ضعفه أحمد ويحيى وجماعة ووثقه دحيم .

(٣) رواه مسلم [٣٤/٢٤٦] عن نعيم بن عبد الله المجرم رضي الله تعالى عنه ، والبيهقي في السنن الكبرى [٣٦٨] ، وأبو يعلى [٢١٦٢/١١٨/٤] عن حابر رضي الله تعالى عنه .

- قوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي و « أرجلكم » بالنصب ؛ وروى الوليد بن مسلم عن نافع أنه قرأ : « وأرجلكم » بالرفع وهي قراءة الخس والأعمش سليمان ؛ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة و « أرجلكم » بالخفض وبحسب هذه القراءات اختلف الصحابة والتابعون ؛ فمن قرأ بالنصب جعل العام « اغسلوا » وبني على أن الفرض في الرجلين الغسل دون المسح ، وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء ، وهو الثابت من فعل النبي ، واللازم من قول في غير ما حديث ، وقد رأى قوما يتوضأون وأعقابهم تلوح فنادى بأعلى صوته : « ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء »^(١) . ثم إن الله أحدهما فقال : ﴿ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ كما قال في اليدين : ﴿ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ فدل على وجوب غسلهما ؛ والله أعلم . ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء ، قال ابن العربي : اتفقت العلماء على وجوب غسلهما ، وما علمت من رد ذلك سوى الطبري من فقهاء المسلمين ، والرافضة من غيرهم ، وتعلق الطبري بقراءة الخفض .

قلت : قد روى عن ابن عباس أنه قال : الوضوء غسلتان ومسحتان . وروى أن الحجاج حطب بالأهوار فذكر الوضوء فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ، فيه ليس شيء من ابن آدم أقرب من حبثه مر قدميه ، فاعسلوا بطونيهما وظهورهما وعراقيبهما . فسمع ذلك أنس بن مالك فقال : صدق الله وكذب الحجاج ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ ﴾ قال : وكان إذا مسح رجليه بلهما ، وروى عن أنس أيضا أن قال : نزل القرآن بالمسح واليسرة بالغسل^(٢) وكان عكرمة يمسح رجليه

(١) رواه البخاري [١٦٣] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، ومسلم [٢٤١/٢٦] وأبو داود [٩٧] عن عبد الله بن عمرو وابن ماجه عن عبد الله بن عمر ، وأحمد [٤٩٨/٢] .

(٢) شرح معاني الآثار [٢٠٤] عن الشعبي .

- وقال : ليس في الرجلين غسل إنما نزل فيه المسح . وقال عامر الشعبي : نزل جبريل بالمسح ؛ ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غسلاً ، ويلغى ما كان مسحاً . وقال قتادة : افترض الله غسلتين ومسحاً . وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين الغسل والمسح ، وجعل القراءتين كالروايتين ؛ قال لنحاس : ومن أحسن ما قيل فيه ؛ أن المسح والغسل واجبان جميعاً ، فالمسح واجب على قراءة من قرأ بالخفص ، والغسل واجب على قراءة من قرأ بالنصب ، والقراءتان بمنزلة آيتين . قال ابن عطية : وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن لمسح في الرجلين هو الغسل . قلت : وهو الصحيح ؛ فإن لفظ المسح مشترك ، يطلق بمعنى المسح ويطلق بمعنى الغسل ؛ قال الهروي . أخبرنا الأزهرى أخبرنا أبو بكر محمد بن عثمان بن سعيد الدارمي عن أبي حاتم عن أبي زيد لأنصاري قال : المسح في كلام العرب يكون غسلاً ويكون مسحاً ، ومنه يقال للرجل إذا توضأ فغسل أعضائه . قد تمسح ؛ ويقال : مسح الله ما بك إذا غسلك وطهرتك من الذنوب ، فإذا ثبت بالنقل عن العرب أن المسح يكون بمعنى الغسل فترجح قول من قال : إن المراد بقراءة الخفص الغسل ؛ بقراءة النصب التي لا احتمال فيها ، وبكثرة الأحاديث الثابتة بالغسل ، والتوعد على ترك غسلها في أخبار صحاح لا تحصى كثرة أخرجها الأئمة ؛ ثم إن المسح في الرأس إنما دخل بين ما يغسل لبيان الترتيب على أنه مفعول قبل الرجلين ، التقدير فاغسلوه وحوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم ؛ فما كان الرأس مفعولاً قبل الرجلين قدم عليهما في التلاوة - والله أعلم - لا أنهما مشتركان مع الرأس لتقدمه عليهما في صفة التطهير . وقد روى عاصم بن كليب عن أبي عبد الرحمن السلمى قال : قرأ الحسن والحسين - رحمة الله تعالى عليهما ﴿ وَأَرْجُلَاكُمْ ﴾ فسمع على ذلك وكان يقضى بين الناس فقال : « وأرجلكم » هذا من المقدم ومؤخر مر الكلام -

وروى أبو إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله تعالى عنه قال : اغسلوا
الأقدام إلى الكعبين . وكذا روى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ
« وأرحلكم » بالنصب . وقد قيل : إن الخفض في الرجلين إنما جاء مقيدا
لمسحهما لكر إذا كن عليهما خفاف ، وتلقيا هذا القيد من رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، إذ لم يصح عنه أنه مسح رجله إلا وعليهما خفان ، فبين
صلى الله عليه وسلم بفعله الحال التي غسل فيه الرجل والحال التي تمسح فيه ،
وهذا حسن . فإن قيل : إن المسح على الخفين مسوخ بسورة « المائدة » وقد
قال ابن عباس : ورد المسح أبو هريرة وعائشة ، وأنكره مالك في رواية عنه
فالجواب أن من نفى شيئا وأثبت غيره فلا حجة للنافي ، وقد أثبت المسح على
الخفين عدد كثير من الصحابة وغيرهم ، وقد قال الحسن : حدثني سبعون
رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم مسحوا على الخفين ؛ وقد
ثبت بالنقل الصحيح عن همام قال : بال حرير ثم توضأ ومسح على خفيه ؛
قال إبراهيم النخعي : وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح
على خفيه . وقال إبراهيم النخعي : كان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام
جرير كان بعد نزول « المائدة » وهذا نص يرد ما ذكروه وما احتجوا به من
رواية الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن جريرا أسلم في ستة عشر
من شهر رمضان ، وأن « المائدة » نزلت في ذى الحجة يوم عرفات ، وهذا
حديث لا يشت لوهاه ؛ وإنما نزل منها يوم عرفة « اليوم أكملت لكم دينكم »
على ما تقدم ؛ قال أحمد بن حنبل : أنا استحس حديث جرير في المسح
على الخفين ؛ لأن إسلامه كان بعد نزول « المائدة » ، وأما ما روى عن هريرة
وعائشة رضي الله عنهما فلا يصح ، أما عائشة فلم يكن عندها بذلك علم ؛
ولذلك ردت السائل إلى علي رضي الله تعالى عنه وأحواله عليه فقالت : سله =

= فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ؛ الحديث . وأما مالك فما روي عنه من الإنكار فهو منكر لا يصح ، والصحيح ما قاله عند موته لابن نافع قال : إني كنت آخذ في خاصة نفسي بالظهور ولا أرى من مسح مقصرا فيما يجب عليه . وعلى هذا حمل أحمد بن حنبل ما رواه ابن وهب عنه أنه قال : لا أمسح في حضر ولا سفر . قال أحمد : كما روي عن ابن عمر أنه أمرهم أن يمسحوا خفافهم وخلع هو وتوضأ وقال : حبيب إلى الوضوء ؛ ونحوه عن أبي أيوب . وقال أحمد رضي الله عنه : فمن ترك ذلك على نحو ما تركه ابن عمر وأبو أيوب ومالك لم أنكره عليه ، وصلينا خلفه ولم نعبه ، إلا أن يترك ذلك ولا يراه كما صنع أهل البدع ، فلا صبي خلفه . والله أعلم . وقد قيل : إن قوله : ﴿ وَأَزْجَلَكُمْ ﴾ معطوف على اللفظ دون المعنى ، وهذا أيضا يدل على الغسل فإن المراعى المعنى لا اللفظ ، وإنما حفص للجوار كما تفعل العرب ، وقد جاء هذا في القرآن وغيره قال الله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ [الرحمن : ٣٥] بالجر لأن الحاس الدحان . وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢﴾ ﴾ [البروج] بالجر .

قال أبو حاتم : كان الوجه القطر بالرفع ولكنه جره على جوار المور ؛ كما قالت العرب : هذا حجر ضب خرب ؛ فجروه وإنما هو رفع . وهذا مذهب الأخفش وأبي عبيدة ورده الحاس وقال : هذا القول غلط عظيم ؛ لأن -

(١) رواه مسلم [٢٧٦/٨٥] عن شريح بن هانئ قال : أتيت عائشة أسألها عن المسح على الخفين فقالت : عليك بابن أبي طالب فسله فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم ه ، وأحمد في المسند [٩٦/١ ، ١٢٠ ، ١٤٦] .

= الجوار لا يكون في الكلام أن يقاس عليه ، وإنما هو غلص ونظيره الإقواء . قلت والقاطع في الباب من أن فرض الرجلين العسل ما قدمناه ، وما ثبت من قوله عليه الصلاة والسلام : « ويل للأعقاب وبصون الأقدام من النار »^(١) مخوفنا بذكر النار عن مخالفة مراد الله عز وجل ، ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا من ترك الواجب ، ومعلوم أن المسح ليس شأنه الاستيعاب ولا خلاف بين القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما ، فتبين بهذا الحديث بطلان قول من قال بالمسح ، إذ لا مدخل لمسح : بطونهما عندهم ، وإنما ذلك درك بالغسل لا بالمسح . ودليل آخر من وجهة الإجماع ، وذلك أنهم اتفقوا على أن من غسل قدميه فقد أدى الواجب عليه ، واختلفوا فيما مسح قدميه ؛ فاليقين ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه . ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنه كان يغسل رجله في وضوئه مرة واثنين وثلاثا حتى ينقيهما ؛ وحسبك بهذا حجة في لعسل مع ما بيناه ، فقد وضع وظهر أن قراءة الحفظ المعني فيها الغسل لا المسح كما ذكرنا ، وأن العامل في قوله : « وأرجلكم » قوله : « فاغسلوا » والعرب قد تعطف الشيء على لشيء بفعل يتعذر به أحدهما تقول : أكلت الخبز واللبن أي وشربت اللبن . وقال ابن جرير الطبري : اختلف أهل التأويل في المرافق ، هل هي من اليد الواجب غسلها أم لا ؟ بعد إجماع جميعهم على أن غسل اليد إليها واجب . فقال مالك بن أنس وسئل عن قول الله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة : ٦] . أترى أن يحلف المرفقين في الوضوء ؟ قال : الذي أمر به أن يبلغ « المرفقين » ، قال تبارك وتعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ فذهب هذا يعسل حلقه ! فقل له . فإنما يغسل إلى المرفقين والكعبين =

(١) سبق تخريجه .

لا يجاوزهما ؟ فقال : لا أدري ما لا يجاورهما ؛ أما الذي أمر به أن يبلغ ، فهذه :
إلى المرفقين والكعبين . حدثنا يونس ، عن أشهب عنه . وقال الشافعي : لم
أعلم مخالفا في أن المرافق فيما يغسل كأنه يذهب إلى أن معها : ﴿ فَأَغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ .
وقال آخرون : إنما أوجب الله بقوله : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ غسل
اليدين إلى المرافق ، فالمرفقان غاية لما أوجب الله غسله من أحر اليد ، والغاية
غير داخلة في الحد ، كما غير داخل الليل فيما أوجب الله تعالى على عباده
من الصوم بقوله : ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ ﴾ [النقرة : ١٨٧] . لأن
الليل غاية لصوم الصائم ، إذا بلغه فقد قضى ما عليه . قالوا : فكذلك المرافق
في قوله : ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ غاية لما أوجب الله
غسله من اليد .

والصواب من القول في ذلك عندنا : أن غسل اليدين إلى المرفقين من الفرض
الذي إن تركه أو شيئا منه تارك لم تجزه الصلاة مع تركه غسله . فأما المرفقان
وما وراءهما ، فإن غسل ذلك من الندب الذي ندب إليه صلى الله عليه وسلم
أُمته بقوله : « أمتي اعر المحجلون من آثار الوضوء ، فمن استطاع مكم أن
يطيل عرته فليفعل » ^(١) فلا تفسد صلاة تارك غسلهما وغسل ما وراءهما ، لما
قد يسا قبل فيما مضى من أن لك غاية حدث بـ «إني» فقد تحتمل في كلام
العرب دخول الغاية في الحد وحروجها منه . وإذا احتمل الكلام ذلك لم يجز
لأحد القضاء بأنها داخلة فيه ، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بين وحكم ، -

(١) رواه أحمد في المسند [٣٣٤/٢] عن أبي هريرة بلفظ : « إن أمتي يوم القيامة هم
العر المحجلون من آثار الوضوء فمن استطاع مكم أن يطيل عرته فليفعل » وقال
الأرناؤوط : حديث صحيح .

= ولا حكم بأن المرافق داخلة فيما يجب غسله عندنا ممن يجب التسليم بحكمه .

وفي الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري : في كتاب الطهارة ، مباحث الوضوء ، فرائض الوضوء :

الفرض : معناه في اللغة القطع . والحر ، تقول فرضت الحبل : إذا قطعته ، وفرضت الخشبة إذا حرزتها ، ولم تكمل قطعها ، وأما معناه في الشرع فهو ما أثيب فاعله ، وعوقب تاركه ، ثم إن الفقهاء قد اصطَلَحُوا على الفرض مساو للركن ، فركن الشيء وفرضه شيء واحد ، وفرقوا بينهما وبين الشرط ، بأن الفرض أو الركن ما كان من حقيقة الشيء ، والشرط ما توقف عليه وجود الشيء ، ولم يكن من حقيقته ، مثلاً الصلاة من فرائضها التكبير ، والركوع ، والسجود ، الخ ، ومن شروط صحتها دخول الوقت ، فإذا صلى قبل الوقت فإنه يكون قد أتى بحقيقة الصلاة ، ولكنها تكون باطلة في نظر الشريعة ، لأنه شرط لها دخول الوقت ، كما ستعرفه في « مباحث الصلاة » .

وبعد : فإن فرائض الوضوء قد اختلفت في عددها أئمة المذاهب الأربعة ، ولكن الثابت بكتاب الله تعالى أربعة : أحدها : غسل الوجه ؛ ثانيها : غسل اليدين إلى المرفقين ؛ ثالثها : مسح الرأس كلاً ، أو بعضاً ، رابعها : غسل الرجلين إلى الكعبين ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ وهذا القدر متفق عليه بين الأئمة الأربعة ، ولم يختلفوا إلا في كيفية مسح الرأس ، فمهم من قال تمسح كلها ، ومهم من قال يمسح بعضها ؛ كما ستعرفه ؛ وقد راد بعض الأئمة فرائض على هذه الأربعة دون بعض ؛ فلندكر لك فرائض الوضوء مجتمعة في كل مذهب على حدة ، كي لا تتفرق المسائل ؛ فيتعذر تحصيلها ؛ ثم نبه على القدر المتفق عليه ؛ كما هو موضح ، تحت -

= الجدول الذي أمامك « الحنفية قالوا : إن فرائض الوضوء مقصورة على هذه الأربعة ، بحيث لو فعلها المكلف بدون زيادة عليها ، فإنه يكون متوضئاً ، تصح منه الصلاة وغيرها مما يتوقف على الوضوء ؛ كمس مصحف واستعلم حكم تارك السعة في « مبحث سنن الوضوء » .

واليك بيان فرائض الوضوء الأربعة عن الحنفية ، الأول : غسل الوجه ويتعلق به أمور : أحدها : بيان حده طولاً وعرضاً ، ثانيها : بيان ما يجب غسله مما ينبت عليه من شعر الدقن والشارب والحاجبين ؛ ثالثها : بيان ما يجب غسله من العينين ظاهراً وباطناً ؛ وما لا يجب ؛ رابعها بيان ما يجب غسله من طاقة الأنف ؛ فأما حد الوجه طولاً ، لمن لا لحية له فهو يبتدئ من منابت شعر الرأس المعتاد ؛ إلى منتهى الدقن ؛ ومنابت الشعر المعتاد من فوق الجبهة ويسمىها العامة - القورة - فالرجل العادي يبتدئ وجهه من أول الشعر النابت في نهاية جبهته ؛ وأما غير العادي فلا يخلو حاه ، إما أن يكون أصلع ؛ أو يكون أفرع بالفاء ، لا بالقف - فالأصلع هو الذي ذهب شعر رأسه من أمام ، حتى كأنه خفق بدون شعر ، وحكم هذا أنه لا يجب عليه أن يغسل كل ما ليس عليه شعر من الصلع ؛ وإنما يغسل القدر الذي ينبت عنده شعر الرأس غالباً ، وهو ما فوق الجبهة ييسير ، وأما الأفرع وهو الذي طاب شعره ؛ حتى نزل على جبهته ؛ وربما وصل عند بعض الناس إلى قرب حاجبيه ؛ ويعبر عنه بعضهم - بالأعم - فإن حكمه في ذلك كالأصلع ، بمعنى أنه يجب عليه غسل ما فوق الجبهة ييسير ؛ لأن غالب الناس ينبت شعر رأسهم في هذا المكان ، والمعول عليه في مثل هذا اتباع الغالب ، فمن شذ عن غالب الناس في الحقيقة ، فإنه لا يكف بغير تكليفهم أما حد الوجه عرضاً ، فإنه يبتدئ من أصل الأذن إلى أصل الأذن الأخرى ، ويعبر عنه بعضهم بوتر الأذن ، فالبياض الموجود بين الدقن وبين الأذن داخل في الوجه طبعاً ، فيجب غسله عندهم ، فهذا حد -

= الوجه عند الخنفيه طولاً وعرضاً . أما الشعر الثابت في الوجه ، فأهمه شعر اللحية ، وشعر الشارب ، فأما حكم شعر اللحية ، فإنه يجب أن يغسل منها ما كان على جلد الوجه من أعلاه إلى نهاية حلد الذقن ، وتسمى - البشرة - وما طال عن ذلك ، فإنه لا يجب غسله ، فالناس الذين يطيدون لحاهم لا يجب عليهم إلا غسل الشعر الذي على جلد الوجه ، والشعر الذي على ظاهر جلد الذقن ، أما ما عدا ذلك فإنه لا يجب غسله ، ثم إن كان الشعر خفيف يمكن أن ينفذ الماء منه إلى ظاهر جلد الوجه ، فبعضهم قال : إن كان كثيفاً غزيراً - لا يصل الماء إلى ما تحته من الخلد ، فإن الوضوء يبطل ، وبعضهم قال : لا يبطل الوضوء بذلك ، بل يكفي بغسل ظاهره كاللحية ، وهذا هو الذي عليه الفتوى في الوضوء ، أما في الغسل ، فإنه لا يغتفر ذلك ، بل يبطل الغسل إذا كان الشرب كثيفاً ، ولعل علة ذلك ، أن الشارع قد نهى عن إطالته ، لما يحمل من أقدار الطعام ونحوها ، فشدد في غسله ، كي لا يطيله الناس بدون أية فائدة .

هذا ، وبقي من الشعر الذي ينبت على الحاجبين ، وحكمه أنه إن كان خفيفاً يمكن أن ينفذ منه الماء إلى ظاهر الجلد ، فإنه يجب تحريكه ، كي ينفذ الماء إلى ما تحته ، وإن كان غزيراً ، فإنه لا يجب تخليله .
وأما الأنف ، فإنه يجب عليه غسل طاهرها كلها ، لأنها من الوجه . فإذا ترك جزءاً منها ، ولو صغيراً ، فسد وضوؤه ، ومن الأنف القطبعة الحاجزة بين طاقيها من أسفلها ، أما غسل باطن الأنف ، فإنه ليس بفرض عند الخنفيه ، نعم إذا كان بالوجه جرح أحدث أثراً غائراً ، فإنه يجب إيصال الماء إليه كما يجب إيصال الماء إلى ما بين تكاميش الوجه ، ويعبر عنها العامة - بالكرايمش - فيقولون : إن وجه فلان كرمش . هذا ، وإذا توضأ ثم حلق شعر لحيته ، أو شعر رأسه ، فإن وضوؤه لا يبطل ذلك .

لثاني : من فرائض الوضوء غسل اليدين مع المرفقين ، والمرفق عظم المفصل البارز في نهاية الذراع ، ويتعلق بهذا الفرض مباحث : أحدها : إذا كان للإنسان إصبع زائدة فإنه يجب غسله أما إذا كان له يد زائدة ، فإن كانت محاذية بيده الأصلية ، فإنه يجب عليه غسلها ، وإن كانت طويلة عنها ، فإنه يجب عليه أن يغسل منها المحاذي لليد الأصلية ، وأما الزائد عنها فلا يجب عليه غسله ، ولكنه يندب أن يغسله ، ثانيها : إذا لصق بيده ، أو بأصل ظفره طين أو عجين ، فإنه يجب عليه إزالته ، وإيصال الماء إلى أصل الطمر ، وإلا بطل وضوءه ، وأصل الظفر هو القدر الملتصق بلحم الإصبع ، فإن طال الظفر نفسه حتى خرج عن رأس الإصبع فإنه يجب غسله ، وإلا بطل الوضوء ، أما ما تحت الظفر من درن ووسخ ، فإن المفتي به أنه لا يضر ، سواء كان المتوضئ قاطناً بمدينة أو قرية ؛ دفعاً للمشقة والخرج ، ولكن بعض محققي الحنفية يرى ضرورة غسل الأوساخ اللاصقة بباطن الظفر من الأذى ، على أنهم اغتفروا للمخيار الذي تطول أظفاره ، فيبقى تحتها شيء من العجين لضرورة المهنة ، ولا يضر أثر الحناء ، وأثر الصبغة ؛ وأما نفس جرم الحناء المتجسد على اليد ، فإنه يضر ، لأنه يجمع من وصول الماء إلى البشرة ، ومن قطع بعض يده ، وجب عليه أن يغسل ما بقي ، وإذا قطع محل الفرض كله ، سقط لغسل ، الثالث : غسل الرجلين مع الكعبين ، وهما العظمان لبارزان في أسفل الساق ، فوق القدم ، ويجب عليه أن يتعهد عقبيه بالغسل بالماء ، كما يجب عليه أن يتعهد الشقوق التي تكون في باطن القدم ، فإذا قطع قدمه كله أو بعضه ، كان حكمه حكم قطع الذراع المتقدم ، وإذا دهس رجله ، أو ذراعيه ، ثم توصلاً فتقطع الماء ، ولم يقبله العضو بسبب الدسومة ، فإنه لا يضر ، وإذا كان برجله شق ، فوضع فيه مرهماً ، أو نحوه ، فإن كان يضره إيصال الماء إلى ما تحت -

= المرهم ، فإنه لا يحب عليه غسله ، وإلا وجب عليه أن يزرعه ، ويغسل ما تحته ، وإذا كان برجته شقوق - تقشف - ونحوه ، بحيث يضرها الغسل ، أو وضعها في الماء وإخراجها سريعاً بدون ذلك ، فإنه يسقط عنه فرص غسلها ، وعليه أن يمسحها بالماء ، فإن عجز عن مسحها سقط عنه المسح أيضاً ، فلا يحب عليه إلا غسل ما لا يتضرر من غسله ، الرابع : من فرائض الوضوء ، مسح ربيع الرأس ، ويقدر ربيع الرأس بكف ، فالواجب أن يمسح من رأسه بقدر الكف كلها ، فلو أصاب الماء كف يده ، ثم وضعها على رأسه ، من خلف ، أو أمام ، أو أي ناحية فإنه يجزئه ، على أنه لا يلزم أن يكون المسح بنفس الكف ، فلو أصاب الماء ربيع رأسه بأي سبب ، فإنه يكفي ويشترط للمسح باليد أن يكون بثلاث أصابع ، على الأقل ، لأجل أن يصيب الماء ربيع الرأس قبل أن يجف ، إذ لو مسح بأصبعين فقط ربما يجف الماء قبل تحريكهما ؛ لمسح باقي الربع ؛ فلا يصل الماء إلى القدر المطلوب مسحه ، فإذا مسح برؤوس الأصابع ، وكان الماء متقاطراً ، يمكن أن يصل إلى القدر المطلوب مسحه ، فإنه يصح ، وإلا فلا ، على أن لا يشترط أن يمشح رأسه بماء جديد ، فلو كانت يده مبلولة ، فإنه يجزئه ، ولا يحزئه أن يأخذ البلل من على عضو من أعضائه ، فلو غسل ذراعه ، وكانت يده جافة ، فأخذ البلل من على ذراعه ومسح به ، فإنه لا يكفي ؛ ومن كان شعر رأسه طويلاً نازلاً على جبهته ، أو عنقه ، فمسح عليه . فإنه لا يجزئه ، لأن الغرض هو أن يمسح نفس ربيع الرأس ، فإن كانت مخلوقة . فالأمر ظاهر ، وإن كان عليها شعر ، فإنه يجب عليه أن يمسح على الشعر الثابت في نفس الرأس ، فلا بد أن يكون الشعر الممسوح نابتاً على جزء من رأسه ، فإن كان بعض رأسه مخلوقاً ، وبعضها غير مخلوق ، فإنه يصح أن يمسح على الربع الذي يختاره ، وإذا مسح على الشعر ، ثم حلقه فإن =

= وضوءه لا يبطل ، وإذا أخذ قطعة من الثلج ، فمسح بها رأسه ، أجرأه ، وإذا غسل رأسه مع وجهه ، أجزأه عن المسح ، ولكنه يكره ، ولا يجوز المسح على العمامة وبحوهما إلا للمعذور ، كما لا يصح أن تمسح المرأة على ما يغطي رأسها من - مندبل ، أو طرحة - أو نحو ذلك ، إلا إذا كان حفيفاً ، ينفذ منه الماء إلى الشعر ، وإذا كان على رأسها خضاب - حناء ، أو صبغ - فمسحت عليه ، فإذا تلون الماء بلون الصبغ ، وخرج عن حكم الماء المتقدم ، فإنه لا يصح ، وإلا جاز .

فهذه هي فرائض الوضوء عند الحنفية ، وما عداها ، فإنه سنة .

والمالكية قالوا : فرائض الوضوء سبعة :

المرض الأول : النية ، ويتعلق بها مباحث :

١ - تعريفها وكيفيتها . ٢ - زمنها ، ومحلها .

٣ - شروطها . ٤ - مبطلاتها .

فأما تعريفها ، وكيفيتها ، فهي قصد الفعل ، وإرادته ، فمن قصد فعل أمر من الأمور ، فإنه يقال له : نوى ذلك الفعل ، وكيفيتها في الوضوء هي أن يريد المحدث استباحة ما منعه المحدث الأصغر ، أو يقصد أداء فرض الوضوء ، أو يقصد رفع الحدث ، وظاهر أن محل القصد إنما هو القلب ، فمتى قصد الوضوء بكيفية من الكيفيات المذكورة ، فقد نواه ، ولا يشترط أن يتلفظ بلسانه ، كما لا يشترط استحضار النية ، إلى آخر الوضوء ، فلو ذهل عنها في أثنائه ، فإنها لا تبطل ، وأما ركن النية فهو في أول الوضوء ، فلو غسل بعض الأعضاء بدون نية ، فإن وضوءه يبطل ، ويغتفر تقدمها على الفعل بر من يسير عرفاً ، فلو جلس للوضوء ونواه ، ثم جاء الخادم بإبريق ، وصب عليه يديه ، ولم يوب بعد ذلك ، فإن وضوءه يصح ؛ لأنه لم يفصل بين وضوئه ، وبين =

= النية فاصل كثير ، وقد عرفت أن محلها القلب ، وأما شروطها فهي ثلاثة : الإسلام ؛ التمييز ؛ الجزم ، فإذا نوى غير المسلم فعل عبادة من العبادات ، فإن نيته لا تصح ، وكذا إذا نوى الصغير الذي لا يميز التكليف الدينية ، ولا يعرف معنى الإسلام ، ومثله المجنون ، أما الصبي المميز ، فإن نيته تصح وكذا إذا تردد في النية ، فإنها لا تصح فإذا قال في نفسه : نويت الوضوء إن كسب قد أحدث ، فإن نيته لا تصح ، بل لا بد من الجزم بالنية ؛ وأما ما يبطل النية ، فهو أن يرفضها أثناء وضوئه بمعنى أنه ينوي إبطال الوضوء ، وعدم الاعتداد به ، أما إذا رفضها بعد تمام الوضوء ، فإنه لا يضر ؛ لأن الوضوء بعد تمامه يقع صحيحاً ، فلا يبطله إلا ما ينقضه من النواقض الآتي بيانها .

الفرض الثاني : من فرائض الوضوء غسل الوجه ، وحد الوجه طولاً وعرضاً ، هو الحد الذي ذكره الحنفية ، إلا أن المالكية قالوا : إن البياض الذي فوق وتدي الأذنين المتصل بالرأس من أعلى لا يجب غسله ، بل مسحه ؛ لأنه من الرأس لا من الوجه ، ومثله شعر الصدغين ، فإنه من الرأس لا من الوجه ، أما الحنفية فإنهم يقولون : إنه من الوجه ، فغسله فرض لا بد منه .

الفرض الثالث : غسل اليدين مع المرفقين ، ويحب عندهم ما يجب عند الحنفية من غسل تكاميش الأنامل ، وغسل ما تحت الأظافر الطويلة ، التي تستر رؤوس الأنامل ، ويقولون : إن وسخ الأظفار يعفى عنه ، إلا إذا تفاحش وكثر .

الفرض الرابع : مسح جميع الرأس ، ويبتدئ حد الرأس من منابت شعر الرأس المعتاد من الأمام ، وينتهي إلى نقرة القف من الخلف ، ويدخل فيه شعر الصدغين ، والبياض الذي حلقه فوق وتدي الأذنين ، كذلك يدخل البياض الذي فوق الأذنين المتصل بالرأس ، وإذا طال شعر الرأس كثيراً ، أو قليلاً ، =

فإنه يجب مسحه عندهم ، وإذا ضفر أحد شعره ، فإنه يجب عليه أن ينقضه عندهم ، بشرط أن يصفره بثلاثة خيوط . أما إذا ضفره بخيطين فأقل ، فإن كان تضفيره شديداً ، فإنه يجب نقضه ، وإن كان خفيفاً ، فإنه لا يضر ، وكذا لا يضر إذا ضفر الشعر بلا حيط ، سواء شفره بشدة أو لا . فالشرط في نقض الشعر عند المسح أن يضفره بخيوط . كما يفعل بعض أهل القرى . أما ما هو متعارف عند جمهور المصريين من جمع الشعر بعير تضفير . فإنه لا يضر . كما لا يضر تضفيره بغير حيط . وقد عرفت أن مذهب الحنفية أنه يكفي بمسح ربع الرأس مطلقاً . وسيأتي مذهب الشافعية . وفيه سعة أكثر من ذلك . فإنه يكفي عندهم بمسح أي جزء . قليلاً كان أو كثيراً ، وإذا غسل رأسه فإنه يكفيه عن مسحها ، لا أنه مكروه ؛ لأن الله أمر بالمسح لا بالغسل ، وإن مسح شعر رأسه ثم أزاله فإنه لا يجب عليه تجديد المسح . حتى ولو كشط الجلد بعد المسح ، وهذا متفق عليه أما ظاهر الأذنين فإنه لا يجب مسحهما لأنهما ليستا من الرأس . وهذا متفق عليه إلا سنة الحنابلة فإنهم قالوا : إنهما من الرأس كما ستعرف في مذهبهم .

الفرض الخامس : غسل الرجلين مع الكعبين . وقد عرفت مما ذكر في مذهب الحنفية أن الكعبين هما العظمان البارزان في أسفل ساق الرجل فوق القدم . ويجب عليه أن يغسل الشقوق التي في باطن قدمه وظاهره كما في مذهب الحنفية . وإذا قطع محل الفرض كله سقط التكليف كما تقدم عند الحنفية .

مبحث بيان عدد السنن وغيرها من مندوبات ، ونحوها

عرفت أن المذاهب مختلفة في بيان السنن ، والمندوب ، والمستحب ، والفضيلة ، وعرفت أن بعض الأئمة يعتبر السنة . والمندوب ، والمستحب ، والتطوع كلها ألفاظ مترادفة بمعنى واحد ، وبعضهم يفرق بين هذه الألفاظ ، فلذا سنذكر لك تحت الخط الذي أمامك تفصيل كل مذهب على حدة :

- الحنفية قالوا : سنن الوضوء منها ما هو مؤكد يثاب على فعله ، ويعاقب على تركه ، كالواجب ، وعرفت أنهم يفرقون بين الفرض والواجب ، فسنن الوضوء المؤكدة أمور : منها التسمية ، وهي سنة لازمة ، سواء كان المتوضئ مستيقظاً من نوم أو لا ، ومحلها عند الشروع في الوضوء ، حتى لو نسيها ثم ذكرها بعد غسل بعض الأعضاء فسمى ، لا يكون آتياً بالسنة ، على أنه إذا نسيها ، فإنه يأتي بها متى ذكرها قبل الفراغ من الوضوء ، كي لا يخلو الوضوء عنها ، وله أن يسمي قبل الاستنجاء وبعده ، بشرط أن لا يسمي في حال الانكشاف ، ولا في محل النجاسة ، كما سيأتي في « مباحث الاستنجاء » .

والتسمية المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أن يقول : « بسم الله العظيم ، والحمد لله على دين الإسلام » ، ولو قال في ابتداء الوضوء : لا إله إلا الله ، أو قال : الحمد لله ، أو قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقد أتى بالسنة ، ومنها غسل اليدين إلى الرسغين ، والرسغ معروف ، وهو النقرة المتوسطة في ظاهر الكف ، بين الإصبع الوسطى ، والإصبع التي قبها ، وبعض الحنفية يرى أن غسل اليدين إلى الرسعين ثلاث مرات قبل وضعها في الإناء فرص ، تقديمه على باقي أعمال الوضوء سنة ، وفي كيفية غسل اليدين الآية تفصيل ، وذلك لأنه لا يخلو إما أن يكون الإناء مفتوحاً - كالخلة ، والصحن - أو يكون مضموماً - كالإبريق - فإن كان إبريقاً فيستحب أن يمسكه بيده اليسرى ، ويصب الماء على يده اليمنى ثلاث مرات ثم يمسكه بيده اليمنى ويصب على يده اليسرى ثلاث مرات ، وإن كان مفتوحاً ، فإن كان معه كوز ونحوه ، اعترف به وصب على يده اليسرى ثلاث مرات ، ثم على يده اليمنى بالصفة التي ذكرت ، وإن لم يكن معه إناء صغير يغترف به ، فيستحب أن =

- يدخل في الماء أصابع يده اليسرى مضمومة ، دون الكف ، كي تعرف بها الماء وكيفية ذلك أن يضم أصابع اليد إلى بعضها ، واليد مفتوحة ، إلا أنه يقوسها قليلاً ، كي لا ينزل الماء منها ، ولا يدخل كفه في الماء ، فإن أدخل كفه كلها في الماء ، كان الماء الملاقى للكف مستعملاً ، لما عرفت أنه ماء قليل ، إلا إذا غلب على ظن المتوضئ أن الملاقى للكف لا يساوي نصف الماء الذي اعترف منه ، فإذا أراد المتوضئ أن يصع يده في الماء القليل ويبقى على حاله طهوراً غير مستعمل ، فعليه أن ينوي الاغتراف من هذا الماء ، دون الغسل ، بمعنى أن يقول في نفسه : نويت أن أغترف من هذا الماء ، ثم يغسل به العضو الذي يريد غسله ، وبذلك لا يستعمل الماء ؛ لأنه إنما يستعمل إذا نوى أن يتوصاً به من أول الأمر ؛ لأنك قد عرفت فيما مضى أن الماء لا يستعمل إلا إذا أريد باستعماله العبادة .

هذا كله إذا لم يكن على يده نجاسة محققة ، فإن كانت على يده نجاسة ، ووضعها في الماء فإنه يتنجس ، سواء نوى الاغتراف أم لم ينو ، فإن عجز عن أخذ الماء من الإناء بكوز ، أو بمندين طاهر أو نحوهما ، فإنه يمكنه أن يأخذه بضمه ، ويعسل المحاسة ، فإن عجز ، ولم يجد غيره تركه وتيمم ، ولا إعادة عليه ، ومنها المضمضة ، ولاستنشاق ، وهما ستان مؤكدتان عند الحنفية ، بمعنى الواجب ، فتركهما إثم ، ولا يلزم أن يأخذ لكل مرة ماء ، بل إذا أخذ الماء بكفه ، فتمضمض ببعضه ، واستنشق بالباقي ، فإنه لا يجور ، أما إذا وضع الماء في كفه ، ثم استنشق به ، وأعادته ثانياً إلى كفه ، وتمضمض به بعد ذلك ، فإنه لا يجور ، ثم إن المضمضة هي عبارة عن أن يعسل جميع فمه بالماء ، ويكفي وضع الماء في فمه بدون تحريك ، ولو وضع الماء في فمه ولم يطرحه ، بل شربه ، فإنه يجزئه في السنة ، بشرط أن يملاً الفم ثلاث مرات ، =

- أما إذا امتص الماء مصاً ، فإنه لا يجريه ، وأما الاستنشاق فهو جذب الماء بنفسه إلى داخل أنفه ، بحيث يصل الماء إلى مارن الأنف ، وهو نهاية العظمة اللينة ، أما ما فوق ذلك فإنه لا يسن إصصال الماء إليه ، كما لا يسن جذب الماء إلى الداخل بالتنفس ، وتسبب المبالغة في المضمضة ، والاستنشاق لغير الصائم ، وتكره له ، كي لا يفسد صومه ، وقد عرفت أن لسنة أن تكون المضمضة ثلاثاً ، والاستنشاق ثلاثاً ، وكيفية الاستنشاق أن يضع الماء في أنفه بيده اليمنى ، ويتمخط بيده اليسرى ، ويعبر المالكية عن هذه الحالة بالاستنشاق ، يعدونه من السنن المؤكدة ، كما ستعرفه عندهم ، ومنها تخليل أصابع اليدين والرجلين والتخليل عبارة عن إدخال بعض الأصابع في بعض بماء متقاطر ، وهو سنة مؤكدة ، بلا خلاف ومحل كونه سنة إذ وصل الماء إلى داخلها ، وهي مضمومة ، وإلا كان تحليلها وجاً وكيفية التحليل في اليدين أن يشبك أصابعه ببعضها ، وفي الرجلين أن يخل بخصر يده اليسرى بخصر رجله اليمنى ، وهكذا حتى يحتم بخصر رجله اليسرى ، وهذه الكيفية هي الأولى ، وله أن يخلل بأي كيفية ، ومنها تكرار الغسل ثلاث مرات ، فغسل العضو وتعميمه كله بالماء مرة واحدة فرض والغسلة الثانية ، والغسلة الثالثة ستان مؤكدتان على الصحيح ، ويشترط في الغسلة الأولى المفروضة أن يسيل الماء على العضو ، ويتقاطر منه قطرات ، فو غسل العضو مرة ، ولم يعمه الماء كله ، ثم غسله بالماء ثانية ، وثالثة حتى عمه الماء بالغسلة الثالثة ، فإنه يسقط عنه الفرض ، ولا يكون أتياً بالسنة ، ومن السنن المؤكدة مسح جميع الرأس ، فلو اقتصر على مسح الجزء المفروض مسحه ، وتكرر ذلك منه ، فإنه يأثم وكيفية مسح الرأس أن يصع أصابعه على مقدم رأسه ، ثم يمر بهما على جميع رأسه إلى قفاه - بحيث يستوعب كل الرأس ، ثم إن بقي بيده بلل ، فإنه يسن له -

= أن يسرد مسح الرأس ، وإلا فلا ، كما يقول المالكية ، ومنها مسح الأذنين ، وكيفيته أن يمسح باطن الأذنين ، ومؤخرهما بالماء الذي يمسح به رأسه ، وإذا أخذ لهما ماء جديداً كان حسناً ، ورجح بعض الحنفية مسحهما بدءاً جديداً ، ومحل هذا ما إذا بقي على كفه ماء بعد مسح الرأس ، أما إذا جف الماء ، فإنه ينبغي أن يأخذ لها ماء جديداً ، ويمسح ظاهر الأذنين بباطن الإبهامين ، ويمسح باطن الأذنين بالسبابتين ، وهما الإصبعان اللذان يقعان بعد الإبهامين ، ومنها النية ، وكيفيتها أن ينوي في نفسه رفع الحدث ، أو ينوي الوضوء ، أو ينوي الطهارة ، أو ينوي استباحة الصلاة ، والأفضل أن يقول : نويت أن أتوضأ للصلاة تقرباً إلى الله تعالى ، أو يقول : نويت رفع الحدث ، أو نويت الطهارة ، أو نويت استباحة الصلاة والتلفظ بذلك مستحب ، لما عرفت من أن محل النية إنما هو القلب ، وأما وقت النية فهو عند غسل الوجه .

وهذا ، وقد عد بعض الحنفية النية من المستحبات لا من السنن المؤكدة ، ولكن الصحيح أنها سنة ، ومنها الترتيب ، وهو أن يبدأ الفرائض بغسل الوجه ، ثم يغسل اليدين إلى المرفقين ثم يمسح ربع الرأس ، ثم يغسل الرجلين إلى الكعبين . كما ذكر الله تعالى في قوله : ﴿ فَاقْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] والترتيب من السنن المؤكدة على الصحيح ، وعدّه بعض الحنفية من المستحبات ، ومنها الفور . ويعبر عنه بالموالاة ، وهي التتابع ، وحد الفور هو أن لا يحف الماء عن العضو قبل أن يغسل العضو الذي بعده ، بشرط أن لا يكون الزمن معتدلاً ، فإن كان شديد الحرارة ، أو شديد البرودة . فإنه لا يعتبر جفافه بسرعة على أن محل كون الفور سنة إذا لم يكن هناك عذر ، فإن مرغ ماء الوضوء بعد غسل الوجه مثلاً ، ثم انتظر الماء ، فجف الماء من عليه قبل أن يجيء الماء ، فلا بأس بذلك ، وقد عرفت حكم الفور في فرائض الوضوء ، عمد المالكية ، وغيرهم =

- ومن السنن المؤكدة السواك ، ولا يشترط أن يكون من شجر الأراك المعروف ، بل الأفضل أن يكون من أشجار مرة ، لأنه يساعد على تطيب الفم ، وله فوائد معروفة ، فهو يقوي اللثة ، ويظف الأسنان ، ويقوي المعدة ، كي لا يصل إليها شيء من أدران الفم ، والأفضل أن يكون رطباً ، وأن يكون في غلط الخنصر ، وطول الشبر ، فإذا لم يجد سواكاً فإنه الفرشة تقوم مقامه ، وإذا لم يجدها استاك بإصبعه ، ويقوم مقام السواك العلك - اللبان - فإذا وجد لسواك ؛ فيندب أن يمسه يمينه ، ويحعل الخنصر أسفله ، والإبهام أسفل رأس السواك ، وباقي الأصابع فوقه ، ووقت الاستياك هو وقت المضمضة ، وإذا كان لا يطيقه ؛ فإنه يتركه للضرورة ؛ ويكره أن يستاك وهو مضطجع .

هذا .. وقد اختلف في أشياء : منها أن يأخذ الإناء يمينه عند غسل الرجلين ، فيصب على مقدم رحله اليمنى ، ويدلكه بيساره ، فيغسلها ثلاثاً ، ثم يفيض الماء على مقدم رحله اليسرى ؛ ويدلكه كذلك ، ومنها أن يبدأ من رؤوس الأصابع في اليدين والرجلين ، ومنها أن يبدأ بمقدم الرأس في المسح ، ومنها الترتيب في المضمضة ، والاستنشاق ، فيقدم ، المضمضة على الاستنشاق ، ومنها المبالغة في المضمضة والاستنشاق ؛ عدا أن يكون صائماً ، فتكره المبالغة ، كما تقدم ، ومنها أن يضع الماء في أنفه ويجذبه بنفسه حتى يصل إلى أعلى الأنف ، ومنها عدم الإسراف في الماء إذا كان يعتقد أن ما زاد عن الثلاث مطلوب منه في الوضوء ؛ وإلا كان عدم الإسراف مدوباً لا سنة ، ومنها إعادة غسل اليدين مع غسل الذراعين إلى المرفقين ، فعسل اليدين أولاً سنة ، ثم إعادة غسلهما مع الذراعين ستة أخرى ، فلو غسل يديه أولاً ، ثم غسل وجهه ، وغسل ذراعيه من كوع يده إلى المرفقين ، فقد جاء بالفرض ، وترك السنة ، فهذه سنن الوضوء عند الحنفية .

= المالكية قالوا : سنن الوضوء المؤكدة التي يثاب المكلف على فعلها ، ولا يعاقب على تركها هي . أولاً : غسل اليدين إلى الرسغين ، والرسغ - مفصل الكف - وكيفية غسل اليدين : تتبع الماء قلة وكثرة ، فإن كان الماء قليلاً ، هو ما لا يزيد عن صاع ، كما تقدم في « مباحث المياه » ولم يكن جارياً ، فإن أمكن الإفراغ منه الصفحة ، فلا تحصل السنة إلا بغسلهما قبل إدخالهما فيه ، ولو كانتا طاهرتين ونظيفتين ، فإن أدخلهما في الإناء قبل غسلهما في هذه الحالة ، أو أدخل إحدهما فعل مكروهاً ، وفاته سنة الغسل ، وإن كان الماء كثيراً ؛ أو جارياً ، فإن السنة تحصل بغسلهما مطلقاً ، سواء كان الغسل داخل الماء ، أو خارجه . أما إذا كان الماء قليلاً ، ولا يمكن الإفراغ منه ، كالحوض الصغير ، فإن كانت يداه نظيفتين أو عليهما وساخة ، لا يتغير الماء بهما إذا أدخلهما فيه ، فإنه يغترف بيديه ، أو إحدهما ، ويعسل خارجه ، وتحصل السنة بذلك ، فإن كانت يداه غير نظيفتين ، وخاف تغير الماء بإدخالهما فيه ، احتال على الأخذ منه بفمه ، أو بخرقة نظيفة ، فإن لم يكن ذلك ، تركه وتيمم ، إن لم يجد غيره ؛ ثانياً : المضمضة ، وهي إدخال الماء في الفم وطرحه ، فلو دخل الماء فمه بدون قصد ، أو أدخله ولم يحركه ، أو أدخله وحركه ، ولم يطرحه ، بأن ابتلعه ، فإنه لا يكون آتياً بالسنة ، وفي ذلك مخالفة للحنفية الذين قالوا : إن السنة تحصل بدخول الماء ولو لم يطرحه أو يحركه ؛ ثالثاً : الاستنشاق ، وهو جذب الماء بنفسه إلى داخل أنفه ، ولا تحصل السنة عندهم إلا بجذبه بالنفس ، خلافاً للحنفية ، رابعاً : الاستنثار وهو طرح الماء من الأنف بالنفس ، بأن يضع إصبعيه السبابة ، والإبهام من يده اليسرى ، على أعلى ما رن أنفه ، عند إنزال الماء منها ، وإذا كان بأنفه قدرة متحمدة من مخاط وغيره ، أخرجها بخنصر يده اليسرى ، خامساً : مسح الأذنين ظاهراً وباطناً =

= ويدخل في ذلك صمغ الأذنين ؛ سادساً : تجديد الماء لمسح الأذنين فلا يكفي في السنة أن يمسح بالبلل الباقي من مسح الرأس ، خلافاً للحنفية ، والأفضل في كيفية المسح عندهم أن يدخل أطراف سبابته في صماخي الأذنين - داخل الأذن - ويضع إبهاميه حلقهما ، ويثنى إصبعيه السبابة والإبهام ، ويدبرهما حتى يتم مسحهما ، ظاهراً وباطناً ، وإذا مسحهما بأي كيفية أخرى أجزأه ، إنما المطلوب تعميمهما بالمسح ، سابعاً : الترتيب بين أعضاء الوضوء ، بأن يقدم الوجه على اليدين ، واليدان على الرأس ، والرأس على الرجلين ، كما قال الحنفية ؛ ثامناً : مسح الرأس إن بقي بيده بلل من المسحة الأولى ، وإلا فلا يسن ؛ تاسعاً : تحريك خاتمه الذي يصل الماء إلى ما تحته ، وللمالكية في هذا تفصيل حسن ، وذلك لأنهم قالوا : إن الخاتم إما أن يكون لبسه مباحاً ، أو حراماً ، أو مكروهاً ، فإن كان مباحاً - وهو للرجل ما كان فضة ، وكان وزنه لا يزيد عن درهمين ، وكان واحداً غير متعدد ، فإنه لا يجب تحريكه سواء كان ضيقاً أو واسعاً ، وسواء وصل الماء إلى ما تحته أو لم يصل ، وهذا الحكم عام في الوضوء والغسل ، على أنه إن نزع بعد تمام وضوئه أو غسله ، فإنه يجب عليه غسل ما تحته إن كان ضيقاً ، وظن أن الماء لم يصل إلى ما تحته ؛ أما إذا كان حراماً - وهو ما اتخذ من ذهب ، أو من فضة تزيد على درهمين ، أو كان متعدداً ، كأن لبس خاتمين ، أو أكثر - فإن كان واسعاً أجزأه تحريكه ، ولا يفترض عليه ذلك ما تحته بيده ، بل يكفي بذلك ما تحته بالخاتم نفسه ، أما إن كان ضيقاً ، فإنه يجب نقله من محله حتى يتمكن من ذلك ما تحته ؛ ومثل المحرم في ذلك الحكم الخاتم المكروه ، وهو ما كان من نحاس ، أو رصاص ، أو حديد .

هذا في الرجل ، أما المرأة فإنه يباح لها أن تلبس ما شاءت من حلي . سواء كان متخذاً من ذهب أو غيره . فإذا لبست أساور أو حلائل فلا يجب =

= عليها تحريكها وإن لم يصل الماء إلى ما تحتها سواء كانت ضيقة أو وسعة . لا أنها إذا نزعته بعد تمام الوضوء أو الغسل فإنها يجب عليها غسل ما تحتها إن كانت ضيقة . وظنت عدم وصول الماء إليه .
وقال ابن رشد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد في كتاب الطهارة من الحدث ، كتاب الوضوء :

فأما الدليل على وجوبها فالكتاب والسنة والإجماع . أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الْدِّينُ ءَامِنًا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ الآية . فإنه اتفق المسلمون على أن امثال هذا الخطاب واجب على كل من لزمته الصلاة إذا دخل وقتها . وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله صلاة بغير صهور ولا صدقة من غلول »^(١) وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله صلاة من أحدث حتى يتوضأ »^(٢) وهذان الحديثان ثابتان عند أئمة النقل . وأما الإجماع ، فإنه لم ينقل عن أحد من المسلمين في ذلك خلاف ، ولو كان هناك خلاف لنقل ، إذ العادة تقتضي ذلك . وأما من تجب عليه فهو البالغ العاقل ، وذلك أيضا ثابت بالسنة =

(١) رواه مسلم [٢٢٤] عن مصعب بن سعد قال : دخل عبد الله بن عمر على ابن عامر يعودوه وهو مريض فقال : ألا تدعو الله لي يا ابن عمر ؟ قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » . والبيهقي في السنن الكبرى [٧٦٢٩] والنسائي في السنن الكبرى [٧٩] وأبو داود [٥٩] والترمذي [١] وابن ماجه [٢٧١، ٢٧٢] وأحمد في المسند [٧٣، ٥٧، ٥١/٢] .

(٢) رواه البخاري [١٣٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، ومسلم [٢/٢٢٥] وأحمد في المسند [٣٠٨/٢] والترمذي [٣٣٠] .

= والإجماع . أما السنة فقولہ علیہ الصلاة والسلام : ﴿ رفع القلم عن ثلاث ، فذكر : الصبي حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفیق ﴾^(١) وأما الإجماع ، فإنه لم يقل في ذلك خلاف ، واختلف الفقهاء هل من شرط وجوبها الإسلام أم لا ؟ وهي مسألة قليلة الغناء في المقه ؛ لأنها راجعة إلى الحكم الأخروي . وأما متى تجب فإذا دخل وقت الصلاة ، أو أراد الإنسان الفعل الذي الوضوء شرط فيه ، وإن لم يكن ذلك متعلقا بوقت ، أما وجوبه عند دخول وقت الصلاة على المحدث فلا خلاف فيه لقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية ، فأوجب الوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ومن شروط الصلاة دخول الوقت ، وأما دليل وجوبه عند إرادة الأفعال التي هو شرط فيها فسيأتي ذلك عند ذكر الأشياء التي يفعل الوضوء من أجلها واختلاف الناس في ذلك .

وأما معرفة فعل الوضوء فالأصل فيه ما ورد من صفته في قوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ . وما ورد من ذلك أيضا في صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم في الآثار الثابتة ، ويتعلق بذلك مسائل اثنتا عشرة مشهورة تجري مجرى الأمهات ، وهي راجعة إلى معرفة الشروط والأركان وصفة الأفعال وأعدادها وتعيينها وتحديد محال أنواع أحكام جميع ذلك .

المسألة الخامسة من التحديد :

اتفق العلماء على أن غسل اليدين والذراعين من فروض الوضوء لقوله تعالى : ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ واحتلوا في إدخال المرافق فيها ؛ فذهب الجمهور =

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [٨٠٩١] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، وأحمد في المسند [١٠١/٦] عن عائشة رضى الله تعالى عنها . وقال الأرناؤوط : إسناده جيد .

= ومالك والشافعي وأبو حنيفة إلى وجوب إدخالها ، وذهب بعض أهل الظاهر وبعض متأخري أصحاب مالك والطبري إلى أنه لا يجب إدخالها في الغسل ؛ والسبب في اختلافهم في ذلك الاشتراك الذي في حرف إلى ، وفي اسم اليد في كلام العرب وذلك أن حرف إلى مرة يدل في كلام العرب على الغاية ، ومرة يكون بمعنى مع ، واليد أيضا في كلام العرب تطلق على ثلاثة معان على الكف فقط ، وعلى الكف والذراع ، وعلى الكف والذراع والعضد ، فمن جعل « إلى » بمعنى مع « ها في ساحة فاس بمعنى من » ، أو فهم من اليد مجموع الثلاثة الأجزاء أوجب دخولها في الغسل « فيها هنا زيادة لأن إلى عنده تكون بمعنى من ومبدأ الشيء من الشيء » ، ومن فهم من « إلى » الغاية ومن اليد ما دون المرفق ولم يكن الحد عنده داحلا في المحدود لم يدخلهما في الغسل ، وخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم اليسرى كذلك ، ثم غسل رجليه اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل اليسرى كذلك ، ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ^(١) . وهو حجة لقول من أوجب إدخالها في الغسل ؛ لأنه إذا تردد اللفظ بين المعنيين على السواء وجب أن لا يصر إلى أحد المعنيين إلا بدليل ، وإن كانت « إلى » في كلام العرب أظهر في معنى الغاية منها في معنى مع ، وكذلك اسم اليد أظهر فيما دون العضد منه فيما فوق العضد ، فقول من لم يدخلها من جهة الدلالة اللفظية أرجح ، وقول من أدخلها من جهة هذا الأثر آيين ، إلا أن يحمل هذا الأثر على الندب ، والمسألة محتملة كما نرى ، وقد قال قوم : إن العاية إذا كانت من جنس ذي العاية دخلت فيه ، وإن لم تكن من جنسه لم تدخل فيه .

(١) رواه مسلم [٣٤/٢٤٦] .

= وقال في الباب الأول في معرفة الطهارة التي هذه الطهارة بدل منها :

اتفق العلماء على أن هذه الطهارة هي بدل من الطهارة الصغرى ، واحتلفوا في الكبرى ، فروى عن عمر وابن مسعود أنهما كانا لا يريانها بدلا من الكبرى ، وكان علي وغيره من الصحابة يرون أن التيمم يكون بدلا من الطهارة الكبرى ، وبه قال عامة الفقهاء . والسبب في اختلافهم الاحتمال الوارد في آية التيمم ، وأنه لم تصح عندهم الآثار الواردة بالتيمم للجنب ، أما الاحتمال الوارد في الآية فلأن قوله تعالى ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ يحتمل أن يعود الضمير الذي فيه على المحدث حدثا أصغر فقط ، ويحتمل أن يعود عليهما معا ، لكن من كانت الملامسة عنده في الآية الجماع فالأظهر أنه عائد عليهما معا ، ومن كانت الملامسة عنده هي اللمس باليد ، أعني قوله تعالى ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ فالأظهر أنه إنما يعود الضمير عنده على المحدث حدثا أصغر فقط ، إذ كانت الضمائر إنما يحمل أبدا عودها على أقرب مذكور إلا أن يقدر في الآية تقديم وتأخيرا حتى يكون تقديرها هكذا ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ . ومثل هذا ليس ينبغي أن يصار إليه إلا بـ ' إلى ' ، فإن التقديم والتأخير مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ، وقد يظن أن في الآية شيئا يقتضي تقديم وتأخيرا ، وهو أن حملها على ترتيبها يوحيب أن المرض والسفر حدثان ، لكن هذا لا يحتاج إليه إذا قدرت أو ههنا بمعنى الواو ، وذلك موجود في كلام العرب في مثل قول الشاعر :

وكان سيان أن لا يسرحوا بها أو يسرحوه بها واغبرت السرح =

= فإنه إنما يقال : سبان زيد وعمرو . وهذا هو أحد الأسباب التي أوجبت الخلاف في هذه المسألة . وأما ارتياهم في الآثار التي وردت في هذا المعنى فبين مما أخرجه البخاري ومسلم : أن رجلاً أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : أجنبني فلم أجد الماء ، فقال : لا تصل ، فقال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد الماء ، فأما أنت فلم تصل ، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما كان يكفيك أن تضرب بيدك ثم تنفخ فيهما ثم تمسح بهما وجهك وكفيك ، فقال عمر : اتق الله يا عمار ، فقال : إن شئت لم أحدث به »^(١) وفي بعض الروايات : أنه قال له عمر : « نوليك ما توليت »^(٢) ، وخرج مسلم عن شقيق قال : كنت جالسا مع عبد الله بن مسعود وأبي موسى فقال أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن أرأيت لو أن رجلاً أجنب فلم يجد الماء شهرا كيف يصنع بالصلاة ؟ فقال عبد الله لأبي موسى : لا يتيمم وإن لم يجد الماء شهرا ، فقال أبو موسى : فكيف بهذه الآية في سورة المائدة ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فقال عبد الله : لو رخص لهم في هذه الآية لأوشك إذا برد عليهم الماء أن يتيمموا بالصعيد ، فقال أبو موسى لعبد الله ألم نسمع لقول عمار ؟ وذكر له الحديث المتقدم ، فقال له عبد الله : أولم تر عمر لم يقنع بقول عمار^(٣) لكن الجمهور رأوا أن ذلك قد ثبت من حديث عمار وعمران ابن الحصين ، خرجهما البخاري ، وإن نسيان عمر ليس مؤثرا في وجوب =

(١) رواه مسلم [٣٦٨/١١٠] وأحمد في المسند [٢٦٥/٤] عن عبد الرحمن بن أبيز عن أبيه رضي الله تعالى عنهما .

(٢) رواه مسلم [٣٦٨/١١٢] .

(٣) رواه البخاري [٣٤٠] ومسلم [٣٦٨/١١٠] .

= العمل بحديث عمار ، وأيضا فإنهم استدلوا بجواز التيمم للجنب والحائض بعموم قوله عليه الصلاة والسلام . « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا »^(١) .
وأما حديث عمران بن الحصين فهو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا معتزلا لم يصل مع القوم فقال : « يا فلان أما يكفيك أن تصلي مع القوم ؟ » فقال : يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عليك بالصعيد فإنه يكفيك »^(٢) ولموضع هذا الاحتمال اختلفوا : هل لمن ليس عنده ماء أن يطاأ أهله أم لا يطؤها ؟ أعني من يجزئ للجنب التيمم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الوضوء شطر الإيمان »^(٣) أي شرط جواز الصلاة لأن الشطر في الأصل هو النصف والإيمان هاها أريد به الصلاة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . أي صلاتكم إلى بيت المقدس سميت الصلاة إيمانا لأن جوازها وقبولها به فجعل الوضوء نصف الصلاة على معنى أنهما فعلاان أحدهما وهو الوضوء شرط للآخر وهو الصلاة .

والوضوء مأخوذ من الرضاءة وهي النظافة والحسن يقال : وضؤ يوضؤ وضاءة فهو وضوء من حد شرف أي حسن ونظف والمتوضئ ينظف أعضائه ويحسنها والوضوء يذكر ويراد به غسل اليد وحدها قل النبي عليه السلام : =

(١) رواه البخاري [٢٣٨] والترمذي [٣١٧] والنسائي في المجتبى [٤٣٢] وابن ماجه [٥٦٧] وأحمد [٣٠١/١] .

(٢) رواه البخاري [٣٣٧] وأحمد [٤٣٤/٤] .

(٣) رواه الترمذي [٣٥١٧] وابن ماجه [٢٨٠] والنسائي في السنن الكبرى [٢٢١٧] وصححه الألباني .

= « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم »^(١) أي لجنون لأنه تنظيف لليد وتحسين لها والوضوء مما مسته النار والوضوء من ثور أقط أي قطعة منه والوضوء من مس الذكر هذا كله محمول عندنا على غسل اليد بما قلنا وقال النبي عليه السلام في مس الذكر : « إنما هو بضعة منك »^(٢) بفتح الباء أي قطعة لحم مجتمعة والبضع القطع من حد صنع .

(١) رواه مسند الشهاب [٣١٠] عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده متصلاً رضي الله تعالى عنهم .

(٢) رواه أحمد في المسند [٢٢/٤] عن قيس بن حنف عن أبيه رضي الله تعالى عنهما . وقال لأرناؤوط : حديث حسن .

ورواه الطبراني في المعجم الكبير [٩٢١٤/٢٤٧/٩] عن أرقم بن شرحبيل رضي الله تعالى عنهما . وقال في مجمع الزوائد [٢٤٤/١] رجاله موثقون . ورواه عبد الرزاق [٤٣٠] .

لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن

السؤال :

يغلبني الوسواس دائماً عن وضوئي ،
أتوضأت أم لا ؟ فماذا أفعل ؟

الجواب : أصل الحكم به أن تطرح الشك ، وتستصحب الأصل . بمعنى أنك كنت في الأصل متوضئاً ، ثم شككت أحدثت أم لا ؟ إذن أكون متوضئاً . وإن كنت محدثاً ثم شككت هل توضأت أم لا ؟ فأكون محدثاً . فالفتوى هي : استصحب الأصل ، وترك الشك ، وإبقاء ما كان على ما كان عليه ^(١) .

(١) روى البخاري [١٣٧] ومسلم [٩٨/٣٦١] عن سعيد بن المسيب وعن عباد ابن تميم عن عمه رضي الله تعالى عنهم أنه شكك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل الذي يحبل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة ؛ فقال : « لا ينقل أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً » .

قال الخافظ في الفتح ؛ قال النووي . هذا الحديث أصل في حكم بقاء الأشياء على أصولها حتى يتيقن خلاف ذلك ، ولا يصر الشك الطاريء عليها . وأخذ بهذا الحديث جمهور العلماء . وروى عن مالك النقض مطلقاً ، وروى عنه النقض خارج الصلاة دون داخلها ، وروى هذا بالتفصيل عن الحسن البصري ، والأول مشهور مذهب مالك قاله القرطبي ، وهو رواية ابن القاسم عنه . وروى ابن نافع عنه لا وضوء عليه مطلقاً كقول الجمهور ، وروى ابن وهب عنه : أحب إلي أن يتوضأ . ورواية التفضيل لم تثبت عنه وإنما هي لأصحابه وحمل بعضهم الحديث على من كان به وسواس ، وتمسك بأن الشكوى لا تكون إلا عن علة ، وأحيب بما دل على التعميم وهو حديث أبي هريرة عند مسلم ولفظه : « إذا وجد أحدكم في بطنه شيئاً فأشكل عليه أخرج منه =

الوضوء من لحوم الإبل

السؤال : هل يجب الوضوء على من أكل لحوم الإبل والغنم ؟

الجواب : فقط لحم الجزور هو الوارد ، والعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الصحابة بالوضوء^(١) .

= شيء أم لا فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً . وقوله فلا يخرج من المسجد أى من الصلاة ، وصرح بذلك أبو داود في روايته . وقال العراقي : ما ذهب إليه مالك راجح ، لأنه احتاط للصلاة وهي مقصد ، وألغى الشك في السبب المبرئ ، وعيره احتاط للطهارة وهي وسيلة وألغى الشك في الحدث الناقض لها ، والاحتياط للمقاصد أولى من الاحتياط للوسائل . وجوابه أن ذلك من حيث النظر قوى لكنه مغاير لمدلول الحديث لأنه أمر بعدم الانصراف إلى أن يتحقق وقال الخطابي : يستدل به لمن أوجب الحد على من وجد منه ريح الخمر لأنه اعتبر وجدان الريح ورتب عليه الحكم ، ويمكن الفرق بأن الحدود تدرأ بالشبهة والشبهة هنا قائمة ، بخلاف الأول فإنه متحقق .

(١) روى مسلم [٩٧/٣٦٠] عن جابر بن سمرة : أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتوضأ من لحوم الغنم ؟ قال : « إن شئت ، فتوضأ » وإن شئت ، فلا تتوضأ » قال : أتوضأ من لحوم الإبل ؟ قال : « نعم فتوضأ من لحوم الإبل » . قال : أصلي في مرايض الغنم ؟ قال : « نعم » قال : أصلي في مبارك الإبل ؟ قال : « لا » .

قال النووي : أما أحكام الباب فاختلف العلماء في أكل لحوم الجزور ، فذهب الأكثرون إلى أنه لا يقضى الوضوء ، ومن ذهب إليه الخلفاء الأربعة الراشدون =

- أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وإن عباس وأبو الدرداء وأبو طلحة وعامر بن ربيعة وأبو أمامة وجماهير التابعين ، ومالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم . وذهب إلى انتقاض الوضوء به أحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهوية ويحيى بن يحيى وأبو بكر بن المنذر وابن حزيمة ، واختاره الحافظ أبو بكر السيوطي ، وحكى عن أصحاب الحديث مطلقاً ، وحكى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، واحتج هؤلاء بحديث الباب مطلقاً ، وحكى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، واحتج هؤلاء بحديث الباب . وقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم فتوضوا من لحوم الإبل » (١) .

وعن البراء بن عازب قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوضوء من لحوم الإبل فأمر به . قل أحمد بن حنبل رحمه الله وإسحاق بن راهوية : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا حديثان : حديث جابر وحديث البراء ، وهذا المذهب أقوى دليلاً وإن كان الجمهور على خلافه . وقد أجاب الجمهور عن هذا الحديث بحديث جابر كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار ، ولكن هذا الحديث عام ، وحديث الوضوء من لحوم الإبل خاص ، والخاص مقدم على العام والله أعلم . وأما إباحته صلى الله عليه وسلم الصلاة في مرابض العنم دون مبارك الإبل فهو متفق عليه ، والنهي عن مبارك الإبل وهي أعطائها نهى تنزيه ، وسبب الكراهة ما يخاف من تفارها وتشويشها على المصلي والله أعلم .

(١) رواه أبو داود [١٨٤] وقال الألباني . صحيح ، ومسنند الطيالسي [٧٣٥/٠٠٠/١] .

ماذا يفعل الإمام إذا انتقض وضوؤه

السؤال : ماذا يفعل الإمام إذا انتقض وضوؤه وهو يؤم الناس في الصلاة ؟

الجواب : إذا طرأ على الإمام حدث وهو يصلي ، كأن ينتقض وضوؤه مثلاً ، فيمكنه أن يتقدم من يقف خلفه ليصلي بالناس إماماً ، ويذهب الإمام ليحدد وضوؤه ، ثم يأتي ليكمل الصلاة مأموماً .

ولذلك فلا بد أن تتوفر فيمن يقف خلف الإمام شروط الإمامة ، بأن يكون من أولى الأحلام ، وأن يكون عارفاً بأحكام الصلاة^(١) .

(١) روى ابن ماجه [١٢٢١] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ أَصَابَهُ قِيءٌ أَوْ رَعَافٌ أَوْ قَلَسٌ أَوْ مَذْيٌ ، فَلْيَنْصَرِفْ ، فَلْيَتَوَضَّأْ . ثُمَّ لِيَنْ عَلَي صَلَاتِهِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَا يَتَكَلَّمُ » . فِي الزَّوَائِدِ : فِي إِسْنَادِهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ . وَقَدْ رَوَى عَنْ الْحَجَّارِيِّ ، وَرَوَاتِهِ عَنْهُمْ ضَعِيفَةٌ . وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ .

وروى مالك في الموطأ [٧٧/٣٨/١] عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما كان إذا رعف انصرف فتوضأ ثم رجع فبني ولم يتكلم .

روى البخاري [٦٨٤] ومسلم [١٠٢/٤٢١] عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم فحانت الصلاة فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقل أتصلي للناس فأقيم قال نعم فصلى أبو بكر فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس في الصلاة فتخصر حتى وقف في الصف فصفق الناس وكان أبو بكر لا ينتفت في صلاته فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله صلى الله =

= عليه وسلم فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امكث مكانك فرفع أبو بكر رضي الله تعالى عنه يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف وتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى فلما انصرف قال يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك فقال أبو بكر ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لي رأيكم أكثرتم التصفيق من ربه شيء في صلاته فيسبح فإنه إذا سبح التفت إليه وإنما التصفيق للنساء . قال النووي : فيه جواز خرق الإمام الصفوف ليصل إلى موضعه إذا احتاج إلى حرقها لخروجه لطهارة أو رعا ف أو نحوهما ورجوعه ، وكذا من احتاج إلى الخروج من المأمومين لعذر ، وكذا له خرقها في الدحول إذا رأى قدامهم فرجة فإنهم مقصرون بتركها ، واستدل به أصحابنا على جواز اقتداء المصلي ممن يحرم بالصلاة بعده ، فإن الصديق رضي الله عنه أحرم بالصلاة أولاً ثم اقتدى بالنبي صلى الله عليه وسلم حين أحرم بعده هذا هو الصحيح في مذهبنا .

روى أبو داود [١٠٠٥] عن علي بن طلق رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فسا أحدكم في الصلاة فليتنصرف فليتوضأ وليعد صلاته . وضعفه الألباني .

قال صاحب عون المعبود : « إذا فسا » : فعن ماض من فسا فسوا من باب قبل والاسم الفساء بالضم والهمزة والمد وهو ريح يخرج بغير صوت يسمع . قاله في الصباح . وقال الطيبي : أي أحدث بخروج ريح من مسلكه المعتاد « فليتنصرف » : أي من صلاته « فليتوضأ وليعد الصلاة » : فيه دليل على أن الفساء ناقض للوضوء ، وأنه تبطل به الصلاة ، ويلزم إعادة الصلاة منه لا الباء =

- عليها وهو قول للشافعي ، ويعارضه حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من أصابه قيء أو رعاف أو قلنس أو مدى فلينصرف فليتوضأ ثم لين على صلاته وهو في ذلك لا يتكلم" أخرجه ابن ماجه وصعفه أحمد وغيره . وجه التضعيف أن رفعه غلط والصواب أنه مرسل . قال أحمد والبيهقي المرسل الصواب فمن يحتج بالمرسل ذهب إلى حديث عائشة ويقول إن المحدث يخرج من الصلاة ويعيد الوضوء وينى عليها ولا تفسد صلاته بشرط أن لا يفعل مفسداً ، وهذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة وقول للشافعي . قلت : حديث علي بن طلق له ترجيح على حديث عائشة من جهة الإسناد لأن حديث علي صحيحه أحمد وحسنه لترمذي وحديث عائشة لم يقل أحد بصحته . قال المذري : وأخرجه الترمذي والنسائي بحوه أتم منه .

وروى ابن ماجه [١٢٢٢] وأبو داود [١١١٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذ صلى أحدكم فأحدث فليمسك على أنفه ، ثم لينصرف . ولفظ أبو داود : فيأخذ بأنفه . وصححهما الألباني .

قال الخطابي : إنما أمره أن يأخذ بأنفه ليوهم القوم أن به رعافاً . وفي هذا الباب من الأخذ بالأدب في ستر العورة وإخفاء القبيح والتورية بما هو أحسن ، وليس يدخل في باب الرياء والكذب ، وإنما هو من التجميل واستعمال الحياء وطلب السلامة من الناس .

لماذا البول يفسد الوضوء ؟

السؤال : إذا كان البول يفسد الوضوء ، فلماذا لا يفسده وهو داخل الجسم ؟

الجواب : طالما أن البول في المثانة داخل الجسم ، فإن له فائدة وهي وجوده لضرورة تقتضى ذلك ، وأنه طالما خرج من حدود الباطن للجزء الظاهري من البدن ، أصبح فضلة ، وقد استغنى الجسم عنها .
ولذلك فإن الطهارة يقتضها كون هذا البول خرج من الداخل ، لأنه أصبح خبثاً ، وفضلات البدن من داخله ، ومثله مثل البراز تماماً .



حكم الوضوء للمرأة مع وجود إفرازات

السؤال : هل تتوضأ المسلمة لكل صلاة ، إذا كانت تخرج منها إفرازات ؟

الجواب : إن لم يكن العلاج لهذه الحالة طبيًا ، وإلى أن يتم العلاج ، يمكن للمرأة أن تصلي مع وجود الإفرازات ، على أن تتوضأ لكل صلاة وضوءًا خاصًا ، فلا تصلي الظهر والعصر بوضوء واحد ، وَلَوْ لَمْ يَتَقَضَّ وضوؤها الأول ، ولكن يجب أن تتوضأ لأن لكل فرض وضوءًا خاصًا ، وتصلي ، وتتم الصلاة ، حتى مع نزول الإفرازات ، على أن تحتاط الاحتياط اللازم لمثل هذه الحالات^(١) .

(١) روى البخاري [٢٢٨] ومسلم [٦٢/٣٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة أستحاض فلا أطهر ، أفأدع لصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، إنما ذلك عرق ، وليس بحيض ، فإذا أقبلت حيضتك فدعي الصلاة ، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي . قال : وقال أبي : ثم تؤضي لكل صلاة ، حتى يحییء ذلك الوقت .

وروى ابن حبان [٣٢٧] ثم اعلم أن مذهبنا أن المستحاضة لا تصلي بطهارة واحدة ، أكثر من فريضة واحدة مؤداة كانت أو مقضية ، وتستبيح معها ما شاءت من النوافل قبل الفريضة وبعدها ، ولما وجه أنها لا تستبيح أصلاً لعدم ضرورتها إليها النافلة ، والصواب الأول . وحكى مثل مذهبنا عن عروة بن الزبير وسفيان الثوري وأحمد وأبي ثور ، وقال أبو حنيفة : طهارتها مقدرة بالوقت فتصلي في الوقت بطهارتها الواحدة ما شاءت من الفرائض العائمة . =

= وقال ربيعة ومالك وداود : دم الاستحاضة لا ينقض الوضوء فإذا تطهرت فلها أن تصلي بطهارتها ما شاءت من الفرائض إلى أن تحدث بغير الاستحاضة والله أعلم . قال أصحابنا : ولا يصح وضوء المستحاضة لفريضة قبل دخول وقتها . وقال أبو حنيفة يجوز . ودلينا أنها طهارة ضرورة فلا تجوز قبل وقت الحاجة . قال أصحابنا : وإذا توضأت بادرت إلى الصلاة عقب طهارتها ، فإن أخرت بأن توضأت في أول الوقت وصلت في وسطه نظر إن كان التأخير للاشتغال بسبب من أسباب الصلاة كستر العورة والأذان والإقامة والاجتهاد في القبلة والذهاب إلى المسجد الأعظم والمواضع الشريفة والسعي في تحصيل مترة تصلي إليها وانتظار الجمعة والجماعة وما أشبه ذلك حاز على المذهب الصحيح المشهور ، ولنا وجه أنه لا يجوز وليس بشيء ، وأما إذا أخرت بغير سبب من هذه الأسباب وما في معناها ففيه ثلاثة أوجه أصحها لا يجوز وتبطل طهارتها . والثاني : يجوز ولا تبطل طهارتها ولها أن تصلي بها ولو بعد خروج الوقت . والثالث : لها التأخير ما لم يخرج وقت الفريضة فإن خرج الوقت فليس لها أن تصلي بتلك الطهارة ، فإذا قلنا بالأصح وأنها إذا أخرت لا تستيح الفريضة فادرت فصلت الفريضة فلها أن تصلي النوافل ما دام وقت الفريضة باقياً ، فإذا خرج وقت الفريضة فليس لها أن تصلي بعد ذلك النوافل بتلك الطهارة على أصح الوجهين والله أعلم . قال أصحابنا : وكيفية نية المستحاضة في وضوئها أن تنوي استباحة الصلاة ولا تقتصر على نية رفع الحدث . ولنا وجه أنه يجزئها الاقتصار على نية رفع الحدث .

ووجه ثالث : أنه يجب عليها الجمع بين نية استباحة الصلاة ورفع الحدث والصحيح الأول ، فإذا توضأت المستحاضة استباحت الصلاة . وهل يقال : ارتفع حدثها فيه أوجه لأصحابنا الأصح أنه لا يرتفع شيء من حالتها بل

- تستبيح الصلاة بهذه الطهارة مع وجود الحدث كالمتيّم فإنه محدّد ، عندما .
والثاني . يرتفع حدثها السابق والمقارن للطهارة دون المستقبل . والثالث :
يرتفع الماضي وحده . واعلم أنه لا يجب على المستحاضة الغسل لشيء من
لصلاة ولا في وقت من الأوقات إلا مرة واحدة في وقت انقطاع حيضها ،
وبهذا قال جمهور العلماء من السلف والخلف ، وهو مروي عن علي وابن
مسعود وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم ، وهو قول عروة بن الزبير وأبي
سلمة بن عبد الرحمن ومالك وأبي حنيفة وأحمد ، وروي عن ابن عمر وابن
الزبير وعطاء بن أبي رباح أنهم قالوا : يجب عليها أن تغتسل لكل صلاة ،
وروي هذا أيضاً عن علي وابن عباس ، وروي عن عائشة أنها قالت : تغتسل
كل يوم غسلًا واحدًا . وعن المسيب والحسن قالوا : تغتسل من صلاة الظهر
إلى صلاة الظهر دائماً والله أعلم . ودليل الجمهور أن الأصل عدم الوجوب فلا
يجب إلا ما ورد الشرع بإيجابه ، ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
أمرها بالغسل إلا مرة واحدة عند انقطاع حيضها وهو قوله صلى الله عليه
وسلم : « إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة وإذا أدبرت فاغتسلي » ليس في
هذا ما يقتضي تكرار الغسل . وأما الأحاديث الواردة في سنن أبي داود
والبيهقي وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالغسل فليس فيها شيء
ثابت ، وقد بين البيهقي ومن قبله ضعفها ، وإنما صح في هذا ما رواه البخاري
ومسلم في صحيحهما : « أن أم حبيبة بنت جح رصي الله عنها استحاضت
فقال لها : إنما ذلك عرق فاغتسلي ثم صلي » ، فكانت تغتسل عند كل صلاة .
قال الشافعي رحمه الله تعالى : إنما أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
تغتسل وتصلي وليس فيه أنه أمرها أن تغتسل لكل صلاة ، قال : ولا شك إن شاء
لله تعالى أن غسلها كان تطوعاً غير ما أمرت به وذلك واسع لها ، هذا كلام =

= الشافعي بلفظه . وكذا قال شيخه سفيان بن عيينة والليث بن سعد وغيرهما وعباراتهم متقاربة والله أعلم . واعلم أن المستحاضة على ضربين : أحدهما أن تكون ترى دمًا ليس بحيض ولا يخلط بالحيض كما إذا رأت دون يوم وليلة . والضرب الثاني أن ترى دمًا بعضه حيض وبعضه ليس بحيض بأن كانت ترى دمًا متصلًا دائمًا أو مجاوزًا لأكثر الحيض ، وهذه لها ثلاثة أحوال .

أحدها : أن تكون مبتدأة وهي التي لم تر الدم قبل ذلك وفي هذا قولان للشافعي أصحهما ترد إلى يوم وليلة ، والثاني : إلى ست أو سبع . والحال الثاني : أن تكون معتادة فتد إلى قدر عاداتها في الشهر الذي قبل شهر استحاضتها . والثالث . أن تكون مميزة ترى بعض الأيام دمًا قويًا وبعضها دمًا ضعيفًا كالدم الأسود والأحمر فيكون حيضها أيام الأسود بشرط أن لا ينقص الأسود عن يوم ليلة ولا يزيد على خمسة عشر يومًا ، ولا ينقص الأحمر عن خمسة عشرة ، ولهذا كله تفاصيل معروفة لا نرى الإطناب فيها هنا لكون هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا ، فهذه أحرف من أصول مسائل المستحاضة أشرت إليها وقد بسطتها بشواهد ما وما يتعلق بها من الفروع الكثيرة في شرح المذهب والله أعلم .

ومسلم [٦٣/٣٣٤] عن عائشة روح النبي صلى الله عليه وسلم : أن أم حبيبة استحضيت سبع سائر ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فأمرها أن تغتسل ، فقال : « هذا عرق » . فكانت تعتسل لكل صلاة .

هل المانيكير يطل الوضوء

السؤال : هل طلاء الأظافر « المانيكير » يطل الوضوء .. ولذلك يجب إزالته عند كل وضوء ؟

الجواب : نعم .. وقد أجبت عن السؤال بنفسك . فما دمت قد قلت : إنه طلاء ، إذن فهو طبقة يمكن إزالتها ، وما دام طلاء الأظافر يكون طبقة ، فهو شيء عازل يعزل ما تحته عن أن تصيبه الطهارة عند الوضوء ، فوجوده لا يحقق الوضوء أصلاً .

والذين زينوا للمرأة مثل هذا انذى يقولون من أن المانيكير ليس له تأثير في الوضوء أرادوا أن يجعلوه صبغاً . ونقول : لو كان صبغاً لما أمكن إزالته ، مثل الحناء مثلاً ؛ كذلك يروج البعض أن الظفر جزء ميت لا إحساس فيه . ونقول : لو أنه ميت ما كان ينمو ، ولما اضطرت إلى أن تقصه من حين لآخر ، وهذا دليل على أنه حي لا ميت .

ثمة شيء آخر : الذين حللوا طلاء الأظافر بالمانيكير خلطوا بين « الصبغ » الذي هو « الحناء » وبين الطلاء المعروف .. والفرق بين الاثنين كبير .. بدليل أن المرأة تستخدم عند إزالة الطلاء مادة تعرف « بالأسيتون » ، والحناء لا يفلح عند إزالتها ألف « أسيتون » . وباقي المساحيق كلها حرام .. أما الكحل فهو حلال ، وهو للشفاء والزينة ، فالزينة منه جاءت تبغاً . والأصل فيه وقاية للعين وعلاجها . ولو علمت المرأة ضرر هذه المساحيق على بشرتها لابتعدت عنها .

(١) النواقض : جمع ناقضة ، أو ناقص ، يقال : نقضت الشيء ، إذا أفسدته ، وقد يقال : إن التعبير بالنواقض التي تدل على إفساد الوضوء من أصله ، يقتضي -

- أن الوضوء قد اتصف بالفساد قبل طرو الحدث ، وعلى هذا فالصلاة به قبل عروض المفسد تكون باطلة ؛ لأن المقروض أنه قد اتصف بالفساد من أصله ، ولذا عبر بعضهم بالأحداث جمع حدث ، فراراً من هذا الاعتراض ، والجواب عن هذا أن المراد بطلانه بعد وقوع الحدث المبطل ، لا وصفه بالبطلان من أساسه .

وتنقسم بواقص الوضوء إلى أقسام : الأول ما خرج من أحد السبيلين - القبل ، والدبر - وهذا ينقسم إلى قسمين ، لأنه إما أن يكون معتاداً ، وإما أن يكون غير معتاد ، الثاني : ما قد يترتب عليه الخروج من أحد السبيلين ، وهذا ينقسم إلى أربعة أقسام : أحدها : عية العقل ؛ ثانيها : المنى ، المالكية قالوا : إن انسي الخارج بغير لذة معتادة لا يوجب الغسل ، بل ينقض الوضوء فقط ، خلافاً للأئمة الثلاثة ، وقد مثلوا لذلك بما إذا نزل في ماء ساخن ، فلات وأمسى . الشافعية قالوا : خروج المنى يوجب الغسل ، سواء خرج بلذة أو بغير لذة ، فمتى تحقق كونه منياً وجب عليه أن يغتسل ، وسيأتي بيان هـ هـ هـ في « مباحث الغسل » ، ومع كونه يوجب الغسل ، فإنه لا ينقض الوضوء عندهم امرأة شتھي ، ومثلها لمس الأمرد ؛ وهذا ينقص بشروط ستعرفها ؛ ثالثها : مس الذكر ونحوه بدون حائل ؛ وهذا أيضاً ينقض في بعض المذاهب دون بعض ؛ رابعها : ما يخرج من غير القبل ، أو الدبر ، كالدم ، وفي ذلك تفصيل ستعرفه ؛ فجملة أقسام النواقض ستة ، وإليك بيانها :

فالأول ، وهو ما خرج من أحد السبيلين بطريق العادة ، منه ما ينقض الوضوء فقط ، ومنه ما يوجب الغسل ؛ فأما الذي ينقص الوضوء ، ولا يوجب الغسل ، فهو البول ، والمذي ، والودي ؛ فأما البول فهو معروف ، وأما المذي فهو ماء أصفر رقيق ، يخرج من القبل عند اللذة غائباً ، وأما الودي فهو ماء ثخين =

= أبيض ، يشبه المنى ، ويخرج عقب البول غالباً . ومثل الودي الهادي ، وهو ماء أبيض ، يخرج من قبل المرأة الحامل قبل ولادتها ، والمنى الخارج بغير لذة ، وهو معروف ، ولا يخفي أن كل هذه الأشياء تخرج من القُبُل ؛ وأما الذي يخرج من الدبر ، فهو الغائط ، والريح ، وقد بينا في أول مباحث الطهارة حكمة نقض الوضوء بالريح ؛ فارجع إليها إن شئت ، وكل هذه الأشياء مجتمع على نقض الوضوء بها .

والثاني ، وهو ما خرج من أحد السبيلين بطريق معتاد ، مثل الحصى ، المالكية قالوا : لا ينتقص الوضوء إلا بالخارج المعتاد من المخرج المعتاد ، بشرط أن يكون خروجه من المخرج المعتاد في حال الصحة ، فالحصى ، والدود ، والدم ، والقريح ، والصدید الخارجة من أحد السبيلين لا تنقض الوضوء . بشرط أن يكون الحصى أو الدود متولداً في المعدة . أما إذا لم يكن متولداً في المعدة . كأن ابتلع حصاة . أو دودة . فخرجت من المخرج المعتاد . كانت نافضة . لأنها تكون غير معتادة حيثئذ ، والدود ، والدم والقريح ، والصدید ، فإنه ينقض الوضوء ، سواء خرج من القبل ، أو خرج من الدبر .

فهذه هي الأمور الخارجة من أحد السبيلين ، وبقي الكلام في نقض الوضوء بغير الخارج ، وقد عرفت أنها أربعة أقسام :

الأول : أن يغيب عقل المتوضئ إما بجنون ، أو صرع ، أو إغماء . وإما بتعاطي ما يستلزم غيبته من حمر ، أو حشيش أو بنج . أو نحو ذلك من المغيبات . ومن ذلك النوم . وهو ناقض للوضوء لا بنفسه « الحنابلة قالوا : النوم ينقض الوضوء بنفسه . حتى ولو وضع مقعدته على أي شيء يأمن معه خروج ريح إلا إذا كان النوم يسيراً .

الشافعية قالوا : النوم يقض بنفسه إن نام ندون أن يمكن مقعدته من الأرض ونحوها ولو تحقق عدم خروج الحدث ، بل بما يترتب عليه من حصول =

الحدث . وفي ذلك الناقض تفصيل المذاهب الحنفية قالوا : النوم لا ينقض
بنمسه على الصحيح . خلافاً للشافعية والحنابلة . وإنما ينقص النوم في ثلاثة
أحوال : الأول : أن ينام مضطجعا - على جنبه - الثاني أن ينام مستلقياً على
قفاه ؛ الثالث : أن ينام على أحد وركيه ؛ لأنه في هذه الأحوال لا يكون
ضابطاً لنفسه لاسترخاء مفاصله . أما إذا نام وهو جالس ومقعده متمكة من
الأرض أو غيرها فإنه لا وضوء عليه على الأصح . فإذا كان في هذه الحالة
مستنداً إلى وسادة مخدة ونحوها . ثم رفعت الوسادة وهو نائم فإن
سقط ورالت مقعده عن الأرض انتقض وضوءه أما إذا بقي حالساً ولم تتحول
مقعده فإن وضوءه لا ينتقض . وكذا لا ينتقض وضوءه إذا نام واقفاً .
أو راکعاً ركوعاً تاماً . كركوعه الكامل في الصلاة ، أو ساجداً ، لأنه في هذه
الحالة يكون متماسكاً ، وإذا نام يوماً خفيفاً ، وهو مضطجع ، بحيث يسمع
من يتحدث عنده ، فإنه لا يقض ، أما إذا لم يسمع ، فإنه ينقض ، والدليل
على أن النوم لا يقض إلا في حالة النوم مضطجعا قوله صلى الله عليه وسلم :
« إن الوضوء لا يجب إلا على من نام مضطجعا ، فإنه إذا اضطجع استرحى
مفاصلة »^(١) رواه أبو داود ، والترمذي ؛ ورواه أحمد في « مسنده » والطبراني
في « معجمه » وقد قاس الحنفية على النوم مضطجعا حالتين . أن ينام مستلقياً
على قفاه ؛ أو ينام على أحد وركيه لأن لعله في القبض ، وهي استرخاء
المفاصل موجودة فيهما ، ولا ينقض النوم وضوء المعذور ، وهو من قام به
سلس بول أو انفلات ريح . ينقض وضوءه ؛ لأن الخارج منه بسبب العسر
لا ينقض الوضوء حال اليقظة ، فلا يقض حال النوم من باب أولى .

(١) رواه أبو داود [٢٠٢] والترمذي [٧٧] وضعفه الألباني ، والبيهقي في السنن
الكبرى [٥٩٢] والطبراني في المعجم الكبير [١٢٧٤٨/١٢١/١٢] عن ابن عباس
رضي الله تعالى عنه .

الشافعية قالوا : إن النوم ينقض إذا لم يكن ممكناً مقعده بمقره ، بأن نام جالساً ، أو راكباً بدون مجافاة بين مقعده وبين مقره ، فلو نام على ظهره أو جنبه . أو كان بين مقعده ومقره تجاف ، بأن كان نحيفاً انتقض وضوؤه ، ولا ينقضه العباس ، وهو ثقل في الدماغ يسمع معه كلام الحاضرين . وإن لم يفهمه بخلاف النوم .

الحنابلة قالوا : إن النوم ينقض الوضوء في جميع أحواله ، إلا إذا كان يسيراً في العرف وصاحبه جالس أو قائم .

المالكية قالوا : إن النوم ينقض الوضوء إذا كان ثقیلاً قصيراً ، أو طويلاً ، سواء كان النائم مضطجعاً ، أو جالساً ، أو ساجداً ، ولا يتفص بالنوم الخفيف ، طويلاً كان ، أو قصيراً ، إلا أنه يتدب الوضوء من الخفيف إن طار ، وشرط نقص الوضوء بالنوم الثقيل القصير أن لا يكون النائم مسدود المخرج ، كأن يلف ثوباً ويضعه بين إتيته ، ويجلس عليه ، ويستيقظ وهو بهذه الحال وأما الثقيل الطويل فينقض مطلقاً ولو كان مسدوداً . والثقل ما لا يشعر صاحبه بالأصوات . أو بانحلال حيوته إن كان جالساً محتبياً . أو بسقوط شيء من يده أو بسيلان ريقه ، أو نحو ذلك .

القسم الثاني من الواقعين بغير الخارج : لمس من يشتهي ، سواء أكان امرأة ، أم غلاماً ، وقد اصطلاح الفقهاء ، الشافعية ، والحنابلة : اصطلاحوا لمس خلط أحكام المس بأحكام اللمس . بخلاف المالكية والحنفية . فقد ذكروا حكم اللمس وحده ، وحكم المس وحده ، وخصوا المس بما كان باليد . والأمر في ذلك سهل « على أن اللمس تارة يكون باليد ، وتارة يكون بغيرها من أجزاء البدن ، أما المس ، فإنه ما كان باليد خاصة ، ولكل منهما أحكام : فأما لمس من يشتهي فإنه ينقض الوضوء ، بشروط منفصلة في المذاهب .

= ه الشافعية قالوا : إن لمس الأجنبية - ويسمى مساً - ينقض مطلقاً . ولو بدون لذة . ولو كان الرجل هراماً والمرأة عجوز شهواء . وهذا هو المقرر في مذهب الشافعية ، كان اللامس شيخاً أو شاباً . وقد يقال : إن الشك في المرأة العجوز الشهواء عدم التلذذ بلمسها : فأجابوا بأن المرأة ما دامت على قيد الحياة لا تعد من يتلذذ بها ، وإنما ينقض اللمس بشرط عدم الحائل بين بشرة - جلد - اللامس والملموس ، ويكفي الحائل الرقيق عندهم ، ولو كان الحائل من الوسخ المتراكم من الغبار ، لا من العرق ، فلا ينقض لمس رجل لرجل آخر ، ولو كان الملموس أمرد جميلاً ، ولكن يسن منه الوضوء ، ولا ينقض لمس شيء لمثلها ، ولا « حنثي لحنثي » أو لرجل ؛ أو لامرأة ، ولا ينقض إلا إذا بلغ اللامس والملموس حد الشهوة عند أرباب لطباع السليمة . واستثنوا من بدن المرأة شعرها ؛ وسننها ؛ وطفرها ، فإن لمسها لا ينقض الوضوء ؛ ولو تلذذ به ، لأن من شأن لمسها عدم التلذذ ، وقد يقال : إن السن في الفم ، والناس يتغزلون في الأسنان ، ويتلذذون بها أكثر من سائر أجزاء البدن ، فكيف يعقل أن يكون الشأن في لمسها عدم اللذة ؟ ولكن الشافعية يقولون : إنه لو صرف النظر عن لمس الفم ، ولمس يحيط بالأسنان ؛ كان السن مجرد عظم لا تلذذ به وهذا هو معنى أن الشأن فيها عدم التلذذ ، وينتقض الوضوء بلمس الميت . ولا ينتقض بلمس المحرم - وهي من حرم نكاحها على التأييد ، بسبب نسب أو رضاع ، أو مصاهرة - أما التي لا يحرم زواجها على التأييد ؛ كأخت الزوجة ، وعمتها ، وخالتها ، فإن لمس إحداهن ينقض الوضوء ، وكذا ينتقض بلمس أو الموطوءة بشبهة ، وبنتها ، فإن رواجهما ، وإن كان محرماً على التأييد ، ولكن التحريم لم يكن بنسب ولا رضاع ، ولا مصاهرة ، وقد عرفت أن كل ذلك يسمى مساً ، كما يسمى لمسا .

= الحنابلة قالوا : ينتقض الوضوء بلمس المرأة بشهوة بلا حائل ، لا فرق بين كونها أجنبية محرماً ، ولا بين كونها حية أو ميتة ، شابة كانت أو عجوزاً . كبيرة أو صغيرة ، تشتهي عادة ، ومثل الرجل في ذلك المرأة ، بحيث لو لمست رجلاً انتقض وضوؤها بالشروط المذكورة ، ولا ينتقض اللمس إلا إذا كان لجزء من أجزاء البدن ، غير الشعر ، والسن ، والظفر ، فإن لمس هذه الأجزاء الثلاثة ، لا ينتقض الوضوء ، أما المموس فلا ينتقض وضوؤه ، ولو وجد لذة ، ولا ينتقض لمس رجل لرجل ، ولو كان جميلاً ؛ ولا لمس امرأة لامرأة ؛ ولا خنثى لخنثى ، ولو وجد اللامس لذة .

وبذلك تعلم أن الحنابلة متفقون مع الشافعية في أن لمس المرأة بدون حائل ينتقض الوضوء ، ولو كانت عجوزاً شوهاء ما دامت تشتهي عادة . ومختلفون معهم في لمس المحارم ، فالحنابلة يقولون . إنه ينتقض مطلقاً ، حتى لو لمس المتوضئ أمه ، أو أخته ؛ فإن وضوءه ينتقض بذلك اللمس ؛ خلافاً للشافعية ؛ ومتفقون معهم على أن لمس الرجل للرجل لا ينتقض «ولو كان المموس أُمرد حميلاً» ، إلا أن الشافعية قالوا : يسن منه الوضوء . واتفقوا على أن لمس شعر المرأة وظفرها وأسنانها لا ينتقض ، فلم يختلفوا إلا في تفاصيل خدثة ذكرها الشافعية ، فلذلك أوردنا لك كل مذهب على حدة .

المالكية قالوا : إذا لمس المتوضئ غيره بيده أو بجزء من بدنه ، فإن وضوءه ينتقض . بشروط بعضها في اللامس ، وبعضها في الملموس . فيشترط في اللامس أن يكون بالغاً ، وأن يقصد اللذة أو يحدها بدود قصد فمته قصد اللذة انتقض وضوءه ولو لم يلتذ باللمس فعلاً . ومثل ذلك ما إذا لم يقصد لذة ولكن التلذذ باللمس . وأن يكون الملموس عارياً . أو مستوراً بساتر خفيف فإن كان الساتر كثيفاً . فلا ينتقض الوضوء . إلا إذا كان اللمس بالعقب على عصبه وقصد اللذة أو وجدها وأن يكون الملموس ممن يشتهي عادة ، =

- فلا يتنقض الوضوء بلمس صغيرة لا تشتهي . كبتت خمس سنين ، ولا بلمس عجوز انقطع إرب الرجال منها . لأن النفوس تنفر عنها ، ومن أجزاء البدن الشعر ، فيتنقض الوضوء بلمس شعر المرأة إذا قصد لذة ، أو وجدها ، أما إذا لمست المرأة بشعرها يداً ، فإن وضوءها لا يتنقض ، وكذا لا يتنقض بلمس شعر رجل بشعر امرأة ، أو بلمس ظفر بظفر ، لفقد الإحساس فيهما عادة . وقد عرفت أن المدار في اللمس على قصد اللذة أو وجدانها ، لا فرق بين أن يكون الملموس امرأة أجنبية ، أو زوجة ، أو شاباً أمرد ، أو شاباً له لحية جديدة ، يلتذ به عادة ، أما إذا كان الملموس مخزماً ، كأخت . أو بنتها ، أو عمة أو خالة . وكان اللمس شهوياً فقصد اللذة . ولكنه لم يجدها فإن وضوءه لا يتنقض بمجرد قصد اللذة . بخلاف ما إذا كانت أجنبية . ومن اللمس القبلة على انقضاء . وتنقض الوضوء مطلقاً . ولو لم يقصد اللذة أو وجدها أو كانت القبلة يكره ، ولا تنقض القبلة إذا كانت لوداع أو رحمة بحيث يكون الغرض منها ذلك في نفسه . بدون أن يجد لذة . فإن وجد لذة فإنها تنقض . هذا كله بالنسبة للامس . أما الملموس فإن كان بالغاً ووجد اللذة انتقض وضوءه ، فإن قصد اللذة فإنه يصير لامساً يجري عليه حكمه السابق . هذا ولا يتنقض الوضوء بفكر . أو نظر من غير لمس ولو قصد اللذة أو وجدها أو حصل له نعاظ فإن أمذى بسبب الفكر أو النظر انتقض وضوءه بالمذي . وإن أمني وجب عليه الغسل بخروج المني .

الحنفية قالوا : إن اللمس لا ينقض بأي جزء من أجزاء البدن ولو كان اللمس والملموس عاريين . فلو كان الرجل متوصلاً ونام مع زوجته في سرير واحد وهما عاريان متلاصقان . فإن وضوءهما لا يتنقض إلا في حالتين : الحالة الأولى : أن يخرج منهما شيء من مذي ونحوه ، الحالة الثانية : أن يضع فرجه على فرجها . وذلك ينقض وضوء الرجل بشرطين : الشرط الأول : أن =



= ينتصب الرجل ، الشرط الثاني : أن لا يوجد حائل يمنع حرارة البدن ، أما وضوء المرأة فإنه ينتقض بمجرد ذلك التلاصق ، متى كان الرجل منتصباً . فإذا فرض ونامت امرأة مع أخرى ، وتلاصقتا بهذه الكيفية ، فإن وضوءهما ينتقض بمجرد تلاصق الفرجين ببعضهما ، وهما عاريتان وبقيت صورة أخرى ، وهي أن يتلاصق رجل مع آخر وهما عاريان ، كما قد يقع في الحمام حال الزحام ، وحكم هذه الحالة هو أن لا ينتقض وضوءهما ، إلا إذا كان اللامس منتصباً .

هل يغنى الغسل عن الوضوء

السؤال : هل يغنى الغسل عن الوضوء ؟

الجواب : يتوقف على سبب الغسل وكيفية . فإن كان الاستحمام للنظافة ، أى مجرد غسل البدن والرأس ، فإنه لا يغنى عن الوضوء ، وأما إن كان الاستحمام لإزالة الحدث الأكبر ، فإن الوضوء فى مثل هذه الحالة يدخل فى الاستحمام .

ويجب أن نفهم أن هناك أشياء لا تطلب فى الوضوء ، ويبطل الغسل إن لم تفعل ، فأنت لا يطلب منك فى الوضوء فرضاً أن تتمضمض أو تستنشق ، لكن فى غسل الجنابة فرض عليك ذلك . وهناك نجد أن فى الغسل شيئاً غير موجود فى الوضوء ، فأنت إذا توضأت بدون أن تتمضمض أو تستنشق فإن وضوءك سليم ، أما فى الغسل ولم تتمضمض ولم تستنشق فغسلك باطل . فالوضوء الشرعى هو غسل اليدين والوجه ومسح الرأس وغسل الرجلين ، وما زاد على ذلك فليس فرضاً ، ولكنه سنن .

أما فى الغسل فالمضمضة والاستنشاق فرض فيه ، لأنهما من ظاهر الجسد ، ولا تفطر إذا فعلتهما فى صيامك ، لأنك لم تدخل شيئاً فى جوفك ، فداخل الصم يس من داخل الجوف .



الصلاة

السؤال : متى شرعت الصلاة ؟

الجواب : أصل الصلاة موجود منذ أن خلق الله الخلق .

والصلاة موجودة في كل رسالات الرسل من أول آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

واقراً قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

إذن .. فالصلاة بالركوع والسجود سابقة على نزول الرسالة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

بن إنها في عهد إبراهيم خليل الرحمن كان مقرها البيت الحرام . حيث عهد الحق سبحانه إلى خليله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يطهرا البيت الحرام للراكعين والساجدين .

وقوله سبحانه لمريم عليها السلام : ﴿ يَنعَرِّمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

إذن .. من آيات الحق سبحانه السابقة نعلم أن الصلاة كانت موجودة منذ أن أوجد الحق التكليف بالإيمان .

لكن مع رسالة الإسلام .. ومع مجيء البشير النذير محمد عليه الصلاة والسلام أخذت الصلاة الإسلامية خاصيتها وجمعت ميزة كل صلوات الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت صلوات الرسل في بعض الأزمنة ركعتين في أول النهار وركعتين في آخر النهار ، فلما جاء الأمر بالصلاة في الإسلام أخذت الصلاة كل مميزات الصلاة وأضيف إليها ما كلف الله تعالى به نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعلم أن لصلاة في شريعة الإسلام فرضت في ليلة الإسراء والمعراج . والصلاة هي خشوع للحق ليظل الإنسان في ربانية العزة ويظل في عبودية لهذه الربانية . والصلاة هي الشحنة التي يتجدد بها إقبال المؤمن على أوامر الحق ببجد واجتهاد .



فرضية الصلاة

جاء في حديث الإسراء والمعراج : ثم علا به أى النبي صلى الله عليه وسلم - فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء إلى سدره المنتهى ، ودنا الجبار رب العرة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعيهم ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار فقال وهو مكانه : يا رب خفف عنا ، فإن أمتي لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومي على أدنى من هذا ، فضغفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا ، فارجع فليخفف عنك ربك وكل ذلك يلفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا ؟ فقال الجبار : يا محمد ، قال : لبيك وسعديك قال : إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك في أم الكتاب قال : فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى : قًا والله راودت بنى إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه قال : فاهبط بسم الله ، قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام .

وربما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً تساؤل وهو : إذا كنت الصلاة قد فرضت في المعراج ، وهذه المرائي قد رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل أن تفرض الصلاة على أمته . والتساؤل نفسه يمكن أن يكون مطروحاً بالنسبة لآكل الربا ، وآكل مال اليتامى ، فلماذا لم يفرضها وقتها ؟! والصورة الأخرى التي تدل على تشريعات اجتماعية ، في المجتمع الإسلامي ، لم تكن قد فرضت بعد ؛ لأن كل التشريعات فرضت بعد ذلك في المدينة المنورة بعد الهجرة ، ولكن سنحتزئ بالمثال الخاص بالصلاة ، لماذا ؟ لأن كل التكاليف والأوامر في الإسلام إنما كانت بوحي من الله ببارك وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل عليه السلام ، لكن للصلاة منزلة خاصة ، فهي لم تفرض عن طريق جبريل ، وكانت هي العبادة الوحيدة التي فرضها الله مباشرة على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأما مسألة المرائي التي أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأمر لم تكن قد شرعت في الإسلام ؛ لأن تشريعها سيتأخر ، فالعلم عند الله سبحانه وتعالى في المسائل ليس مرتباً ، بأن يعلم شيئاً يقع أولاً ، وبعد ذلك شيء يقع ثانياً . وإنما كل الكون ، بما كان وسيكون ، معلوم لله سبحانه وتعالى وحدة

واحدة حتى قبل أن يكون ، فهو سبحانه وتعالى خالقه وموجده بما فيه وكان الحق سبحانه وتعالى أمد رسوله ﷺ بنهايات هذه الأشياء ، حتى إذا ما أنزل تكليفاً ، أقبل الناس عليه بجدة وجهته مستسلمين مذعنين ، لماذا ؟ ؛ لأنهم علموا مسبقاً ، ماذا يكون جزاء من يحالف منهج الله سبحانه وتعالى .

إذن .. علم الله تعالى في التكليف ، وعلم الله تعالى في الجزاء ، لا ترتيب فيه أبداً كطريقتنا ، بل كل شيء عند الله هو هو . فهو سبحانه خالق التكليف ، وخالق الجزاء . فإذا كان الله تعالى قد عرض لنا صورة لشيء سيكلفنا به فيما بعد ؛ فلأن الواقع في الجزاء عنده ، هو هذا ، ولن يتغير ولن يتجدد فيه شيء آخر أبداً . ولذلك يجب أن نفطن إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن أمر مستقبلي ، يتكلم عنه لا بصفة الاستقبالية ، فصفة الاستقبالية يأخذها البشر بزمانهم فقط . أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى ، فلا استقبال ولا حال ولا ماضي ؛ لذلك تجد هذا واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ لو أن هذا الكلام من عند غير الله سبحانه وتعالى ، لقلنا . كيف يقول : ﴿ أَتَىٰ ﴾ وبعد ذلك يقول : ﴿ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ، وهل نستعجل إلا ما لم يأت ؟

الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ أَتَىٰ ﴾ في أمر ما ، يأتي أو سيأتي ، فهو آتٍ لا محالة ، فلا زمن عند الله تعالى ، فذلك هذه الأشياء وإن كانت ستأتي بعد ذلك ، والمخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن الله أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد لتكليف لعلمه سبحانه بما كان وسيكون^(١) .

(١) قال الإمام أبو بكر بن خزيمة في باب ذكر إثبات العلم لله جل وعلا : تباركت أسماؤه وجل ثناؤه ، بالوحي المنزل على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يقرأ في المحارب والكتائب من العلم الذي هو من علم العام ، لا ينقل الأخبار التي هي من نقل علم الخاص ، ضد قول الجهمية المعطلة الذين لا يؤمنون بكتاب الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، تشبهاً باليهود - ينكرون أن لله علماً ، يزعمون أنهم يقولون أن الله هو العالم ، وينكرون أن لله علماً مضافاً إليه من صفات الذات .

أما مسألة الصلاة : فيها بحث يجب أن نبهته ، وهو أنه وردت الأحاديث الصحيحة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إماماً بالأنبياء في بيت المقدس ، قبل أن يُعرج به إلى السماء . والصلاة فرضت بعد العروج ؟ فنقول لهم : نعم ، الصلاة على هيئتها الحالية ؛ فرضت في رحلة المعراج . أما الصلاة كصلاة فهي موجودة في كل رسالة ، وعند أتباع كل رسول . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

= قال الله جل وعلا في محكم تنزيله : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقال عز وجل : ﴿ فَإِنَّكُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ ﴾ [هود : ١٤] .

فأعلمنا الله أنه أمر القرآن بعلمه ، وحبرنا جل ثناؤه أن أي أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه ، فأضاف الله جل وعلا إلى نفسه العلم .

فكفرت الجهمية وأنكرت أن يكون الخالقنا علم مضاف إليه من صفات الذات ، تعالى الله عما يقول الطاعنون في عدم الله علواً كبيراً ، فيقال لهم : خبرونا عمن هو عالم بالأشياء كلها ، أله علم أم لا ؟ فإن قال : الله يعلم السر والنجوى وأخفى وهو بكل شيء عليم ، أله علم أم لا علم له ؟ فلا جواب لهم لهذا السؤال إلا الهرب ، ﴿ قَبُهِتَ الَّذِي كَفَرُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . كتاب التوحيد [٢٢/١ ، ٢٣] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه وسلم قال : « مفاتيح العيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما تغض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

أخرجه البخاري [٧٣٧٩] .

وأيضاً في سورة آل عمران ﴿يَمْرُرُ أُفُقٌ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَزْكِي مَعَ
الرَّكْعَتِ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

وفي آية أخرى : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

إذن .. فهناك ركوع وهناك سجود ، من يوم أن خلق الله الأرض ، ومن
يوم أن جعل الله التكليف .. فكان هناك صلاة ولكن لا كالصلاة الآن ؛
فالصلاة الآن جمعت ميزات كل صلوات الرسل . فصلوات الرسل كانت في
بعض الأزمنة غدوة وعشية ، ركعتين في أول النهار ، وركعتين في آخره ، لها
شكل خاص في القيام ، وشكل خاص في الركوع ، وشكل خاص في
السجود . فلما فرضت الصلاة في الإسلام الخاتم ، أخذت كما ميزت
الصلوات السابقة ، ولم يأخذ رسول من الرسل السابقة العدد الذي فرض
على أمة محمد صلى الله عليه وسلم . بذلك التوزيع الزمني ، خمسة أوقات
في اليوم والليلة ، ولذلك نجد أن موسى عليه السلام استكثر هذا .

إذن .. كانت هناك صلاة ، ولكن الصلاة التي فرضت ، هي الصلاة
الجمعة لكل مزايا الصلوات المتقدمة ، عند الرسل السابقين ، عليهم الصلاة
والسلام .

بعد ذلك نقول : إن التكاليف التي يكلف الله بها عباده ، بواسطة الرسل ،
هي تكاليف لتنظيم حركة حياتهم من ناحية محتتمهم ، ومن ناحية سياستهم ،
واقتصادهم ، وأحلاقهم . وإن الإقبال على هذا المنهج ، لا بد وأن يكون
بدافع أن لله تعالى هو الذي أمر به .. لماذا ؟ لأن البشر بهم في مثل هذه
الأمور تشريعات اجتماعية ، وحلقية ، فما الذي يجعلني أرغب عن تشريعات
البشر ، إلى تشريعات الحق سبحانه وتعالى ؟ لأنني آمنت بأن الله سبحانه

وتعالى هو الإله الحق المستحق للعبادة وحده ، ولذلك وجب على أن أتلقى تكاليفي منه وحده سبحانه .

إذن .. فالحق تعالى ، الذى آمنت به ، يطلب منى أن أقف بين يديه ، كل يوم خمس مرات ؛ لأظل دائماً موصولاً به سبحانه ، وأظل فى عبودية دائمة له سبحانه . والصلاة هى الشحنة التى تشحن همة المؤمن ؛ ليقبل على أوامر ربه بجهد واجتهاد ، وأن هذه الشحنة هى الأساس ، الذى سيحرك هذه « القاطرة » الإنسانية نحو الأوامر والنواهي الإلهية .

لقد كانت الصلاة فى فرضها والتكليف بها ، تختلف عن كل الأحكام ، بأنها فرضت من الله تعالى مباشرة .

ولضرب مثلاً - ولله تعالى المثل الأعلى - إن الرئيس حينما يكتب إلى مرؤوسه كتاباً ، فيكون أمراً عادياً ، فإذا كان الأمر أهم ، استدعاه عنده ، وقال له : افعل كذا وكذا . فهو لم يستدعِهِ إلا لأن هذا أمر بالغ الأهمية ؛ ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل له المعراج تكريماً لقربه من حضرة ربه . وما دام تكريماً لقربه من حضرة ربه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث رحمة للعالمين جميعاً ، وحرصه على أمته حرص شديد ، لم يشأ الله تعالى فى مقام قربه منه ، إلا أن يردّه إلى أمته بما يقرب المؤمنين به من الله سبحانه وتعالى ، فكانت الصلاة هدية القرب للقرب .

المعراج كان تكريماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان قرأ من الله سبحانه وتعالى . لم يستأثر رسول الله ﷺ وحده بالتكريم ، ولكن لأنه يحب أمته ، لا بد أن يرجع بهدية من الله تعالى إلى من يؤمن به ؛ لتكون وسيلة إلى القربى . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾^(١) [العلق : ١٩] . فكان

(١) يقول البقاعى : ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ أى دم على صلاتك وخصوعك بنفسك ، وجدد ذلك فى كل وقت . ولما كان السجود أقرب مقرب للعبد إلى الله ، -

= قال : ﴿ وَأَقْرَبَ ﴾ أى اجتهد بسرك فى بلوغ درجة القرب إلى ربك بكل عبادة ، لاسيما الصلاة . فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد^(١) ، وقد شرح هذا المقام كما تقدم فى الفاتحة قوله ﷻ : « أعوذ بعفوك من عقوبتك »^(٢) فإن هذه الجملة أفادت - كما قال فى كتاب الشكر - مشاهدة أفعال الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . قال : ثم اقترب ففنى فى مشاهدة الأحوال ، وترقى إلى مصادر الأفعال ، وهى الصفات ، فقال : « أعوذ برضاك من سخطك » لأنهما صفتان . ثم رأى ذلك نقصاناً فى التوحيد ، فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الصفات ، إلى مشاهدة الذات . فقال : « وأعوذ بك منك » ، فراراً منه إليه من غير رؤية فعل وصفة . ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثلياً ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً ، فاقترب فقال : أنت كما أثبت على نفسك ، لا أحصى ثناء عليك^(٣) فقله : لا أحصى خبر عن فناء نفسه ، وخروجه عن مشاهدتها ، =

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . أخرجه مسلم [٢١٥/٤٨٢] والنسائى فى الكبرى [٧٢٣] .

(٢) راجع نظم الدر [٣٤، ٢٣/١] .

(٣) عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فرقعت يدي على بطن قدميه ، وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك » . أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] واللفظ له ، وأبو داود [٨٧٩] ، والنسائى فى المجتبى [٢١٠/٢] ، وابن ماجه [٣٨٤١] .

= وقوله : « أنت كما أثبت » بيان أنه المثني والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين . وهو أول أفعاله ، فيستعيد بفعل من فعل ، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته ؟ إذن .. انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق . ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من مرتبة إلى أخرى ، إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ، ويرى ذلك نقصاً في سلوكه ، ونقصيراً في مقامه . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة »^(١) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً ، بعضها يعد نقصاً لنقص أوائلها ، وإن كان مجاوراً أقصى غايات مقامات الحق ، ولكن كان نقصاً بالإضافة إلى أواخرها ، فإن استغفاره لذلك .

ولما قالت له عائشة رضى الله عنها : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »^(٢) معناه : أفلا أكون طالباً للمريد فإن الشكر سبب الزيادة ، حيث قال تعالى : ﴿ يَنْ مِّنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] انتهى . وهو على ما ترى من النقاسة ، فمن أكثر من الدعاء في سجوده ، فقم أن يستحب له ، والصلاة لا تكون قراءة ، فإذا فعلت ذلك احتجبت عن الأغيار بحجاب منيع ، فازددت صفاء وصنت حالك عن العير - كما يرشد إليه ما في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً -

(١) أخرجه مسلم [٤١/٢٧٠٢] عن الأغر المزني ملفظ . « إنه ليغان على قلبي ، راسي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » . وأخرجه أبو داود [١٥١٥] .

(٢) أخرجه البخاري [٤٨٣٦، ١١٣٠] . ومسلم [٨١، ٨٠، ٧٩/٢٨١٩] .

السجود الذى هو أظهر مظاهر الخضوع فى الصلاة ، هو الذى يقرب الإنسان إلى الله تعالى وذلك القرب الذى اقتربه رسول الله من ربه ، فكان الله سبحانه وتعالى حياً محمداً ﷺ ، حين قرّبه منه فى الملأ الأعلى ، بأن حمّله هدية إلى المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لتكون لهم مدخلاً للقرب من الله ، كما كا . لرسول الله حظه فى القرب منه سبحانه وتعالى .

ولتوضيح معنى أن الصلاة تقربك من الحضرة الإلهية ، نقول .
إن الإنسان خلق من الله تعالى ، فالله تعالى هو مُبْدِئُهُ ، وهذا الخلق والإبداع يقف كل يوم خمس مرات . فلا بد أن يكون على أوفى شىء من الضبط . وقلنا : إن المهندس من البشر ، يصلح الآلة بشيء مادي يصنعه فيها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لأنه غيب بالنسبة لنا يُصْلِح عبده الذى يقف بين يديه ، فى لحظة القرب هذه ، بأمر غيبى أيضاً ، وليس بعملية مادية . فتخرج من مقامك بين يدي ربك ، وأنت مسترح الصدر ، وقد انزاحت همومك من على كاهلك ، وقوى إيمانك وتوثقت صلتك بالله تعالى .
إذن .. فالصلاة هى التى تعلم الإنسان ، كيف يقبل على التكليف ، وإذا كان الإسلام قد بنى على خمس :

١ - شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

٢ - وإقام الصلاة .

٣ - وإيتاء الزكاة .

٤ - وصوم رمضان .

= لسانه ، عارفاً برمانه مقلداً على شأنه . والله أعلم فقد رجع آخرها إلى الأول ، أوجه وأجمل وأكمل ، والله الهادى .

نظم الدرر [١٧٣/٢٢ - ١٧٥] .

٥ - وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

فلننظر إى هذه الأركان ، قد لا توجد هذه الأركان فى بعض الناس ، صحيح هى أركان الإسلام ، ولكن ليست هى أركان المسم . بمعنى : أن المسلم قد يكون فقيراً فلا تجب عليه الزكاة ^(١) ، والمسلم قد يكون مريضاً أو على سفر ، فلا يصوم ، ويسقط عنه فرض الصوم لأجل مسمى ^(٢) ، وقد لا يستطيع الحج ، فيسقط عنه فرض الحج ^(٣) .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً رضى الله عنه على اليمن قال : إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صلوات فى يومهم وليلتهم . فإذا فعلوا الصلاة فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس .

أخرجه البخارى [١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢] واللفظ له ، ومسلم [١٩] .

(٢) وذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِصْرًا لِّلشَّهْرِ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدِينَكُمْ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

(٣) قال سبحانه وتعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت امرأه من خشع ، فحمل الفضل ينظر إليها =

إذن .. هي أركان الإسلام ، وليست أركان المسلم ؛ لأن المسلم يعتمد أولاً على الشهادة ثم الصلاة بإقامتها . وعلى هذا فإن الركن الأساسي الذي لا ينفك عن الإنسان المسلم أبداً ، بعد الشهادة هو الصلاة .
والشهادة قد يقولها المسلم مرة عند دخوله الإسلام فهي مفتاح دخول الدين وإن كان عليه بالطبع أن يدها باستمرار مع المؤذن ، ويجدد بها إيمانه دوماً ، وأما الصلاة فلا تنفك عن المسلم أبداً حتى وهو في الحرب ، أو وهو مريض ؛ إذ يجب عليه أن يؤدي الصلاة ، حتى ولو بقلبه .
إذن .. فلا عذر لمن لا يؤديها أبداً ، لا مهرب ولا مفر^(١) .

= وسطر إليه ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجهه الفضل إلى الشق الآخر ، فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : نعم وذلك في الوداع .
أخرجه البخاري [١٥١٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥، ٤٣٩٩، ٦٢٢٨] .

(١) عن عمران بن حصيص ، قال : قال النبي ﷺ : صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب . أخرجه البخاري [١١١٧] .
وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بين الكفر والإيمان ترك الصلاة أخرجه الترمذي [٢٦١٨] وقال : حديث حسن صحيح ، واللفظ له ، وابن ماجه [١٠٧٨] ، وصححه الألباني .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر .

أخرجه الترمذي [٢٦٢١] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والنسائي في المجتبى [٢٣١/١، ٢٣٢] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، وصححه الألباني .

أنت مطلوب منك أن تشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولو مرة واحدة ؛ إذ هي مفتاح دخولك الإسلام ، وبعد ذلك قد تصوم أو لا تصوم ، وذلك حسب الصحة والمرض والسفر ، وقد لا تحج إذا كنت غير مستطيع للحج فلا تحج ، فما الذى بقى لك من أركان الإسلام ، بقى لك الصلاة ، وهي الركن المتكرر الدائم ؛ لذلك فالصلاة عماد الدين^(١) .

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدت - مع كونها لا تسقط عن مسلم أبد فيها كل أركان الإسلام ؛ لأنك لا بد في الصلاة أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فالركن الأول مكرر فيها .

وأيضاً إيتاء الزكاة ، ما الزكاة ؟ إن الزكاة هي شيء من مال يعطى للمحتاج ؛ أى أن تضحي بشيء من مالك ، والمال في عرف الإسلام فرع الوقت ؛ لأن العمل يحتاج إلى وقت ، فكأنك ضحيت ببعض مالك الناتج من عملك ، الناتج من استغلال وقتك . والصلاة لا تأخذ من المال ، ولكن تأخذ

(١) الصلاة عماد الدين ، ولقد وعد الله تعالى بالجنة من يحافظ على الصلاة ، وأوعد بالويل الذين هم عن صلاتهم ساهون ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ ﴾ [الماعون] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ ﴾ [المدثر] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة ، كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شيء » ، قال : انظروا ، هل تجدون له من تطوع يكمل له ما ضيع من فريضة ، ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك » أخرجه السائي في المجتبى [٢٣٢/١] ، وصححه الألباني .

من الوقت الذى يُعمل فيه العمل ، الذى يأتى بالمال ، فكأن الزكاة أخذت شيئاً من المال الناتج عن العمل ، والعمل الناتج عن الوقت . إلا أن الصلاة أخذت من الوقت نفسه ، من الأساس الأصيل .

إذن .. حينما تأخذ من يومك ساعة للصلاة ، تكون قد اقتطعت جزءاً من الوقت ، فجعلته للصلاة ، كما تقتطع جزءاً من المال .

إذن .. فالزكاة اقتطاع من المال ، والمال ناشئ عن العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت . فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسي ، ففيها زكاة أهم من المال . والذى يمنع الناس عن كثير من الصلاة ، هو أن يقولوا : إنها تحتاج إلى وقت ، وهذا يعطلنا عن مصالحنا . فيكون ردنا عليهم بأن نقول لهم : كما أن الله سبحانه وتعالى سمى نقصان المال من الزكاة : زكاة ، فهو لم يسمه نقصاناً ، ولكن سمّاه زكاة ، ونماء^(١) ، فيجب أن تستقبل أيضاً الوقت الضائع عندك

(١) يقول لعلامة الراغب الأصفهاني : أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ، يقال : زكا الزرع يزكو ، إذا حصل منه نمو وبركة . وقوله ﴿ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ [الكهف : ١٩٠] إشارة إلى ما يكون حلالاً لا تُستَوْخَم عقباه ، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس ، أى تسميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً ، موجودان فيها ، وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة فى القرآن بقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] وبزكاة النفس وطهارتها ، يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة الأجر والمثوبة . وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره ، وذلك ينسب تارة للعبد ؛ لكونه مكتسباً لذلك ، نحو : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّهَا ﴾ [الشمس : ٩] وتارة ينسب إلى الله تعالى ؛ لكونه قاعلاً -

فى الصلاة ، الذى تقول عليه : ضائعاً ، استقبالك الناقص يخرج من مالك ، فهو ينقصه ويزيده ولا ينقصه . فكذلك الوقت إذا ضحيت منه ببعضه ، وجعلته لله سبحانه وتعالى ، فإن البركة فى بقية الوقت ، ستوصلك كل ما قد مضى ، كما أن الزكاة نماء ، والربا محقق .

وأيضاً فيها صوم ، وما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، فى نهار رمضان . وأنا فى الصلاة أمسك عن شهوتى البطن والفرج ، وعن الحركة والكلام ، وعن كل شىء .

= لذلك نحو : ﴿ بَلِ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٩] وتارة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكونه واسطة فى وصول ذلك إليهم ، نحو : ﴿ تَطَهَّرْهُمْ وَزَكَّيْهِمْ بِهَا ﴾ وتارة إلى العبادة ، التى هى آلة فى ذلك ، نحو : ﴿ لَا تَهْبِ لَكَ غُلَمًا زَكِيًّا ﴾ أى مزكى بالخلقة ، وذلك على طريق ما ذكرنا من الاجتهاد ، وهو أن يجعل بعض عباده عالماً وطاهر الخلق ، لا بالتعلم والممارسة ، بل بتوفيق إلهي . كما يكون حال الأنبياء والرسل ، وينعته بالمزكى لما يكون عليه فى الاستقبال ، لا فى الحال والمعنى سيتزكى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ ، أى يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله أو ليزكوا أنفسهم والمعنيان واحد . وليس قوله للزكاة مفعولاً لقوله فاعلون ، بل اللام فيه للعلة والقصد . وتزكية الإنسان نفسه ضربان : أحدهما : بالفعل وهو محمود وإليه قصد بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .

والثانى : بالقول كتزكية العدل غيره ، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه ، وقد نهى الله تعالى عنه فقال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] ونهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه ، عقلاً وشرعاً ، قيل لحكيم : ما الذى لا يحسن وإن كان حقاً ؟ فقال : مدح الرجل نفسه .

مفردات ألفاظ القرآن [٢١٨] .

إذن .. فهناك لون من الصيام متعلقاته فى المنع ، أوسع من متعلقات الصيام^(١) .

وأيضاً فيها قصد البيت الحرام والاتجاه إليه ؛ لأنك تستحضر وأنت تصلى الكعبة ، بيت الله سبحانه وتعالى ، فتتجه إليه ، وتتحرى عن اتجاهه .

ولما كانت الصلاة هى الركن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم ، جاءت فيها كل الأركان فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ومن الزكاة بشيء أكثر فائدة من المال ، بل بالوقت الذى يأتى بالمال ، ومن صوم صمته فوق ما تصوم فى رمضان ، واستحضار لبيت ربك فى كل وقت من الأوقات ، فكأنك حججت بقلبك ، وإن عجرت عن الحج بجسدك .

ولكن .. ماذا عن دور موسى عليه السلام فى النصيح بمراجعة الله سبحانه وتعالى ؛ لتخفيف عن المسلمين بإنقاص الصلاة ؟

هنا نريد أن نقول : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة - كما قلنا سابقاً - لأهميتها ، والرواية التى قالت لنا : إن الله سبحانه وتعالى قد فرض خمسين

(١) يقول لراغب الأصفهاني : لصوم فى الأصل : الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً ؛ ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف : صائم ، قال الشاعر :

خيلاً صيَّاماً وأخرى غير صائِمة

وقيل للريح الراكدة : صومٌ ، ولاستواء النهار صومٌ ؛ تصوراً لوقوف الشمس فى كبد السماء ، والصوم فى الشرع : إمساك المكثف بالنية ، من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، عن تناول الأطيبين والاستمناء والاستقاء .

مفردات ألفاظ القرآن [٢٩٨] .

صلاة ، ولما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى بذلك ، يقال له :
ارجع إلى ربك فاسأله التحفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمساً ^(١) .
في هذا المقام أحب أن أذكر المسلمين بأن كراهيتنا لليهود ، يجب
ألا تنسحب على موسى عليه السلام . يجب أن يفهم هذا الكلام جيداً ، فلا
يدخل في نفوسنا شيء على موسى عليه السلام ؛ لأن موسى عليه السلام ،
رسول من رسل الله سبحانه وتعالى ، بل هو من أولى العزم من الرسل ^(٢) .

(١) عن أنس بن مالك : أن ابن عباس وأنا حجة الأنصارى كانا يقولان : قال النبي
صلى الله عليه وسلم : ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف
الأقلام قال ابن حزم وأبو مالك : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فمرص
على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك - حتى مررت على موسى فقال : ما
فرض الله على أمتك ؟ قلت . فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك ،
فإن أمتك لا تطيق ذلك . فراجعته فوضع شطرها . فرجعت إلى موسى قلت :
وضع شطرها . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تطيق . فراجعته ، فوضع
شطرها . فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق . فراجعته
فقال : هي خمس وهي خمسون ، لا يبدل القول لدى . فرجعت إلى موسى
فقال : راجع ربك . فقلت : استحييت من ربي . جزء من حديث أخرجه
البخاري [٣٤٩ ، ١٦٣٦ ، ٣٣٤٢] واللفظ له ، ومسلم [١٦٣ / ٢٦٣]

(٢) قال الله تعالى : ﴿ ءَامَرَ الرُّسُلَ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَتُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِمْ وَفَكُلُوا سَعِيدًا
وَأَطَعْنَا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وجاء في الحديث الطويل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، أنه سُئِلَ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » جزء من حديث أخرجه البخاري [٤٧٧٨ ، ٥٠]
عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، ومسلم [١ / ٨] واللفظ له .

وكونه طلب من رسول الله ﷺ أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف ، هل في ذلك وصاية ؟ وما نوع هذه الوصاية ؟ الوصاية تكون من الإنسان الذي يأتي ليفرض عليّ أمراً أكثر ، أما الوصاية التي تأتي بالتخفيف ، فهل توصف بأنها وصاية ؟ إنه يريد أن يخفف عني أموراً ، يعلم هو أنني لا أطيقها .

وقد ورد في الحديث : « فإن أمتك لا تطيق ذلك » ، فهل يريد أن يقلل من شأن الأمة الإسلامية واحتمالها ، كما يقول بعض الموتورين ممن لا عقل لهم ؟ نقول : لا ، انظر حينما يقول موسى لمحمد عليه الصلاة والسلام : « أنا جربت الأم قبلك » ، لم يكن الله سبحانه وتعالى قد فرض على قوم موسى عليه السلام إلا صلاتين ، صلاة بالعشي ، وصلاة بالعداء ، ومع ذلك ما قاموا بها . فموسى عليه السلام وهو الذي عاش مع قومه طويلاً يدعوهم إلى الله تعالى ويرغهم ، ومع ذلك لم يقوموا بوقتير من الأوقات ، ويقول ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا دليل على أنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحب أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك يريد ألا يعرضها لما تعرضت له أمته ، من أنها لم تستطع . فهذه ليست شهادة بأننا صعباء ، وإنما هو يحشى أننا قد لا نقوى على هذا ، لماذا ؟ لأنه جرب مع أمته فلم تقو .

ومعنى جرب في قومه ، فهذه شهادة ضد أمته ، وليست ضدنا نحن ؛ لأن معنى ذلك أنه عرف أن أمته لم تستطع ، ولم بقدر ، فحشى علينا . ما الذي جعله يحشى علينا ؟ يقينه بما فعلته أمته .

إذن .. فهذا أمر ضدهم ، وليس ضدنا نحن .

ثم نأتى إلى السؤال عن كثرة أنبياء بني إسرائيل ، الذين قابلهم الرسول صلى الله عليه وسلم نقول : إن الأنبياء كما سبق أن قلنا - إنما جاءوا لتبليغ مذهب الله تعالى إلى خلق الله تعالى ليعالجوا أدواء البشر .

فكانهم الأطباء الذين أرسلهم الله تعالى ؛ ليعالجوا البشرية من علاتها ، فإذا ما كثر على أمة أطباء ، فاعلم أن أمراضها كثيرة . وما دام أنبياء بنى إسرائيل كانوا كثيرين ، فمعناه أن بلاءهم كان كثيراً ، وأن نبياً واحداً لم يكفهم ، وهذا دليل على استفحال الأدواء فيهم ، وأن نبياً واحداً لم يكن ليكفيهم ؛ ولذلك لا يؤخذ كون اليهود أكثر الأمم أنبياءً ، على أنهم أحسن الأمم وأعظمها . ونكرر قولنا لهم : إن الأنبياء ، كالأطباء ، وكثرتهم عند اليهود تدل على أن أمراضهم كثيرة معضلة ، وإن طبيباً واحداً لم يكن كافياً ، فعلى الرغم من تعدد الأنبياء ، كان ما كان منهم ^(١) .

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

قال ابن كثير يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم . وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ آسَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠] .

قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ . قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالماً .

وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا ؛ لأن هذه الأمة أفضل ؛ منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١١٠] =

= وفي المسانيد والسنن عن معاوية القشيري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .
وقيل : المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس ، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً حكاه الرازي وفيه نظر . وقيل : إنهم فضّلوا على سائر الأمم ؛ لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبي في تفسيره ؛ لأن العالمين عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، فأبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه .

تفسير ابن كثير [٨٥/١] بتصرف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

قال أبو حيان : أرسل الله على أثر موسى رسلاً هم : يوشع ، وشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، وشعيا ، وأرميا ، وعزير ، وحزقييل ، وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى . وغيرهم .
البحر المحيط [٤٨٠/١] .

وقال ابن عطية : يُروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي ثم تقوم سوقهم آخر النهار ، وروى : سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار .

المحرر الوجيز [١٧٦/١، ١٧٧] .

هى خمس .. والثواب على خمسين

إذا كان الله قد جعلها خمس صلوات ، فلماذا أمر فى بدء الأمر بخمسين ؟
نقول : إن التكليف من الله سبحانه وتعالى ، ليست لحاجة الله تعالى إلى فعلنا ، وإنما هى لصالحنا نحن . فالأساس الأصيل ، أن التكليف لا ينتفع الله تعالى بها ، وإنما هى لصالحنا نحن ، فحين يكلفنا الله سبحانه وتعالى تكليفاً ، فإنه يكون لصالحنا ، ويعطينا على هذا التكليف أجراً إن قمنا به .
وحين فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة خمسين وصيّرها إلى خمس ، هل أنقص ما يريد إعطاءه من الثواب ، أم ظل الثواب خمسين ؟
نقول : لقد ظل الثواب خمسين .

إذن .. فالعطاء غير متناسب مع العمل ، فتقرير العطاء من الله تعالى على الخمسين ، وظل العطاء هو العطاء ، وبعد ذلك تخففت الوسيلة لا العطاء ، فبعد أن كانت خمسين أصبحت خمساً ، ولكن الثواب ظل كما هو .
وكثير من الناس يقول : كيف يسخ الله تعالى الحكم ، قبل أن نتمكن من الفعل ؟ فيكون الرد عليهم : إن الناس يفهمون أن مراد التكليف من الله سبحانه وتعالى ، إنما هو فعل الشيء المكلف به ، بمعنى أن المراد من كل تكليف من الله سبحانه وتعالى لخلقه ، أمران :
الأمر الأول : الإيمان بالتكليف وعدم رده .
الأمر الثانى : فعله .

فإذا قبلت الأول ، فقد أخذت شقاً من الأمر بالتكليف ، وبعد ذلك الشق الآخر وهو الفعل ، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة ، فأقول مثلاً : إبليس عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، لماذا طرد إبليس من رحمة الله ؟ ولماذا تلقى آدم كلمات من ربه ، فتاب الله عليه ؟

هنا ننظر إلى معصية كل منهما ، فإبليس عصى الله تعالى في أنه رد الأمر التكليفي على الله تعالى ، وقال : ﴿ أَتَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١] بمعنى أنه لا يعجبني هذا التكليف ، فأنا خير منه .

إذن .. فقد رد التكليف على من ؟ على الله تعالى .

لكن آدم عليه اسلام لم يردّ التكليف على الله تعالى^(١) ، بل اتهم نفسه وقال كما ورد في الذكر الحكيم في سورة الأعراف آية [٢٣] : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فحين كلف الله سبحانه وتعالى رسوله أن تكون الصلاة خمسين ، قبلها رسول الله ﷺ ، وانصاع لأمر التكليف ، ولم يعارض فيه . ثم بعد ذلك طلب التخفيف . فيكون قبوله صلى الله عليه وسلم هو التسليم بأمر الله سبحانه وقبول التكليف ، ثم بعد ذلك : فعله شيء آخر .

فالذي نسخ ليس قبول التكليف ، ولكن الذي نسخ هو فعل التكليف . فالخمسون صلاة ، صارت خمسين ، فهل يكون الله سبحانه وتعالى قد كلف

(١) قال القاسمي في قوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ أي أضررناها بالمعصية ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ أي ما سلف ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ أي بالتوبة وقبولها ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي لصيرون ممن خسر جميع ما حصل له من الكمالات .

قال الضحاك ابن مزاحم في قوله : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... ﴾ الآية : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

لطيفة : قال الجشمي : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من ارحمة . تفسير القاسمي [٢٦٤٣/٧] .

بشيء ، وقبل أن يمكن منه نسخه ؟ نقول : إنه مكن في واحدة ، ولم يمكن من الثانية ، مكن من ماذا ؟ من أنه قبل أمر التكليف .

وشاهد ذلك في قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام : إن الحق سبحانه وتعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ، ماذا كان من إبراهيم ؟ قال : ﴿ يَبْنِي إِلَهِي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قَالَ يَتَّبِعِ أَفْعَلُ مَا نُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا أَتَمَّ وَتَلَّمَ لِلْحَيَيْنِ ﴿١١٣﴾ وَتَدَبَّعَهُ أَنْ يَتَابَرَهُمْ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ بَجَزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ [الصفحات] ، أى : تقبلت يا إبراهيم الأمر بإيمان و يقين ، وأقبلت أنت وولدك لتفعله ، فتكون المسألة قد انتهت ، فهذا هو المراد من إبراهيم^(١) ، فكأن الأمر التكليفي يطلب منه شيئا :

(١) يقول ابن كثير : يذكر تعالى عن خليله إبراهيم ، أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حلیم وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ؛ لأنه أول ولده وبكره ، وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أى شب وصار يسعى في مصالحه كأيّه ، قال مجاهد : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أى شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل . فلما كان هذا رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده . هذا وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : رؤيا الأنبياء وحى^(١) . قاله عبيد بن عمير أيضاً ، وهذا احتبار من الله عز وجل لخليله ، في أن يذبح هذا الولد العزيز ، الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن ، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر ، وواد ليس به حسيس ولا أيس ، ولا زرع ولا ضرع . فاه في أمر .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٣٨، ٨٥٩] .

= الله في ذلك وتركهما هناك ؛ ثقة بالله وتوكلاً عليه ؛ فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده ، هذا الذي قد أفرد عن أمر ربه ، وهو بكره ووحده الذي ليس له غيره ، أجاب ربه وامتلأ أمره وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ؛ ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فبادر الغلام إلهيم لطاعة والده الخليل إبراهيم ، فقال : ﴿ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْكُمْ لَاصِقِينَ ﴾ . وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَسْمَاءُ وَتِلْكَ لِحَبِيبٍ ﴾ قيل : ﴿ أَسْمَاءُ ﴾ أى اسمها لما لأمر الله وعزماً على ذلك .

وقيل : هذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى ﴿ وَتِلْكَ لِحَبِيبٍ ﴾ : أى ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه ؛ لئلا يشاهده في حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح ، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض ، و ﴿ أَسْمَاءُ ﴾ أى سمي إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت .

قال السدي وغيره : أُمِرَ السكينة على حلقه فلم تقطع شيئاً ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم .

فعند ذلك نودي من الله عز وجل : ﴿ أَنْ يَبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك . وبذلك ولدك للمريان ، كما سمحت بيدك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيقة ، لهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْبَيْنُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] أى الاختبار الظاهر البين .

- وقوله . ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴾ أى وجعلنا فداء ذنب ولدته ، ما يسره الله تعالى به من العوض عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن ، رآه مربوطاً بسمرة في ثبير .

قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كبش قد رعى في اجرة أربعين خريفاً وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجرة حتى تشقق عنه ثبير وعليه عهن ، أى صوف أحمر ، وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذي قره ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمى ، وقال سعيد بن عمير : ذبح بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن : أنه كان تيساً من الأروى ، واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاحتبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان حدثنا منصور عن حله نافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دار ، قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم لى عثمان بن طلحة ، وقال سرقة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : « إني كنت رأيت قربي الكبش حين دخلت البيت ، ففسيت أن امرئ أن تخمرهما فحمرهما ، فإنه لا يسعى أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » . قال سفيان . لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا (١) .

(١) رواه أحمد في المسند [٣٨٠/٥، ٦٨/٤] عن صفية بنت شيبة أم منصور . وقال الأرباؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير مسافع فم رجال مسلم وهو ثقة .

الأول : أن يؤمن به . وأن يتلقاه بقبول والتسليم والرضا وعدم الرفض والرد .

والثاني : أن يفعله ؛ ولذلك إذا جاء واحد لم يُصَلِّ ، ونقول له : أنت لم تُصَلِّ ، فهل أنت منكر للصلاة أم كسلان ؟ فإن كان منكرا ، فنقول له : كفرت . لماذا ؟ لأنه ردّ الأمر في الأول . وإن كان متكاسلا فنقول له : يجب أن يصلي ، فأنت عاصي لله تعالي بترك الصلاة ويخشى عليك كذا وكذا . والذي يتعامل بالربا ، إن قال : إن الربا حرام ، ولكنني مضطر إليه ويعدد أسباب اضطرابه ، ويطلب من الله تعالى أن يعاونه على الخلاص منه فإنه قد قبل الحكم من الله سبحانه وتعالى ، ولكن نفسه ضعفت فلم ينفذه . فهذا مؤمن عاصي ، لكن الذي يحل الربا أو يحل بعض صوره ، يكون قد دخل في منطقة الكفر ، لماذا ؟ لأنه لم يقبل الحكم من الله ، ورده عليه سبحانه وتعالى .



- وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكيش لم يزل معقاً عند ميزاب الكعبة قد يس . وهذا وحده دليل على أن الديح إسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره . والله أعلم .

البداية والنهاية [١٤٨/١-١٤٩] .

صلاة القانتين .. ودوام الولاء لله

إن الصلاة هي الركن الذي يتكرر كل يوم خمس مرات بخلاف بقية الأركان فالزكاة لا تكون إلا كل عام ، وكذلك الصيام ، وحج الفريضة لا يكون إلا مرة واحدة في العمر . وتكرار الصلاة في اليوم خمس مرات ، ذلك للتعبير عن دوام الولاء العبودي لله تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

والصلاة حين تتكرر كل يوم ؛ فإنها تعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ، وتأخذه من دنياه للوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى خمس مرات في اليوم والليلة ، وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبدًا عن الإنسان ؛ فهو يرددها في حال الصحة ، وحال المرض . فالمؤمن يستطيع أن يصلي واقفًا ، وأن يصلي جالسًا ، وأن يصلي راقدًا ولا مانع إذا اضطرت الظروف أن يجرى مراسم الصلاة على قلبه^(١) .

وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله : « الله أكبر » ، فهذه دعوة للإقبال على الله تعالى ، إقبال في ساعة معومة ؛ للوقوف بين يديه سبحانه ، واستحضار عظمته ، فيعطينا سبحانه وتعالى المدد .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، واقنوت في الصلاة معناه : الخشوع والاطمئنان والمداومة ، والإنسان القانت

(١) أخرج البخاري [١١١٧] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال : « كان بي بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؟ فقال : « صل قائمًا ؛ فإن لم تستطع فاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

صديق مع نفسه ذلك لأن العبد قد لا يفهم أو يدرك المراد من التكليف ولذا
فإقبال العبد على التكليف بخشوع وحب وطاعة لأمر الحق تبارك وتعالى
الذى نشق فى حكمته ولا نعلم مراده قد يدخلنا فى نورانية لنرى العلة من هذا
التكليف ذلك بأن يرينا فرقانا فى أنفسنا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنعام : ٢٩] ، أى : ينصركم وينجيكم مما
تخافون^(١) .

« ولذلك إن كنت تريد أن تعرف علة أى حكم كفك الله به فاتق الله فى
تنفيذه فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]

ولقد مدح الله تعالى المتقين فى قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ
النِّكَاحِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حُسْنِ الْمَتَابِ ﴾^(٢)
قُلْ أَزْيَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾^(٣)
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٤) الصَّادِقِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالْمُسْقِينَ وَالْمُسْتَقِينَ بِالْأَسْعَارِ ﴾^(٥) [آل عمران] .

(١) قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال الواحدى : بين حقكم وباطل من
يبيغىكم السوء من أعدائكم بنصره إياكم عليهم وهذا قول مقاتل .
وقال عكرمة والسدى : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ نجاة ، يعنى : أن الله تعالى يفرق بينكم
وبين من تخافون فتنجون ، والفرقان مصدر لفرق .

التفسير الوسيط [٤٥٤/٢] .

وكلمة : « قانتين » هي وصف لمن يعيشون القنوت . والقنوت هو عبادة مع خضوع وخشوع ومداومة .

والحق لم يشرع العبادات كي ينفذها الناس حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب فحسب ، لكن الحق أراد بالتكليف أن يرفع من قيمة الإنسان في الحياة ولذا فالتكليف يُعد نعمة من الله سبحانه أجراها على عباده .

والذي يؤدي الصلاة بقوت يكون أهلاً لمودة الله ، أما الذي أدى الصلاة ثم تركها بعد ذلك ، ولم يداوم عليها بدون عذر ، كأنه لم يجد حلاوة العبادة ولم يجد الله سبحانه أهلاً للود والعباد بالله فامتنع عن الوقوف بين يديه .

والعبد القانت لا يترك عبادة دخل فيها تصوغاً لله إلا بعذر ؛ لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع واطمئنان ومداومة ؛ وبذا يدخل دائرة القانتين وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل »^(١) فالمدامة على العمل وإن قل تجعل العبد داخلاً في عباد الله القانتين ، أى : المداومين على العبادة .

ولقد كانت السيدة مريم رضى الله تعالى عنها أهلاً لاصطفاء الله تعالى لها وذلك قول الحق سبحانه . ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاوِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ٤٢] .

ولذلك كان حقاً عليها بعد هذا التكريم بالاصطفاء أن تكون من القانتين قال تعالى : ﴿ يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران ٤٣] . وهذا أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها قنوتاً وسجوداً بل ﴿ وَأَسْجُدِي ﴾ أى . أكثرى من السجود والخشوع ؛ لأن السجود هو أعلى مراتب الخضوع .

(١) أخرجه مسلم [٢١٨/٧٨٣] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

كن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله سبحانه مع الناس ؟ لا .. لقد صدر أمر الحق سبحانه بأن تكون من الراكعين مع الناس ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ، وكأن الله تعالى يقول لها : لا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعي مع اراكعين فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : لقد أمرنى الله بأمر أعلى ون أنفذ الأمر الأدنى ، لذا يحب أن تكونى أيضاً فى ركب الراكعين .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه مع الراكعات ؟ إن الله سبحانه حينما تكلم عن آدم سماه : « نفس » وهى كلمة مؤنثة ، لذا فليس نص التأنيث فى اللفظ أنه أقل معنى من التذكير . كما أن كلمة : « ناس » نص فى مجموع الإنسان وهى تطلق مرة على المذكر ومرة على المؤنث ؛ وعليه فالتذكير والتأنيث علامة لوضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية كوسيلة للتخاطب وليست هناك أفضية . وإنما يدمج الله تعالى المرأة فى الرجل ؛ لأنها مبيعة على الستر والحجاب ، فهى مطمورة فيه ، وداخلة فيه .

فإذا قال سبحانه : ﴿ وَأَذْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فالركوع ليس خاصاً بالمرأة حتى يقال : اركعى مع الراكعات . وإذا قال : اركعى مع الراكعات ، وهى فى محرابها والناس يصلون ، هل تمتنع عن الصلاة لأنه لا يوجد راکعات^(١) ؟

(١) قال الفخر الرازى : لِمَ لم يقل : واركعى مع الراكعات ؟ والجواب : لأن الاقتداء بالرجال حان الاختفاء من الرجال أفصل من الاقتداء بالنساء

التفسير الكبير [٤٤/٨] . =

إذن .. فقله : ﴿ مَعَ الرَّكْعَتَيْنِ ﴾ أعم ؛ لأنه أدخل الركعات في الركعتين ،
ولو قال : الركعات ، لم تدخل في الركعتين .



= وقال أبو حيان . وجاء ﴿ مَعَ الرَّكْعَتَيْنِ ﴾ دون الركعات ؛ لأن هذا الجمع
أعم إذ يشمل الرجال والنساء على سبيل التغليب ، والمناسبة أواخر الآيات قبل
ربعد ، ولأن الاقتداء بالرجال أفضل إن قلنا إنها مأمورة بصلاة الجماعة .
البحر المحيط [١٤٩/٣] .

صلاة الخاشعين .. والاستعانة بالصبر والصلاة

الخشوع : هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع وهو الله سبحانه وتعالى وهو الذى خلق ووهب وأوجد من العدم ، وقول الحق : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] يلفتنا إلى أن مطلوب الإيمان شاق ويحتاج إلى ضرورة الاستعانة بالصبر والصلاة ؛ لأن المسألة ليست سهلة بل تحتاج إلى جهد فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب ، وكل مؤمن يدخل مهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه ، وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرمها الله سبحانه تعالى . وقد فسر بعض العلماء « الصبر » بأنه الصيام وما يتبعه من مشقات^(١) .

(١) وفى الحديث عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبی صلى الله عليه وسلم ، إذا حزبه أمر صلى » . أخرجه أبو دارود [١٣١٩] ، وأحمد فى المسند [٣٨٨ / ٥] ، وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود [١١٢١] . وعن صهيب الرومى رضى الله عنه عن النبی : صلى الله عليه وسلم : « .. كانوا - يعنى الأنبياء - يفرعون إذا فرعوا إلى الصلاة .. » . أخرجه أحمد فى المسند [٣٣٣ / ٤] وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . وعن ابن عباس رضى الله عنه : نعى إليه أخوه قثم وهو فى مسیر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطل فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] أخرجه سعيد بن منصور فى سننه [٦٣٢ / ٢] بسند صحيح ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره [١٤ / ٢ رقم ٨٥٢] .

وروى الطبرى بسنده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ يقول : استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله . =

= وعن الربيع في قوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ، اعلّموا
أنهما عونٌ على طاعة الله .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، فإن تأويله : فإن لله ناصرة وظهيره وراص
بفعله ، كقول القائل : « افعِلْ يَا فلان كذا وأنا معك » ، يعنى : إني ناصرك
على فعلك ذلك ومُعينك عليه .

وقال الطبرى : وهذه الآية حصٌّ من الله تعالى على طاعته ، واحتمال مكروها
على الأبدان والأموال ، فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ ﴾ على القيام بطاعتي ، وأداء فرائضى فى نسخ أحكامى ،
والانصراف عما أنسخه منها إلى الذى أحديثه لكم من فرائضى ، وأنقذكم إليه
من أحكامى ، والتسليم لأمرى فيما أمركم به فى حين إزامكم حكمه ،
والتحول عنه بعد تحويلى إياكم عنه - وإن لحقكم فى ذلك مكروه من مقالة
ُعدائكم من الكفار بقلوبهم لكم الباطل ، أو مشقة على أبدانكم فى قيامكم به ،
أو نقص فى أموالكم - وعلى جهاد أعدائكم وحربهم فى سبيلى ، بالصبر
منكم لى على مكروه ذلك ومَشَقَّتِهِ عَلَيْكُمْ ، واحتمال عنائه وثقله ، ثم بالفرع
منكم فيما يتوبكم من مَفْظِعَاتِ الأمور إلى انصلاة لى . فإبكم بالصبر على
المكاره تُدركون مرضاتى ، وبالصلاة لى تستنجحون طلباتكم قبلى ، ومدركون
حاجاتكم عدى ، فإنى مع الصابرين على القيام بأداء فرائضى وترك معاصى ،
أنصرهم وأرعاهم وأشكؤهم ، حتى يظفروا بما طلبوا وأملوا قبلى .

نفسير الطبرى [٢١٣/٣ ، ٢١٤] .

وقال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾
أرشد تعالى المؤمنين ، إثر الأمر بالشكر فى الآية قبل ، بالاستعانة بالصبر والصلاة .
لأن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها . أو فى نقمة فيصبر عليها . كما =

= جاء في الحديث^(١) : « عجباً للمؤمن لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له . وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له » . وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب في سبيل الله ، الصبر والصلاة . كما تقدم في قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ . وفي الحديث^(٢) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خزته أمر صلى . ثم إن الصبر صبران : صبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثواباً . لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذلك أيضاً واجب . كالاستغفار من المعائب . وقال الإمام ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » : وأعظم عون لولج الأمر خاصة ، ولغيره عامة ثلاثة أمور : أحدها : الإخلاص لله ، والتوكل عليه بالدعاء وغيره . وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن .

والثاني : الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة .
والثالث : الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب . ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم [٢٩٩٩/٦٤] عن صهيب بلفظ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر . فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » . وأخرج أحمد في المسند [٢٤/٥] عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيراً له » . وقال الأرنؤوط : حديث صحيح وهذا إسناد حسن من أجل ثعلبة بن عاصم وباقي رجال الإسناد ثقات .

(٢) تقدم ، أخرجه أحمد في المسند [٣٣٨/٥] ، وأبو داود [١٣١٩] ، وحسنه الألباني عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

= وبقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِكِ ﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ [هود] .
وقوله : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا وَمِنْ لَيْلٍ أَلْبَسَ اللَّيْلَ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : ١٣٠] .
وأما قرائته بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جداً .

فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية . إذا عرف
الإنسان ما يدخل في هذه لأسماء الجامعة ، يدخل في الصلاة من ذكر الله
تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفي الزكاة
الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإعانة الملهوف وقضاء
حاجة المحتاج . وفي الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس
ومخالفة الهوى وترك الشر والبطر .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ قال الإمام ابن تيمية « في شرح حديث
النزول » : لفظ المعية في كتاب الله جاء عاماً كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

وفي قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَحْوِي ثَلَاثَةٌ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] ،
إلى قوله : ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ . وجاء خاصاً كما في قوله : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] .

وقوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

فلو كان المراد بذاته مع كل شيء ، لكان التعميم يناقض التخصيص . فإنه قد
علم أن قوله : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أراد به تخصيص نفسه وأبا
بكر دون عدوهم من الكفار ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، =

= فلفظ المعية ليست في لغة العرب ولا في شيء من القرآن أن يراد بها اختلاط إحدى الداتين بالأخرى . كما في قوله تعالى : ﴿ تَحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤٦] ، وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وقوله : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يدل على أن تكون ذاته مختلطة بدوات الخلق . وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر ويين أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى الجامعة والمصاحبة والمقارنة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه . ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان . ويخص بعضهم بالإعانة والبصرة والتأييد .

محاسن التأويل [٣١٦/٢ - ٣١٩] .

وقال العلامة السعدي رحمه الله تعالى عليه : أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدنيوية ﴿ يَا صَبْرٍ وَالصَّلَاةِ ﴾ . فالصبر هو حبس النفس وكفها عما تكره ، فهو ثلاثة أقسام :

الأول : صبرها على طاعة الله ، حتى تؤديها .

الثاني : وعن معصية الله حتى تتركها .

الثالث : وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها .

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر ، فلا سبيل لغير الصابر ، أن يدرك مطلوبه وخصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة ، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر ، وتجرع المرارة الشاقة . فإذا لازم صاحبها الصبر ، فاز بالنجاح ، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها ، لم يدرك شيئاً ، وحصل على الحرمان ، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل فطرة العبد ، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم ، وكف لدواعي =

= قلبه ونوازعها لله تعالى ، واستعانة بالله على العصمة منها ، فإنها من الفتن الكبار .

وكذلك البلاء الشاق ، خصوصاً إن استمر ، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ، ويوجد مقتضاها ، وهو التسخط ، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله ، والتوكل عليه ، واللجوء إليه ، والافتقار على الدوام .

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد ، بل مضطر إليه في كل حالة من أحواله ، فلهذا أمر الله تعالى به ، وأخبر أنه : ﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى : مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة ، ومكة - بمعونته وتوفيقه وتسديده - فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره ، وسهل عليهم كل عظيم ، وزالت عنهم كل صعوبة ، وهذه معية خاصة تقتضى محبته ومعونته ، ونصره وقربه ، وهذا معية عظيمة للصابرين . فلو لم يكن للصابرين نصيلة إلا أنهم فاروا بهذه المعية من الله ، لكفى بها فضلاً وشفعاً ، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ وهذه عامة للحلق .

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ، ونور المؤمنين ، وهي الصلة بين العبد وبين ربه ، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة ، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها ، وما يسر ، وحصل فيها حضور القلب الذى هو لبها ، نصار العبد إذا دخل فيها استشعر دحوله على ربه ، ووقوفه بين يديه ، موقف العبد الخادم المتأدب ، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله ، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا حرم أن هذه الصلاة ، من أكره المعونة على جميع الأمور ، فإن لصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

ولأن هذا الحضور الذى يكون فى الصلاة ، يوجب للعبد فى قلبه ، وصفاً ، وداعياً يدعو به إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه ، هذه هى الصلاة التى أمر الله أن يستعين بها على كل شيء . تيسير الكريم الرحمن [١٠٩/١ - ١١١] .

وسياق الآية كان يقتضى أن يقال : « وإنهما » ولكن قال : ﴿ وَإِنَّمَا ﴾
فهل المقصود الصبر أم الصلاة ؟

ونقول إنه عندما يأتى أمران منضمان إلى بعضهما فإن الأمور لا تستقيم إلا
بهما ، كما جاءت فى قول الحق : ﴿ يَحْلُمُونَ بِأَنَّهُ لَكُمْ لِيُرْضَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦٢] ذلك لأن الله ورسوله
يلتزمان على حق واحد وليس لكل منهما حق ، وقول الحق سبحانه ﴿ وَإِذَا رَأَوْا
تُجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الحج : ١١] حيث أن للتجارة واللهو
فى وقت الصلاة عمل واحد وهو : شغل المؤمنين عن العبادة والذكر .

والصبر والصلاة فيهما مشقة على النفس تبعدها عن نعيم الدنيا وزخرفها ،
والصلاة تحارب استكبار النفس ؛ لذا فلا يتم الصبر بلا صلاة ولا تنفع الصلاة
إلا بالصبر .

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ومدى ضالة
الإنسان أمام خالقه ؛ ذلك لأن الإنسان يعيش فى عالم من الأغيار ، ولذا
يجب أن يخشع الإنسان للذى لا يتغير . والذين يغترون بالأسباب نقول لهم :
انخشعوا لوهاب الأسباب وخالفها ، واعلموا أن الأيام دول فقوى اليوم ضعيف
غداً ، ألم يقل الحق : ﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَإِنَّكَ
الْأَبْتَامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ
لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وعليه فاخشوع لا يكون إلا لله والخالع
هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات الصابر على الأقدار المتيقن أن الأمر كله
لله وحده وليس لأى قوة أخرى وهذا ما يؤكد قول الحق أيضاً : ﴿ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقد سُئل الإمام علي رضي الله عنه عن حق الجار فقال : « تعلمون . أنك لا تؤذيه ؟ قالوا : نعم .. قال : وأن تصبر على أذاه » وقول الحق ﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ هنا أى : يطلب منك الحق أن تواجه الحياة فى معية الله . والأحداث لا تملأ الناس بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من منهج ربهم والذى يعيش فى معية ربه ومنهجه لا يجرؤ عليه شيطان ؛ لأن الشيطان يصعبه نخاس ، ولا يستطيع أن يدخل مع الله سبحانه فى معركة ، ولكنه يدخل معاركه مع من يتعدون عن منهج الله سبحانه من الناس .

إذن .. لا بد أن نعشق الصبر ؛ لأنه يجعلنا دائماً فى معية الله سبحانه ، وإن هذه الآية لا تجعل الإنسان يئس مهما لقي فى حركة حياته من مشقة .

وقلنا : إن الإنسان المخلوق لله عندما يقف كل يوم خمس مرات بين يدي الله فإنما يصلح من ذاته ويتطهر من ذنوبه ^(١)

إن الإنسان صنعة الله ، وعندما يذهب الإنسان إلى لقاء خالقه جل وعلا ؛ فإنه يصلح ما يصيبه من عطب ؛ وقد لا يدري الإنسان هذا اللون من العطب . وهكذا يُعد الخالق سبحانه خلقه لمواجهة كل ألوان المتاعب فى الحياة بقوله سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ؛ إن الحق يدعو المؤمنين إلى الحضور الدائم فى معيته ، معية الصبر والتأيد والمدد . إن أحداث الحياة والمصائب فيها لا يمكن أن تتسلط على النفس إلا إذا اعزلت النفس عن مصدر قوتها ، وفى هذا الموضع يأتى أمر الحق بالتكليف الواضح . بالصبر

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » . أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] واللفظ له

على إيذاء اليهود وأهل الكتاب والمشركين لمشاعر المسلمين ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) .
 الله تبارك وتعالى يطلب من المؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة في أى أمر
 فى حركة الحياة يفوق طاقة المؤمن وقدرته ؛ لأن أى أمر لو كان فى مقدور
 الإنسان لما طلب المعونة ، ولنا أن نسأل : متى يطلب الإنسان المعونة ؟

(١) قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى عليه : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين
 موضعاً وهو واجب بإجماع الأمة . وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان :
 نصف صبر ونصف شكر . وهو مذكور فى القرآن على ستة عشر نوعاً :
 الأول : الأمر به . نحو قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
 وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقوله : ﴿ أَصْبِرُوا
 وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ .
 الثانى : النهى عن ضده كقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ
 وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَوَلُّوهُمْ
 الْآذِبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] . فإن تولية الأذبار : ترك للصبر والمصابرة . وقوله :
 ﴿ وَلَا يُطِلُّوا أَعْمَلَكُمْ ﴾ . فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها . وقوله : ﴿ وَلَا
 تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ فإن الوهن من عدم الصبر .

الثالث : الشاء على أهله كقوله تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] .
 وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ وهو كثير فى القرآن .

الرابع : إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

الخامس : إيجاب معيته لهم ، وهى معية خاصة ، تتضمن حفظهم ونصرهم
 وتأييدهم ، ليست معية عامة ، وهى معية العلم والإحاطة ، كقوله : =

= ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

السادس : إخباره بأن الصبر خير لأصحابه ، كقوله ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء : ٢٥] .

السابع : إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم . كقوله تعالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٦]

الثامن : إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب . كقوله تعالى . ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] .

التاسع : إطلاق البشرى لأهل الصبر . كقوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّرَاتِ وَيَسِّرَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

العاشر : ضمان النصر والممدد لهم . كقوله تعالى : ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يَتَذَكَّرُ لَكُمْ رِيحًا مِّنْ عَنَّا لَشَدِيدٌ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ومه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن النصر مع الصبر »^(١) .

الحادى عشر : الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم . كقوله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الثانى عشر : الإخبار أنه ما يُلْقَى الأعمال الصالحة وجزاؤها والخطوطة العظيمة إلا لأهل الصبر كقوله تعالى : ﴿... وَيَلْعَنُكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص : ٨٠] . وقوله : ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت : ٣٥] . =

(١) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٣٠٧/١] ، والحاكم في المستدرک

[٥٤١/٣] عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : « واعلم أن مع الصبر النصر » .

وصححه الشيخ أحمد شاكر في المسند برقم [٢٨٠٤] .

= الثالث عشر : الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعر أهل الصبر . كقوله تعالى لموسى : ﴿ ... أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .
وقوله في أهل سبأ : ﴿ ... فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ : ١٩] . وقوله في سورة الشورى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْبَوَارِ فِي الْفَجْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

الرابع عشر : الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروب المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى : ﴿ .. وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ ذِي الْقُرْبَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .
الخامس عشر : أنه يورث صاحبه درجة الإمامة . سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه - يقول : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

السادس عشر : اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان ، كما قرنه الله سبحانه باليقين والإيمان وبالتقوى والتوكل والشكر والعمل الصالح والرحمة ؛ ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له . كما أنه لا جسد لمن لا رأس له .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « خير عيش أدركناه بالصبر »^(١) . =

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم . وقال الحافظ في الفتح : قد وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » . وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أحمد كذلك . وأخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد من وجه آخر عن مجاهد به . فتح الباري [٣٠٣/١١] .

- وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « أنه ضياء »^(١) .
وقال : « ومن يتصبر يصبره الله »^(٢) . وفي الحديث الصحيح : « عجباً لأمر
المؤمن إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر .
فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له »^(٣) .
وقال للمرأة السوداء التي كانت تصرع فسألتها : « أن يدعولها : « إن شئت صبرت ،
ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك » . فقالت : أصبر ، فقالت إني
أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف . فدعا لها^(٤) .
وأمر الأنصار رضي الله عنهم بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى
يلقوه على الخوض^(٥) .
وأمر عد ملاقة العدو بالصبر . وأمر بالصبر عند المصيبة . وأخبر : « أنه إنما
يكون عند الصدمة الأولى »^(٦) .
وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له ، وهو الصبر والاحتساب . فإن ذلك
يخفف مصيبته ويوقر أجره . والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ،
ويذهب الأجر . وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله : فقال : « وما أعطى أحد
عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »^(٧) . مدارج السالكين [١٧٨ / ٢ / ١٧٤] .

- (١) أخرجه مسلم [١/٢٢٣] ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه .
- (٢) أخرجه مسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه .
- (٣) أخرجه مسلم [٦٤/٢٩٩٩] ، عن صهيب الرومي رضي الله تعالى عنه .
- (٤) أخرجه البخاري [٥٦٥٢] ، ومسلم [٥٤/٢٥٧٦] ، عن ابن عباس رضي^١ عنهما .
- (٥) أخرجه البخاري [٤٣٣٠] ، ومسلم [١٣٩/١٠٦١] ، عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه .
- (٦) أخرجه البخاري [١٢٨٣] ، ومسلم [١٤/٩٢٦] ، عن أس بن مالك رضي الله عنه .
- (٧) أخرجه البخاري [١٤٦٩] ، ومسلم [١٢٤/١٠٥٣] ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه .

الإنسان يطلب المعونة عند عدم القدرة . إذن .. لا بد أن تستوعب قدرة الإنسان الفعل فيستطيع إنجازها ، ولكن ماذا يفعل الإنسان حين يجيء فعل يفوق قدرته ؟ ساعتها يحب عليه أن يستعين بلقادر الذي لا تنفذ قدرته أبداً . إن هذه الآية يستطيع المؤمن أن يسير على هداها في كل حركة في الحياة ، فيقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الأشياء سبحانه ، ولا يستعين الإنسان بالخالق جل وعلا إلا إذا كان مؤمناً به .

وقول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ ﴾ معنى ذلك أن الحق ينبهنا إلى أن هناك أحداثاً ستأتى لتستنفذ الطاقة البشرية وتعلو عليها وتتخطاها ، والصبر هنا يدل على أن هذه الأحداث فيها إيلاام وفيها مشقة ، وكأن الحق يعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة قد تستنفذ طاقة الإنسان العادى ، لكن المؤمن يستطيع أن يتحمل مشقة الأحداث بالصبر على ما يلاقه ، إن الحق لا يُمَيِّى المؤمنين الدين اختاروا السير على الصراط المستقيم فى الحياة ، بأن طريق الإيمان طريق سهل حالٍ من المشاق . إن مهمة أهل الطريق المستقيم فى الحياة أنهم أصحاب حق ، وأصحاب الحق لا تستنفر همهم إلا حين يستشرون الباطل ، والباطل حين يرى دنياه تنزل من تحت أقدامه فهو يحاول جاهداً أن يصد جنود الحق .

إن الله يَعِدُ المؤمنين بأنهم سيواجهون عنفاً ويواجهون شراسة ويواجهون مكراً ويواجهون كيذاً ، فلما كم أيها المؤمنون أن تخور منكم القوة وأنتم تؤدون المهمة ، هذه المهمة هى : إعلاء كلمة الله فى الأرض ؛ وإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله الواحد القاهر ، وهذا الأمر لن يتم بيسر وسهولة ، لا بد من المشقة وتحمل تبعات ذلك .

إن أعداء الإسلام سيتكالبون عليكم فكونوا أنتم أشد منهم قوة راستعينوا بالصبر . والصبر هو أن يتحمل الإنسان لونين من المشقة .
اللون الأول من المشقة هو : أن الطاعة قد تكون صعبة على النفس فعلى المؤمن أن يصبر عليها .

واللون الثانى من المشقة هو : أن الطاعة تتطلب أيضاً أن يكف الإنسان عن شهوة تلح النفس عليها ^(١) ، وهذا أيضاً يتطلب صبراً .

(١) ولذلك فقد قسّم العلماء « الصبر » إلى أنواع ، وذلك بالنسبة لما يستقبله العبد من أمور فى حياته وإلى أنواع أخرى بالنسبة لعلاقة المسلم بربه ، وعرفوا الصبر لغة وشرعاً ، وما نحن بذكر كلامهم على وجه من الاحتصار الغير محل ، فأنواع الصبر لما يستقبله العبد من أمور فى حياته هى :

١ - الصبر فى اللغة : الحبس والكف ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهًا ﴾ [الكهف : ٢٨] أى : احبس نفسك معهم ، كما قال الإمام ابن القيم . مدارج السالكين [١٧٨/٦] .

٢ - الصبر شرعاً : حبس النفس على ما يقتضيه الشرع ، فهو حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعاصى والبعد عن الله نتيجة ظروف الحياة .

وقد قال الراغب : فالصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي صبراً لا غير ويصاده الجزع . وإن كان فى محاربة سُمي شجاعة ويصاده الجبن .

وإن كان فى نائية مضجرة سُمي ربح الصدر ويصاده الضجر .

وإن كان فى إمساك الكلام سُمي كتماناً ويصاده المذل ، وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً .

مفردات ألفاظ القرآن [ص ٤٧٤] . =

إذن .. فالطاعة تتطلب صبرا في حالة تنفيذ مطلوبها وتتطلب صبرا آخر في حالة الابتعاد عن المشقة ، إن الطاعة تتطلب الصبر على القيام بعمل قد يرى الإنسان أنه شاق ، وتنتهي عن عمل قد يرى الإنسان أنه سهل وفيه لذة ، لذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » (١) .

الطاعة إذن تتطلب لونين من الصبر ، الصبر على مشقة الطاعة لتفعلها ، والصبر على ترك المعصية لتتجنبها ، لكن إذا ما ظلت النفس مع الله تعالى باتباع أمره واجتناب نهيه فلن تقدر أحداث الحياة أن تتسلط بالهموم على النفس الإنسانية . إن الإنسان المؤمن ما دام في حصانة دينه فلا يقوى عليه حدث أبداً . أما الإنسان المنعزل عن منهج الله فهو الذي تقوى عليه أحداث الحياة ؛ لأنه يواجهها بقدرته المحدودة ، وأما الإنسان المؤمن بمنهج الله فهو يعيش في معية ربه القادر القدير ، فلا يتغلب عليه أحد أبداً إلا إذا انعزل عن

= وللصبر أنواع أخرى منها :

١ - الصبر لله « فلا يرأى فيه » لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

٢ - الصبر بالله : قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل ١٢٧] . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَنْفِخْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦]

٣ - الصبر عن الله : وهو حرام وذلك لمن ذاق حلاوة القرب من الله عز وجل ثم صبر على البعد عنه بعد ذلك .

مدارج السالكين [٢ / ١٧٨] وما بعدها .

(١) أخرجه ابى حارى [٦٤٨٧] عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ومسلم [١/٢٨٢٢] عن أنس بن مالك رضى الله عنه واللفظ له .

معية ربه أو خالف فى شىء من مهجه ، فإن أراد المؤمن أن يستديم نصر الله ، فليظل دائماً فى معية الله ، والحق يكون مع الصابرين ؛ حتى يعلم : أن الله تعالى يفرج عنهم .

إن أمر الحق للمسلمين بالصبر والصلاة ، هو تجديد استدامة الولاء له سبحانه عندما رحلوا من مكة إلى المدينة ، وكان اليهود فيها أصحاب شىء من العلم ؛ ولهم جزء من السيطرة على الاقتصاد ، لذلك جاء أمر الله بالاستعانة بالصلاة لتستمر القيم التى هجرها اليهود ، وأمرهم الحق بالزكاة ؛ لأن الزكاة فى جوهرها إيجاد حركة من الإنسان ؛ لتسع حاجة و حاجة من يعول وتزيد ، وبذلك يستعنى المسلمون عن اليهود فلا يحتاجون إلى اقتصاد يسيطر عليه هؤلاء الذين لعنهم الله .

إن الأمر بالزكاة ، كان فى جوهره أمراً بزيادة الحركة فى الحياة ؛ ليواجه المسلمون أمور حياتهم بحزم ، ويصلحوا من هذه الأمور بمنهج الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تبعات الإيمان ، ومواجهة المؤمنين لخصوم الإيمان ستتطلب من المسلمين مشقة عنيفة ، فهى تهددهم فى دوائهم وفى أهلهم وفى أموالهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى المؤمنين فى هذه البيئة مائة ضد كل هذه الأشياء ، فأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة ، فقال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .



الصلاة .. الركن الفارق بين الإسلام والكفر

لو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدي بعضها ويسقط عنه البعض الآخر .

إذن .. فهناك فرق بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، فالمسلم الفقير الذي لا يحد الضرورات تسقط عنه الزكاة ، ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وإذا كان مريضاً وفقيراً سقطت عنه الأركان الثلاثة . ولم يبق له من الأركان إلا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة . وهذان لا يسقطهما عنه شيء ، ولا يحون دونهما حائل أبداً ، لا في الفقر ، ولا في الغنى ، ولا في الصحة ولا عند العجز . لذا كانت الصلاة هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم^(١) وهي عماد الدين^(٢) وهي فريضة في اليوم خمس مرات لإعلان دوام الولاء لله سبحانه ؛

(١) أخرجه مسلم [١٣٤/٨٢] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » . وروى الترمذي [٢٦٢١] والسنائي في المجتبى [٤٦٣] ، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة [١٠٠٣/٢] وصححه الألباني .

عن يزيد بن حبيب الأسلمي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . وقال الترمذي : حديث صحيح ، إسناده على شرط مسلم .

(٢) وورد عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : « الصلاة عمود الدين » . ذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير [٣٥٦٧] وعراه لأبي نعيم ؛ انفضل بن دكين في الصلاة .

ومن ثم كانت الصلاة أهم أركان الإسلام ليس لهذا السبب سالف الذكر فقط ، ولكن لأن الصلاة أيضًا تشمل كافة الأركان .. كيف هذا ؟
إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ففي كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وكل صلاة فيها زكاة لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ؛ والمال يأتي من العمل ، والعمل محتاج لوقت والصلاة تأخذ بعض وقتك الذي يمكن أن تستخدمه في العمل ليعطيك رزقًا تركز به ، فكأنك وأنت تصلي أعطيت بعض مالك لله تبارك وتعالى فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

ونأتي بعد ذلك للصوم وأنت في الصوم تمتنع عن شهوة البطن وشهوة الفرج لبعض الوقت ، وكذلك في الصلاة كما أنك لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة ولا أن تقترب من زوجتك ، ولذا أنت بالصلاة تكون في دائرة أوسع من الإمساك لشهوتي الفرج والبطن ذلك أنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .
إذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام ، نقول إنك ساعة تصلي لا بد أن تتجه إلى بيت الله الحرام وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام الذي يقصده الحجاج يكون في بالك وفي ذكرك وأنت تتجه إليه في كل صلاة .

وروى الترمذي [٢٦١٦] عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « .. ثم قال : ألا أتحرك بملاك ذلك كه ؟ قلت : بلى يا نبي الله ، قال : فأخذ بلسانه ، قال « كف عليك هذا » . فقلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . رأس الأمر وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . . » ، وصححه الألباني .

وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام الخمس كلها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمر رضي الله تعالى عنه « إن الصلاة عمود الدين » ولذا فإن من أقامها فقد أقام الدين .
والمأمل لترتيب آيات القرآن يجد أن الصلاة مقرونة دائماً بالزكاة لأن الزكاة طهارة المال ، والصلاة طهارة الوقت ، ونحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتي بالمال الذي نزكي به .
ومن ثم كانت الصلاة هي أهم أركان الإسلام والتي تجمع كل أركان الإسلام لبعض المسلمين الذين تسقط عنهم بعض الأركان لمرض أو فقر ومن هنا تتجلى عظمة الصلاة .



الصلاة .. وتكفير الذنوب

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [مود: ١١٤] وهكذا كشف الله تعالى وجهها من حكمته سبحانه في القيام بالصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل وهي أن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما يسهما ما اجتنبت الكبائر ، ولكن ما هي الحسنة وما هي السيئة ؟ الحسنة هي ما رتب الله تعالى على عملها ثوابا ، والسيئة هي ما جعل الله سبحانه على عملها عقابا .

وأولى حسنات الإيمان أن نشهد أن لا إله إلا الله فُتُذْهِبُ حسنة الإيمان سيئة الكفر .

وقال بعض العلماء إذا كان الإيمان حسنة أذهبت سيئة الكفر ؛ فيأمن تقول إن المؤمن الذي عمل الذنوب والكبائر سيحصد في النار ما الفرق بين إنسان عصي وهو مؤمن وإنسان عصي وهو كافر ؟ وإذا كان الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها الكفر ، ألا يذهب بها سبحانه ما هو دون الكفر ؟

إن الإيمان حسنة أذهب الله تعالى بها سيئة الكفر ، فالمؤمن العاصي مهما كانت معصيته لا يخلد في النار ، لأنه ليس من العدل المساواة بين من آمن بالله تعالى ولكنه حدث عنده بعض التقصير في أمور ، وبين من لم يؤمن بالله أصلاً . إذن .. كلمة الإيمان قد صنعت حسنة كبيرة بأن أذهبت الكفر أولاً فمنعت حلول المؤمن في النار ثانياً ، ولذلك الفرقة الناجية التي جاءت في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخلد في النار منها أحد أبداً ، وإن كان يدخلها بقدر ما ارتكب من المعاصي ، إذا لم تتداركه رحمه الله

تعالى بأن تكون حسناته أكثر في ميزانه من سيئاته ، أو يشفع الله تعالى فيها ، أو تناله شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يشفع فيه أحدًا من المأذون لهم في الشفاعة (١) .

والحسبات هي الفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده ، إذن .. فالحسنات التي هي الفرائض تذهب بالسيئات التي هي المعاصي ، وما يوجب عذاب الله . ولكن هناك أحاديث وردت في غير الفرائض منها مثلاً صوم يوم عرفة إلى عرفة يكفر السنة الماضية والباقية (٢) ، وعلى الإنسان إذا طعم طعاماً فعليه أن يقول : الحمد لله الذي أطعماً هذا من غير حول مني ولا قوة . وإذا لبس ثوباً جديداً قال : الحمد لله الذي كساني هذا الثوب من غير حول مني ولا قوة ، هذا الحمد يكفر الذنوب (٣) .

(١) انظر كتاب : « الشفاعة والمقام المحمود » لفضيلة الشيخ الإمام وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [١١٦٢/١٨٧] عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه .

(٣) روى أبو داود [٤٠٢٣] عن أسر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل طعاماً ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقني من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومن لبس ثوباً فقال : الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقني من غير حول مني ولا قوة : غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وقال الألباني في صحيح أبي داود [٣٣٩٤] : حسن دون زيادة « وما تأخر » في الموضعين .

وإذا قلت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تكفر الذنوب^(١) .

إذن .. فالحسنات تكون فرضاً وتكون غير فرض ، وكلها تحسب حسنات ؛ والسيئات هي عمل توعد الله من يعمله بالعقوبة فكيف تُذهب الحسنات السيئات ما دامت السيئات عملاً ؟ وهل العمل إذا وقع يرفع ؟ كيف تُذهب الحسنة السيئة ؟

نقول : إن السيئة إذا وقعت لا ترفع لأن الذهاب إما أن يكون ذهاب فعل وهذا ليس متأتياً ، وإما أن يكون ذهاباً لأثر ذلك الفعل ، وهذا هو الذي يحدث ، فالله سبحانه وتعالى يحوره من كتاب سيئاتك .

إذن .. فإذهاب الفعل في ذاته لا يحدث لأن الواقع لا يرفع وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود ١١٤] ليس معناه أنها تمنعها ، لأن السيئة وقعت فعلاً ، ولكن السيئة إذا وقعت فإن الذي يترتب عليها من عقاب هو الذي يُرفع بموجب فعل الحسنات^(٢) .

(١) روى ابن ماجه [٣٨٠٧] ، والحاكم في المستدرک [١٨٨٧/٦٩٣/١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو يعرس غرساً فقال : يا أبا هريرة ما الذي تعرس ؟ قلت : غراساً لي ، قال . ألا أدلك على غراس خير لك من هذا ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : « قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، يعرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة » . وصححه الألباني .

(٢) قال ابن كثير في قوله : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة .

تفسير ابن كثير [٤٤٣/٢] . =

- وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته ، فإذا حلف لي صدقته ، قال : حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد يدنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله ، عفر الله له ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ يُغْفِرْ إِلَّا لِلَّذِينَ هُمْ يُقَاتِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] . فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له ^(١) .

وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : رأيت رسول الله يتوضأ ، وقال من توضأ نحو وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه ^(٢) .

وعن عثمان رضي الله تعالى عنه ؛ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئي هذا ثم قال : ومن توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات ^(٣) .

- (١) رواه أبو داود [١٥٢١] واللفظ له . والترمذي [٤٠٦] ، وابن ماجه [١٣٩٥] ، وأحمد في المسند واللفظ له [١٠، ٨، ٩، ١٠] ، وصححه الألباني .
- (٢) أخرجه البخاري [١٥٩] ، ومسلم [٣/٢٢٦] ، وأبو داود [١٠٦] .
- (٣) رواه أحمد في المسند [٧١/١] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا ^(١) .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر ^(٢) .

وعن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول . إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة ^(٣) .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له قال : فزلت : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْتِلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِ لِلذَّكَرِ ﴾ [هود : ١١٤] ، قال الرجل : أئني هذا يا رسول الله ؟ قال : لم عمل بها من أمتي ^(٤) .

عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى عاجلت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، فأما هذا فاقض فى ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، قال فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقام الرجل فابطلق فأبغعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً دعاه وتلا عليه =

(١) أخرجه البخارى [٥٢٨] ، ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] ، والترمذى [٢٨٦٨] ، وابن ماجه [١٣٩٧] .

(٢) أخرجه مسلم [١٦/٢٣٣] .

(٣) رواه أحمد فى المسند [٤١٣/٥] .

(٤) رواه البخارى [٤٦٨٧] ، ومسلم [٣٩/٢٧٦٣] ، والترمذى [٣١١٤] .

= هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّيْئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ ﴾ .

فقال رجل من القوم يا نبي الله هذا له خاصة ، قال : « بل للناس كافة »^(١) .
وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غشمة وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »^(٢) .

وعن ابن عباس أن رجلا أتى عمر فقال : امرأة جاءت تباعه فأدخلتها الدولج ، فأصبحت منها ما دون الجماع ، فقال : ويحك لعلها مغيب في سبيل الله ؟ قال : أجل ، قال : فأت أنا بكر فأسأله ، قال : فأتاه فسأله ، فقال : لعلها مغيب في سبيل الله ؟ فقال : مثل قول عمر ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ذلك ، قال : فلعلها مغيب في سبيل الله ؟ ونزل القرآن : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّيْئَاتِ ﴾ إلى آخر الآية .
فقال يا رسول الله : ألي خاصة ، أم للناس عامة ؟ فضرب عمر صدره بيده =

(١) أخرجه مسلم [٤٢/٢٧٦٣] .

(٢) رواه أحمد في المسند [٣٨٧/١] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف ، وقال الدارقطني في العلل [٢٧١/٥] : والصحيح أنه موقوف .

= فقال : « لا .. ولا نعمة عين ، بل لمناس عامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق عمر » (١) .

وعن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « توصاً وضوءاً حسناً ثم قم فصل » . فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى قوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ، فقال معاذ : أهي له خاصة أم للمسلمين عامة ، قال : « بل للمسلمين عامة » (٢) .

وعن سلمان رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطايه كما يتحات هذا الورق » ، وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٣) . [هود : ١١٤] .
وعن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها ، ونخالق الناس بخلق حسن (٤) . =

(١) رواه أحمد في [٢٤٥/١] وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، والدولح بفتح الدال وسكون الواو وفتح اللام قال ابن الأثير . الخدع ، وهو البيت الصغير داخل البيت الكبير .

(٢) رواه الدارقطني [١٣٤/١] .

(٣) رواه أحمد في المسند [٤٣٧/٥] . وقال الأرنؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن يزيد .

(٤) رواه أحمد في المسند [٢٢٨/٥] وقال الأرنؤوط . حديث حسن ، وهذا إسناد رجاله رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة .

= وعن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وحالق الناس بحلق حسن »^(١) .

وعن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله أوصني قال : إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحها . قال : قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هي أفضل الحسنات^(٢) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما في صحيفته من السيئات حتى يسكن إلى مثلها من الحسنات »^(٣) .

- (١) رواه أحمد في المسند [١٥٣/٥] وقال الأرنؤوط : حسن لغيره وهذا استناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة .
(٢) رواه أحمد في المسند [١٦٩/٥] وقال الأرنؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شمر بن عطية .

- (٣) رواه أبو يعنى الموصلي [٣٦١١/٢٩٤/٦] وقال محققه : إسناده ضعيف .

الصلاة تفرّج الهموم

يروى أنه كان رجل يسير فى الليل فرأى الجنود الذين يراقبون الطرقات فقال الرجل فى نفسه قد يظلمنى الجند بسؤالى أين كنت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ لذلك سأجرى منهم واختفى فى أى مكان وجرى الرجل واختبأ فى مكان خرب ، وداهم الجند ذلك المكان ووجدوا فيه قتيلاً وكانت كل الملابس تشير إلى أن الرجل هو القاتل . واقتاد الجند الرجل إلى الحاكم . فماذا كان من الرجل ؟ لقد طلب الرجل أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين لله وأمهله الحاكم فصلى الرجل ودعا الله قائلاً : « اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد لى على براءتى إلا أنت وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك » .

لقد كان الرجل يؤمن يقيناً بأن الله قد أمر المؤمنين بالألّا يكتُموا الشهادة لذلك سأل الرجل ربه الحق أن يظهر براءته ، وعلى الفور دخل على الحاكم فجأة رجل وقال أنا القاتل ، فتعجب الحاكم وسأل الرجل الذى جاء ليقر أنه قاتل : لماذا تعترف على نفسك ولم يرك أحد ؟

قال القاتل : والله ما قررت إنما جاء هاتف فأجرى لسانى بما قلت . القاتل يعترف أن هاتفاً قد جاء إليه فحرك خواطره فسار إلى الحاكم ليعترف أنه القاتل ، وها قام وليّ المقتول وصاحب الحق فى الدية وكان هو أن القاتل يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَشْهَدُكَ أَنِّى أَعْفَيْتَ قَاتِلَ أبى من دِيته » . إن تلك الحكاية تحكى للدلالة على طلاقة قدرة الحق سبحانه .

مظلوم برىء يصلى ركعتين للخالق كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى^(١) ، إن الإنسان عندما يقف بين يدي ربه ويناجيه فالحق سبحانه هو القادر وحده على أن يعطي الإنسان مسأله لأننا جميعاً في قبضته يفعل بنا ما يشاء وقت ما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، فعلياً أن نصدق في التوجه إليه ونخلص الية في الطلب ، ونكثر في الوقوف بين يديه ، فالصلاة لها شأن عظيم فهي ركن الإسلام الوحيد الذي فرض بالأمر المباشر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج^(٢) .

(١) رواه أبو داود [١٣١٩] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود [١١٧١] ، وأحمد في المسند [٣٨٨/٥] .

(٢) انظر كتاب : شرح حديث الإسراء والمعراج للشيخ الإمام ، فهو كتاب فريد في بابه ، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامى .

قال الإمام القسرى : الصلاة هي أكرم شعب الإسلام بعد الشهادة لله للرسول ، فأما كونها من شعب الإسلام فيبين ذلك في حديث جبريل وغيره من الأحاديث ؛ وقد روى حابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال . « العهد الذى يساوينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »^(١) .

وصفتها وما تحتاج إليه من أمور كل ذلك مكتوب فى كتب الفقه وأقل ما يجزى العبد فى فعلها ما رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه وجماعة من الرواة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلى -

(١) رواه الترمذى [٢٦٢١] ، وابن ماجه [١٠٧٩] ، والبيهقى فى السنن الكبرى [٣٦٦/٣] ، وأحمد فى المسند [٣٤٦/٥] ، والحاكم فى المستدرک [٧،٦/١] ، وصححه الألبانى .

= ثم جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرَدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه السلام . قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » . فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعليك السلام » ثم قال : « ارجع فصل فإنك لم تصل » حتى فعل ذلك ثلاث مرات . فقال الرجل : والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا ، علمي . قال : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها »^(١) .

ومنها فرائض كالصلوات الخمس ، وصلاة الجنائز ، وفي الآثار : أن اتباع الجنائز من الإيمان . فهي شعبة من الإيمان - أعني اتباع الجنائز لأنها تذكر بالآخرة ، والوقوف بين يديه والجرء والثواب والعقاب ، لكننا احتصرنا ذكرها لأنها من جملة الصلوات فلم نفردها لها باباً .

ومنها سنن كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والوتر وركعتي الفجر . ومنها فضائل كسائر النوافل .

وتأدية الصلاة وإقامة ركوعها وسجودها وتلاوتها طاهراً لإسلام .

فأما روح الصلاة وفهم معانيها في مقام الإيمان ومقام الإحسان ، فإن أولها بعد التطهير والنظافة والدخول على الملك ، الانتهاض إلى موضع الصلاة وهي البقعة المقدسة من مسجد مبني وغير مبني ، فالمراد بالانتهاض والمشي انتهاض القلب والباطن وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت وخروجه عن عالم الدنيا =

(١) أخرجه البخاري [٧٥٧] ، ومسلم [٤٥/٣٩٧] ، وأبي داود [٨٥٦] ، والترمذي

[٣٠٣] ، والسنائي [١٢٤/٢] وابن ماجه [١٠٦٠] وأحمد في المسند [٤٣٧/٢] .

- حتى يدخل إلى متعبد الملائكة الذى وجب الإيمان بهم فى العالم المقدس الذى ليس فيه ما يشغل عن الصلاة .

ثم القيام إلى الصلاة والمراد قيام القلب إلى أعلى عليين بين يدى الله تعالى .
ثم إحضار النية ، وإدراك بها التقرب إلى الله بالصلاة وإخراج ما فى القلب سوى من أقبل عليه وذلك إشراف على من توجه إليه وغيبه من غيره فإذا أشرف على المطلوب برقع الحجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المتجلى له وخالطته حرمة واحترامه فحينئذ يحرم بتكبير الإحرام لأنه فى موضع الاحترام والحرمة فيحرم عليه النظر إلى غيره والاشتغال بسواه فيقول : « الله أكبر » من أن يقبل على غيره أو يلتفت له من أجل ما عرف من جلالة القدر وعظيم الخطر أحد فى الشاء على الله بالفتحة فيقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذى هو على ما هو عليه ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى سيد العالمين فتتجلى له صفة السيادة لله لتي استعبد بها العالمين على كثرتهم ويثنى عليه بصفاته ويناجيه بكلامه فيفهم من كلامه ومحادثته مع الله بفتحة الكتاب والسورة ما يوجب له الخضوع بين يديه فيركع لزيادة التعظيم بشهادة أوصاف المتكلم معه ، فيقول : « الله أكبر » منحطاً للركوع أى أكبر مما وقع فى نفسى من تعظيمه .

والمراد من ركوع الجسد خضوع النفس والروح فى مقام الإيمان والإحسان بين يدى كبرياء الجليل العظيم .

ولذلك أمر أن يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » لما شاهد من معنى التعظيم الذى خضع له فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التى هرب منها إلى الركوع لأن من تواضع لله ، أى : لأجل عظمة الله : رفعه الله إليه ، فإذا رفعه إليه شاهد العبد بحمة الله عليه فى رفعه فيبتدىء بالحمد والثناء فيقول : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً » فيجد فى =

- وقوفه طمأنينة حلاوة المزيد والنعمة التي رفعه الله بها وهي استدعاؤه إلى القيام
فحر ساجدًا شاكرًا ؛ لما أولاه فيصع وجهه على الأرض ظاهرًا ونفسه وروحه
تحت الثرى الذى ليس وراءه فى السفل منتهى إلا نفوس العارفين والأولياء
لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العلى شهداء فيضع نفسه
تحت كل تحت ولذلك ليس وراء السجود منتهى فى التواضع والتكبير
مستصحب له ، ومعناه ، أى : الله أكبر مما شاهدت ووقع فى نفسى من
تعظيمه وأعلى .

فإذا وضع فى السجود نفسه أسفل من كل سفل بالمعنى الذى هو الدل شاهد
من سفله علاء ربه فقال : « سبحان ربي الأعلى » فاستدعاه ربه للرفوع
والقرب من البعد والتمتلز الذى أنزل نفسه فى سجوده .

ومعنى التسبيح فى الركوع والسجود : تنزيه لمركوع له والمسجود له من حالة
الركوع والسجود أى سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود .
فلما استدعاه للرفوع قعد بالعجز بين يديه لأنه لم يطلق القيام لما شاهد فى
السجود من الإجلال والإعظام فقعد بين يديه بالسكينة والعجز وأقر بالعجز له
أن يقوم بشيء من حق قدر ربه ولذلك أمر أن يقول فى قعوده بين السجودتين :
« رب اغفر ورحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأكرم » .

فيجد رحمة الله قد غشيتة والمغفرة قد غمرتة لأنه تجلى له بوصف رائد على
الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف ومسرعة إلى الاستكانة فزاد
سجودًا آخر بحكم وصف آخر فعاد بالتواضع الذى هو المراد من السجود حتى
لو وجد أن يصع نفسه فى أسفل مما وضعها فيه لوضعها وقد وجد الله مع كل
رفع وخفض فإن الواجب على كل عد أن يضع نفسه من التواضع فى خلاف
ما هو الله عليه من الجلال والعظمة ، وذلك لا يمكن أبدًا إلا مع التجلى وزيادة
التعظيم ، فكلما راد تجلى الصفات راد التواضع بقدر ذلك أبدًا . =

- وكذلك لما راد الإكرام زاد الشكر والثناء والتجلى دائماً أبداً الأبدى .
وكذلك التواضع دائماً أبداً الأبدى والشكر والثناء وجميع ما يليق بتجلى
أوصاف الباري ، والحمد لله على ما هو عليه .
ثم يدعو ربه إلى الاقتراب منه وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية فيجرب له ما
جرب له في الأول بحكم الزيادة لأن الصلاة إنما هي ركعة واحدة فيها تمت
معاني الصلاة وغير ذلك من الركعات تكرير فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه من
فهم خطابه وشهود أوصافه في قيامه وانحطاطه ورفوعه وأذكاره وسجوده
وجلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلي ظاهره وباطنه نوراً وبركة ورحمة وسروراً
وتواضعاً وحياءً وغير ذلك مما لا يحصى من أحوال المصلين العارفين الخاشعين ،
فعند ذلك يقعد في آخر صلاته فيأخذ في التشهد والشهادة لله بما هو له أهل
والثناء كما يحب وتفرّد التحية والملك له والتركية والتنزيه والمدح لبارئه بقول :
« التحيات لله الزاكيات لله الطيبات »^(١) .

وتفرّد العبودية له بقوله : « الصلوات لله » ويسلم على أكرم الوسيطاء الذي
هداه الله به إلى ما هو فيه محمد عليه الصلاة والسلام ثم يقر بكل ما جاء به
من عند الله ويصلي عليه .

فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من
الإيمان من الغيوب والدعاء والسؤال فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة
وكمالها ووجب التحلل منها بتمامها فأمر بالخروج إلى عالم الحسن والملك فعند
ذلك قال . « السلام عليكم » لأنه كان في الحضرة العلية خارجاً عن عالم =

(١) رواه الترمذى [٢٨٩] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه ، وابن ماجه
[٨٩٩] ، والسنائى [٢٣٧/٢] ، وأحمد فى المسند [٤١٣/١] وقال الأرناؤوط :
حديث صحيح . وأبى داود [٩٧١] عن ابن عمر رضى الله تعالى . . .

= الحسن مودعاً له كما قال محمد عليه الصلاة والسلام « صل صلاة مودع »^(١).

أى لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية فإذا قدم على هذا العلم وشاهد من حوله من الأملاك والإنس قال : « السلام عليكم » فيسلم على من على يمينه وشماله وحل له ما حرم عليه قبل ذلك ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « تحرّمها التكبير وتحليلها التسليم »^(٢).

فمن صحت به مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها ، ومن اعترضه الوسواس فليجاهد يكتب له أجر المجاهد إذا فاته معية الإحسان ومن اقتطعته العفلات أمثالنا وغدّم النصيب الأوفر ومشاهدة المذكور الأكبر كتّب له ما عقل وذلك فصل عظيم من الله لأن صلاته كانت في موجب الأدب أسرع إلى العفوية منها أن يكتب له ما عقل إذ لا يدري بين يدي من هو حتى يعرض إلى غيره بقلبه وهو واقف راعٍ ساجد بجسده .

فعليه أن يكثّر التفلسف ليحبر ذلك القصد فإنه مطالب به كما ورد : أن التوفيق جبر الفرائض .

لأنه لم يؤدها على الوجه الذى يجب والمعنى الذى أمر به ولم يكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يطيقون لكن شغلهم بغير ذكر الله حرمهم واقتطعهم عما افترض عليهم .

ونسأل الله الكريم أن يتغمّدنا برحمته ويتجاوز عن ذنوبنا وتقصيرنا لرحمته ، فلو لم تكن لنا ذنوب إلا التقصير فى أداء الفرائض لكان كافياً . -

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الروائد [٢٢٩/١٠] ، والربدى فى إتحاف السادة المتقين [١٦١/٣] ، والمدرى فى الترغيب والترهيب [٢٤٧/٤] ولألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة [١٩١٤] .

(٢) أورده الزيلعى فى نصب الراية [٣٠٧/١] ، وابن عبد البر فى التمهيد [١٨٢/٩] ، والقرطبى فى التفسير [٦٢/١٩] ، والهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠٤/٢] .

= فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى .

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام والإيمان والإحسان . فافهم .

وأما فهم الصلاة من جهة تركيبها وتفصيل أعضائها وهيئاتها فإنها عنى صورة عبادة العالم الكلى وعلى هيئة صلاة العابدين فيه .

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الدين يعرجون إلى الله ، ترح الملائكة والروح إليه والوقوف ليكون مع القائمين المشاهدين ، والذكر ليكون مع الذاكرين والهبوط ليكون مع المتزلين ، والركوع ليكون مع الراكعين الخاضعين ، والرفوع ليكون مع الصاعرين ، والسجود ليكون مع الساجدين ، والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين السابحين الدائرين ، والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين ووجود الراحة والنعيم بها ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين ، والخشوع ليكون مع الخائفين والمكرويين . والمجاهدة بالأذكار ليكون راجعاً للشياطين كالفلكيين وإلقاء السمع مع المراقبين ورمز المعاني في دعاء الفهم ليكون مع الحافظين الكاتبين .

ومع هذا كله فلا يقوم بشيء من حق الله عز وجل لعظيم ما هو الله عليه من جلال القدر وعظيم الخطر ؛ لكن يجد الراحة في شهود المنة إذ هو ربه على ما هو عليه من أوصافه ، ومع ذلك استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين فيستشعر في نفسه ذلك ويقول : كيف ذكرنى هذا الملك العظيم في نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات جناته ورحمته حتى كلمنى بكلامه واستدعانى لأن أكون من جملة المصلين من عباده فينوى ويتمنى ويود فى نفسه أن لو كان تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين على غاية الصفاء لو قدر =

- على ذلك ، فبهذا تفهم قوله : « نية المؤمن خير من عمله »^(١) .

ثم يشهد عجزه وتقصيره عن ذلك فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر بعد كل صلاة مرات ، وورد ذلك في الصحيح فيتوب من الحسنات كما يتوب لعاصي من السيئات لأن : حسنات الأبرار سيئات المقربين .
ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .
على صفاء عبادتها من شوب الكدورات ، وهذا المعنى الذى تقوله الملائكة هو الذى قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى قوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله » .

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل »^(٢) .

مع اجتهاده وصفات أحواله . وليس معناه أن العمل ليس ينفع فيكون قوله محرضا على ترك العمل بل قوله هذا مرغب فى الاجتهاد لجميع ما يقرب إلى الله تعالى فيه عليه الصلاة والسلام على عظيم حق الله تعالى الموحب لرؤية التقصير .
فالعبادات كلها لها وجهان تنظر منهما مرة بنظر من مقام العبودية ومشاهدة الربوبية وهو من هذا الوجه الذى ذكرناه فتعرف مقدار المعبود وما تقع =

(١) رواه الطبرانى فى الكبير [٥٩٤٢/١٨٥/٦] ، وهو فى مسند الشهاب [١١٩/١] ١٤٨ [وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٦١/١] ورجاله موثقون إلا حاتم ابن عباد ابن دينار الجرشى ، لم أر من ذكر له ترجمة وقال [١٠٩/١] : وفيه حاتم بن عباد ابن دينار لم أعرفه وفيه رجاله ثقات ومال المناوى أطلق الحافظ العرامى أنه ضعيف من طريقه .

(٢) أخرجه مسلم [٧٣/٢٨١٦] ، وأحمد فى المسند [٥٠٩/٢] واللفظ له .

= عبادتك في حقه وجلالة قدره فتكون عبادة الخلق أجمعين في ذلك أقل من غرز إبرة في بحر لجى فيولد هذا النظر الإجهاد والانكسار والخضوع والدلة والفقر إلى الله وجميع صفات العبودية المحسوسة التي ساعة واحدة متواصلة من عبادة ستين سنة . ومرة ينظر من مقام المنة ، وكيف ذكر الملك الأكبر الذي استعبد العرش بما حوى في نفسه لهذا العبد الذي لا يدري من هو في كثرة عباد الله وممالكه ، وكيف ارتضاه للإيمان به واستدعاه لعبادته ومساجاته وللقرب منه حتى يجعله من جلسائه كما قال : أنا حليس من ذكرنى .

فيتولد من هذا النظر أيضًا أحوال كريمة لا يعلم حقيقها إلا العارفون مثل الخياء الكائن عن الحضور والشكر الحادث عن رؤية المنة ، والمحبة المتولدة عن إحسان الله . إلى غير ذلك مما يشرحه الله في قلوب المختصين بهذا المقام وهو معنى قول الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] أى ذكر الله للعبد في نفسه أكبر من كل ما يتقرب به إليه ، فعلى هذين الوجهين من النظر درج العارفون في علومهم وأعمالهم وبهما تزكو الأعمال عند الله يسأل الله الكريم أن يَمُنَّ علينا بما مَنَّ عليهم في الدنيا والآخرة إنه ولي ذلك والقادر عليه . واعلم أن الوجود كله بأجزائه مُصلٍ لله بدوام وجود الوجود لا ينفك عن الصلاة فإنه في مقام العبودية لله . فمن أدام النظر رأى الوجود كله ظاهرًا وباطنًا مصليًا .

ومن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها ، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان كما ورد في بعض الأخبار : أن تارك الصلاة يحشر مع فرعون وهامان لأنه تأبى عن العبودية والتواضع لله كما فعل فرعون . فافهم .

فإن الذى لا يحضه لأحد هو الله وحده ، فمن صلى بجسده وفعل أركان الصلوات كما أمر ظاهرًا وأنزل نفسه مع كل ركن منها ومعنى من معانيها =



— الباطنة وفهم روحه وعقله تلك المعاني وشهد المراد بكل ركن منها ومعنى من معانيها ؛ فقد صلى بجسد وفعل أركان الصلوات كما أمر بظاهره وباطنه وجملته في عالم الخس ومقام الإسلام وفي عالم الغيب ومقام الإيمان وفي غيب الغيب ومقام الإحسان ووجد طعم المعاني الثلاث .
مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِالْكَمَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ . آمِينَ بِحَمْدِهِ وَرَحْمَتِهِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

شعب الإيمان [ص : ١١٩ : ١٢٦] .

الصلاة الوسطى

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

معنى قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ أى : الصلوات الخمس المفروضة ؛ فما المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ ؟ ^(١) .

(١) أخرج البخارى [٢٩٣١] ، ومسلم [٦٢٧/٢٠٢] عن على رضى الله تعالى عنه ؛ قال : لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملأ الله قبورهم ويوتهم نارا كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس » .

وفى رواية أخرى [٦٢٧/٢٠٥] عنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا » ثم صلاها بين العشاءين ، بين المغرب والعشاء .
قوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ هى تأنيث الأوسط ، والأوسط الأعدل من كل شيء ، وليس المراد به التوسط بين الشيئين ؛ لأن فُعِّلَى : معناها التفصيل ، ولا ينبى للتفصيل إلا ما يقبل الزيادة والنقص ، والتوسط بمعنى الخيار ، والعدل يقبلهما ، بخلاف المتوسط فلا يقبلهما فلا ينبى منه أفعال تفصيل .

قال الحافظ : قوله : « حبسونا عن صلاة الوسطى » أى : منعونا عن صلاة الوسطى ، أى : عن إيقاعها .

زاد مسلم من طريق شئير بن شكل عن على : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » وزاد فى آخره : « ثم صلاها بين المغرب والعشاء » .
ولمسلم عن ابن مسعود نحو حديث على ، وللترمذى والنسائى من طريق زر ابن حبيش عن على مثله .

= ولمسلم أيضًا من طريق أبي حسان الأعرج عن عبيدة السلماني عن علي فذكر الحديث بلفظ : « كما حبسوننا عن لصلاة الوسطى حتى غربت الشمس »
يعنى : العصر .

وروى أحمد والترمذى من حديث سمرة رفعه قال : « صلاة الوسطى صلاة العصر » .

وروى ابن جرير من حديث أبي هريرة رفعه « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .
ومن طريق كهيل بن حرملة : « سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال :
اختلفنا فيها ونحن بفناء بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما أبو هاشم
ابن عتبة فقال : أنا أعلم لكم ، فقام فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثم خرج إلينا فقال : أخبرنا أنها صلاة العصر » .

ومن طريق عبد العزيز بن مروان أنه أرسل إلى رجل فقال : أى شيء
سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة الوسطى ؟ فقال :
أرسلنى أبو بكر وعمر أسأله وأنا غلام صغير فقال : هى العصر .

ومن حديث أبي مالك الأشعرى رفعه « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .
وروى الترمذى وابن حبان من حديث ابن مسعود مثله .

وروى ابن جرير من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال : « كان فى مصحف
عائشة : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر » .
وروى ابن المنذر من طريق مقسم عن ابن عباس قال : « شغل الأحزاب النبى
صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى غربت الشمس فقال :
شغلونا عن الصلاة الوسطى » .

وأخرج أحمد من حديث أم سلمة وأبي أيوب وأبي سعيد وزيد بن ثابت وأبي
هريرة وابن عباس من قولهم : إنها صلاة العصر .
=

= وقد اختلف السلف فى المراد بالصلاة الوسطى ، وجمع الدمياطى فى ذلك جرئاً مشهوراً سماء « كشف الغطا عن الصلاة الوسطى » فبلغ تسعة عشر قولاً : أحدها الصبح ، أو الظهر أو العصر أو المغرب أو جميع الصلوات .
فالأول : قول أبى أمانة وأنس وجابر وأبى العالية وعبيد بن عمير وعطاء وعكرمة ومجاهد وغيرهم نقله ابن أبى حاتم عنهم وهو أحد قولى ابن عمر وابن عباس ، ونقله مالك والترمذى عنهما ، ونقله مالك بلاغاً عن على والمعروف عنه خلافه .

وروى ابن جرير من طريق عوف الأعرابى من ابن أبى رجاء العطاردى قال : « صليت خلف ابن عباس الصبح فقت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا أن نقوم فيها قانتين » .

وأخرجه أيضاً من وجه آخر عنه وعن ابن عمرو من طريق أبى العالية : « صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة فى زمن عمر صلاة العداة فقلت لهم : ما الصلاة الوسطى ؟ قالوا : هى هذه الصلاة » وهو قول مالك والشافعى فيما نص عليه فى « الأم » ، واحتجوا له بأن فيها القنوت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] وبأنها لا تقصر فى السفر ، وبأنها بين صلاتى جهر وصلاتى سر .

والثانى : قول زيد بن ثابت أخرجه أبو داود من حديثه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر بالهاجرة ، ولم تكن صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، فنزلت : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ الآية .

وجاء عن أبى سعيد وعائشة القول بأنها الظهر . أخرجه ابن المنذر وغيره ، وروى مالك فى « الموطأ » عن زيد بن ثابت الجزم بأنها الظهر وبه قال أبو حيفة فى رواية .

= وروى الطيالسي من طريق رهرة بن معبد قال : « كنا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال : هي الظهر » .
ورواه أحمد من وجه آخر وراد : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهجير فلا يكون وراءه إلا الصف أو الصفان والناس في قائلتهم وفي تجارتهم ، فنزلت » .

والثالث : قول علي بن أبي طالب فقد روى الترمذي والنسائي من طريق زر ابن حبیش قال : « قلنا لعبدة سأل عليًا عن الصلاة الوسطى ، فسأله فقال : كنا نرى أنها أصبح ، حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب : شعلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » انتهى . وهذه الرواية تدفع دعوى من زعم أن قوله صلاة العصر مدرج من تفسير بعض الرواة وهي نص في أن كونها العصر من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن شهة من قال إنها أصبح قوية ، لكن كونها العصر هو المعتمد ، وبه قال ابن مسعود وأبو هريرة ، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة وقول أحمد والذي صار إليه معظم الشافعية لصحة الحديث فيه ، قال الترمذي : هو قول أكثر علماء الصحابة . وقال الماوردي : هو قول جمهور التابعين . وقال ابن عبد البر : هو قول أكثر أهل الأثر ، وبه قال من المالكية ابن حبيب وابن العربي وابن عطية ، ويؤيده أيضًا ما روى مسلم عن البراء بن عازب « نزل حافظوا على الصلوات وصلاة العصر » فقرأناها ما شاء الله ، ثم نسخت فنزلت ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ، فقال رجل : فهي إذ صلاة العصر ، فقال : أخبرتك كيف نزلت » .

والرابع : نقله ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن ابن عباس قال : صلاة الوسطى هي المغرب ، وبه قال قبيصة بن ذؤيب أخرجه ابن جرير ، وحجتهم أنها =

= معتدلة في عدد الركعات وأنها لا تقصر في الأسفار وأن العمل مضى على المبادرة إليها والتعجيل لها في أول ما تغرب الشمس وأن قبلها صلاتا سر وبعدها صلاتا جهر .

والخامس : وهو آخر ما صححه ابن أبي حاتم أخرجه أيضًا بإسناد حسن عن نافع قل : « سئل ابن عمر فقال : هي كلهن ، فحافظوا عليهن » وبه قال معاذ ابن جبل ، واحتج له بأن قوله : ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ يتناول الفرائض والنوافل ، فعطف عليها الوسطى وأريد بها كل الفرائض تأكيدًا لها ، واختار هذا القول ابن عبد البر .

وأما بقية الأقوال فالسادس : أنها الجمعة ، ذكره ابن حبيب من المالكية واحتج بما اختلفت به من الاجتماع والخطبة ، وصححه القاضي حسين في صلاة الخوف من تعليقه ، ورجحه أبو شامة .

السابع : الظهر في الأيام والجمعة يوم الجمعة .

الثامن : العشاء بقه ابن التين والقرطبي واحتج له بأنها بين صلاتين لا تقصران ولأنها تقع عند اليوم فلذلك أمر بالمحافظة عليها واختاره الواحدى .
التاسع : الصبح والعشاء للحديث الصحيح في أنهما أثقل الصلاة على المنافقين ، وبه قال الأبهري من المالكية .

العاشر : الصبح والعصر لقوة الأدلة في أن كلاً منهما قيل إنه الوسطى ، فظاهر القرآن الصبح ونص السنة العصر .

الحادى عشر : صلاة الجماعة .

الثانى عشر : الوتر وصنف فيه علم الدين السخاوى جزءًا ورجحه القاضي تقي الدين الأنخائى واحتج له في جزء رأيته بخطه .

= الثالث عشر : صلاة الخوف .

= الرابع عشر : صلاة عيد الأضحى .

الخامس عشر : صلاة عيد لفطر .

السادس عشر : صلاة الصبح .

السابع عشر : واحدة من الخمس غير معينة قاله الربيع بن خثيم وسعيد بن جبير وشريح القاضي وهو اختيار إمام الحرمين من الشافعية ذكره في النهاية قال : كما أحفيت ليلة القدر .

الثامن عشر : أنها الصبح أو العصر على التردد وهو غير القول المتقدم الجازم بأن كلاً منهما يقال له الصلاة الوسطى .

التاسع عشر : التوقف فقد روى ابن جرير بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه .

العشرون : صلاة الليل وجدته عندى وذهلت الآن عن معرفة قائله . وأقوى شبهة لمن زعم أنها غير العصر مع صحة الحديث حديث البراء الذي ذكرته عند مسلم فإنه يشعر بأنها أبهمت بعدما عيت كذا قاله القرطبي ، قال : وصار إلى أنها أبهمت جماعة من العلماء المتأخرين ، قال : وهو الصحيح لتعارض الأدلة وعسر الترحيح . وفي دعوى أنها أبهمت ثم عينت من حديث البراء نظر ، بل فيه أنها عينت ثم وصفت ، ولهذا قال الرجل : فهي إدن العصر ولم ينكر عليه البراء ، نعم جواب البراء يشعر بالتوقف لما نظر فيه من الاحتمال ، وهذا لا يدفع التصريح بها في حديث علي .

ومن حججهم أيضًا ما روى مسلم وأحمد من طريق أبي يونس عن عائشة أنها أمرته أن يكتب لها مصحفًا ، فلما بلغت ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّكَاةِ الْوُسْطَى ﴾ قال : فأملت على (وصلاة العصر) قالت : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

= وروى مالك عن عمرو بن رافع قال : كنت أكتب مصحفًا لحفصة فقالت : إذا بلغت هذه الآية فأذني ، فأملت على : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى و صلاة العصر » ، وأخرجه ابن جرير من وجه آخر حسن عن عمرو ابن رافع ، وروى ابن المنذر من طريق عبيد الله بن رافع « أمرتني أم سمية أن أكتب لها مصحفًا » فذكر مثل حديث عمرو بن رافع سواء .
ومن طريق سالم بن عبد الله بن عمر أن حفصة أمرت إسائًا أن يكتب لها مصحفًا نحوه .

ومن طريق نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها فذكر مثله وزاد : « كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولها » قال نافع : فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو فتمسك قوم بأن العطف يقتضى المعيرة فتكون صلاة العصر غير الوسطى .

وأجيب بأن حديث عليّ ومن وافقه أصح إسنادًا وأصرح ؛ وبأن حديث عائشة قد عورض برواية عروة أنه كان فى مصحفها « وهى العصر » فيحتمل أن تكون الواو رائدة ، ويؤيده ما رواه أبو عبيد بإسناد صحيح عن أبي بن كعب أنه كان يقرأها : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » بغير واو ، أو هى عاطفة لكن عطف صفة لا عطف ذات ، وبأن قوله والصلاة الوسطى والعصر لم يقرأ بها أحد ، ولعل أصل ذلك ما فى حديث البراء أنها نزلت أولًا والعصر ، ثم نزلت ثانيًا بدلها والصلاة الوسطى ، فجمع الراوى بينهما ، ومع وجود الاحتمال لا ينهض الاستدلال ، فكيف يكون مقدمًا على النص الصريح بأنها صلاة العصر .

قال شيخ شيوننا الحافظ صلاح الدين العلائى : حاصل أدلة من قال إنها غير العصر يرجع إلى ثلاثة أنواع :

ساعة يأتي خاص وعام مثل قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح : ٢٨] . فكم مرة دخل الأب والأم هنا ، مرة عند قول الحق سبحانه : ﴿ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ ﴾ .

والثانية : في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾ .

والثالثة : في قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .

إذن .. إيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكرارًا يناسب خصوصيته .

وقول الحق : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ تعطى ذلك المعنى فإذا سألنا . ما معنى ﴿ حَافِظُوا ﴾ ؟ فالحفظ يقابله النسيان أو التضييع ،

أحدها : تنصيب بعض الصحابة وهو معارض بمثله ممن قال منهم إنها العصر ، ويرجع قول العصر بالنص الصريح المرفوع ، وإذا اختلف الصحابة لم يكن قول بعضهم حجة على غيره فتبقى حجة المرفوع قائمة .

ثانيها : معارضة المرفوع بورود التأكيد على فعل غيرها كالحث على المواصلة على الصبح والعشاء وقد تقدم فى كتاب الصلاة ، وهو معارض بما هو أقوى منه وهو الوعيد الشديد الوارد فى ترك صلاة العصر ، وقد تقدم أيضًا .

ثالثها : ما جاء عن عائشة وحفصة من قراءة : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » فإن العطف يقتضى المغايرة ، وهذا يرد عليه إثبات القرآن بحبر الأحاد وهو ممتنع ، وكونه ينزل منزلة خبر الواحد مختلف فيه . سلمنا لكن لا يصلح معارضًا لنصوص صريحة ، وأيضًا فليس العطف صريحًا فى اقتضاء المغايرة لوروده فى نسق الصفات كقوله تعالى : ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] . فتح البارى [٥٤/٩-٥٧] .

والاثنان يلتقيان فالذى حفظ شيئاً ثم نسيه فقد ضيعه ، وكلها معان تلتقى فى فقد الشيء ، والحفظ معناه أن تضمن بقاء شيء كان عندك كحفظ القرآن ، أو رزقت بمال فلا بد أن تحافظ عليه .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ معناه لا تصيعوها خاصة لمن ذاق حلاوة التكليف وتقرب إلى الله سبحانه بما افترضه عليه ، وزاد من جنس ما افترضه عليه تطوعاً . وذلك أدعى للتمسك بها والمحافظة عليها هذا بالنسبة للصلوات الخمس .

أما قول الحق : ﴿ وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى ﴾ فهو ذكرٌ للخص بعد العام ، فكان الله سبحانه أراد المحافظة على الخاص مرتين مرة داخل دائرة العموم ﴿ وَالصَّلَاةُ ﴾ ومرة أفرد لها الله سبحانه بالخصوص ، هى قوله : ﴿ وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى ﴾ ؛ وما العلة ؟

إن « وسطى » هى تأنيث « أوسط » وهى أمر بين شيئين على الاعتدال أى أن اطرفين متساويان ولا يتم ذلك إلا إذا كانت عدد الصلوات وتر لأن عدد الصلوات لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ووسط الخمس أى التى يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان ، أى يسبقها الأولى والثانية ، ويعقبها الرابعة والخامسة .

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة فإن أول صلاة مفروضة هى صلاة الظهر وبعدها العصر فالغرب فالعشاء فالفجر ، وعليه تكون ﴿ الْوُسْطَى ﴾ بتشريع الصلاة هى المغرب وهو رأى يقول به الكثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد الركعات فهناك صلاة قوامها ركعتان كالفجر ، وصلاة قوامها أربع ركعات كالظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من

ثلاث ركعات كالغرب ، والوسط هنا يكون الصلاة الثلاثية وهي المغرب .
وإن أخذتها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار ، والظهر بعده ثم المغرب
والعشاء ؛ فالوسطى هنا هي العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية ، فيحتمل أن تكون هي
الصبح أو المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هي الظهر والعصر والجهرية هي
المغرب والعشاء والفجر ، وبين العشاء والظهر تأتي صلاة الصبح ، وبين العصر
والعشاء تأتي صلاة المغرب .

وإن أخذتها لاجتماع ملائكة طرفي النهار فتكون صلاة العصر وصلاة
الصبح ، إذن : فالوسط يأتي من الاعتبار الذي يُحسب به إذا كان عدداً أو تشريعاً
أو عدد ركعات أو سرية أو جهرية أو حسب نزول الملائكة . وكل اعتبار من
هؤلاء له حكم .

ولماذا أخفى الله سبحانه ذكرها عنا ؟ نقول : أخفاها سبحانه ليعلمها غاية
العلم ؛ ولنعلم أن هناك فرقا بين الشيء لذاته ، والشيء الذي يهم في سواه ؛
ليكون كل شيء هو الشيء فيؤدي ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات .
فإبهام الشيء إنما جاء لإشاعة بيانه ؛ ولذلك أبهم الله ليلة القدر لنهتّم بكل
الليالي وبدل أن تكون ليلة قدر يصبح ليالي قدر ، وكذلك أبهم الموت كي
يعلمنا به غاية العلم .

ويريد الحق أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، والقنوت في اللغة معناه
المداومة على الشيء حتى أثناء الحروب كما أن الصلاة واجبة على الدوام
حتى لو كان الإنسان سائراً على قدميه أو راكباً .



صلاة الجمعة

قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة . ٩] .
إن الله تبارك وتعالى شرع للمسلمين أداء لصلوات جماعة في المسجد ،
والسنة المشرفة وضحت ذلك وبينته ، ولكن في صلاة الجمعة أنزل الله تعالى
آية صريحة أمر فيها سبحانه عباده المؤمنين أن يتخفوا عن كل عمل ساعة
يسمعوا نداء الجمعة ويذهبوا من فورهم للمسجد .

لأن الله لا يريد استدامة الولاء الفردي فقط وإنما يريد استدامة الولاء
الجماعي ، لأن الولاء الجماعي ؛ هو إعلان من كل إنسان بالعبودية لله أمام بقية
مخلوقات الله .

وحيث ينقطع من البشرية مظهر استعلاء إنسان على إنسان .. لأن
الضعيف منا في الجاه أو المال أو النفوذ أو أى مظهر من مظاهر الحياة الخارجية
في هذه الصلاة يرى من هو أقوى منه مساو له في سجوده لربه ، وهنا يتلاشى
مظهر التعالي بين البشر ، لذا يلزمنا الله تبارك وتعالى بهذا الاجتماع الأسبوعي
مرة في يوم الجمعة تذكيرا بعظمة الخالق الحق وتعظيمًا لحقه علينا .

لأن الإنسان عُرضة أن يغفل إذا مر عليه أسبوع وهذه العفلة قد تقوده إلى
العلو أو الاستكبار .

لذا فصلاة الجمعة اجتماع عظيم يذكر الجميع بالعبودية لله تعالى ، فيشعر
الإنسان بالمساواة مع كل البشر .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اتركوا البيع ؛ ولماذا لم يأت
الحق بالشراء ؟ ذلك لأن البيع دائماً يكون أهم أركان الصفقة التى تحقق الربح

أما فى الشراء فإن الإنسان يعيش بالشراء موقفاً غير محبب إلى نفسه لأن فيه غرماً ، بل إن المشتري قد يبحث عن سبب لكى لا يشتري وكذلك لم يقل الحق لنا اتركوا الزراعة أو الصناعة لأن حصيلة هذه الأشياء لا تظهر إلا بعد وقت طويل أما الصفقات التجارية فتظهر نتيجتها فوراً لذا كان ذكر المنع من البيع يقتضى منع غيره من باب أولى .

وهكذا نرى أن ترك البيع والسعى لذكر الله من أجل هدف واضح هو تجديد الولاء الجماعى لله سبحانه وتعالى ، يجعل كل فرد فى المجتمع يشعر بالعدل فيحقق المجتمع الاستطراق ، أى : مساواة أقدار لناس واحترام كل إنسان لنفسه ولمن حوله ، ويلغى تعالى أو التكبر ، أو استدلال القوى للضعيف أو خضوع الضعيف أمام القوى ، كلنا متساوون أمام القوى المتعال سبحانه (١) .

(١) قال الإمام القرطبي فى تفسير قول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ قرأ عبد الله بن الزبير ولأعمش وغيرهما « الجمعة » بإسكان الميم على التخفيف ، وهما لعتان . وجمعهما جُمُع وجمُعات ، قال الفراء : يقال : الجمعة - بسكون الميم - والجمُعة - بصم الميم - والجمُعة - بفتح الميم - فيكون صفة اليوم ؛ أى تجمع الناس ، كما يقال : ضُحكة للذى يضحك ، وقال ابن عباس : نزل القرآن بالثقل والتفخيم فاقروها جُمُعة ؛ يعنى بضم الميم . وقال الفراء وأبو عبيد : والتخفيف أقيس وأحسن ؛ نحو غُرُفة وغُرُف ، وطُرُفة وطُرُف ، وحُجرة وحُجر . وفتح الميم لغة بنى عقيل . وفيل : إنها لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

= وعن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما سُميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم » ، وقيل : لأن الله تعالى فرغ فيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها المخلوقات .

وقيل : لتجتمع الجماعات فيها .

وقيل : لاجتماع الناس فيها للصلاة . و ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى « فى » ؛ أى فى يوم ؛ كقوله تعالى ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ [طاهر : ٤٠ ، الأحقاف : ٤] أى فى الأرض .

الثانية : قال أبو سلمة : أول من قال : « أما بعد » كعب بن لؤى ، وكان أول من سُمى الجمعة جمعة . وكان يقال ليوم الجمعة : القُرُوبة . وقيل : أول من سماها جمعة الأنصار . قال ابن سيرين : خَمَعَ أهل المدينة من قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وقبل أن تنزل الجمعة ؛ وهم الذين سموها الجمعة ؛ وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه ، فى كل سبعة أيام يوم وهو السبت . وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلى فيه ونستذكر - أو كما قالوا - فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ؛ فاجعلوه يوم القُرُوبة . فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرارة أبو أمانة رضى الله تعالى عنه ، فصلى لهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسَمَوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا . فذبح لهم أسعد شاة ؛ فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم . فهذه أول جمعة فى الإسلام .

قلت : وروى أنهم كانوا اثني عشر رجلاً على ما يأتى . وجاء فى هذه الرواية : أن الذى جمع بهم وصلى أسعد بن زُرارة ، وكذا فى حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب على ما يأتى .

وقال البيهقي : وروينا عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري أن مُصعب ابن عمير كان أول من جمع الجمعة بالمدينة للمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

= قال البيهقي : يحتمل أن يكون مصعب جمع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه . والله أعلم .

وأما أول جمعة جمعها صلى الله عليه وسلم بأصحابه ؛ فقال أهل السير والتواريخ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً حتى نزل بقباء ، على بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى . ومن تلك السنة يُعَدُّ التاريخ ، فأقام بقباء إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم ، ثم يوم الجمعة إلى المدينة ؛ فأدركته الجمعة في بنى سلم ابن عوف في بطن وادٍ لهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً ؛ فجمع بهم وخطب . وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها : « الحمد لله ، أحمدُه وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفر به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودُؤْب من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يُطع الله ورسوله فقد رُشد . ومن يعص الله ورسوله فقد غَوَى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . واحذروا ما حذركم الله من نفسه ؛ فإن تقوى الله لمن عمل به على وحل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يُصلح الذى بينه وبين ربه من أمره فى السر والعلانية ، لا يسوى به إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم . وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمناً بعيداً . ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٠] . هو الذى صدق قوله ، وأنجز =

= وعده ، لا تخلف لذلك ؛ فإنه يقول تعالى : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [سورة ق : ٢٩] . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية ؛ فإنه ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] . ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا . وإن تقوى الله توقى مقته ، وتوقى عقوبته وتوقى سخطه . وإن تقوى الله تبيض الوجوه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة . فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله ، فقد علمكم كتابه ، ونهج لكم سبيله ؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجهدوا في الله حق جهاده ؛ هو اجتباكم وسماكم المسلمين . ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة . ولا حول ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله تعالى ، واعملوا لما بعد الموت ؛ فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفبه الله ما بينه وبين الناس . ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه . الله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأول جمعة حُجِّعت بعدها جمعة بقرية يقال لها : « جَوَائِي » من قرى البحرين . وقيل : إن أول من سماها الجمعة كعب بن لؤى بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب ؛ كما تقدم . والله أعلم .

الثالثة : خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفًا لهم وتكريماً فقال : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ثم خصه بالنداء ، وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَادَيْتُمْ إِلَىٰ كَلْبَتِهِ ﴾ [المائدة : ٥٨] ، ليدل على وجوبه وتأكيده . وقال بعض العلماء : كون الصلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ .

قال ابن العربي : وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكته وهي قوله : ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وذلك يفيد ؛ لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء =

= تلك الصلاة . فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام . ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة .

الرابعة : فقد تقدم حكم الأذان في سورة « المائدة » مستوفى . وقد كان الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في سائر الصلوات ؛ يؤذن واحد إذا جلس النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر . وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر ، وعلى بالكوفة ، ثم زاد عثمان على المنبر أذاناً ثالثاً على داره التي تسمى « الزوراء » حين كثر الناس بالمدينة . فإذا سمعوا أقبلوا ؛ حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذن مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يخطب عثمان . خرّجه ابن ماجه في سننه من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري عن السائب بن يزيد قال : ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مؤذن واحد ؛ إذا خرج أذن وإذا نزل أقام ، وأبو بكر وعمر كذلك ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على دار في السوق يقال لها « الزوراء » ؛ فإذا خرج أذن وإذا نزل أقام . خرّجه البخاري من طرق بمعناه . وفي بعضها : أن الأذان لثاني يوم الجمعة أمر به عثمان بن عفان حين كثر أهل المسجد ، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام .

وقال الماوردي : فأما الأذان الأول فمحدث ، فعله عثمان بن عفان ليأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها . وقد كان عمر رضي الله تعالى عنه أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوتهم ، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد ، فجعله عثمان رضي الله تعالى عنه أذانين في المسجد . قال ابن العربي . وفي الحديث الصحيح : أن الأذان كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً ، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء ، وسماه في الحديث ثالثاً لأنه أضافه إلى الإقامة ، كما قال عليه السلام : =

= « بين كل أذاني صلاة لمن شاء » يعنى الأذان والإقامة . ويتوهم الناس أنه أذان أصلى فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وهما ، ثم جمعوهم فى وقت واحد فكان وهما على وهم . ورأيهم يؤذنون بمدينة السلام بعد أذان المنبر بين يدى الإمام تحت المنبر فى جماعة ، كما كانوا يفعلون عندنا فى الدول الماضية . وكل ذلك مُخَدَّث .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] اختلف فى معنى السعى هاهنا على ثلاثة أقوال :
أولها : القصد . قال الحسن : والله ما هو بسعى على الأقدام ولكنه سعى بالقلوب والنية .

الثانى : أنه العمل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل : ٤] ، وقوله : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ . وهذا قول الجمهور . وقال زهير :
سعى بعدهم قوم لكن يدركوهم
فهم يفعلوا ولم يلاءموا ولم يألوا
وقال أيضًا :

سعى ساعيًا غيظ بن مرة بعدما
تبرل ما بين العشيرة بالدم
أى فاعملوا على المضى إلى ذكر الله واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتوجه إليه .

الثالث : أن المراد به السعى على الأقدام . وذلك فضل وليس بشرط ، ففى البخارى : أن أبا عثس بن جبر - واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة - مشى إلى الجمعة راجلاً وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من اغتبرت قدماه فى سبيل الله حرّمه الله على النار » . ويحتمل ظاهره رابعًا : وهو الجرى والاشتداد .

= قال ابن العربي : وهو الذى أنكره الصحابة الأعلامون والفقهاء الأقدمون .
 وقرأها عمر : « فامضوا إلى ذكر الله » فرارًا عن طريق الجرى والاشتداد الذى
 يدل على الظاهر . وقرأ ابن مسعود كذلك وقال : لو قرأت ﴿ فَاسْعَوْا ﴾
 لسعيت حتى يسقط ردائي ، قرأ ابن شهاب : « فامضوا » إلى ذكر الله سابقًا
 تلك السبيل . وهو كنه تفسير منهم ؛ لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة
 القرآن بالتفسير فى معرض التفسير .

قال أبو بكر الأنباري : وقد احتج من خالف المصحف بقراءة عمر وابن
 مسعود ، وأن خرشة بن الحر قال : رآني عمر رضى الله تعالى عنه ومعى قطعة
 فيها : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فقال لى عمر : من أقرأك هذا ؟ قلت أئبى .
 فقال أئبى أقرؤنا للمنسوخ . ثم قرأ عمر « فامضوا إلى ذكر الله » .
 وعن سالم عن أبيه قال : ما سمعت عمر يقرأ قط إلا « فامضوا إلى ذكر الله » .
 وأخبرنا إدريس قال حدثنا خلف قال حدثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم أن عبد
 الله بن مسعود قرأ « فامضوا إلى ذكر الله » ، وقال : لو كانت ﴿ فَاسْعَوْا ﴾
 لسعيت حتى يسقط ردائي قال أبو بكر : فاحتج عليه بأن الأمة أجمعت
 على ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ برواية ذلك عن الله رب العالمين ورسوله صلى الله عليه
 وسلم . فأما عبد الله بن مسعود فما صح عنه « فامضوا » لأن السند غير
 متصل ؛ إذ إبراهيم النخعي لم يسمع عن عبد الله بن مسعود شيئًا ، وإنما ورد
 « فامضوا » عن عمر رضى الله تعالى عنه . فإذا انفرد أحد بما يخالف الآية
 والجماعة كان ذلك نسيانًا منه ، واعرب مُخِيعَةً على أن السعى يأتى بمعنى
 المضى ؛ غير أنه لا يخلو من الجدل والانكماش . قال زهير :

سَعَى سَاعِيًا غِيظَ بِنُورَةٍ بَعْدَمَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَثِيرَةِ بِالسِّدَمِ

أراد بالسعى المضى بجهد وانكماش . ولم يقصد للعدو والإسراع فى الخطو ،
 وقال الفراء وأبو عبيدة : معنى السعى فى الآية المضى . واحتج الفراء بقولهم : =

= وهو يسعى في البلاد يطلب فضل الله ؛ معناه هو يمضي بجهد واجتهاد ،
واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ كُلِّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

فهل يحتمل اسعى في هذا البيت إلا مذهب المضي بالانكماش ؛ ومحال أن
يخفى هذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيته .

قلت : ومما يدل على أنه ليس المراد هاهنا العدو قوله عليه الصلاة والسلام :
« إِذَا أُتِمَّتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ ، وَلَكِنْ اتُّوْهَا وَعَلَيْكُمْ لِسْكِينَةٌ » .
قال الحسن : أمّا والله بالسعى على الأقدام ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة
إلا وعليهم السكينة والوقار ؛ ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وقال قتادة : السعى أن تسعى بقلبك وعملك . وهذا حسن ، فإنه جمع
الأقوال الثلاثة .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا ﴾ خطاب للمكلفين بإجماع ،
ويخرج منه المرضى والزمنى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل ، والعميان
والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة .

وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا مَرِيضٌ ، أَوْ مُسَافِرٌ ،
أَوْ امْرَأَةٌ ، أَوْ صَبِيٌّ ، أَوْ مَمْلُوكٌ . فَمَنْ اسْتَغْنَى بَلْهَرٍ أَوْ تِجَارَةٍ اسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْهُ
وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » ، خرجه الدارقطني ، وقال علماؤنا رحمهم الله ولا يتخلف
أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه منه الإتيان إليها ؛ مثل المرض
الحابس ، أو خوف الزيادة في المرض ، أو خوف جور السلطان عليه في مال
أو بدون القضاء عليه بحق ، والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع . ولم
يره مالك عذراً له ؛ حكاه المهدوي . ولو تخلف عنها متخلف على ولي =

= حميم به قد حضرته الوفاة ، ولم يكن عنده من يقوم بأمره رجاء أن يكون في سعة . وقد فعل ذلك ابن عمر ، ومن تخلف عنها لغير عذر فصلى قبل الإمام أعاد ، ولا يجزئه أن يصلي قبله ، وهو في تخلفه عنها مع إمكانه لذلك عاص لله بفعله .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ يختص بوجوب الجمعة على القريب الذي يسمع النداء ، فأما البعيد الدار الذي لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب ، واختف فيمن يأتي الجمعة من الدني والقاصي ، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس : تجب الجمعة على من في المضمر على ستة أميال . وقال ربيعة : أربعة أميال .

وقال مالك والليث : ثلاثة أميال .
وقال الشافعي : اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صيًّا ، والأصوات هادئة ، والريح ساكنة وموقف المؤذن عند سور البلد .

وهي الصحيح عن عائشة . أن الناس كانوا يتأبون الجمعة من منازلهم ومن العوالي فيأتون في الغار ويصيبهم العار فتخرج منهم الريح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو اعتسلتم ليومكم هذا » قال علماؤنا : والصوت إذا كان منيعًا والناس في هدوء وسكون فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال . والعوالي من المدينة أقربها على ثلاثة أميال .

وقال أحمد بن حنبل وإسحاق : تجب الجمعة على من سمع النداء .
وروى الدارقطني من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الجمعة على من سمع النداء » .
وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجب على من في المضمر ، سمع النداء أو لم يسمعه ، ولا تجب على من هو خارج المضمر وإن سمع النداء . حتى سئل : وهل =

= تجب الجمعة على أهل زيارة - بينها وبين الكوفة مجرى نهر - ؟ فقال لا .
وروى عن ربيعة أيضًا : أنها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشيًا
أدرك الصلاة .

وقد روى عن الزهري : أنها تجب عليه إذا سمع الأذان .
الثامنة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ
اللَّهِ ﴾ ، دليل على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء ، والنداء لا يكون إلا بدخول
الوقت ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حضرت الصلاة فأذنا ثم أقيما
وليؤمكما أكبركما » ، قاله مالك بن الحويرث وصاحبه .

وفى البخارى عن أس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى
الجمعة حين تميل الشمس ، وقد روى عن أبى الصديق وأحمد بن حنبل أنها
تُصَلَّى قبل الزوال . وتمسك أحمد فى ذلك بحديث سلمة بن الأكوع : كنا
نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم ننصرف وليس للحيطان ظل .
وبحديث أن عمر قال : ما كنا نقبل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة . ومثله عن
سهل . أخرجه مسلم . وحديث سلمة محمول على التكبير . رواه هشام بن
عبد الملك عن يعلى بن الحارث عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه .
وروى وكيع عن يعلى عن أبيه عن أس بن مالك : كنا نجتمع مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم إذا زالت الشمس ثم يرجع نتبع الفئء . وهذا مذهب
الجمهور من الخلف والسلف ، وقياسًا على صلاة الظهر . وحديث ابن عمر
وسهيل دليل على أنهم يكررون إلى الجمعة تكبيرًا كثيرًا عند الغداة أو قبلها ،
فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة .

وقد رأى مالك أن التكبير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال يسير . وتأول قول
النبى ﷺ : « من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ... » الحديث =

= بكماله . إنه كان في ساعة واحدة . وحمله سائر العلماء على ساعدت النهار الزمانية الاثني عشرة ساعة المستوية أو المختلفة بحسب زيادة النهار ونقصانه . ابن العربي : وهو أصح ؛ لحديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : ما كانوا يُقبلون ولا يتغدون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها . التاسعة : فرض الله تعالى الجمعة على كل مسلم ؛ ردًا على من يقول : إنها فرض على الكفاية ؛ ونقل عن بعض الشافعية . ونقل عن مالك من لم يُحقق : أنها سنة .

وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ؛ لقول الله تعالى : ﴿ إِذَا ثَوَدَىٰ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » . وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها .

وفي سنن ابن ماجه عن أبي الجعد الضمري - وكان له صحبة - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونًا بها طبع الله على قلبه » . إسناده صحيح . وحديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاثًا من غير ضرورة طبع الله على قلبه » . ابن العربي : وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الروحاح إلى الجمعة واجب على كل مسلم » .

العاشرة : أوجب الله السعي إلى الجمعة مطلقًا من غير شرط . وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات ؛ لقوله عز وجل : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » . وأعربت طائفة فقالت : إن غسل الجمعة =

= فرض . ابن العربي : وهذا باطل ؛ لما روى السائي وأبو داود في سننهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من توضأ يوم الجمعة فيها ويغتمت . ومن اغتسل فالغسل أفضل » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام . ومن مس لحصى فقد لغا » وهذا نص .

وفي الموطأ : أن رجلاً دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب ... - الحديث إلى أن قال : - مازدت على أن توصأت ، فقال عمر : والوضوء أيضاً . وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل . فأمر عمر بالغسل ولم يأمره بالرجوع ، فدلّ على أنه محمول على الاستحباب . فلم يكن وقد تلبس بالفرض - وهو الحضور والإنصات للخطبة - أن يرجع عنه إلى السنة ، وذلك بمحضر محول الصحابة وكبار المهاجرين حوالى عمر ، وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

الحادية عشرة : لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد ، خلافاً لأحمد بن حنبل فإنه قال : إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة ؛ لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها . وتعلق في ذلك بما روى أن عثمان أذن في يوم عيد لأهل العوالي أن يتخلفوا عن الجمعة . وقول الواحد من الصحابة يس بحجة إذا خولف فيه ولم يجمع معه عليه .

والأمر بالسعي متوجه يوم العيد كتوجهه في سائر الأيام . وفي صحيح مسلم عن الثمان بن بشير قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] . =

= و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيِّ ﴾ [الغاشية : ١] قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين . أخرجه أبو داود والترمذي والسائي وابن ماجه .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ذِكْرٌ لِلَّهِ ﴾ أى : الصلاة . وقيل الخطبة والمواظظ ؛ قاله سعيد بن جبير .

ابن العربي : والصحيح أنه واجب في الجميع ؛ وأوله الخطبة . وبه قال علماؤنا ؛ إلا عبد الملك بن الماجشون فإنه رأى شئ ، والدليل على وجوبها أنها تُحَرَّم البيع ، ولولا وجوبها ما حرمته ؛ لأن المستحب لا يُحَرَّم المباح . وإذا قلنا : إن المراد بالذكر الصلاة فالخطبة من الصلاة . والعبد يكون ذاكرًا لله بفعله كما يكون مسبِّحًا لله بفعله . الزمخشري : فإن قلت : كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها غير ذلك ؛ قلت : ما كان من ذكر رسول الله ﷺ ولثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر لله . فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقَاء بعكس ذلك ؛ فهو من ذكر الشيطان ، وهو من ذكر الله على مراحل .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة ، وحرمه في وقتها على من كان مخاطبًا بفرضها . والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيصَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَّيْلَ تَقِيصَكُمُ بَأْسَكُم ﴾ ويخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، ومن لا يحب عليه حضور الجمعة فلا يُبْهَى عن البيع والشراء . وفي وقت التحريم قولان :

الأول : إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها ، قاله الصحاك والحسن وعطاء .
الثاني : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة .

قاله الشافعى ، ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نُودى للصلاة ، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع فى ذلك الوقت ، ولا يفسح العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع . قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . ابن العربى : والصحيح فسخ الجميع ، لأن البيع إنما مُنع منه للاشتغال به . فكل أمر يُشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ رَدْعاً . المهدي : ورأى بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور جائزاً ، وتأول النهى عنه ندباً ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ .

قلت : وهذا مذهب الشافعى ؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ . وقال الزمخشري فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدى إلى فساد البيع . قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ؛ فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة والثوب المغصوب ، والوضوء بماء مغصوب . وعن بعض الناس أنه فاسد .

قلت : والصحيح فساده وفسحه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ » أى مردود . والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا أمر بإباحة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة : ٢] . يقول : إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم . ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى من رزقه . وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فاررقنى من فضلك وأنت خير الرازقين . وقال جعفر بن محمد فى قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ إنه العمل فى يوم السبت . وعن الحسن بن سعيد بن المسيب : طلب العلم . =



= وقيل : صلاة التطوع .

وعن ابن عباس : لم يأمروا بطلب شيء من الدنيا ؛ إنما هو عيادة لمرضى ، وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى .
قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ أى بالطاعة واللسان ، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ كى تفلحوا .
قال سعيد بن جبير : الذكر طاعة الله تعالى ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح .

من أحكام صلاة الجمعة وخطبتها والقراءة فيها

- أخرج البخارى [٨٧٧] ، ومسلم [١/٨٤٤] ، والترمذى [٤٩٣] ، وابن ماجه [١٠٨٨] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » .
- وأخرج البخارى [٨٧٩] ، ومسلم [٥/٨٤٦] ، وابن ماجه [١٠٨٩] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « غُسل يوم الجمعة واجب على كل محتتم » .
- وأخرج مسلم [٧/٨٤٦] ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « غُسل يوم الجمعة على كل محتتم ، وبيواك ، ويمس من الطيب ما قدر عليه » .
- أخرج البخارى [٩٣٤] ، ومسلم [١١/٨٥١] ، والترمذى [٥١٢] ، وأبو داود [١١١٢] ، وابن ماجه [١١١٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت » .
- وأخرج مسلم [٢٤/٨٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول . فإذا جلس الإمام طروا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر . ومثل المهجر كمثل الذى يهذى البدنة . ثم كالذى يهذى بقرة ، ثم كالذى يهذى الكباش ، ثم كالذى يهذى الدجاجة ، ثم كالذى يهذى البيضة » .
- وأخرج مسلم [٢٨/٨٥٨] عن جابر بن عبد الله : قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نرجع فتريح نواضحنا . =

= قال حسن : فقلت لجعفر : في أي ساعة تنك ؟ قال : زوال الشمس .

خطبة الجمعة :

○ وأخرج البخاري [٩٢٨] ، ومسلم [٣٣/٨٦١] ، والترمذي [٥٠٦] ، وأبو داود [١٠٩٢] ، وابن ماجه [١١٠٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب خطبتين يقعد بينهما .

○ وأخرج مسلم [٤١/٨٦٦] عن جابر بن سمرة قال : كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً .

○ وأخرج مسلم [٤٣/٨٦٧] ، وابن ماجه [٤٥] عن جابر بن عبد الله ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عينه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش ، يقول : صباحكم ومساكم . ويقول : « بُعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى . ويقول : « أما بعد . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلهه ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ » .

○ وأخرج مسلم [٤٧/٨٦٩] عن أبو وائل قال : خطبنا عمار فأوحز وأبلغ ، فما نزل قلنا : يا أبا اليقظان ! لقد أبلعت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ! فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن طول صلاة الرجل ، وقصر خطبته ، مئنة من فقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة ، وإن من البيان سحراً » .

القراءة في الجمعة :

○ وأخرج مسلم [٦١/٨٧٧] ، والترمذي [٥١٩] عن ابن أبي رافع ؛ قال : استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة ، فصلى لنا أبو هريرة الجمعة فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الأخيرة : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

- قال : فأدرك أبا هريرة حين انصرف فقلت له : إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما بالكوفة ، فقال أبو هريرة : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما يوم الجمعة .
- وأخرج مسلم [٦٤/٨٧٩] ، وأبو داود [١٠٧٤] ، والترمذي [٥٢٠] ، وابن ماجه [٨٢١] عن ابن عباس ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة : ﴿الْم تَزِيلُ﴾ [السجدة] ، و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الذَّهْرِ﴾ [الإنسان : ١] .
- وأن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة ، سورة الجمعة والمنافقين .
- وأخرج مسلم [٦٨/٨٨١] ، والترمذي [٥٢٣] ، وابن ماجه [١١٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صليتم بعد الجمعة فصلوا أربعاً » .
- راد عمرو في روايته : قال ابن إدريس : قال سهيل : فإن عجل بك شيء فصل ركعتين في المسجد ، وركعتين إذا رجعت » .
- وأخرج مسلم [٧١/٨٨٢] عن عبد الله بن عمر ؛ أنه وصف تطوع صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فكان لا يُصلى بعد الجمعة حتى يصرف ، فيصل ركعتين في بيته .
- وأخرج مسلم [٧٢/٨٨٢] عن سالم ، عن أبيه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد الجمعة ركعتين .

التغليظ في ترك الجمعة

- أخرج مسلم [٤٠/٨٦٥] عن عبد الله بن عمر وأبا هريرة رضي الله تعالى عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره : « ليستهيّن أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم . ثم ليكونن من الغافلين » .
- أخرج مسلم [٢٥٤/٦٥٢] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن أمر رجلاً يُصلي بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .
- ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليسع إلى الجمعة ، ومن استغنى عنها بلهواً أو تجارة استغنى الله عنه ، والله عني حميد . رواه الطبراني .
- وروى أبو داود [١٠٥٢] عن أبي الجعد الصمري وكانت له صُحبة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » ، وقال الألباني : حسن صحيح .
- وروى مالك في الموطأ [٢٤٦] : من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير عذر ولا علة طبع الله على قلبه .
- وروى ابن ماجه [١١٢٦] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طبع الله على قلبه » . وقال الألباني : حسن صحيح .
- وروى الطبراني في الكبير [١٩٧/٩٩/١٩] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليستهيّن أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ، ثم لا يأتوها ، أو ليطنعن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » ، وقال الهيثمي في المجمع [١٩٤/٢] وإسناده حسن .
- وقال المنذرى في الترغيب والترهيب : إسناده حسن ، ورواه ابن ماجه [٧٩٤] عن ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهما وفيه « الجماعات » . =

○ = وروى ابن ماجه [١١٢٧] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل غشى أحدكم أن يتخذ الصُّبَّةَ من الغنم على رأس ميل أو ميلين فيتعذر عليه الكلاً فيرتفع ، ثم تجيء الجمعة فلا يجيء ولا يشهدها ، وتجيء الجمعة فلا يشهدها حتى يُطبع على قلبه . وحسنه الألبانى .

○ وروى ابن ماجه [٢٢٤] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه أيضاً قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس تُوبُوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشعلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية تُرزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن الله قد افترض عليكم الجمعة فى مقامى هذا ، فى يومى هذا ، فى شهرى هذا ، من عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أو بعدى وله إمام عادل أو جائر استخفافاً بها أو جحوداً بها ، فلا جمع الله له شمله ، ولا برك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا زكاة له ، ولا حج له ، ولا صوم له ، ولا بر له حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه ، ألا لا تؤمن امرأة رجلاً ولا يؤم أعرابى مهاجرًا ولا يؤم فاجرٌ مؤمناً إلا أن يقهره سلطان ، يخاف سيفه وسوطه . وضعفه الألبانى .

فضل يوم الجمعة

- أخرج مسلم [١٧/٨٥٤] ، و الترمذى [٤٩١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه تخلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .
- وأخرج مسلم [١٨/٨٥٤] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس ، يوم الجمعة . فيه تخلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » .
- وأخرج البخارى [٨٧٦] ، ومسلم [١٩/٨٥٥] ، و الترمذى [٤٨٨] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » .
- وأخرج مسلم [٢٢/٨٥٦] ، وابن ماجه [١٠٨٦] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الله عن الجمعة من كن قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا ، فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا . والأولون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » . وفى رواية واصل : « المقضى بينهم » .
- وأخرج البخارى [٨٨٣] عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، ومسلم [٢٦/٨٥٧] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل ؛ ثم أتى الجمعة ، فصلّى ما قدر له ، ثم أنصت حتى يفرغ من خطبته ثم يصلى معه ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ، وفضل ثلاثة أيام » . =



○ وأخرج مسلم [٢٧/٨٥٧] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْمَعَ وَأَنْصَتَ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ ، وَرِبَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الْخَصْيَ فَقَدْ لَغَا » .

○ وأخرج البخارى [٩٣٥] ، ومسلم [١٣/٨٥٢] ، وابن ماجه [١١٣٧] ، والترمذى [٤٩١] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيُ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » وأشار بيده يُقْلِبُهَا .

صلاة العيد وأحكامها

شرعت صلاة العيد في السنة الأولى من الهجرة وهي سنة مؤكدة واطلب النبي صلى الله عليه وسلم عليها وأمر الرجال والنساء أن يخرجوا لها . وقد ورد فيها أحاديث منها :

○ عن أم عطية رضي الله تعالى عنها ، قالت : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن نُخْرِجَهُنَّ فِي الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى ، الْعَوَاتِقَ وَالْحَيْضَ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ ، فَأَمَّا الْحَيْضُ فَيَعْتَزِلْنَ الصَّلَاةَ وَيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَحَدَنَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ . قَالَ : « لِتُلْبِسَهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا » (١) .

○ وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخرج يوم الفطر حتى يُطْعَمَ ولا يطعم يوم البحر حتى ينحر (٢) .

○ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمْرَاتٍ » .

وقال مُرْجَأُ بْنُ رَجَاءٍ حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنِي أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَيَأْكُلُهُنَّ وَتَرًا » (٣) .

○ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمِصْلَى ، فَأُولُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةَ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ - وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ - فَيُعْظِمُهُمْ ، =

(١) أخرجه مسلم [١٢/٨٩٠] .

(٢) رواه الترمذي [٥٤٢] وقال حديث غريب ، وابن ماجه [١٧٥٦] ، وابن حبان [٢٨١٢] ، وأحمد [٣٥٢/٥] ، وصححه الألباني .

(٣) أخرجه البخاري [٩٥٣] .

= ويُوصيهم ، ويأمرهم . فإن كان يُريدُ أن يقطعَ بعثاً قطعه أو يأمر بشيء أمر به ، ثم ينصرف .

قال أبو سعيد : فلم يرل الناس على ذلك حتى نعرحتُ مع مروان - وهو أمير المدينة - في أضحى أو فطر ، فلما أتينا المصلّى إذا منبر بناه كثير بن الصلت ، فإذا مروان يُريدُ أن يرتقيه قبل أن يُصلّى ، فحبذت بثوبه ، فحبذني ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : غيرتم والله ، فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلّم ، فقلت ما أعلم والله خير مما لا أعلم .

فقال : إن الناس لم يكونوا يحلسون لما بعد الصلاة ، فجعلتها قبل الصلاة ^(١) .
○ وعن أم عطية رضى الله تعالى عنها قالت : أمرنا أن نخرج العواتق ذوات الخُدور ^(٢) .

○ وعن أم عطية رضى الله تعالى عنه ، قالت : كُنَّا نُؤَمِّرُ بالخروج في العيدين ، والمُحْتَأَةُ والكر ، قالت : الحيض يخرجن فيكن خلف الناس ، يُكَبِّرْنَ مع الناس ^(٣) .

○ وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يُصلُّون العيدين قبل الخطبة » ^(٤) .
○ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : « شهدت العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله تعالى عنهم ، فكلهم كانوا يُصلُّون قبل الخطبة » ^(٥) .

(١) أخرجه البخارى [٩٥٦] . (٢) أخرجه البخارى [٩٧٤] .

(٣) أخرجه مسلم [١١/٨٩٠] .

(٤) أخرجه البخارى [٩٦٣] ، ومسلم [١/٨٨٤] .

(٥) أخرجه البخارى [٩٦٢] ، ومسلم [١/٨٨٤] .

○ وعن ابن عباس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفطر ركعتين لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهن بالصدقة ، فجعلن يُلقين ، تلقى المرأة خُرَصَها وسِجَابَها » (١) .

○ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي في الأضحى والفطر ، ثم يخطب بعد الصلاة (٢) .

○ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم العيد على راحلته (٣) .

○ وعن قيس بن عائذ ، هو أبو كاهل رضي الله تعالى عنه ، قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب على ناقة حسناء ، وحبشيٍّ أخذ بخطامها (٤) .

○ وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : سمعته يقول : « قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفطر فصلى ، فبدأ بالصلاة ثم خطب ، فلما فرغ

نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال ، وبلال باسط ثوبه يُلقى فيه النساء الصدقة . قلت لعطاء : زكاة يوم الفطر ؟ قال : لا ، ولكن صدقة

يتصدقن حينئذ : تلقى فتخها ويلقي . قلت : أترى حقاً على الإمام ذلك ويذكرهن ؟ قال : إنه لحقّ عليهم ، وما لهم لا يفعلونه ؟ (٥) .

○ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : « شهدت الفطر مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم يُصلّونها قبل الخطبة ، ثم يخطب =

(١) أخرجه البخاري [٩٦٤] ، ومسلم [٢/٨٨٤] .

(٢) أخرجه البخاري [٩٥٧] .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده [١١٨٢] ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٢/٢٠٥] وقال رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه ابن ماجه [١٢٨٤] وحسنه الألباني .

(٥) أخرجه البخاري [٩٧٨] .

= بعد . خرج النبي صلى الله عليه وسلم كأنى أنظر إليه حين يُجْلَسُ بيده . ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء معه بلال فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الآية [المتحة : ١٢] ثم قال حين فرغ منها : « أَنَشْرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ » قالت امرأة واحدة منهن لم يُجِبْهُ غيرها - : نعم . لا يدرى حسن من هي . قال : « فتصدقن » فبسط بلال ثوبه ثم قال : هَلُمَّ ، لَكُنَّ فِدَاءُ أَبِي وَأُمِّي . فَيُلْقَيْنَ الْفَتَحَ وَالْخَوَاتِيمَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ ^(١) .

○ وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم عيد خالف الطريق » ^(٢) .

○ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوم أضحى أو فطر فصلى ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها ، ثم أتى النساء ومعه بلال ، فأمرهن بالصدقة ، فحملت المرأة ثلثي خرصها وتلقى سخابها ^(٣) .

○ وعن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العيدين غير مرة ولا مرتين بغير أذان ولا إقامة ^(٤) .

○ وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؛ أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضى الله تعالى عنه سأل أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِي : ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كن يقرأ فيهما بـ ﴿ قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ و ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَالنَّشَقُ الْقَمَرُ ﴾ ^(٥) .

(١) أخرجه البخارى [٩٧٩] .

(٢) أخرجه البخارى [٩٨٦] .

(٣) أخرجه البخارى [٩٦٤] ، وأخرجه مسلم [١٣/٨٨٤] ، وأحمد فى المسند

[٣٤٠/١] ، وأبو داود [١١٥٩] .

(٤) أخرجه مسلم [٧/٨٨٧] ، والترمذى [٥٣٢] ، أبو داود [١١٤٨] .

(٥) أخرجه مسلم [١٤/٨٩١] ، وأبو داود [١١٥٤] ، الترمذى [٥٣٤] .

○ وعن النعمان بن بشير ؛ قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة ،

بـ ﴿ مَبِيعَ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ^(١) .

قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد ، يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين .

○ وعن إياس بن أبي رملة الشامي قال : شهدت معاوية بن سفيان وهو يسأل ريد

ابن أرقم قال : أشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيدين اجتماعاً في

يوم ؟ قال : نعم ، قال . فكيف صنع ؟ قال : صلى العيد ثم رخص في الجمعة ،

فقال : من شاء أن يُصَلِّيَ فَلْيُصَلِّ ^(٢) .

○ وعن ابن جريح ، قال : قال عطاء : اجتمع يوم الجمعة ويوم فطر على عهد ابن

الزبير فقال : عيدان اجتماعاً في يوم واحد ، فجمعهما جميعاً فصلاهما ركعتين

بُكْرَةً ، لم يزد عليهما حتى صلى العصر ^(٣) .

○ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه

قال : « قد اجتمع في يومكم هذا عيدان : فمن شاء أجزأه من الجمعة ، وإنا

مَجْمَعُونَ » ^(٤) .

○ وعن عطاء بن أبي رباح ، قال : صلى بنا ابن الزبير في يوم عيد في يوم الجمعة أول

النهار ، ثم رُخِّنا إلى الجمعة ، فلم يخرج إلينا ، فصلينا وُخْدَاناً ، وكان ابن

عباس بالطائف ، فلما قدم ذكرنا ذلك له ، فقال : أصاب السنة ^(٥) .

(١) أخرجه مسلم [٦٢/٨٧٨] ، وأبو داود [١١٢٢] ، والترمذي [٥٣٣] .

(٢) رواه أبو داود [١٠٧٠] ، وابن ماجه [١٣١٠] والبيهقي في السنن الكبرى [٦٢٨٦] وصححه الألباني .

(٣) رواه أبو داود [١٠٧٢] ، وصححه الألباني .

(٤) رواه أبو داود [١٠٧٣] ، وابن ماجه [١٣١١] والبيهقي في السنن الكبرى [٦٢٨٧] ، والحاكم في المستدرک [٢٨٨/١] ، وصححه الألباني .

(٥) رواه أبو داود [١٠٧١] ، وصححه الألباني .

○ وعن أبي عبيد مولى ابن أهر : أنه شهد العيد يوم الأضحى مع عمر ، فصلى قبل الخطبة ثم خطب فقال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بهاكم عن صيام هذين العيدين ، أما أحدهما : فيوم فطركم من صيامكم ، وأما الآخر فيوم تأكلون فيه من نسككم .

قال أبو عبيد : ثم شهدت مع عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وكان ذلك يوم الجمعة ، فصلى قبل الخطبة ، ثم خطب فقال : « يا أيها الناس إن هذا يوم قد اجتمع لكم فيه عيدان ، فمن أحب أن ينتظر الجمعة من أهل العوالي فلينتظر ، مَنْ أحب أن يرجع فليرجع ، فقد أذنت له »^(١) .

○ وعن أبي عبيد مولى ابن أهر قال : شهدت العيد مع عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، فجاء فصلى ، ثم انصرف ، فخطب فقال : إنه قد اجتمع لكم فى يومكم هذا عيدان ، فمن أحب من أهل العالية أن ينتظر الجمعة فلينتظرها ، وَمَنْ أحب أن يرجع فليرجع ، فقد أذنت له^(٢) .

○ وعن يزيد بن خمير الرحبي ، قال : خرج عبد الله بن بسر - صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع الناس فى يوم عيد فطر - أو أضحى - ، فأنكر إبطاء الإمام ، فقال : إنا كنا قد فرغنا ساعتنا هذه ، وذلك حين التسبيح^(٣) .
○ وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكبر فى الفطر والأضحى : فى الأولى سبع تكبيرات ، وفى الثانية خمسا^(٤) . =

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٩٢] .

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى [٦٢٩١] .

(٣) رواه أبو داود [١١٣٥] ، وابن ماجه [١٣١٧] ، وصححه الألبانى .

(٤) رواه أبو داود [١١٤٩] ، وابن ماجه [١٢٨٠] ، وصححه الألبانى .

=○ وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : « التكبير في الفطر سَبْعٌ في الأولى ، وخمس في الآخرة ، والقراءة بعدهما كلتيهما » (١) .
○ وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي ﷺ كان يكبر في الفطر في الأولى سبعا ثم يقرأ ، ثم يكبر ، ثم يقوم فيكبر أربعاً ، ثم يقرأ ، ثم يركع (٢) .

○ وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عرف عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر في العيدين سبعا في الأولى ، وخمسا في الآخرة (٣) .
○ وعن عمار بن سعد عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى العيد ماشياً ، ويرجع ماشياً (٤) .

○ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى العيد ماشياً ، ويرجع ماشياً (٥) .
○ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدي جاريتان تُعَتِّيان بغناء بُعَاثٍ ، فاضطجع على الفراش ، وحول وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرني ، وقال : مِزْمَاؤُ الشَّيْطَانِ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « دَعُوهمَا » فلما غَفَلَ عَمَزَتْهُمَا فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعبُ السودَانُ بالدَّرَقِ والحراب ، فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما قال : « تَشْتَهِيَنَّ تَنْظِيرِينَ ؟ » =

(١) رواه أبو داود [١١٥١] ، وصححه الألباني .

(٢) رواه أبو داود [١١٥٢] ، وابن ماجه [١٢٧٨] ، وصححه الألباني .

(٣) رواه ابن ماجه [١٢٧٩] ، وصححه الألباني .

(٤) رواه ابن ماجه [١٢٩٤] ، وحسنه الألباني .

(٥) رواه ابن ماجه [١٢٩٥] ، وحسنه الألباني .



قلت : نعم . فأقامني وراءه ، خدّى على خدّه ، وهو يقول : « دُونَكُمْ يَا بَنِي
أَرْفَدَةَ » حتى إذا مَلِيتُ قال : « حَسْبُكَ ؟ » قلت : نعم . قال : « فَاذْهَبِي » ^(١) .
○ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقوم على باب حجرتي ، والحَبَشَةُ يلعبون بحرايبهم في مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم يَشْتَرِنِي بِرِذَائِهِ ، لكي أَنْظُرَ إِلَى لَعِبِهِمْ ، ثم يقوم
من أَجَلِي ؛ حتى أَكُونَ أَنَا التي أَنْصَرَفَ . فَأَقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السُّنْ ،
حريصة على اللّهُو ^(٢) .

(١) رواه البخاري [٩٤٩] ومسلم [١٩/٨٩٢] واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم [١٨/٨٩٢] .

صلاة التطوع

○ أخرج مسلم [٢٢٦/٤٨٩] عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم « سُرُّ » ، فقلت : أسألك مُرافقتك في الجنة ، فقال : « أو غير ذلك ؟ » فقلت : هو ذاك ، قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

○ وأخرج البخاري [١١٨٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم عشر ركعات : ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، وركعتين قبل الصبح متفق عليه . وفي رواية لهما : وركعتين بعد الجمعة في بيته .
○ ولمسلم [٨٨/٧٢٣] عن حفصة رضي الله تعالى عنها : كان إذا طلع الفجر لا يصلي إلا ركعتين خفيفتين .

○ أخرج البخاري [١١٨٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يدع أربعًا قبل الظهر ، وركعتين قبل الغداة .

○ وأخرج البخاري [١١٦٩] عنها رضي الله تعالى عنها قالت : لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي المحر . متفق عليه .
○ ولمسلم [٩٦/٧٢٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

○ وأخرج مسلم [١٠٢/٨٢٨] عن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صلى اثنتي عشرة ركعة في يومه ولياته بُني له بهن بيت في الجنة » وفي رواية [١٠٢/٨٢٨] . « تطوعًا » .

○ وللترمذي [٤١٥] نحوه ، وزاد : « أربعًا قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر » . =

○ وروى أبو داود [١٢٧١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً » وحسنه الألباني .

○ وأخرج البخاري [١١٨٣] عن عبد الله بن مُغَفَّل المزني رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا قبل صلاة المغرب ، - قال في الثالثة : - لمن شاء » . كراهية أن يتخذها الناس سنة .

○ وروى ابن حبان في صحيحه [١٥٨٨] عن عبد الله المزني رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى قبل المغرب ركعتين . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

○ وأخرج مسلم [٣٠٢/٨٣٦] وأبو داود [١٢٨٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كنا نصلي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين بعد غروب الشمس ، قبل صلاة المغرب وكان النبي ﷺ يرانا ، فلم يأمرنا ولم يهنا . ○ أخرج البخاري [١١٧١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يخفف الركعتين اللتين قبل صلاة الصبح حتى إني أقول : هل قرأ بأم الكتاب ؟ متفق عليه .

○ أخرج مسلم [٩٨/٧٢٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿ قُلْ يَتَّابِعُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ○ أخرج البخاري [٦٢٦] وابن ماجه [١١٩٨] واللفظ له عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن .

○ روى أحمد في المسند [٤١٥/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صلى أحدكم الركعتين قبل صلاة الصبح فليضطجع على جنبه الأيمن » وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح . =

○= أخرج البخاري [٩٩٠] ومسلم [١٤٥/٧٤٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الليل مشى مشى ، وإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة تُرِثِرُ له ما قد صلى » . متفق عليه .
وللخمسة : وصححه ابن حبان بلفظ : « صلاة الليل والنهار مشى » وقال النسائي : هذا خطأ .

○ أخرج مسلم [٢٠٢/١١٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصلاة بعد الفريضة ، صلاة الليل » .
○ روى أبو داود [١٤٢٢] وصححه الألباني [١٢٦٠] عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الوتر حق على كل مسلم ، فمن أحب أن يوتر بخمس فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بثلاث فليفعل ، ومن أحب أن يوتر بواحدة فليفعل » .

○ روى الترمذي [٤٥٤] عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : « الوتر ليس بحتم كهيئة الصلاة المكتوبة ، ولكن سنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصححه الألباني .

○ وروى ابن حبان في صحيحه [٢٤٠٩] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام في شهر رمضان ، ثم انتظروه من القابلة فلم يخرج ، وقال : « إني خشيت أن يكتب عليكم الوتر » . وقال الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

○ وروى ابن ماجه [١١٦٨] عن حارثة بن حذافة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أمدكم بصلاة هي خير لكم من حُمُرِ النعم » « الوتر ، جعله الله لكم ما بين صلاة العشاء إلى أن يطبع الفجر » وقال الألباني في ضعيف ابن ماجه [٢٤٥] صحيح دون قوله « هي خير لكم من حُمُرِ النعم » .

○ أخرج البخارى [١١٤٧] ومسلم [١٢٥/٧٣٨] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة ، يُصلى أربعاً ، فلا تسأل عن أحسنهن وطولهن ، ثم يُصلى أربعاً ، فلا تسأل عن أحسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . قالت عائشة ، فقلت : يا رسول الله أأنام قبل أن تُوتر ؟ فقال : « يا عائشة ، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي . »

○ أخرج مسلم [١٢٣/٧٣٧] عنها رضى الله تعالى عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة ، يُوتر من ذلك بخمس ، لا يجلس فى شيء إلا فى آخرها . »

○ أخرج البخارى [٩٩٦] ومسلم [١٣٦/٧٤٥] عنها رضى الله تعالى عنها قالت : من كُلَّ الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهى وتره إلى السحر . متفق عليه .

○ أخرج البخارى [١١٥٢] ومسلم [١٨٥/١١٥٩] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله ، لا تكن مثل فلان ، كان يقوم من الليل ، فترك قيام الليل . »

○ وروى أحمد فى المسند [١١٠/١] وأبو داود [١٤١٦] وقال الأرناؤوط : إسناده قوى عن عليّ كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أهل القرآن ، أوتروا فإن الله عز وجل وثر يحب الوتر . »

○ وأخرج مسلم [١٥١/٧٥١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً . »

○ وروى أحمد فى المسند [٢٣/٤] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن عن طلق بن عليّ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا وتران فى ليلة . » =

○ وروى ابن حبان [٢٤٣٦] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُوتر بـ ﴿مَسِّحَ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ، و ﴿قُلْ بَيَّأْتُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .
○ أخرج مسلم [١٦٠/٧٥٤] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أوتروا قبل أن تُصبحوا » .

○ وروى ابن ماجه [١١٨٨] وعنه رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نام عن الوتر أو نسيه فليصل إذا أصبح أو ذكره » .
وصححه الألباني .

○ أخرج مسلم [١٦٢/٧٧٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة آخر الليل مشهودة ، وذلك أفضل » .
○ وروى الترمذي [٤٦٩] وأحمد [١٥٠/٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا طلع الفجر فقد ذهب وقت كل صلاة الليل والوتر . فأوتروا قبل طلوع الفجر » . وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناده حسن وبقيته رجاله ثقات رجال الشيخين .

○ أخرج مسلم [٧٩/٧١٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى أربعاً ، ويزيد ما شاء الله .

○ وأخرج مسلم [٧٦/٧١٧] عنها رضي الله تعالى عنها أنها سُئِلَتْ : أكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى ؟ قالت : لا . إلا أن يجيء من مغيبه .

○ أخرج مسلم [١٤٣/٧٤٨] عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الأوابين حين تَرْمَضُ الفصال » . =

○ أخرج لترمذى [٤٧٣] وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من صلى الصبحى اثنتى عشرة ركعة بهى الله له قصيرا من ذهب فى الجنة » رواه اترمذى واستغربه . وابن ماجه [١٣٨٠] وضعه الألبانى .

○ وروى ابن حبان فى صحيحه [٢٥٣١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى . فصلى الصبحى ثمانى ركعات » .
○ وقال الأرنؤوط : المطلب بن عبد الله بن حنطب ، وثقه أبو زرعة ويعقوب بن سفيان والدارقطنى ، إلا أنهم اختلفوا فى سماعه من عائشة ، قال أبو حاتم لم يدرك عائشة ، وعامة حديثه مراسيل ، وقال أبو زرعة : أرجو أن يكون صحيح منها ، وباقى السند على شرط مسلم .

○ ○ ○

صلاة الكسوف

○ أخرج البخارى [١٠٤٣] ، ومسلم [٢٩/٩١٥] عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم مات إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتوهما ، فادعوا الله وصلوا ، حتى ينكشف » .

○ وأخرج البخارى [١٠٥٧] ، ومسلم [٢١/٩١١] ؛ عن أبى مسعود الأنصارى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، يخوف الله بهما عباده ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس ، فإذا رأيتم منها شيئاً فصلوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم » .

○ أخرج مسلم [٥/٩٠١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها : أن النبى ﷺ جهر في صلاة الكسوف بقراءته فصلى أربع ركعات فى ركعتين ، وأربع سجادات .

○ وأخرج البخارى [١٠٥٢] ، ومسلم [١٧/٩٠٧] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام قياماً طويلاً ، نحواً من قراءة سورة البقرة ، ثم ركع ركوعاً طويلاً ، ثم رفع فقام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً ، وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد ، ثم قام قياماً طويلاً ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً ، وهو دون الركوع الأول ، ثم رفع ، فقام قياماً طويلاً ، وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً ، وهو دون الركوع الأول ، ثم سجد ، ثم انصرف وقد تجلت الشمس ... » .

○ أخرج مسلم [١٨/٩٠٨] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : صلى رسول الله ﷺ حين كُسِفَت الشمس ثمانى ركعات فى أربع سجادات . =

○= وأخرج مسلم [١٠/٩٠٤] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه :
« ... صلى ست ركعات بأربع سجعات ... » .

○ وروى الطبراني في الكبير [١١٥٣٣/١٧٠/١١] عن ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما قال : إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ، ومد
يديه وقال : اللهم إني أسألك خير هذه الرياح ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ
بك من شرها وشر ما أرسلت به ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا ، اللهم
اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » . وقال الهيثمي في المجمع [١٣٦/١٠] وفيه
حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير ، وبقية
رجالهم رجال الصحيح .

○ روى النسائي في الكبرى [٥٠٤/١٨٥/١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها
قالت : صلاة الآيات ست ركعات وأربع سجعات .
والحديث أخرجه مسلم [٧/٩٠١] بلفظ : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى
ست ركعات وأربع سجعات .

○○○

صلاة الاستسقاء

○ الاستسقاء هو : طلب سقايه الله تعالى عند حدوث الجذب ، عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه ؛ قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا معشر المهاجرين ! خمسٌ إذا ابتُيتم بهن ، وأعوذُ بالله أن تدرُكوهنَّ : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاغوتُ والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيالَ والميزان ، إلا أُجِدُوا بالسَّيْنِ وشِدَّةُ المِثْقَالِ وجَوْرُ السِّطْطَانِ عليهم . ولم يمسعوا زكاة أموالهم ، إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماء ، ولولا البهائم لم يُمَطَّرُوا . ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلب الله عليهم عُدُوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم . وما لم تحْكُم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخبروا مما أنزل الله ، إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

○ وروى ابن ماجه [١٢٦٦] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم متواضعًا ، مُتَبَذَلًا ، مُتَخَشِعًا ، مُتَرَسِّلًا ، متضرعًا ، فصلَّى ركعتين ، كما يصلى في العيد ، ولم يخطب خطبتكم هذه . وحسنه الألباني .

○ وروى أبو داود [١١٧٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : شكَا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قُحُوطَ المطر ، فأمر بمنبر ، فوُضِعَ له من المصلى ، ووعد الناس يوما يخرجون فيه .

قالت عائشة : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ حاجب الشمس ، فقام على المنبر ، فكبر صلى الله عليه وسلم وحمد الله عز وجل ، ثم قال : « إنكم شكوتُم جدب دياركم واستخار المطر عن إبان زمانه عنكم وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم . »

ثم قال : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله ، لا إله إلا أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين » .

ثم رفع يديه ، فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم حوّل إلى الناس ظهره ، وقلب رداءه ، وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل ، صلى ركعتين ، فأنشأ الله تعالى سحابة . فرعدت ، وبرقت . ثم أمطرت . بإذن الله ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكثر ضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه فقال : أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله ورسوله . وحسنه الألبانى .

○ وأخرج البخارى [١٠١٣] ، ومسلم [٨/٨٩٧] عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة ، من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب . فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ، ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ادع الله عز وجل يُغثنا ، قال . فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، ثم قال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » فذكر الحديث . وفيه الدعاء بإمساكها .

○ وأخرج البخارى [١٠١٠] عن أنس ، أن عمر رضى الله تعالى عنه ، كن إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فثسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا فاسقنا . قال فيسقون .

○ أخرج مسلم [١٣/٨٩٨] ، وعنه رضى الله تعالى عنه قال : أصابنا - ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مطر - قال : فحسرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبه ، حتى أصابه من المطر ، فقلنا : يا رسول الله لم صنعت هذا ؟ قال : « لأنه حديث عهد بربه تعالى » .



○ = أخرج البخاري [٥١٩/٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى المطر قال : « صَيِّبًا نَافِعًا » .
○ وروى الطبراني في الدعاء [٩٦٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خرج سليمان عليه السلام يستسقى ، فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تقول : اللهم إنا خلقنا من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك ، فقال : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم »^(١) .

(١) إسناده ضعيف لصعف زيد العمي ، وروى المحاكم [١٢١٥/٤٧٣/١] ، والدارقطني [١/٦٦/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرج نبي من الأنبياء يستسقى فإذا هو بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء . فقال : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل شأن النملة » . وقال المحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وواقفه الذهبي .

صلاة الجماعة والإمامة

- أخرج البخاري [٦٤٩] ، وأخرج مسلم [٢٤٩/٦٥٠] عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » .
- وأخرج البخاري [٦٤٤] ، ومسلم [٢٥١/٦٥١] ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لقد هممت أن أمّر بحطب فيحطب ، ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سمينا أو مرامتين حسنتين لشهد العشاء » .
- وأخرج مسلم [٢٥٢/٦٥١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أثقل الصلاة على المنافقين : صلاة العشاء ، وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً » .
- وأخرج مسلم [٢٥٥/٦٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال : يا رسول الله ، إنه يبس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فرخص له ، فلما ولي دعاه ، فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب » .
- وروى ابن ماجه [٧٩٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سمع النداء فلم يأتها فلا صلاة له إلا من عذر » ، وصححه الألباني .
- وروى أحمد في المسند [١٦١/٤] عن يزيد بن الأسود عن أبيه ، أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح - عني وهو غلام شاب - ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا هو برجلين لم يُصليا ، فدعا =

= بهما ، فجاء بهما ترعد فرائضهما ، فقال لهما : « ما منعكما أن تُصليا معنا ؟ »
 قالا : قد صليا في رحالنا . قال : « فلا تفعلنا ، إذا صليتم في رحالكم ثم
 أدركتم الإمام لم يُصل فصليا معه ، فهي لكم نافلة » وقال : الأرناؤوط إسناده
 صحيح .

○ أخرج مسلم [٤١٧ / ٨٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « إني لجعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا
 ركع فاركعوا ، وإذا قال سمع الله لمن حمده ، فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد ،
 وإذا صلى قائمًا فصلوا قيامًا ، وإذا صلى قاعدًا فصلوا قعودًا أجمعون » .
 ○ أخرج مسلم [٤٣٨ / ١٣٠] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم رأى في أصحابه تأخرًا . فقال : « تقدموا فأتموا بي ،
 وليأتم بكم من بعدكم » رواه مسلم .

○ أخرج البخاري [٧٣١] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال : اتخذ
 رسول الله حجرة قال - حسب أنه قال من حصير - في رمضان فصلى فيها
 ليالي فصلى بصلاته ناس من أصحابه ... الحديث ، وفيه : « أفضل صلاة المرء
 في بيته إلا المكتوبة » .

○ أخرج مسلم [٤٦٥ / ١٧٨] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنه
 قال : صلى معاذ بن جبل الأنصاري لأصحابه العشاء فطول عليهم ، فانصرف
 رجل منا ، فصلى فأخبر معاذ عنه فقال إنه منافق ، فلما بلغ ذلك الرجل دخل
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما قال معاذ . فقال النبي ﷺ :
 « أتريد أن تكون فتانًا يا معاذ ؟ إذا أتمت الناس فاقرا بـ ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ،
 و ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ و ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ » .
 ○ أخرج مسلم [٤١٨ / ٩٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها - في قصة صلاة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وهو مريض - قالت : فجاء رسول الله =

= صلى الله عليه وسلم حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت : فحان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس حالسًا وأبو بكر قائمًا ، يقتدى أبو بكر بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقتدى الناس بصلاة أبي بكر .

○ أخرج مسلم [٤٦٧/ ١٨٣] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أم أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء » .

○ أخرج البخارى [٤٣٠٢] عن عمرو بن سلمة قال : قال أبي : جئتم من عند النبي صلى الله عليه وسلم حقًا . فقال : « صلوا صلاة كذا فى حين كذا ، وصلوا صلاة كذا فى حين كذا ، فإذا خَضَرَت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآنًا » فنظروا فلم يكن أحدٌ أكثر قرآنًا منى ، لما كنت ألقى من الركبان فقدمونى بين أيديهم ، وأنا ابن ست أو سبع سنين .

○ أخرج مسلم [٦٧٣/ ٢٩٠] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنًا - وفى رواية : سنًا - ولا يؤمّن الرجل الرجل فى سلطانه ، ولا يقعد فى بيته على تكرمته ، لا بإذنه » .
○ روى أبو دواد [٦٦٧] عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رُضُّوا صُفُوفُكُمْ ، وقاربوا بينها ، وحاذوا بالأعناق » . وصححه الألبانى .

○ أخرج مسلم [٤٤٠/ ١٣٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » .

○= وأخرج البخارى [٦٣١٦] ومسلم [١٨٨/٧٦٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى
عهما قال : « بت ليلة عند خالتي ميمونة فقام النبي صلى الله عليه وسلم من
الليل .. الحديث ، وفيه فقام فصلى . فقامت عن يساره فأخذ بيدي فأدارني
عن يمينه .. » .

○ أخرج البخارى [٨٧١] عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : صلى النبي صلى الله
عليه وسلم ، فى بيت أم سليم فقامت ويتيم خلعه ، وأم سليم خلفنا .
○ أخرج البخارى [٧٨٣] عن أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، أنه انتهى إلى النبي صلى
الله عليه وسلم ، وهو راکع ، فرکع قبل أن يصل إلى الصف فذكر ذلك للنبي
صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « زادك الله جزوا
ولا تعد » .

○ وزاد أبو داود [٦٨٤] : « أيكم الذى ركع دون اصف ، ثم مشى إلى الصف » .
وصححه الألبانى .

○ روى أبو داود [٦٨٢] عن وابصة بن معبد رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم رأى رجلاً يُصلى خلف الصف وحده ، فأمره أن يُعد الصلاة .
وصححه الألبانى .

○ أخرج البخارى [٦٣٦] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم بالسكينة
والوقار ، ولا تُسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

○ روى أبو داود [٥٥٤] عن أبي بن كعب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل مع الرجل أركى من صلاته وحده ، وصلاته
مع الرجلين أركى من صلاته مع الرجل ، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى »
وحسنه الألبانى .



○= وروى أحمد [٤٠٥/٦] عن أم ورقة رضى الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها أن تؤم أهل دارها ^(١) .

○ وروى أبو داود [٥٩٥] عن أنس رضى الله تعالى عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤم اساس ، وهو أعمى .

وقال الألبانى : حسن صحيح .

(١) ورواه لسهقى فى الكرى [٥١٣٦/١٣٠/٣] وأبو داود [٥٩٢] وحسنه الألبانى .

صلاة المسافر والمريض

○ أخرج البخاري [١٠٩٠] ومسلم [١/٦٨٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : أول ما فرضت الصلاة ركعتين ، فأُقرت صلاة السفر وأُتمت صلاة الحضر .

○ روى أحمد في المسند [١٠٨/٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يحب أن تُؤتى رخصة كما يكره أن تُؤتى معصيته » . وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

○ وروى ابن حبان في صحيحه [٣٥٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُؤتى عزائمه » . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .

○ وروى مسلم [١٢/٦٩١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال ، أو فراسخ ، صلى ركعتين . وأخرج البخاري [١٠٨١] ومسلم [١٥/٦٩٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة . فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة .. قلت : أقمت بمكة شيئاً ؟ قال : أقمت بها عشرًا .

○ وأخرج البخاري [١٠٨٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال . أقام النبي صلى الله عليه وسلم : تسعة عشر يوماً يقصُرُ . فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا ، وإن زدنا أتممتنا .

○ وروى أبو داود [١٢٣٥] عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة . وصححه الألباني .

- = وأخرج البخارى [١١١١] ومسلم [٤٦/٧٠٤] عن أنس رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ارتحل فى سفره قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ، ثم نزل فجمع بينهما ، فإن راغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب .
- أخرج مسلم [٥٢/٧٠٦] عن معاذ رضى الله تعالى عنه قال : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك . فكان يصلى الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً .
- أخرج البخارى [١١١٧] عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال : كانت بى بواسير فسألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، فقال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جثب » . . .
- وروى ابن خزيمة فى صحيحه [٩٧٨/٨٩/٢] والحاكم فى المستدرک [٩٤٧/٣٨٩/١] والنسائى فى المجتبى [١٦٦١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى مُتَرَبِّعاً وقال الحاكم حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

صلاة الحرب والخوف وقصر الصلاة

لأهمية الصلاة نجد أن الحق سبحانه وتعالى يحذرننا من أن يشغلنا عنها أى شاغل حتى لو كانت الحرب ، بل على العكس من ذلك ففي الحرب يكون أولى بالمسلم أن يستحم بمنحه الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم فقد شرع الحق سبحانه صلاة الخوف فى الحرب ، كما شرع قصر الصلوات فى السفر لئلا تكون مشقة السفر داعياً لإهمال الصلاة قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [النساء . ١٠١] .

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة ، والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها وهو أن يؤدى المؤمن كلا من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ركعتان وثلاث ركعات ، وهذا هو الثابت فى قصر الصلاة للسفر .

أما وقد شرع الله سبحانه وتعالى للخوف صلاة وللحرب صلاة فمعنى هذا أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة إقامة تقتضى ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، وألا يفرطوا أيضاً فى صلاتهم ، أما صلاة الحرب أو الخوف فقد وردت فى القرآن الكريم ، أما صلاة السفر فهى ثابتة بالسنة المطهرة وفيها يقصر المؤمن من صلاته أيضاً ، ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً فى الصلاة إنهم يهجمون عليهم هجمة واحدة لذا يأتى الخطاب فى الآية التالية موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آمِنًا مِّنْهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ

وَلَمَّا تَ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ [النساء ١٠٢] .

هذا وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، فكان يقسم الجيش إلى قسمين قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ويصلى بكل فرقة ركعتين .

أو يصلى بكل فرقة ركعة ثم يسلم ، بعد صلاة الفرقة الأولى الركعة الأولى تخرج وتأتى الثانية فيصلى الركعة وتنتهى الصلاة ثم تكمل كل منهم الركعة الأخرى ويكون الكل نال شرف الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وسلم وهناك كيفية ثالثة وهى أن تبدأ الطائفة الأولى الصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم بركعة ثم يتوقف النبي صلى الله عليه وسلم بعد الركعة دون أن يسلم وتكمل الطائفة الأولى صلاة الركعة الثانية وتخرج من الصلاة ثم تأتى الطائفة الثانية لتصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم الركعة الثانية ثم ينتظر النبي إلى أن تأتى الطائفة الثانية بالركعة الثانية ويسلم فتتال الطائفة الأولى شرف بدء الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى الله عليه وسلم (١) .

(١) أخرج البخارى [٤١٣٣] ومسلم [٣٠٥/٨٣٩] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بإحدى الطائفتين ، والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا فقاموا أصحابهم فجاء أولئك فصلى بهم ركعة ، ثم سلم عليهم ، ثم قام هؤلاء فقصوا ركعتهم .

○ وأخرج مسلم [٣٠٧/٨٤٠] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف . فصفنا صفين : =

= صف حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدو بيننا وبين القبلة . فكبر
 انبى صلى الله عليه وسلم وكبرنا جميعًا . ثم ركع وركعنا جميعًا ثم رفع رأسه
 من الركوع ورفعنا جميعًا . ثم انحدر بالسجود ، والصف الذى يليه . وقام
 اصف المؤخر فى بحر العدو . فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم السجود ،
 وقام الصف الذى يليه ، وانحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا . ثم تقدم
 الصف المؤخر . وتأخر الصف المقدم . ثم ركع النبى صلى الله عليه وسلم
 وركعنا جميعًا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعًا . ثم انحدر بالسجود
 والصف الذى يليه الذى كان مؤخرًا فى الركعة الأولى . وقام الصف المؤخر
 فى بحر العدو . فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذى
 يليه . انحدر الصف المؤخر بالسجود . فسجدوا . ثم سلم النبى صلى الله عليه
 وسلم وسلمنا جميعًا . قال جابر : كما يصنع خرسكم هؤلاء بأمرائهم .

○ أخرج البخارى [٤١٣١] ومسلم [٣٠٩/٨٤١] عن صالح بن حوات بن جبير
 عن سهل بن أبى حشمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه فى
 الخوف فصفهم خلفه صفين . فصلى بالذين يلونه ركعة . ثم قام . فلم يزل
 قائمًا حتى صلى الدين خلفهم ركعة تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم .
 فصلى بهم ركعة . ثم قعد حتى صلى الدين تخلفوا ركعة ثم سلم .

○ وأخرج البخارى [٤١٣٦] ومسلم [٣١١/٨٤٣] عن جابر ؛ قال : أقبلنا مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى إذا كنا بذات الرقاع ، قال كنا إذا أتينا
 على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فجاء رجل
 من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بشجرة . فأخذ
 سيف نبى الله صلى الله عليه وسلم فاحترطه . فقال لرسول الله صلى الله عليه
 وسلم : أتخافنى ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله يمنعنى
 منك . قال : فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأغمد =

= السيف وعلقه . قال فوى بالصلاة . فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا . وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين . قال : فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات . وللقوم ركعتان .

○ وأخرج البخارى [٩٤٤] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قام النبی صلى الله عليه وسلم وقام الناس معه فكبر وكبروا معه ، وركع وركع الناس منهم ، ثم سجد وسجدوا معه . ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم ، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه ، والناس كلهم فى صلاة ولكن يحرس بعضهم بعضاً .

○ وقال الحافظ فى الفتح : ورد عن النبی ﷺ فى صلاة الخوف كيفيات حملها بعض العلماء على اختلاف الأحوال ، وحملها آخرون على التوسع والتخير . ○ وقال النووى فى شرح مسلم [٣٩١/٣] واختار أن هذه الأوجه كلها جائزة بحسب مواطنها . وفيها تفصيل وتفريع مشهور فى كتب الفقه . قال الخطابى : صلاة الخوف أنواع ؛ صلاها النبی صلى الله عليه وسلم فى أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى فى كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة ، فهى على اختلاف صورها متفقة المعنى ، ثم مذهب العلماء كافة أن صلاة الخوف مشروعة اليوم كما كانت إلا أبا يوسف والمزنى فقلا : لا تشرع بعد النبى صلى الله عليه وسلم لقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ واحتج الجمهور بأن الصحابة لم يزالوا على فعلها بعد النبى صلى الله عليه وسلم وبس المراد بالآية تخصيصه صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت قوله صلى الله عليه وسلم « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ^(١) .



(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٧٢٤٦] .

مواقيت الصلاة والمحافظة عليها^(١)

إن المؤمن مطالب بالأداء يسوف أو يؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله سبحانه قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وأن تكون الصلاة دائماً في بؤرة شعوره ؛ لذا ينبهنا الحق سبحانه إلى ذلك فيقول عز من قائل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوا وَعَنْ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] .

أى : إن الصلاة لها وقت ولا يصح تأخيرها عن وقتها ، صحيح أن وقت صلاة الظهر ممتدة لما قبل صلاة العصر ، ولكن للوقت الأول فضله وثوابه . وقد يقول قائل ماذا لو جاء وقت الصلاة وأنا أقوم بعمل هام مثلاً ؟ نقول لمثل هؤلاء : أسألكم بالله ماذا تصنعون أثناء هذا العمل الذي تتخيلون أنكم غير قادرين على تركه إذا اضطررتم إلى قضاء الحاجة والذهاب إلى دورة المياه ؛ فماذا تصنعون ؟! إن الله تعالى لا يبارك في عمل يغني عن الصلاة ، فأحسنوا توزيع عملكم بما لا يتعارض مع مواقيت الصلاة واعلموا أن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ [الطلاق] .

(١) المواقيت جمع ميقات ، والمراد به الوقت الذي عينه الله لأداء هذه العادة ، وهو القدر المحدود للعمل من الزمان .

وقد جاءت هذه المواقيت في أحاديث حددها النبي ﷺ على النحو التالي :
○ أخرج مسلم [١٧٣/٦١٢] عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « وقت الظهر إذا زالت الشمس ، وكان ظل الرجل كصوله ما لم يحضر العصر ، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ، ووقت صلاة المغرب ما لم يغب الشفق ، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط ، ووقت =

= صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس فأمسك
عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني شيطان .

○ وله [١٧٦/٦١٣] من حديث ثريدة في العصر : « والشمس مرتفعة يبصاء نقية » .

○ وله [١٧٨/٦١٤] من حديث أبي موسى : « والشمس مرتفعة » .

○ وأخرج البخاري [٥٩٩] عن أبي بركة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي العصر ، ثم يرجع أحدنا إلى رحله
في أقصى المدينة والشمس حية ، وكان يستحب أن يؤخر من العشاء ، وكان
يكره النوم قبلها والحديث بعدها ، وكان ينفل من صلاة الغداة حين يعرف الرجل
جليسه ، وكان يقرأ بالسيتين إلى المائة .

○ أخرج البخاري [٥٦٥] ومسلم [٢٣٣/٦٤٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه
قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة والعصر
والشمس نقية ، والمغرب إذا وجبت : والعشاء أحياناً يؤخرها وأحياناً يعجل ،
كان : إذا رأهم قد اجتمعوا عجل ، وإذا رأهم قد أبطأوا أخر ، والصبح ؛ كانوا
أو قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصليها يَغْلَس .

○ ومسلم [١٧٨/٦١٤] من حديث أبي موسى : فأقام الفجر حين انشأ
الفجر ، والناس لا يَكَاذُ يعرف بعضهم بعضاً .

○ وأخرج البخاري [٥٥٩] ومسلم [٢١٧/٦٣٧] عن رافع بن خديج رضي
الله تعالى عنه قال : كنا نُصلي المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيصرف أحدنا وإنه ليصبر مواقع قبله .

○ وأخرج مسلم [٢١٨/٦٣٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : أَعْتَمَ
النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة بصلاة ، حتى ذهبَ عامة الليل ، وحتى
نم أهل المسجد ثم خرج ، فصلى ، فقال : « إنه لوقتها لولا أن أشق على
أمتي .

والصلاة رزق عبودى يحرك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له ، لأن
الذى فرضها هو ربك وخالقك ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولاً
بربك ١٩



○= وأخرج البخارى [٥٧٩] ومسلم [١٦٣/٦٠٨] عن أبى هريرة رضى الله
تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أدرك ركعة الصبح قبل أن
تطلع الشمس فقد أدرك الصبح ، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب
الشمس فقد أدرك العصر » .

الأوقات التي نُهي عن الصلاة فيها

○ أخرج مسلم [٢٨٥/٨٢٥] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس .

○ وأخرج البخارى [٥٨١] ومسلم [٢٨٦/٨٢٦] عن ابن عباس قال : سمعت غير واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عمر بن الخطاب . وكان أحبهم إلى ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب الشمس .

○ وأخرج البخارى [٥٨٦] ومسلم [٢٨٨/٨٢٧] عن أبي سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا صلاة بعد صلاة لعصر حتى تغرب الشمس . ولا صلاة بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس .

○ وأخرج مسلم [٢٩٣/٨٣١] عن عقبة بن عامر الجهنى يقول : ثلاث ساعات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا أن نصلى فيهن أو أن نقبر فيهن موتانا حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب .

○ قال النووى فى شرح مسلم [٣٧٤/٣] فى أحاديث الباب نهى ﷺ عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس ، وبعد طلوعها حتى ترتفع ، وعند استوائها حتى تزول وعند اصفرارها حتى تغرب ، وأجمعت الأمة على كراهة صلاة لا سبب لها فى هذه الأوقات ؛ واتفقوا على جواز الفرائض المؤداة فيها ، واحتلّفوا فى النوافل التى لها سبب كصلاة تحية المسجد ، وسجود التلاوة والشكر ، وصلاة العيد والكسوف وفى صلاة الجنائز وقضاء الفوائت ، ومذهب الشافعى وطائفة جواز ذلك كله بلا كراهة ، ومذهب أبى حنيفة وآخرين أنه داخل فى النهى لعموم الأحاديث . واحتج =



الشافعي وموافقه بأنه ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى سنة الظهر به العصر ، وهذا صريح في قضاء السنة الفائتة ، فالحاضرة أولى والفريضة المقضية أولى ، وكذا الجنازة . هذا مختصر ما يتعلق بجملة أحكام الباب .

الرخصة في الصلاة بعد العصر وقبل الغروب وقبل المغرب^(١)

(١) روى انسائي [٥٧٣] عن علي رضي الله تعالى عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بعد العصر إلا أن تكون الشمس بضاء نقية مرتفعة . وصححه الألباني .

○ وله [٥٧٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، قالت : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم السجدين بعد العصر عندي قط . وصححه الألباني .

○ وله [٥٧٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : صلاتان ما تركهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي سرًا ولا علانية ركعتان قبل الفجر وركعتان بعد العصر . وقال الألباني في صحيح النسائي [٥٦٢] : صحيح .
○ وروى النسائي [٥٨٠] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : شغل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الركعتين قبل العصر فصلاهما بعد العصر . وقال الألباني : حسن صحيح .

○ وله عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين قبل العصر فشعل عنهما فركعهما حين غابت الشمس فلم أره يصليهما قبل ولا بعد . وصححه الألباني .

○ وله [٥٨٢] عن أبي تميم الجيشاني قام ليركع ركعتين قبل صلاة المغرب فقلت لعقبة بن عامر انظر إلى هذا ! أي صلاة يصلي ؟ فالتفت إليه فرآه فقال هذه صلاة كنا نصليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصححه الألباني .

○○○

الصلاة في الكعبة في أى وقت شاء^(١)

(١) روى الترمذى [٨٦٨] عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد مناف ، لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار » . وصححه الألبانى .

○ وقال الترمذى : وقد اختلف أهل العلم فى الصلاة بعد العصر وبعد الصبح بمكة : فقال بعضهم : لا بأس بالصلاة والطواف بعد العصر وبعد الصبح . وهو قول الشافعى ، وأحمد ، وإسحاق ، واحتجوا بحديث النبى ﷺ هذا . وقال بعضهم : إذا طاف بعد صلاة العصر لم يصل حتى تغرب الشمس ، وكذلك إن طاف بعد صلاة الصبح أيضا لم يصل حتى تطلع الشمس ، واحتجوا بحديث عمر ؛ أنه طاف بعد صلاة الصبح فلم يصل ، وخرج من مكة حتى نزل بذى طوى فصلى بعد ما طلعت الشمس . وهو قول سفيان الثورى ، ومالك بن أنس .

○ قال المباركفورى فى تحفة الأحودى قوله : « يا بنى عبد مناف » خصهم بالخطاب دون سائر قريش لعلمه بأن ولاية الأمر والخلافة ستؤول إليهم مع أنهم رؤساء مكة وفيهم كانت السدانة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة . قاله الطيىبى « لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت » يعنى وهو قابل للتقييد بغير الأوقات المنهية إذ سبق النهى أو الصلاة بمعنى الدعاء انتهى .

قلت الظاهر أن صلاة الطواف مستثناة من الأوقات المنهية . قال المظهر : فيه دليل على أن صلاة التطوع فى أوقات الكراهة غير مكروهة بمكة لشرفها لينال الناس من فصلها فى جميع الأوقات ، وبه قال الشافعى ، وعند أبى حنيفة حكمها حكم سائر البلاد فى الكراهة لعموم العلة وشمولها . قال ابن الملك : والظاهر أن المراد بقوله وصلى أية ساعة شاء فى الأوقات الغير مكروهة ترفيحا بين النصوص انتهى .



= قلت : التوفيق بين النصوص ليس بمحصر في هذا ، قال الخطابي : واستدل به الشافعي على أن الصلاة جائزة بمكة في الأوقات المنهى فيها عن الصلاة في سائر البلدان ، واحتج له أيضًا بحديث أبي ذر قوله : إلا بمكة ، فاستثناه من بين البقاع .

وذهب بعضهم إلى تخصيص ركعتي الطواف من بين الصلاة ، قالوا إذا كان الطواف بالبيت غير محظور في شيء من الأوقات وكان من سنة الطواف أن تصلي الركعتان بعده فقد عقل أن هذا النوع من الصلاة غير منهي عنه انتهى . قلت : حديث أبي ذر الذي أشار إليه الخطابي هو ما رواه أحمد وورزين عنه بلفظ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا صلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس ولا بعد العصر حتى تغرب الشمس إلا بمكة إلا بمكة إلا بمكة ، وسنده ضعيف وهو يؤيد حديث الباب .

تحفة الأحوذى [٥١٤/٣ - ٥١٥] .

والحديث رواه السائي [٥٨٥] و[٢٩٢٤] وابن ماجه [١٢٥٤] وصححه الألباني .

فضل الصلاة لوقتها

- أخرج البخارى [٥٢٧] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » .
- وأخرج مسلم [١٣٨/٨٥] عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله فما تركت أستزیده إلا إرعاء عليه .
- وأخرج مسلم [١٤٠/٨٥] عن عبد الله عن النبی صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الأعمال أو العمل الصلاة لوقتها وبر الوالدين .
- وأخرج مسلم [٢٧٤ / ١٠٥] عن المغيرة بن شعبه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك فبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العائط فحملت معه إداوة قبل صلاة الفجر فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أخذت أهريق على يديه من الإداوة وغسل يديه ثلاث مرات ثم غسل وجهه ثم ذهب يخرج جبهته عن ذراعيه فضاق كما جبته فأدخل يديه فى الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة وغسل ذراعيه إلى المرفقين ثم توضأ على خفية ثم أقبل فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم فأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتم صلاته فأفرغ ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح فلما قضى النبی صلى الله عليه وسلم صلاته أقبل عليهم ثم قال أحسنتم أو قال قد أصبتم يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها .

○= وأخرج مسلم [٢٣٨/٦٤٨] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها أو يمتنون الصلاة عن وقتها ؟ قلت فما تأمرنى ؟ قال صل الصلاة لوقتها فإن أدركتها معهم فصل فإنها لك نافلة .

○ وأخرج مسلم [٢٣٩/٦٤٨] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر إنه سيكون بعدى أمراء يمتنون الصلاة فصل الصلاة لوقتها فإن صليت لوقتها كانت لك نافلة وإلا كنت قد أحرزت صلاتك . وروى أبو داود [٤٢٥] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال : أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » وصححه الألبانى .

○ وروى أبو داود [٤٣٣] عن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها ستكون عليكم بعدى أمراء تشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها حتى يذهب وقتها فصلوا الصلاة لوقتها فقال رجل يا رسول الله أصلى معهم قال نعم إن شئت ، وقال سفيان الثورى : إن أدركتها معهم أصلى معهم قال نعم إن شئت وصححه الألبانى .

○ وروى النسائى [٦١٧] عن أبي قتادة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ناموا عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فليصلها أحدكم من الغد لوقتها . وصححه الألبانى .

وروى النسائى [٧٧٩] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمكم ستدركون أقواما يصلون الصلاة لغير وقتها فإن أدركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها وصلوا معهم واجعلوها مباحة . وقال الألبانى : حسن صحيح .

○= وروى الدارمى [١٢٦٦] عن كعب رضى الله تعالى عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحس في المسجد سبعة ، منا ثلاثة من عربنا وأربعة من موالينا أو أربعة من عربنا وثلاثة من موالينا ، قال فخرج علينا النبی صلى الله عليه وسلم من حجرة حتى جلس إلينا فقام ما يجلسكم ههنا قلنا انتظر الصلاة قال فنكت بأصبعه في الأرض ونكس ساعة ثم رفع إلينا رأسه فقال هل تدرؤن ما يقول ربكم قال قلنا الله ورسوله أعلم قال إنه يقول من صلى الصلاة لوقتها فأقام حدها كان له بها على عهد أدخله الجنة ومن لم يصل الصلاة لوقتها ولم يقم حدها لم يكن له عندى عهد إن شئت أدخلته النار وإن شئت أدخلته الجنة .

○ وروى أحمد في المسند [٤٤٦/٣] عن عاصم بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه أن النبی صلى الله عليه وسلم قال سيكون أمراء بعدى يصلون الصلاة لوقتها ويؤخرونها فصلوها معهم ، فإن صلوها لوقتها وصليتموها معهم فلکم ولهم ، وإن أخروها عن وقتها وصليتموها معهم فلکم وعليهم ، من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، ومن نكث العهد فمات ناكثا للعهد جاء يوم القيامة لا حجة له . وقال الأرناؤوط : بعضه صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف عاصم بن عبيد الله وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين .

○ وروى أحمد في المسند [٢٤٤/٤] عن كعب بن عجرة رضى الله تعالى عنه قال : بيما أنا جالس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسدى ظهورنا إلى قبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة رهط : أربعة من موالينا ، وثلاثة من عربنا ، إذ خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر حتى انتهى إلينا ، فقال : ما يجلسكم ههنا ؟ قلنا : يا رسول الله نتظر الصلاة قال : فأزّم قليلا ، ثم رفع رأسه فقال . أتدرون ما يقول ربكم عز وجل قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن ربكم عز وجل يقول : =



= من صلى الصلاة لوقتها ، وحافظ عليها ، ولم يضيعها استخفافاً بحقها فله على عهد أن أدخله الجنة ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافاً بحقها فلا عهد له ، إن شئت عذبت له ، وإن شئت غفرت له .
وقال الأرناؤوط : مرفوعه صحيح لغيره ، وهذا إسناده ضعيف لانقطاعه .
○ وروى ابن حبان في صحيحه [٥٩٦٤] عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه قال : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشي مجدع الأطراف وإذا صنعت مرقعة فأكثر ماءها ثم انظر حيرانك فأتلهم منها بمعروف وصل الصلاة لوقتها فإن أتيت الإمام وقد صلى كنت قد أحرزت صلاتك وإلا فهي لك نافلة . قال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .
○ وروى ابن حبان في صحيحه [١٥٥٨] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها ستكون أمراء يسيئون الصلاة يخنقونها إلى شرق الموتى فمن أدرك ذلك منكم فيصل الصلاة لوقتها وليجعل صلاته معهم مبيعة . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

فضل الصلوات

إن فرض الصلاة يُعد مكرمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن معاني الصلاة في اللغة الدعاء : كما في قوله سبحانه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] أى : وادع لهم ؛ إن دعائك سكن لهم .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء »^(١) وإذا كان السجود مظهرًا من مظاهر الذل والخشوع والخضوع لله ، فإنك بالسجود هذا تكون أقرب ما تكون إلى ربك كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم وفي هذا المعنى يقول الشاعر طاهر أبو فاشا كلام جميل :

يا إلهي شاقني هذا الوجود تلك دنياك فما بال الخلود
عزّ قدرى بك في ذاك السحود أنت إن ترضى كفاني مغنماً
ولأهمية الصلاة نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر عهده بالحياة ، وقد أخذت الصلاة أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فقد جاءت بالتكليف المباشر من الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى ، وهذه اللفتة من الله تبارك وتعالى تعد تشريفاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث شرعت الصلاة من مقام القرب : قرب محمد صلى الله عليه وسلم من ربه .
لذلك جعل الله الصلاة المفروضة في القرب وسيلة لقرب أمة الرسول صلى الله عليه وسلم جميعاً ولذلك فهي الباقية .

(١) أخرجه مسلم [٤٨٢/٢١٥] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

يروى أن الإمام عليا رضي الله تعالى عنه سأل بعض الصحابة : أى آية فى كتاب الله أرجى عندكم ؟

فقال البعض : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

وقال البعض : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] .

وقال البعض : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وقال البعض : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ^(١) .

(١) ورد فى الحديث أن أرجى آية فى كتاب الله تعالى هى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقال على رضي الله تعالى عنه : هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله عز وجل . وإذا كان يكفر عنى بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه ! وقد روى هذا المعنى مرفوعا عنه رضي الله تعالى عنه ، قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها النبى صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ الآية : « يا على ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم . والله أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا عنه فى الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفو » .

وقال على رضي الله تعالى عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] . قالوا : إنا نقول ذلك .

= قال : ولكننا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴾ [الصحي : ٥] .

وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبی صلی الله عليه وسلم : « إذا والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار » .

وقال ابن المبارك : أرجى آية في كتاب الله قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى ﴾ [البور : ٢٢] .

ذكره مسلم في حديث الإفك [٥٦/٢٧٧٠] ، وانظر فتح الباری [٨/٥٢٧، ٤٧٨] .

وقال ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] إذا أصرروا على الكفر .

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحدًا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل أحد » .

قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى ؛ فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : والله إنني لأحب أن يغفر الله لي ؛ فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدًا .

قيل : أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٧] . وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [الشورى : ٢٢] ؛ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية ، وبشر به المؤمنين في تلك .

فقال الإمام عليّ : كل ذلك صحيح ولكن ليست هي التي أقصد وصمت القوم وأحجموا .

فقال الإمام : ما بالكم يا معشر المسلمين لماذا سكتتم ؟ فقالوا : لا شيء . وهكذا جعل الإمام علي رضي الله تعالى عنه القوم في شوق لمعرفة تلك الآية فاشترأبت أعناقهم وأرهفوا السمع فقال علي رضي الله تعالى عنه : أرجى آية في كتاب الله هي قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] ^(١) .

= ومن آيات الرجاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَكْفِيكَمُ اللَّهُ الَّذِي آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ [الشورى : ١٩] . وقال بعضهم : أرجى آية في كتاب الله عز وجل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ ﴾ [الصفا : ٥٠] ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار .

(١) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال يعني الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال الحسن في رواية وقتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح والعصر . وقال مجاهد هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى . ﴿ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعني صلاة العشاء .

وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه ﴿ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ يعني المغرب والعشاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هما زلفا الليل المغرب والعشاء » وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء .

= وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء .
وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء
فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان . صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل
عروبها ، وهى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ فى حق الأمة وثبت
وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً فى قول والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر
الذنوب السالفة كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد فى المسند [٢/١]
والترمذى [٤٠٦] وابن ماجه [١٣٩٥] وأهل السنن عن أمير المؤمنين على بن
أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعنى الله بما شاء أن
ينفعنى منه ، وإذا حدثنى عنه أحد استحلقتة فإذا حلف لى صدقته ، وحدثنى
أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما
من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له » وقال الأرنؤوط
بسناده صحيح .

وأخرجه مسلم [٤/٢٢٦] عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم
كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : هكذا رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يتوضأ وقال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى
ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » .
○ وروى أحمد فى المسند [٧١/١] عن الحارث مولى عثمان قال : جلس عثمان يوماً
وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ . ثم قال :
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئى هذا ثم قال : « ومن توضأ
وضوئى ، ثم قام : فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى
العصر غفر له ما بينها وبين صلاة الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها =

= وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات . وقال الأرناؤوط : إسناده حسن .
 ○ وأخرج لبخارى [٥٢٨] ومسلم [٢٨٣/٦٦٧] عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رأيت لو أن نهرا يباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه ؟ » .

قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : « وكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

○ أخرج مسلم [١٦/٢٣٣] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

○ وروى أحمد في المسند [٤١٣/٥] عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » . وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا إسناده حسن .

○ أخرج البخارى [٤٦٨٧] ومسلم [٣٩/٢٧٦٣] عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك قال : فرلت ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ أَحْسَنْتَ يَذْهَبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِ ﴾ .

قال : فقال الرجل ألى هذه يارسول الله ؟ قال : لمن عمل بها من أمتي .
 ○ وروى أحمد في المسند [٣٨٧/١] عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم =

= قلبه ولسانه ، ولا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا : وما بوائقه يا
 بى الله ؟ قال « غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك
 به فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يترك حلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ،
 إن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكن يمحو السيىء بالحسن ، إن الخبيث لا
 يمحو الخبيث » (١) .

○ وروى أحمد فى المسند [٤٣٧/٥] عن أبى عثمان قال : كنت مع سلمان
 الفارسى تحت شجرة وأخذ منها عصيا يابسنا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال :
 يا أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا . قلت : ولم تفعله ؟ فقال : إن المسلم إذا
 توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطاياها كما يتحات
 هذا الورق وقال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ
 يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ . وقال الأرناؤوط : حسن لغيره ،
 وهذا إسناد ضعيف لضعف على بن زيد .

○ وروى أحمد فى المسند [٢٣٦/٥] عن معاذ أنه قال يارسول الله أوصنى قال
 اتق الله حيثما كنت - أو أينما كنت قال زدنى . قال : « أتبع السيئة
 الحسنة تمحها قال : زدنى ، قال : خالق الناس بخلق حسن » . وقال الأرناؤوط :
 حديث حسن ، وهذا إسناد ضعيف .

○ وروى أحمد فى المسند [١٦٩/٥] عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله
 أوصنى ، قال : « إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحوها » . قل : قلت يا رسول
 الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « هى أفضل الحسنات » . وقال
 الأرناؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شمر بن عطية . =

(١) رواه أحمد فى المسند [٣٨٧/١] وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف ، ووافقه
 الأرناؤوط .

○= وروى ابن حبان في صحيحه [٣٤٣٨] وعن عمر بن مرة الجهني رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال : « من الصديقين والشهداء » . وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

○ وأخرج مسلم [٥/٢٢٧] : أن عثمان رضي الله تعالى عنه قال : والله لأحدثكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يتوضأ رجل فيحسن وضوءه ، ثم يصلي الصلاة إلا غفر الله له ما بينها وبين الصلاة التي تليها .

○ وأخرج مسلم [٧/٢٢٨] في رواية عنه رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وحشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله .

○ روى أحمد في المسند [٤١٣/٥] عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة . وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناده حسن .

○ وأخرج مسلم [٢٦١/٦٥٧] عن مجذوب القسري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء ، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يُدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم .

○ وأخرج البخاري [٥٥٥] ومسلم [٢١٠/٦٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل =

= وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون .

○ وروى أبووداد [١٤٢٠] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ولم يُصِيعَ منهن شيئاً استحقاقاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يُدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة » . وصححه الألباني .

○ وفي رواية له [٤٢٥] : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس صلوات افترضهن الله ، من أحسن وضوءهن ، وصلاهن لوقتهن ، وأتم ركوعهن وسجودهن ، ونحشوعهن كان له على الله عهد أن يعفر له ، ومن لم يفعل فليس على الله عهد ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه . وصححه لألباني .

○ وأخرج مسلم [٢٢٣ / ١] عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملأ أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حُجة لك أو عليك » .

○ وأخرج مسلم [٢٢٥ / ٤٨٨] عن معاذ بن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال : لقيت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أخبرني بعمل أعمله يُدخلني الله به الجنة ، أو قال قلت : بأحب الأعمال إلى الله ، فسكت ، ثم سألته فسكت ، ثم سألته الثالثة ، فقال : سألت عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط بها عك حطية » .



○= وروى ابن ماجه [١٤٢٤] عن عُبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يسجد لله سجدة إلا وكتب الله له بها حسنة ومحاه عنه بها سيئة ، ورفع له بها درجة فاستكثروا من السجود » . وصححه الألبانى .

○ وأخرج مسلم [٢١٥/٤٨٢] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

○ وأخرج مسلم [٢٢٦/٤٨٩] عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله تعالى عنه قال : كُنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته بوضوئه وحاجته ، فقال لى : سلنى ؟ فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود .

الكسل عن الصلاة من علامات النفاق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ [النساء . ١٤٢] كيف يقومون إلى الصلاة كسالى ؟ إن العايات من لأحداث هي لتي تضي على الجوارح الإقبال على الأحداث فإذا كان الحدث الذى تقبل عليه حدثاً تحبه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة ولذلك يقيسون لهفة اللقاء لأنها هي التي تحدد درجة المحبة . ولنفرض مثلاً أن رجلاً وزوجته يتقابلان بعد طول غياب ما الذى يبين درجة الود بينهما ؟ إن لحظة اللقاء تبين ما بينهما من مودة فإن كانت المسافة بينهما عشر خطوات فكم خطوة خطاها الاثنان وبأية سرعة ؟ إنهما قد يسرعان باللهفة فيقطعان الخطوات العشر فى ثلاث خطوات مثلاً وهذا معناه : تقصير زمن اللقاء ، وأيضاً ما الكيفية التي يتم بها السلام ؟ هل يسلم أحدهما على الآخر ببرود ، أم بنصف ود أم بود كبير أم بود مصحوب بلهفة وعناق ؟ ثم ما المدة التي يقع خلالها الاحتضان هل هي دقيقة أم دقيقتان أم ثلاث ؟ إذن .. فالذى يبين درجة الود هو اللفف فى المدة وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان المتيحون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم .

وقيل إنك إذا أردت أن تعرف المودة بين رجل وامرأة ومدى لهفة كل منهما على الآخر ، وتحكم بذلك فانظر الكيفية التي يتم بها اللقاء ؟ فإذا ما صافح الرجل المرأة .. فهل يصافحها بتلف ؟ وهل يبادلها هي هذه اللففة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى ، أما إذا أثنى أحدهما إصبعه

النصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى إصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك هو الرجل فاللهفة منه وإن كان من المرأة فاللهفة منها وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معاً .

هكذا ينظر الإنسان للأحداث ، فإن كان الحدث سارا فالإنسان يقبل عليه بهفة وإن لم يكن الحدث سارا فالإنسان يقوم إليه متاثلاً ، وهذا ما كان المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة : ﴿ كَسَالَى ﴾ كأنهم يؤدون الصلاة ليخفون بها نفاقهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين .

إن قيامهم إلى الصلاة لم يكن شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال رضى الله تعالى عنه « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها »^(١) ولم يقل أرحنا منها يا بلال ، إن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة له ، إنه يؤديها نفاقاً ليستتر بها عن أعين المسلمين ، لذلك يقوم إليها وهو كسلان .

قال الله تعالى عنهم : ﴿ يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء ١٤٢] لماذا إذن يقومون إلى الصلاة ما داموا غير مؤمنين بها ؟ إنهم يُقيمُونَ الصلاة ظهرياً أمام الناس ليخدعوا الناس ، وحتى يراهم المسلمون وهم يصلون وهم فى هذه الصلاة التى يراءون بها الناس لا يفعلون كل المطلوب منهم لتمام الصلاة .. إنهم يفعلون المطلوب جهراً ، ولا يقومون بما افترضه الله عليهم ، والمطلوب لتمام الصلاة منه ما يفعل سراً ومنه ما يفعل جهراً ، مثال ذلك أنهم يقرأون الفاتحة وبعض آيات من القرآن ، ولكنهم أثناء الركوع قد لا يسبحون

(١) رواه أبو داود [٤٩٨٥] وأحمد فى المسند [٣٦٤/٥] . وقال الأرباؤوط : رجاله ثقات .

باسم الله العظيم ، وكذلك فى لسجود أى أنهم يؤدون الجانب الجهري من الصلاة ولا يؤدون الجانب الآخر منها .

إن فى داخل المنافق تيارين متعارضين تيار يظهر به أنه مع المؤمنين وتيار آخر مع الكافرين ؛ إن التيار الذى مع المؤمنين ، يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، والتيار الذى مع المؤمنين يجعله يذكر الله قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله لا يذكر الله . ومن هنا فقد جاء فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر أنها ثقيلة على المنافقين (١) .



(١) أخرج البخارى [٦٥٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فىهما لأتوهما ولو حبواً ... » الحديث .

صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير حتى التسليم كأنك تراها

قال ابن القيم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة واستقبل القبلة ووقف في مُصلاه رفع يديه إلى فروع أذنيه ^(١) واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها ^(٢) وقال : « الله أكبر » .

ولم يكن يقول قبل ذلك : نويت أن أصلي كذا وكذا مستقبل القبلة أربع ركعات فريضة الوقت أداءً لله تعالى إماماً ، ولا كلمة واحدة من ذلك في مجموع صلاته من أولها إلى آخرها .

فقد نقل عنه أصحابه حرركاته وسكناته وهيأته حتى اضطراب لحيته في الصلاة ، حتى إنه حمل بنت ابنته مرة في الصلاة فنقلوه ولم يهملوه ^(٣) ، فكيف يتفق ملؤهم من أولهم إلى آخرهم على ترك نقل هذا ادهم الذي هو شعار الدخول في الصلاة ؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلمة واحدة لكُنّا أول من اقتدى به فيها ، وبأدب إليها .

ثم كان يمسك شماله يمينه فيضعها عليها فوق المفصل ^(٤) ثم يضعها على صدره ^(٥) ثم يقول : « سبحانك ، اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين =

(١) أخرجه مسلم [٢٥/٣٩١ و ٢٦] ، وأبو داود [٧٤٥] ، وابن ماجه [٨٥٩] ، وأحمد في المسند [٤٣٦/٣، ٤٣٧] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذي [٢٣٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه . وضعفه الألباني .

(٣) أخرجه البخاري [٥١٦، ٥٩٩٦] ، ومسلم [٤١/٥٤٣] عن أبي قتادة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم [٥٤/٤٠١] ، وأحمد في المسند [٣١٧/٤، ٣١٨] عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٧٥٩] عن طووس وصححه الألباني .

= امشرق والمغرب ، اللهم بقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ،
اللهم اغسلنى بالماء والثلج والبرد » (١) .

وكان يقول أحياناً : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً
وما أنا من المشركين ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا
شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأسم : ١٦٢] ، اللهم أنت
ملك لا إله إلا أنت وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى
ذنوبى جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى
لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك
وسعديك ، واخير كله فى يدك ، والشر ليس إليك أنا بك وإليك ، تباركت
وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » . ولكن هذا إنما يحفظ عنه فى صلاة الليل (٢) .
وربما كان يقول : « الله أكبر كبيراً ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً والحمد
لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً » (٣) .

وربما كان يقول : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت ،
سبحان الله وبحمده ، سبحان الله وبحمده . ثم يقول : « أعوذ بالله من
الشيطان الرجيم » ، وربما قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه =

(١) أخرجه البخارى [٧٤٤] ، ومسلم [١٤٧/٥٩٨] ، وأبو داود [٧٨١] من حديث
أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠١/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦١] عن على بن أبى طالب رضى الله
تعالى عنه .

(٣) رواه أبو داود [٧٦٤] ، وابن ماجه [٨٠٧] ، وأحمد فى المسند [٨٥، ٨٠/٤] عن
المطعم رضى الله تعالى عنه ، وضعفه الألبانى .

= ونفثه وهمزه ، وربما قال : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه »^(١) .

ثم يقرأ فاتحة الكتاب^(٢) ، فإن كانت الصلاة جهرية أسمعهم القراءة ولم يسمعهم : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(٣) فربه أعلم هل كان يقرأها أم لا^(٤) . وكان يقطع قراءته آية آية ثم يقف ، على ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم يتدنى ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ويقف ثم يتدنى ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ على رسل وتمهل وترتيل بمد ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ ومد ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ ، وكان يقرأ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ بالالف^(٥) .

(١) رواه أبو داود [٧٧٥] ، والترمذي [٢٤٢] ، وابن ماجه [٨٠٤] ، وأحمد في المسند [٥٠/٣] ، وصححه الألباني عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه .
(٢) أخرجه البخاري [٧٥٦] ، ومسلم [٣٩٤/٣٤] ، وأبو داود [٨٢٢] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه .

(٣) أخرجه البخاري [٧٤٣] عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بـ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وينحوه الترمذي [٢٤٦] ، ومسلم [٥٠/٣٩٩] .

(٤) قال ابن القيم في زاد المعاد [٢٠٧/١] : « وكان ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها أكثر مما يجهر بها ، ولا ريب أنه لم يكن يجهر بها دائماً في كل يوم وليلة خمس مرات أبداً حضراً وسفراً ، ويخفي ذلك على خلفائه الراشدين وعلى جمهور أصحابه وأهل بلده في الأعصار الفاضلة ، هذا من أمحل المحال حتى يحتاج إلى التشبث به بألفاظ مجملة وأحاديث واهية ، فصحيح تلك الأحاديث غير صريح ، وصريحها غير صحيح ، وهذا موضع يستدعي مجلدًا ضخماً » .

(٥) رواه أحمد في المسند [٣٠٢/٦] ، وأبو داود [٤٠٠١] ، والترمذي [٣١٠٧] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها . وصححه الألباني .

= وإذا ختم السورة قال : « آمين » يجهر بها ويمد بها صوته ، ويجهر بها من خلفه ^(١) حتى يرنج المسجد .

واختلفت الرواية عنه هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السورة ، أم كانت سكته بعد القراءة كلها ؟ فقال يونس عن الحسن عن سمرة : حفظت سكتين ، سكته إذا كبر الإمام حتى يقرأ وسكته إذا فرغ من فاتحة الكتاب ، وسكته عند الركوع ، وصدقه أبي بن كعب على ذلك ^(٢).

ووافق يونس أشعث الحمراني عن الحسن فقال : سكته إذا استفتح وسكته إذا فرغ من القراءة كلها ^(٣).

وخالفهما قتادة فقال : عن الحسن إن سمرة بن جندب وعمران بن الحصين تذاكرا فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكتين : سكته إذا كبر ، وسكته إذا فرغ من قراءة ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فقط . فحفظ ذلك سمرة وأنكر عليه عمران بن حصين ، فكتبنا في ذلك إلى أبي بن كعب فكان في كتابه أن سمرة قد حفظ .

وقال قتادة أيضًا : عن الحسن عن سمرة سكتتان حفظهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة وإذا فرغ من القراءة ، ثم قال بعد : وإذا قال . ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ^(٤).

(١) رواه أبو داود [٩٣٢] ، والترمذي [٢٤٨] عن وائل ابن حجر ، وصححه الألباني .

(٢) رواه أبو داود [٧٧٧] ، وابن ماجه [٨٤٥] ، وأحمد في المسند [١١/٥] عن سمرة رضي الله تعالى عنه وضعفه الألباني .

(٣) رواه أبو داود [٧٧٨] عن سمرة رضي الله تعالى عنه ، وضعفه الألباني .

(٤) رواه أبو داود [٧٧٩، ٧٨٠] ، والترمذي [٢٥١] ، وابن ماجه [٨٤٤] ، وأحمد [٧/٥] عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه وضعفه الألباني .

= فقد اتفقت الأحاديث أنهما سكتتان فقط إحداهما سكتة الافتتاح ، والثانية مختلف فيها . فالذي قال : إنها بعد قراءة الفاتحة هو فتادة ، وقد اختلف عليه سمرة مرة قال ذلك ، ومرة قال : بعد الفراغ من القراءة ، ولم يختلف على يونس وأشعث أنها بعد فراغه من القراءة كلها ، وهذا أرجح الروايتين . والله أعلم^(١) . وبالجمله فلم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ولا ضعيف أنه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتى يقرأها من خلفه وليس في سكوته في هذا المحل إلا هذا الحديث المختلف فيه كما رأيت ، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها قراءة الفاتحة لما اختفى ذلك على الصحابة ، ولكان معرفتهم به ونقلهم أهم من سكتة الافتتاح .

ثم يقرأ بعد ذلك سورة طويلة تارة ، وقصيرة تارة ، ومتوسطة تارة كما تقدم ذكر الأحاديث به .

ولم يكن يتدئ من وسط السورة ولا من آخرها ، وإنما كان يقرأ من أولها ، فتارة يكملها وهو أغلب أحواله ، وتارة يقتصر على بعضها ويكملها في الركعة الثانية .

ولم ينقل أحد عنه أنه قرأ بآية من سورة أو بآخرها إلا في سنة الفجر فإنه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين : ﴿ قُلُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾^(٢) [آل عمران : ٦٤] . وكان يقرأ بالسورة في الركعة ، وتارة يعيدها في الركعة الثانية ، وتارة يقرأ سورتين في الركعة .

(١) رواه الدارمي [٢٨٣/١] ، وأحمد في المسند [٢١، ٢٠، ١٥/٥] عن سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه . وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الصحيح .
(٢) سبق تحريجه .

= أما الأول : فكقول عائشة أنه قرأ في المغرب بالأعراف فرقها في الركعتين^(١) .
وأما الثاني : فقراءته في الصبح ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ في الركعتين كليهما ،
والحديث في السنن^(٢) .

وأما الثالث : فكقول ابن مسعود ، ولقد عرفت النظائر التي كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقرن بينها ، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في
ركعة وهذا في الصحيحين^(٣) .

(١) روى الترمذى [٣٠٨] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن أمه أم الفضل
رضى الله تعالى عنها ، قالت : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
عاصب رأسه في مرضه فصلى المغرب فقرأ بالمرسلات . قالت : فما صلاها بعد
حتى لقي الله .

قال : وفي الباب عن جبير بن مطعم وابن عمر وأبي أيوب وزيد بن ثابت .
قال أبو عيسى : حديث أم الفضل حيث حسن صحيح . وقد روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين كليهما .
وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ في المغرب بالطور . وروى عن
عمر أنه كتب إلى أبي موسى أن اقرأ في المغرب بقصار المفصل . وروى عن
أبي بكر الصديق أنه قرأ في المغرب بقصار المفصل .

قال : وعلى هذا العمل عند أهل العلم وبه يقول ابن المبارك وأحمد وإسحق ،
وقال الشافعى وذكر عن مالك أنه كره أن يقرأ في صلاة المغرب بالسور الطوال
نحو الطور والمرسلات . قال الشافعى : لا أكره ذلك بل أستحب أن يقرأ بهذه
السور في صلاة المغرب .

(٢) رواه أبو داود [٨١٦] عن رجل من جبهة ، وحسنه الألبانى .

(٣) أخرجه البخارى [٥٠٤٣] ، ومسلم [٢٧٥/٨٢٢] عن عبد الله بن مسعود رضى
الله تعالى عنه .

= وكان يمد قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصلوات ، وأقصر ما حفظ عنه أنه كان يقرأ بها فيها في الحصر ﴿ قَبَّ ﴾ ونحوها .

وكان يجهر بالقراءة في الفجر والأوليين من المغرب والعشاء ويسر فيما سوى ذلك ، وربما كان يسمعهم الآية في قراءة السر أحياناً .

وكان يقرأ في فجر يوم الجمعة سورة السجدة ﴿ اَلَمْ تَنْزِلْ ﴾ ، و ﴿ هَذَا اَنِّ ﴾ ، كاملتين ، ولم يقتصر على إحداهما ولا على بعض هذه فقط ، وكان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة ﴿ اَلْجُمُعَةِ ﴾ و ﴿ اَلْمُسْفِقِينَ ﴾ كاملتين ولم يقتصر على أواخرهما ، وربما كان يقرأ بسورة ﴿ اَلْاَعْلَى ﴾ و ﴿ اَلْعَنَشِيَّة ﴾ .

وكان يقرأ في العيدين بسورة ﴿ قَبَّ ﴾ و ﴿ اَقْرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ كاملتين ولم يقتصر على أواخرهما .

وكان يقرأ في صلاة السر سورة فيها « السجدة » أحياناً فيسجد للسجدة ويسجد معه من خلعه .

وكان يقرأ في الظهر قدر ﴿ اَلَمْ تَنْزِلْ ﴾ السجدة ونحو ثلاثين آية ، ومرة كان يقرأ فيها بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ اَلْاَعْلَى ﴾ ، و ﴿ وَاَلَيْلِ اِذَا يَعْشَى ﴾ ، و ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ، و ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ونحوها من السور ، ومرة بـ ﴿ لَقَمْنُ ﴾ ، و ﴿ وَالذَّرِيَّتِ ﴾ . وكان يقوم في الركعة الأولى منها حتى لا يسمع وقع قدم ، وكذلك كان يطيل الركعة الأولى من كل صلاة على الثانية .

وكانت قراءته في العصر في الركعتين الأوليين في كل ركعة قدر خمس عشر آية . وكان يقرأ في المغرب بـ الأعراف تارة ، و ﴿ وَالطُّورِ ﴾ تارة ، و ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ ﴾ تارة ، وبالمدخان تارة .

وروى عنه أنه قرأ فيها بـ ﴿ قُلْ يَتَّابِعَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تفرد به ابن ماجه .

= ولعل أحد رواته وهم من قراءته بهما في سنة المغرب فكان يقرأ بهما في سنة المغرب فقال : كان يقرأ بهما في المغرب أو سقطت « سنة » من النسخة . والله أعلم .

وكان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ وسورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ ويسجد فيها جميع من خلفه ، و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ونحو ذلك من السور .

وكان إذا فرغ من القراءة سكت هنيهة ليرجع إليه نفسه . ثم كان يرفع يديه إلى أن يحاذي بهما فروع أذنيه كما رفعهما في الاستفتاح صح عنه ذلك كما صح التكبير للركوع ، بل الذين رووا عنه رفع اليدين ههنا أكثر من الذين رووا عنه التكبير ، ثم يقول : « الله أكبر » ويخر رакعًا ويضع يديه على ركبتيه فيمكنهما من ركبتيه ، وفرج بين أصابعه وجافى مرفقيه عن جنبيه ، ثم اعتدل وجعل رأسه حيال ظهره فلم يرفع رأسه ولم يصوبه ، وهصر ظهره أي مده ولم يجمعه ^(١) ، ثم قال : « سبحان ربي العظيم » ^(٢) . وروى عنه أنه كان يقول : « سبحان ربي العظيم وبحمده » . قال أبو داود وأخاف أن لا تكون هذه الزيادة محفوظة ^(٣) .

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٨٢٨] ، وأبو داود [٧٣٠، ٧٣٣، ٩٦٦] ، والترمذي [٣٠٤، ٣٠٥] ، وابن ماجه [١٠٦١] عن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه .

(٢) رواه أبو داود [٨٦٩] ، وابن ماجه [٨٨٧] ، وأحمد في المسند [١٥٥/٤] عن عقبة ابن عامر ، وضعفه الألباني .

(٣) رواه أبو داود [٨٧٠] عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه ، وضعفه الألباني في ضعيف أبو داود ، وصحح الألباني هذه الزيادة في صفة الصلاة [٧٧: ٥٩] .

= وربما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرات ، وربما مكث فوق ذلك ودونه ^(١) .
 وربما قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ^(٢) .
 وربما قال : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » ^(٣) ، وربما قال : « اللهم لك
 ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربي ، حشع
 قلبي وسمعي ، وبصري ودمي ، ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين » ^(٤) .
 وربما كان يقول : « سبحان ذي الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة » ^(٥) .
 وكان ركوعه مناسباً لقيامه في التطويل والتخفيف ، وهذا بين في سائر
 الأحاديث ^(٦) .

(١) روى أبو داود [٨٨٨] ، وأحمد في المسند [١٦٢/٣، ١٦٣] عن وهب بن مأنوس
 قال : سمعت سعيد بن جبير يقول : « ما صليت وراء أحد بعد رسول الله صلى
 الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا انفتي » . يعني
 عمر بن عبد العزيز ، فحرزنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر
 تسبيحات . وضعفه الألباني .

(٢) أخرجه البخاري [٧٩٤] ، ومسلم [١٧/٤٨٤] عن عائشة رضي الله تعالى عنه .
 (٣) أخرجه مسلم [٢٢٣/٤٨٧] ، وأبو داود [٨٧٢] عن عائشة رضي الله تعالى عنه .
 (٤) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٢/٧٧١] ، وأبو داود [٧٦٠] عن علي رضي
 الله تعالى عنه .

(٥) رواه أبو داود [٨٧٣] عن عوف بن مالك الأشجعي وصححه الألباني .
 (٦) أخرجه البخاري [٧٩٢] ، ومسلم [٤٧١] ، وأبو داود [٨٥٤، ٨٥٢] ، والترمذي
 [٢٧٩، ٢٨٠] وغيرهم . عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه .

قال ابن القيم : ولا يناقض هذا ما رواه البخاري في هذا الحديث : « كان ركوع
 النبي صلى الله عليه وسلم وسجوده وما بين السجدين وإذا رفع رأسه ما خلا القيام
 والقعود قريباً من السواء » ، فإن البراء هو القائل هذا وهنا ، فإنه في السياق الأول =

= ثم كان يرفع رأسه قائلاً : « سمع الله لمن حمده »^(١) ويرفع يديه كما يرفعهما عند الركوع ، وإذا أعدل قائماً قال : « ربنا لك الحمد »^(٢) ، وربما قال : « اللهم ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجند »^(٣) وربما زاد على ذلك : « اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد ، اللهم طهرنى من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ »^(٤) وكان يطيل هذا الركن حتى يقول القائل قد نسي ، وكان يقول فى صلاة الليل فيه : « لربى الحمد ، لربى الحمد »^(٥) . ثم يكبر ويختر ساجداً ولا يرفع يديه^(٦) وكان يصنع ركبتيه قبل يديه ، هكذا قال عنه وائل بن حجر^(٧) وأنس بن مالك^(٨) .

= أدخل فى ذلك قيام القراءة وجلوس التشهد ، وليس مراده أنهما بقدر ركوعه وسجوده ، وإلا ناقض السياق الأول والثانى ، وإنما المراد أن طولهما كان مناسبا لطول الركوع والسجود والاعتدالين بحيث لا يظهر التفاوت الشديد فى طول هذا ، وقصر هذا .

(١) أخرج مسلم [٥/٣٩١] عن مالك بن الحويرث رضى الله تعالى عنه .
 (٢) أخرج البخارى [٣٢٢٨] ومسلم [٧١/٤٠٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه .
 (٣) أخرج مسلم [٢٠٥/٤٧٧] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .
 (٤) أخرج مسلم [٢٠٤/٤٧٦] عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله تعالى عنه .
 (٥) رواه أبو داود [٨٧٤] ، والنسائى [٢/١٩٩-٢٠٠] ، وأحمد فى المسند [٣٩٨/٥] عن حذيفة رضى الله تعالى عنه .

(٦) أخرجه البخارى [٧٣٨] ، وأبو داود [٧٢٣] ، وأحمد فى المسند [٣١٧/٤] عن وائل بن حجر رضى الله تعالى عنه .

(٧) رواه أبو داود [٨٣٨] ، والترمذى [٢٦٨] ، وابن ماجه [٨٨٢] عن وائل بن حجر ، وضعفه الألبانى .

(٨) رواه الدارقطنى [٣٤٥/١] ، والحاكم [٢٢٦/١] .

= قال عنه ابن عمر إنه كان يضع يديه قبل ركبتيه ^(١) .
واختلف على أبي هريرة ففي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا
سجد أحدكم فلا يرك كما يرك البعير ويضع يديه قبل ركبتيه » ^(٢) .
وروى عنه المقبري عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا سجد أحدكم فبيداً
بركبتيه قبل يديه » ^(٣) فأبو هريرة قد تعارضت الرواية عنه ، وحديث وائل وابن
عمر قد تعارضا ، فرجحت طائفة حديث ابن عمر ، ورجحت طائفة حديث
وائل بن حجر ، وسلكت طائفة مسلك النسخ وقالت : كان الأمر الأول
وضع اليدين قبل الركبتين ثم نسخ بوضع الركبتين أولاً ، وهذه طريقة ابن
خزيمة في ذكر الدلائل على أن الأمر بوضع اليدين عند السجود منسوخ فإن
وضع الركبتين قبل اليدين نسخ ، ثم روى عن مصعب بن سعد قال : كما
نضع اليدين قبل الركبتين فأمرنا بوضع الركبتين قبل اليدين ^(٤) ، وهذا لو ثبت
لكان فيه الشفاء لكن يحيى بن سلمة بن كهيل قال البخاري : عنده منكير ،
وقال ابن معين : ليس بشيء لا يكتب حديثه ، وقال النسائي : متروك الحديث .
وهذه القصة وهم فيها يحيى أو غيره وإنما المعروف عن مصعب بن سعد عن =

(١) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار [٢٥٤/١] عن ابن عمر رضي الله عنهما
(٢) رواه أبو داود [٨٤٠] ، والنسائي [٢٠٧/٢] ، وأحمد في المسند [٣٨١/٢] عن
أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٤٦] .
(٣) رواه البيهقي في السان [١٠٠/٢] وفيه : المقبري وهو متروك الحديث ، انظر
الجرح والتعديل [٧١/٥] .

(٤) رواه ابن خزيمة [٦٢٨] ، والبيهقي في السنن [١٠٠/٢] من طريق إبراهيم بن
إسماعيل عن أبيه عن جده ، وإبراهيم ضعيف ، وأبوه متروك ، وجده متروك ، انظر
تهذيب التهذيب [٢١٥/١١] .

أبيه نسخ التطبيق في الركوع بوضع اليدين على الركبتين فلم يحفظ هذا الراوى وقال : المنسوخ وضع اليدين قبل الركبتين .

قال السابقون باليدين : قد صح حديث ابن عمر فإنه من رواية عبيد الله عن نافع عنه ، قال ابن أبي داود : وهو قول أهل الحديث .

قالوا : وهو أعلم بهذا من غيرهم فإنه نقل محض .

قالوا : وهذه سنة رواها أهل المدينة وهم أعلم بها من غيرهم ، قال ابن أبي داود ولهم فيها إسنادان :

أحدهما : محمد بن عبد الله بن حسن عن أبي الرناد عن الأعرج عن أبي هريرة .

والثاني : الدراوردي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر .

قالوا وحديث وائل بن حجر له طريقان وهما معلولان في أحدهما شريك تفرد به ، قال الدارقطني : وليس بالقوى فيما يتفرد به .

والطريق الثاني : من رواية عبد الجبار بن وائل عن أبيه ولم يسمع من أبيه (١) .

قال السابقون بالركبتين : حديث وائل بن حجر أثبت من حديث أبي هريرة وابن عمر ، قال البخارى : حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة لا يتابع عليه فيه محمد بن عبد الله بن الحسن قال : ولا أدري سمع من أبي الزناد أم لا .

وقال الخطائى حديث وائل بن حجر أثبت منه ، قال وزعم بعض العلماء أنه منسوخ ولهذا لم يحسنه الترمذى وحكم بغيره وحسن حديث وائل .

قالوا : وقد قال فى حديث أبي هريرة : « لا يرك كما يرك البعير » ، والبعير

إذا برك بدأ بيديه قبل ركبتيه ، وهذا النهى لا يمانع قوله : « وليضع يديه قبل ركبتيه » بل يتنافيه ويدل على أن هذه الزيادة غير محفوظة ، ولعل لفظها =

(١) رواه أبو داود [٨٣٩] عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه رضى الله تعالى عنهما

وضعه الألبانى .

انقلب على بعض الرواة . قالوا : ويدل على ترجيح هذا أمران آخران .
أحدهما : ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يعتمد الرجل على يديه في الصلاة »^(١) .

وفى لفظ : « نهى أن يعتمد الرجل على يديه إذا نهض في الصلاة »^(٢) .
ولا ريب أنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه اعتمد عليهما . فيكون قد أوقع جزءاً من الصلاة معتمداً على يديه بالأرض ، وأيضاً فهذا الاعتماد بالسجود نظير الاعتماد في الرفع منه سواء ، فإذا نهى عن ذلك كان نظيره كذلك .

الثاني : أن المصلي في انحطاطه ينحط منه إلى الأرض الأقرب إليها أولاً ، ثم الذي من فوقه ثم الذي من فوقه حتى ينتهي إلى أعلى ما فيه وهو وجهه فإذا رفع رأسه من السجود ارتفع أعلى ما فيه أولاً ثم الذي دونه حتى يكون آخر ما يرتفع منه ركبته . والله أعلم .

ثم كان يسجد على جبهته وأنفه ويديه وركبتيه وأطراف قدميه^(٣) ويستقبل بأصابع يديه ورجليه القبلة ، وكاد يعتمد على إلتى كفيه ويرفع مرفقيه ويجافي عضديه عن جنبيه حتى يبدو بياض إبطيه ، ويرفع بطنه عن فخذه وفخذه عن ساقه ، ويعتدل في سجوده^(٤) ، ويمكس وجهه من الأرض مباشرة به للمصلي غير ساجد على كور العمامة^(٥) .

(١) رواه أبو داود [٩٩٢] ، وأحمد في المسند [١٤٧/٢] ، وانظر الذي بعده .
(٢) رواه أبو داود [٩٩٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه ، وقال الألباني : صحيح إلا لفظ ابن عبد الملك فإنه منكر .

(٣) جزء من حديث أبي حميد الساعدي سبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم [٢٣٤/٤٩٤] ، وأحمد في المسند [٢٨٣/٤] عن البراء بن عازب

(٥) ذكر أبو داود في المراسيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يصلي في المسجد فسجد بجنبه وقد اعتم على جبهته فحسر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبهته .

= قال أبو حميد الساعدي وعشرة من الصحابة يسمعون كلامه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائمًا ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم قال : « الله أكبر » فركع ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ووضع يديه على ركبتيه وقال : « سمع الله لمن حمده » ورفع يديه واعتدل حتى يرجع كل عظم في موضعه معتدلًا ، ثم هوى ساجداً وقال : « الله أكبر » ثم جاني عضديه عن إبطه وفتح أصابع رجليه ثم ثنى رجله اليسرى وقعد عليها واعتدل حتى يرجع كل عظم موضعه معتدلًا ، ثم هوى ساجداً وقال : « الله أكبر » ، ثم ثنى رجله وقعد واعتدل حتى يرجع كل عظم في موضعه ، ثم نهض فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك ، حتى إذا قام من السجدة كبر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ، ثم صنع كذلك حتى إذا كانت الركعة التي تنقضي فيها الصلاة أحر رجله اليسرى وقعد على شقه متوركًا ثم سلم^(١) .

وكان يقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى »^(٢).

وروى أنه كان يزيد عليها « وبحمده » وربما قال : « اللهم إني لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وكان يقول أيضًا : « سبحانك اللهم =

= وحديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسجد على كور عمامته . قال ابن القيم في زاد المعاد [٢٣٢/١] هو من رواية عبد الله بن محرز وهو متروك .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم [٢٠٣/٧٧٢] ، والترمذي [٢٦٢] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه .

= وبحمديك ، اللهم اغفر لي « وكان يقول : « سبحانك اللهم وبحمديك لا إله إلا أنت » .

وكان يقول : « سبح قدوس رب الملائكة والروح » وكان يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره ، وعلايته وسره » وكان يقول : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكان يجعل سجوده مناسباً لقيامه .

ثم يرفع رأسه قائلاً : « الله أكبر » غير رافع يديه ^(١) ، ثم يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى ويضع يديه على فخذه ^(٢) ، ثم يقول : « اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني » وفي لفظ : « وعافني » بدل « واجبرني » هذا حديث ابن عباس ^(٣) . وقال حذيفة : كان يقول بين السجدين : « رب اغفر لي » ^(٤) والحديثان في السنن .

وكان يطيل هذه الجلسة حتى يقول القائل قد أوهم أو قد نسي ^(٥) . ثم يكبر ويسجد غير رافع يديه ، ويصنع في الثانية مثل ما صنع في الأولى ، =

-
- (١) أخرجه البخاري [٧٣٨] . عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما .
(٢) رواه النسائي [٣٦/٣] ، وأبو داود [٩٥٧] ، وابن حبان [٤٨٥] وصححه الألباني عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه .
(٣) رواه أبو داود [٨٥٠] ، والترمذي [٢٨٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وحسنه الألباني .
(٤) رواه أبو داود [٨٧٤] ، وابن ماجه [٨٩٧] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه . وصححه الألباني .
(٥) أخرجه مسلم [١٩٦/٤٧٣] ، وأبو داود [٨٥٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه .

= ثم يرفع رأسه مكبراً وينهض على صدور قدميه معتمداً على ركبتيه وفخذه (١) .
وقال مالك بن الحويرث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعدًا ، فهذه تسمى جلسة الاستراحة ، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم فعلها ولكن هل فعلها على أنها من سنن الصلاة وهيأتها كالتجافي وغيره ، أو لحاجته إليها لما أسن وأخذ اللحم ؟ وهذا الثاني أظهر لوجهين :

أحدهما : أن فيه جمعاً بين حديث وائل بن حجر وأبي هريرة أنه كان ينهض على صدور قدميه .

والثاني : أن الصحابة الذين كانوا أحرص الناس على مشاهدة أفعاله وهيأت صلاته كانوا ينهضون على صدور أقدامهم ، فكان عبد الله بن مسعود يقوم على صدور قدميه في الصلاة ولا يجلس . رواه البيهقي عنه ، ورواه عن ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبي سعيد الخدري من رواية عطية العوفي عنهم وهو صحيح عن ابن مسعود ولم يكن يرفع يديه في هذا القيام .
وكان إذا استتم قائماً أخذ في القراءة ولم يسكت وافتتح قراءته بالحمد لله رب العالمين .

فإذا جلس في التشهد الأول جلس مفترشاً كما جلس بين السجدين ويضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على فخذه اليمنى وأشار بأصبعه السبابة ووضع إبهامه على أصبعه الوسطى كهيئة الخلفة وجعل بصره إلى موضع =

(١) لم أجد دليلاً ، وهو مخالف لما أخرجه البخاري [٨٢٣] ، وأبو داود [٨٤٤] ، والترمذي [٢٨٧] عن مالك بن الحويرث رضي الله تعالى عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم : يصلي ، فإذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعدًا .

= إشارته^(١) وكان يرفع أصبعه السبابة ويحنّيها قليلاً يوحد بها ربه عز وجل . وذكر أبو داود من حديث ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : هكذا الإخلاص ، « يشير بأصبعه التي تلى الإبهام » ، « وهكذا الدعاء » فرفع يديه مداً حذو منكبيه ، « وهكذا الابتهاج » فرفع يديه مداً . وقد روى موقوفاً . ثم كان يقول : « التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . وكان يعلمه أصحابه كما يعلمهم القرآن^(٢) . وكان أيضاً يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله » هذا تشهد ابن عباس^(٣) .

والأول تشهد ابن مسعود وهو أكمل ، لأن تشهد ابن مسعود يتضمن جملاً متغايرة وتشهد ابن عباس جملة واحدة ، وأيضاً فإنه في الصحيحين وفيه زيادة الواو ، وكان يعلمهم إياه كما يعلمهم القرآن . وروى ابن عمر عنه : « التحيات لله الصلوات الطيبات » وفيه أنواع أخرى كلها جائزة .

وكان يخفف هذه الجلسة حتى كأنه جالس على الردف وهي الحجارة المحجمة . ثم يكبر وينهض ويصلي الثالثة والرابعة ويحففهما عن الأولين ، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب وربما زاد عليها أحياناً .

الصلاة وحكم تاركها [ص ١٨٨ - ٢٠٩] .

(١) رواه أبو داود [٩٩٠] ، وابن حبان في صحيحه [١٩٤٤] وحسنه الألباني عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه البخاري [٦٢٦٥] ، ومسلم [٥٥/٤٠٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم [٦٠/٤٠٣] ، وأبو داود [٩٧٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه .

شرف العبودية لله تعالى

العبودية هي أرقى مراتب القرب من الله تعالى ؛ لأنك تأتي إلى الله طائعاً ، منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مَلِكًا رسولاً ، أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ^(١) . فمصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر أنه عبد لله تعالى وحده ، فيتحمى الله سبحانه عليه بالرحمات ويهديه سبل الرشاد .

والإيمان كله عزة ، والناس تكره كلمة « عبودية » ؛ لأن عبودية البشر للبشر فيها ذلة ، وفيها أن السيد يأخذ خير عبده .

أما العبودية لله وحده فهي أن يأخذ العبد خير سيده ؛ ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه ﷺ بصفة العبودية ، في أشرف المقامات وأعلاها فقال سبحانه : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : ١] .

وعبوديتك للحق سبحانه وتعالى تجعلك تنام ملء جفنيك ، فأنت عبد لإله لا تأخذه سنة ولا نوم ، وإله هو القيوم عليك وعلى كل الخلق ، وإن احتجت منه إلى شيء ما : سألته فيجيبك ، قال تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [عمر : ٦٠] .

(١) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل ، فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة ، فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً ؟ قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : « بل عبداً رسولاً » أخرجه أحمد [٢٣١/٢] ، وابن حبان [٢١٣٧] قال الألباني : [إسناد صحيح على شرط مسلم] .

فهل فى هذه العبودية شىء غير العزة ؟

إنك إن أطعت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك ، فسجودك وعبوديتك
للإله واحد ؛ تعفك من أن تسجد لألوف الأقوياء فى الأرض ولجوؤك لوجه
واحد يكفك كل الأوجه .

واعلم أنك إن التجأت إليه سبحانه ، وكنت فى معيته ، كنت أقوى من
غيرك ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء ؛ لأنك فى معية الله ، ومن كان الله
معه فلا يضره (١) .

ولكن الذى يشرذ عن معية الله تعالى ويخالف منهجه هو الذى يشقى (٢) .

(١) روى الترمذى [٢٥١٦] ، وأحمد فى المسند [٢٩٣/١] عن ابن عباس رضى
الله تعالى عنهما قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ،
فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده
تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو
اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو
اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ،
رُفعت الأقلام وجفت الصحف » وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده : صحيح .

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَقْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [٢٦] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٧﴾
قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه] .

وقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَنْبِيَآئِهَا يَرْتَفِعُ
رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦] .

فالحق تبارك اسمه وتعالى جلده يريد منا أن نخلص النية في صدق التوجه إليه سبحانه ، ليضفي علينا من صفات جلاله وصفات جماله .
وانظروا إلى هذا الموقف العظيم فرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في الغار . وأبو بكر يخشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار إن أدركوهم ، فيقول له صلى الله عليه وسلم بعزة الوثائق من بصرة ربه وحمايته : ﴿ لَا تَخْرَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠٠] .
أى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرى عن صاحبه لأنهم في معية الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن الصديق رضي الله تعالى عنه قد قال : « لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا » ، وهو كلام صحيح بحكم القانون الكونى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن القانون الكونى ، بل يتكلم عن طلاقة قدرة المكون سبحانه ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١) .
فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله سبحانه ، فحجبت رؤية الكافرين لهم في الغار .

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة في معيته سبحانه وتعالى ، فأنت في الدنيا مثلاً لو واجهتك المشكلات ولك قريب ذو جاه أو سلطان فإنك تواجه الأمور بشجاعة معتمداً على جاه قريبك وسلطانه مع إنه من الأغيار ، فما بالك بمعية الله عز وجل الذى خضع كل من فى الوجود لعظمته وسلطانه .

(١) أخرج البخارى [٣٤٥٣، ٣٧٠٧، ٤٣٨٦] عن أبى بكر رضي الله تعالى عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار ، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » .

وعلى المؤمن أن يصبر لقضاء الله تعالى ولا ييأس من رحمته فهو سبحانه :
﴿ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] . وما دام الله مع الصابرين فلا بد أن نعشق
الصبر . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

والعبادة كلها طاعة تتمثل في تطبيق ما جاء به المنهج من « افعل » و « لا
تفعل » ، وقد يظن البعض أن المنهج يقيد حريته ، ولكن القوى الإيمان يعتبر أن
هذا القيد نعمة من الله تعالى يحب أن يحمده سبحانه عليها ؛ لأنه إذا كان
قيدك أنت في شيء فقيد كل الخلق في هذا الشيء من أجلك .
إذن .. الأوامر والنواهي هي نعمة ، يجب أن نحمد ربنا سبحانه عليها ^(١) ،
وكل ما يجريه الله سبحانه على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس
أنه نعمة ^(٢) .

(١) يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراب : ٤٣] .

(٢) أخرج مسلم [٦٤/٢٩٩٩] عن صهيب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم : « عجبنا لأمر المؤمن إن أمره
كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ،
وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

وورد عن سفيان في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] .
قال : بالرضا والتسليم .

وعن أبي العباس بن عطاء : الرضا ترك الخلاف على الله فيما يجريه على العبد .
وكان عمر بن عبد العزيز كثيرا ما يدعو : « اللهم رضني بقضائك وبارك لي
في قدرك حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته ولا تأخير شيء عجلته » . =

فحين تشعر أن التكليف أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك ،
وعليك أن تحمد الله عليه ، وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحامدين .
وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله في بالك ، فلا يشغلك شيء عنه
سبحانه .

فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه « افعل » و « لا تفعل » ،
والصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله ؛ لأنك تأتي
بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم
إعلاناً بخضوعك باختيارك لربك جل وعلا .

فيكون هذا هو منتهى الخضوع والخشوع والتسليم لله تعالى ، ويتم هذا أمام
الناس جميعاً في الصلاة ^(١) ؛ إذن .. فالصلاة حضور العبد في معية ربه
ومثوله بين يديه معلناً استدامة الولاء والطاعة لله ولرسوله ولكتابه .

= وكان رضى الله تعالى عنه يقول : « ما أصبح لى هوى فى شيء سوى ما قضى الله
عز وجل » . وكان دا النون رضى الله تعالى عنه يقول : « ثلاثة من أعلام
التسليم : مقابلة القضاء بالرضا ، والصبر على البلاء ، والشكر على الرخاء » .
وثلاثة من أعلام التفويض : « ترك الحكم فى أقدر الله من وقت إلى وقت
وتعطيل الإرادة لإرادته فى النوافل وأسباب الدنيا ، والنظر إلى ما يقع به من
تدبير الله عز وجل » . وثلاثة من أعلام ذكاء القلب : « رؤية كل شيء من
الله ، وقبول كل شيء عنه ، وإضافة كل شيء إليه » .

القضاء والقدر للميهقى [٩٩-١٠١] بتصرف .

(١) لذلك يكون الإنسان فى هذه الحال أقرب ما يكون من رحمة ربه وفضله ،
وقد أخرج مسلم [٤٨٢/٢١٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول
الله ﷺ قال . « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

والله سبحانه يريد ما مداومة الولاء له سبحانه ، فإذا كنت تحب الله ، فأدم
الولاء له باستمرار الصلاة ، واعلم أنك حين تسجد لله وتتذلل له ، فإنه
سبحانه يزيدك عزة ويكون معك دائماً ، ويقيك ذل الدنيا .



قيام الليل .. ومقام الإحسان

إن قيام الليل يدخل العبد فى مقام الإحسان ؛ لذا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ آيِذِينَ مِمَّا ءَاتَتْهُمْ رَبُّهُمْ إِذْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَحِينِينَ ۚ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۚ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۚ ﴾ [الدَّارَاتِ] .
إن الإحسان هو أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله سبحانه ، ولكن من جنس ما افترضه الله سبحانه .

والإحسان ، هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو سبحانه وتعالى يراك .

فالرؤية الإيمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك ، وتكون من هذه الرؤية أكثر يقيناً من رؤية العين ، لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة .
وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سأله جبريل عن الإحسان :
« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

هو بيان للرؤية الإيمانية فى النفس المؤمنة ، فالإنسان حين يؤمن ، لا بد أن يأخذ كل قضاياه برؤية إيمانية ، حتى إذا قرأ آية عن نعيم أهل الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون ، وإذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه ، وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

وتروى كتب الحديث أن الحارث بن مالك الأنصارى مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً .

(١) أخرجه البخارى [٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، ومسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

قال : انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟
فقال . قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظلمات
نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة
يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها .

فقال صلى الله عليه وسلم : « يا حارث ، عرفت فالزم ثلاثاً »^(١) .
والمؤمن الصادق يعرف أنه فى لقاء دائم مع الله سبحانه ، بذلك يضع
برنامجاً لنفسه موزعه أنه يعلم أنه لا يغيب عن رقابة الله ولو جزئياً من الثانية .
والمؤمن يسحضر دائماً قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .
إذن .. لا أحد يغيب عن رقابة الله سبحانه طرفة عين ، لذا فيجب أن
يستحى منه سبحانه . وعندما تتيقن أن الله سبحانه وتعالى ينظر إليك ، فكيف
تعصيه ؟

أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبد مسافر لك ، فكيف تفعله مع الله ؟ !
ونحن نعرف أنه من لنا قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجد ، وهذا فى
مدارج المراتب الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .
فهناك مؤمن يقرأ من القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ من القرآن
فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل كله فى قراءة القرآن .
والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط الصلاة
المكتوبة بل يتطوع بالنوافل ويقيم الليل .

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير [٣٣٦٧/٢٦٦/٣] وقال الهيثمى فى المجمع
[٥٧/١] وفيه ابن لهيعة : وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه ، وعبد بن حميد فى
مسنده [٤٤٥] . وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة [١٤٨/٥٩٧/١] فى
ترجمة الحارث بن مالك الأنصارى .

إذن .. المحسن هو الذى أدى ما افترضه الله تعالى عليه ، وزاد من جنسه
فمثلاً : تعبدنا الله سبحانه بخمس صلوات مفروضات ، فنزيدها لتصل إلى
عشرين مثلاً بالنوافل .

وتعبدنا الله سبحانه بصيام شهر فى العام هو رمضان ، ولكن منا من يصوم
فى كل شهر عددًا من الأيام . كالثلاثة المعروفة بأيام التشريق ، أو يوم الإثنين
والخميس والبعض يترقى فيصوم يوماً ويمطر يوماً .

وتعبدنا الله سبحانه بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد عن النصاب ويتصدق .
وتعبدنا الله سبحانه بالحج مرة فى العمر ، ولكن منا من يكثّر من عدد
مرات الحج والعمرة طلباً للأجر والثواب .

فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فبإيه هو أداء عبادات من
جنس ما تعبد به ، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله
سبحانه وتعالى ، ولكنه يزيد من جنس ما افترضه الله سبحانه عليه .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ءَاخِذِينَ مَا ءَامَرُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا مُّحْسِنِينَ ﴾
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ [الذاريات] .

وهذه دقة البيان القرآنى التى توضح مقام الإحسان ، فىكون فى مالهم حق
للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا
مقام الإحسان الذى يعو مقام الإسلام والإيمان .

فمقام الإسلام - بالنسبة للزكاة مثلاً - قد جاء ذكره فى قول الحق سبحانه
ونعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٠﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِیَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٢﴾ [المارج] .

فالإنسان في مقام الإسلام قد يقيد بالإخراج من ماله بحدود الزكاة ، أو فوقها قليلاً ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال .
ومثل هذا أيضاً ، فقد كلف الله اسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه في سعة من أمره بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإذا ما أذن المؤذن لصلاة الفجر فليقم إلى أداء الصلاة . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ، فيزيد من صلواته في الليل عملاً بقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَلَّيْلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] . متأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما بينه الحق سبحانه وتعالى مذكراً لنا بصفات المحسنين فقال : ﴿ وَإِلَّا تَسْتَغْفِرُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ يَسْتَفِزُّوكُمْ ﴾ [الذاريات : ١٨] .

أكلف الله سبحانه الخلق بأن يستغفروا بالأسفار ؟ لا . بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحيب على رجل سأل عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة . فقال الرجل : « والله لا أزيد على هذا ولا أنقص » . فقال صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق » ^(١) .

(١) أخرج البخاري [٤٦] ، ومسلم [٨/١١] عن طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس قال : يسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات في اليوم والليلة » فقال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » . قال رسول الله ﷺ : « وصيام رمضان » . قال : هل على غيره ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » . قال وذكره رسول الله ﷺ : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » .

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفلحين .

إذن .. فالذي يزيد على هذا يدخله الله في زمرة المحسنين .
فالإحسان ، هو أن تفعل فوق ما كلفك الله من جنس ما كلفك موقفاً أنه
يراك .

فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان ، لأنك حين أديت الفرائض
وزدت عليها من جنسها الوافل وذقت حلاوتها ، علمت أن الله يستحق
منك أكثر مما كلفك به .

ولذلك فبعض الصالحين قال : « اللهم إني أخشى ألا تثبني على الطاعة ،
لأنني أصبحت أشتهيها » .

أي : صارت شهوة نفسى ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة ،
فيقول : يا رب ، إني أصبحت أحبها ، ومفروض منا أن نمنع شهوات أنفسنا ،
لكنها أصبحت شهوة ، فماذا أفعل ؟

إذن .. فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان ، واطمأنت نفسه ،
ورضيت ، وأصبح هواه تبعاً لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات] .

لماذا هم محسنون يا رب ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وهل كلفني الله ألا أجمع إلا قليلاً من الليل ؟

لا ، إن التكليف أن يصلى الإنسان العشاء أول الليل ، ثم ينام حتى الفجر ،

لكى أن تحلو لمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح ، ويأنس

العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يرد مثل هذا العبد ، بل إنه يحبه ويقربه منه ويدخله في مقام الإحسان .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

فالأعمال تتفاوت ، فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص العامل للعمل ، والمكتسب ، والفاعل له . ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين ، إنما يعلمها الحق سبحانه وتعالى المطلع وحده على انوايا وأعمال القلوب .

إذن .. لا يعلمها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات ، فالدرجات تكون على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عز وجل عليه .

والذى يؤدي ما افترضه الله سبحانه عليه يشبهه على عمله ، والذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله هو أشد فلاحاً .

ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً ، إلا إذا كان فى درجة أعلى .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فرض لها ملحظان :

الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ، لأنه كلف دون ما يستحق .

الثانى : أن عمل الطاعة قد خُفِّفَ على المؤمن فاستراح بها .

ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « يا بلال أرحنا بها »^(١) .

(١) سبق تخريجه .

ورب العزة سبحانه يقول في الحديث القدسي : « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »^(١) .

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من الله سبحانه في يد الخلق ، ويسلم المؤمن مفتاح القرب من الله سبحانه ، فمن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يقربه الله عز وجل منه أكثر فأكثر .

إذن .. فمن الناس من يصل بطاعة الله سبحانه إلى كرامة الله عز وجل ، ويلزم باب الحق سبحانه حتى يفتح له ، ومن الناس من يصل بكرامة الله سبحانه أولاً إلى طاعة الله سبحانه ثانياً .

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بإقامة الصلاة المفروضة خمس مرات في اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله مقيماً للصلاة أو ذاكراً أو شاكراً إلا فعلت .



(١) أخرجه البخاري [٦٥٠٢] ، وابن حبان في صحيحه [٣٤٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

قيام الليل .. من صفات عباد الرحمن

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝﴾ [الفرقان]

فأول صفة لعباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هونًا ، أى : بوقار ورفق ولين وسكون .

وقالوا : إن المشى الهون : هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته بدون افتعال عظيمة أو مشية معينة فيها إعجاب بالنفس أو تكبر واختيال ، وبدون انكسار ، وذلة فى المشى أيضًا ، بل يمشى مشيًا طبيعيًا .

ولا يجب أن يفتخر الإنسان بأية صفة فيه ، فالإنسان ليس عنده أية صفة ذاتية فيه حتى يختال ويتكبر بها ؛ لأن كل صفاته موهبة له من الله سبحانه . فالمتكبر المختال إنسان ضرب على قلبه الحجاب ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، فهو يظن أنه أحسن من الناس كلهم ، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه وعلم أن العز لإزاره والكبرياء رداؤه سبحانه ^(١) لاستحى أن يكون متكبرًا .

إذن .. فصفة عباد الرحمن فى ذواتهم أنهم يمشون على الأرض هونًا . أما صفتهم فى علاقاتهم بالناس فقال عنها ربنا سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝﴾ .

و ﴿الْجَاهِلُونَ﴾ هم : السفهاء ، والسفيه هو الذى لا يزن الأمور ، ولا يعقل كلامه ، ولا يضع كل كلمة موضعها ، إذا .. فهو جاهل .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٣٦/٢٦٢٠] عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما .

وهذا الجاهل السفيف لا تكن مثله ، وترد عليه بمثل قوله ، وإلا فلو سفهت عليه كما سفه عليك فقد صرت مثله تمامًا . فلا بد أن تشعره بالفرق بينك وبينه .

ولكن ، إذا اشتدت سفاهته عليك وطغى وبغى ، فيباح لك أن ترد العدوان بمثله ؛ لأنه قد يظن أن هذا السكوت ضعف منك ، فعليك أن تبين له أن هذا السكوت ليس ضعفًا ، ولكنه كرم لخلق (١) .

ومعنى : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : سلام الماركة ، فإذا جهل عليك إنسان وسبك بلسانه حلفت عليه ، وقلت له : أنا لست مثلك حتى أرد عليك ثم تركه وتنصرف .

وسلام الماركة غير سلام التحية الذى تلقيه على من يقابلك حين تبدأه بالسلام ، وقد يتحول سلام الماركة أحيانًا إلى سلام التحية للانصراف ، مثلما قال الخليل إبراهيم عليه السلام لعمه آزر بعد أن دعاه إلى الإسلام فأبى ، ولم يقتنع فانصرف عنه ، وقال له : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا خَافِيًا ﴾ [مريم : ٤٧] . ذلك حال عباد الرحمن مع دواتهم ومع الناس ، ثم من بعد ذلك يأتي حالهم مع ربهم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] . فساعة يبيت أحدهم فى الليل يحاسب نفسه : ماذا قدم من عمل فى نهاره ؟

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَعْتَذَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَذُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَذَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

وإن كانت منزلة اعفو وكظم الغيظ أعلى وأجل لقول ربنا سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ويتذكر نعم الله سبحانه التي تجلت عليه في ذلك اليوم ، وهي نعم ليست ذاتية فيه ، ولكنها موهوبة من ربه ، فيشكر الله سبحانه عليها ، ويبيت لربه ساجدا قائما .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وأصل القنوت في اللغة هو : المداومة على الشيء ، وقد حض وحث القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله سبحانه ، ولزوم الخشوع والخضوع .

فلا يستوى الذى يخشع لله فيقوم ليله ساجدا يرجو رحمة ربه ، مع ذلك الذى يدعو ربه فى الضراء ، وينسأه فى السراء . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

أى : هل يستوى الذين يعلمون حقوق الله سبحانه ، فيطيعوه ويوحده ، والذين لا يعلمون فيحيدوا عن منهج الله ويخالفوه .

إن السبيل إلى مداومة التذكر هو تجديد الصلة به سبحانه ، والوقوف بين يديه خاشعين فى الصلاة .

وقد مر بنا قول الحق سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الدريات] .

وهذا لا يعنى أن المسلم مطالب بأن يقوم الليل كله ، ولكن عليه إن أراد زيادة فى الخير وقربا من الله أن يقوم ولو قليلا من الليل .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه بات فى بيت خالته ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فى ليلتها فصلى العشاء ثم جاء إلى منزله وصلى أربع ركعات ،

ثم نام ، ثم قام ، ثم قال : نام الغليم أو كلمة تشبهها ، ثم قام فقامت عن يساره فجعنى عن يمينه فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيظه أو خطيظه ثم خرج إلى الصلاة^(١) .

فأله سبحانه يريد منك قبل أن تنام وتستريح أن تذكر الذى جعل لك الليل لباسا والنهار معاشا ، وأنعم عليك كل هذه النعم ، فتشكره عليها ، وليكن ذلك بصلاة ركعتين .

والحق سبحانه يقول عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه رضى الله تعالى عنهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله تعالى . والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة ، وما داموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل ، وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل .

فأهل المودة والقرب ولتقوى يفاض عليهم من المولى سبحانه ، وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات ، فالذى وجدت فيه هذه الصفات ، كان مؤمنا حقا وكانت له درجات عند ربه ، تناسب حظه من الإيمان وحظه من الإحسان .



(١) أخرجه البخارى [٦٣١٦] ، ومسلم [١٨١/٧٦٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما .

الخشوع .. يزيل الكبر من القلب

فى الصلاة يمثل العبد بين ىدى ربه ، وحينما يقف العبد بين ىدى الله سبحانه ، لا بد أن يكون فى خشوع وخضوع تام لله رب العالمين ، وحينئذ يزول كل ما فى نفسه من كبرياء . فالعزة والعظمة والكبرياء لله تعالى وحده (١) .

والمتكبر غافل عن معرفة ربه سبحانه وتعالى ، فإن عدم لإيمان بالنبي ﷺ الذى فرضت عليه وعلى أمته الصلاة ، وعدم الوقوف بين ىدى الله سبحانه للصلاة إنما هو رفض للخضوع لله سبحانه ، أو استهتار بأوامره سبحانه . والصلاة تطهر القلب من الاستكبار ؛ لذلك كان مؤدى الصلاة أنها تعود الإنسان على الخشوع والخضوع .

والخضوع الدائم لله يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ، فيشعر بضآلة نفسه ، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون العظيم . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى فى لحظة ، ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار .

ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير ؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله سبحانه ، وليس من ذاته .

والذين يغترون بوجود الأسباب تقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها .

(١) أخرج مسلم [١٣٦/٢٦٢٠] عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العز إزاره . والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى ، عذبتة » .

والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولاً ، أى : متداولة بين الناس ، إنسان يفاخر بقوته فيأتى من هو أقوى منه فيهرمه ، وإنسان يفاخر بماله ، يضيع هذا المال فى لحظة .

واقرا قوله تعالى : ﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فِيْئَتْ فَكَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرِحْ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٠] .

ولذلك لا بد أن نفهم أن الإنسان الذى يستعلى بالأسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب مطلوبة ، وكثير من الناس يغتر بنعمة الله تعالى عليه . فيتصور أن ذلك لشيء فيه .

ولهذا الإنسان نقول : لا تغتر بما عندك فإنه عطية من الله لك فاحذر أن لا تؤدى حق الله فيه ، فإذا كان مالا فساعد انفقراء ، وإن كان صحة فأعن الضعفاء ، وإن كان علما فعلم به عامة الناس . بذلك تكون أديت حق الله تعالى عليك وخشعت له ، وخضعت لسلطانه .

إذن .. الخاشع هو الطائع لله ، الممتنع عن المحرمات ، الصابر على الأقدار ، الذى يعلم يقيناً دخل نفسه أن الأمر لله وحده ، وليس لأى قوة أخرى ، فيخشع لربه خالقه وخالق هذا الكون له .

الخاشعون هم الدين يقرنون الطاعة بالثواب ، والمعصية بالعقاب والعذاب ؛ لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها ، عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب ، فيهنأها الحق سبحانه عليه ، ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة ، لتهون عليه مشقتها ، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة .

فالخاشع الخاضع لله يستشعر حلاوتها ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عندما يحزبه أمر : « أرحنا بها يا بلال »^(١) أى بالصلاة .
والحق سبحانه يقول فى شأن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ .
إذن .. عندما يأتى التكليف يكون شاقاً ، وما دام شاقاً فهو بحاجة لصلاة
إيمان وجلد ويقين ، بحيث يعلم أن ما قام به من عمل وإن كان شاقاً لكنه
سيعطيه سعادة كبيرة جداً .

لذلك عندما يعلم المؤمن بعطاءات الله ونعمه وإحسانه ورضوانه على عبده
الطائع الخاشع فإنه يستشعر حلاوة الإيمان ويقبل على عبادته بحب ولا يجد
أثراً للمشقة^(٢) .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ ﴿ [المؤمنون] .

فالفلاح هو الفوز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير ، وأول أسباب
الفلاح عند المؤمن هو إقامة الصلاة والخشوع فيها .
إما أن تكون الصلاة سبباً من أسباب الفلاح ، فهذا يرجع إلى إقامتها لا
مجرد أدائها ، بل لابد من إقامتها على الوجه الأكمل الذى يرضاه الله
سبحانه بإتمام ركوعها وسجودها .

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرج البخارى [١٦] ، ومسلم [٦٧ / ٤٣] عن أنس رضى الله تعالى عنه قال :
قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان
الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره
أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله مه كما يكره أن يقذف فى النار .

وكلمة : « أفلح » مأخوذة من فلاح الأرض ، فاعلموا أنكم كما تفلحون الأرض وتجتهدون في ذلك حتى تأتى لكم بالخير الكثير ، فكذلك حين تجتهدون في العبادة وطاعة الله سبحانه في الدنيا ، فإن ربنا يعطيكم خير الجزاء في الآخرة .

وأول ظاهرة الفلاح هي الصلاة أيضاً ، فالصلاة صفة لازمة من صفات المؤمن .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يبين لنا أن فلاح المؤمن ليس في مجرد أداء الصلاة فقط ، ولكن في الخشوع فيها .

والخشوع هو سكينة القلب واطمئنانه ، واستحضار عظمة من تقف بين يديه سبحانه وتعالى .

والخشوع أيضاً معناه : اطمئنان القلب ، ومعنى اطمئنان القلب سكونه في مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر ؛ لأن الله سبحانه ما جعل لرحل من قلبين في جوفه .

يقول تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دخل المسجد فوجد رجلاً يصلى يعبث بلحيته ، فقال له : لو خشع قلبك لخشعت جوارحك .

لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب الذى يحركها ، فلو كان القلب مشغولاً بشيء آخر لذهل عن الجارحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۖ ﴾ [الإسراء : ١٠٧] .

الأذقان : جمع ذقن ، والذقن هو الفك الأسفل .

فساعة يخرجون ليس على وجوههم فقط ، ولكن على الوجه والأنف والذقن أيضاً ، وهذا دليل على التمكن فى السجود .

﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . أى : كلما سمعوا آية من آيات القرآن اردادوا خشوعاً وخشية لله سبحانه ، وهؤلاء يقول عنهم رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

والوجل هو : الخوف فى مزع ينشأ منه قشعريرة ، واضطراب فى القلب ، فذكر الله سبحانه يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، وهذا لا يتنافى مع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ولا تعارض بين القولين ؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه ، فهو يرجف حين يذكر الله سبحانه الذى يخالف منهجه .

وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قدر الاستطاعة ، فلا بد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله ؛ لأنه اتبع مهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . إذن .. فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة و سطوة صفات الجلال . والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال .

ولذلك تجمعهما آية واحدة ، هى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

فالجلود تقشعر خوفاً ووجلأ ومهابة من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً
وطمئناً في عفو الحنَّان المنان سبحانه وتعالى .
وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار ، لمجرد قراءة ما ذكره
القرآن عنها ، وبعد ذلك تأتي الرحمة ، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ،
ولكن لا بد أن تلين القلوب ؛ لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل
جوارح الجسد . فالإيمان يحرك أعضاء الجسد البشري كله .



اسألوا الله من فضله

ما دمت قد دقت حلاوة ما أعطاك الحق سبحانه من إشراقات ونفحات وتجليات صفائية ، فعليك أن ترفع يديك داعيًا وسائلًا الله شاكرًا له سبحانه . ولا تحش ، فإن دعاءك سيصل حتمًا إلى ربك ، فهو القائل سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] . والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ، وأن يستعين به ، وهذا يوجب الحمد والشكر ؛ لأنه يقينا الذل في الدنيا ، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ ، فلا بد أن يحدد لك موعداً ، أو وقت الحديث ومدة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء .

أما الحق سبحانه فإن بابه مفتوح دائماً ، فأنت تذهب إليه عندما تريد ، وترفع يديك بالدعاء والمناجاة إليه وقتما تحب ، وتسأله سبحانه ما تشاء ، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك ، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك .
واقراً قول الشاعر :

حسبُ نفسي عزاً بأننى عبد يحتفى بى بلا مواعيد ربِّ

هو فى قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحبُّ

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سأله جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سأله فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك^(١) .

(١) أخرج مسلم [٥٥/٢٥٥٧] ، وأحمد في المسند [١٦٠/٥] عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى ! إني حرمت الظلم على =

والله سبحانه يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله ، فيقول سبحانه وتعالى :
﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [عمر : ٦٠] . والعلماء يقولون : إن مجرد الدعاء هو فتح من الله
لعبده ، وباب من أبواب قبول مسأله .

ولنتعلم ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة أم المؤمنين رضى
الله تعالى عنها حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء فى ليلة
القدر ، فقال : إن أدركت هذه الليلة ، بماذا أدعو ؟

= نفسى وجعلته بينكم مُحَرَّمًا . فلا تظالموا . يا عبادى ! كُلُّكُمْ ضَالٌ إِلَّا مَنْ
هَدَيْتُهُ . فاستهدونى أَهْدِيْكُمْ . يا عبادى ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ .
فاستطعمونى أَطْعَمْكُمْ . يا عبادى ! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ .
فاستكسونى أَكْسِكُمْ . يا عبادى ! إِنْكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا فاستغفرونى أَغْفِرْ لَكُمْ . يا عبادى ! إِنْكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرَى
فَتَضُرُونى . وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعى فَتَنْفَعُونى . يا عبادى ! لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ
وإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ . كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ . مَازَدَ ذَلِكَ فى
مَلِكى شَيْئًا . يا عبادى ! لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى
أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مَلِكى شَيْئًا . يا عبادى ! لو أَنَّ
أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونى . فَأَعْطَيْتُ
كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ . مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَحِيطُ إِذَا أُدْخِلَ
الْبَحْرُ . يا عبادى ! إِنَّمَا هى أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ . ثُمَّ أَرْفِيْكُمْ بِهَا . فَمَنْ
وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ . وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .
قال سعيد : كان أبو إدريس الخولانى ، إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى
رُكْبَتَيْهِ .

انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد علم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع ، فقال لها : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » (١) .

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو . ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر في الصحراء تترك قدماء علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما ندعو بالدعاء الذى علمه لنا الحق سبحانه : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . فنحن بهذا الدعاء نتوجه إلى الله سبحانه ضارعين : أنت يا الله تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى ؛ فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا . والعفو هو : محو الذنب مع عدم المؤاخذه من الله للعبد بسببه ، أما الرحمة فهي الدعاء بالألا بدخلنا فى الذنب أصلاً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٤] . كلمة « يعفو » من « عفا » تدل كما قلنا من قبل على أن هناك أثراً قد محى ، تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ، فتحدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده ، فلا يعاقبهم عليها .

(١) رواه الترمذى [٣٥١٣] ، وابن ماجه [٣٨٥٠] ، وأحمد فى المسند [١٧١/٦] ، وصححه الألبانى .

وما دام لإنسان قد ندم واستغفر من ذنبه ، فقد تاب إلى الله تعالى وفي الحديث : أن الندم توبة ^(١) .

وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة ، فلا يُدخلن أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يخرج إنسان مذنبًا ما دام قد استغفر من يملك العفو .

ومن يسمع من يستغفر الله ويطلب العفو منه سبحانه عليه أن يقول له : يعفو الله عنك .

لأنه لا أحد يعرف إن كان الله سبحانه قد عفا عنه أم لا ، ولكن علينا أن نعيّنه بالدعاء له .

ومن يعيّر مذنبًا تاب من ذنبه نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه وطلب العفو منه سبحانه ، والعفو شأن الرب العفو الغفور ، القائل سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران ١٣٥] . إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ، ويعلم أن الأغيار تأتي فى خواطرهم وفى نفوسهم ، وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات ، فتنفلت إلى بعض الذنوب . وهكذا المسلم دائماً لمة للرحمن ولمة للشيطان ، نسأل الله أن تكون اللمة الأخيرة للرحمن الرحيم .

(١) روى ابن ماجه [٤٢٥٢] ، وأحمد فى المسند [٣٧٦/١] عن عبد الله بن معقل ابن مقرن ، قال : دخلت مع أبى على عبد الله بن مسعود ، فقال : أبت سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الندم توبة » ؟ قال : نعم . وصححه الألبانى .

ولأنه رب رحيم شرع لعبده إذا أذنب ذنباً أن يعود إليه تائباً مستغفراً نادماً ، لأن الله يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه فهو سبحانه ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وفي الحديث « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة »^(١) ، لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلاً ، فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمناً صحيح الإيمان - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصي .

ولذلك قيل : إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت ، فإن الله لا يفر لك ذنوبك فقط ، ولكن يبدل سيئاتك حسنات . لقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وكان من دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] . وقولهما : ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ ليس من الضروري أن نفهم هذا على أنها توبة عن معصية ، وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية ف يريدان التوبة إلى الله ، وإنما لأنهما علما أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب فطلبوا التوبة لذريتهما .

وباب التوبة من رحمة الله تعالى مفتوح دائماً لا يغلق : فقد ورد في الحديث : « إن الله عز وجل يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »^(٢) .

(١) أخرجه البخاري [٦٣٠٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [٣١/٢٧٥٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه .

والليل ينتهى فى مكان ، ويبدأ فى مكان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً ، والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً .
والحق سبحانه يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ، لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ، وما دمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير^(١) .

إذن .. فملحظية الأصل فى الدعاء هى أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطئ الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير .

أنت تحب الخير لا جدال ؛ لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هى أن يمنع إجابة دعوتك ، إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك .

ولذلك يجب أن تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت ؛ أن الله سبحانه لم يستجب لك ، فتقول : لماذا لم يستجب الله سبحانه لى ؟ لا ، لقد استجاب الله لك ، ولكنه نحي عنك حمق الدعوة ، أو ما تجهل بأنه شر لك ، فالذى تدعوه إله حكيم ، خبير بعباده وما ينفعهم فكأنه قال لك : أنا سأعطيك الخير ، والخير الذى أعلمه أنا فوق الخير الذى تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تجاب إلى هذه الدعوة .

وأقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ مَجْغُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

فإذا دعوت فى حال انفعال غضب على نفسك أو على من تحب ، فمن مصلحتك أن لا يستجيب الله سبحانه لدعائك ، وما دمت عرفت الحكمة فى

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ مَجْغُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

هذا ، فإذا دعوت بخير في رأيك ، وأحر الله سبحانه لك الإجابة ، أو لم يستجب لك . فاعلم أن هذا الذي تظنه خيرا فيه شر ، فمنعه الله عنك ، لأن الإنسان دائما يستعجل ، ويريد أن يحوز كل شيء .
إذن .. فحظك في الدعاء لا أن تجاب ، ولكن حظك فيه أن تظهر ضراعة عبوديتك وحاجتك لربك .

فمن يقول : لقد دعوت ربي فلم يستجب لي .
نقول له : لا تكن قليل الفطنة ، فمن الخير لك أنك لا تجاب إلى ما طلبت ، فالله يعطيك الخير في الوقت الذي يريد .
ولذلك ، إياك أن تدعو وفي بالك أن تُقضى حاجتك بالدعاء وكفى .
ولكن عليك بالدعاء لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع والانكسار للعزيز الجبار ، قال تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْجِبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] .
وإياك أن نفهم أنك تدعو الله سبحانه ليحقق لك مطالبك مهما كانت ، فإن هناك أقدارا وضعها الله سبحانه لتحقيق مطالب العباد ، فهو سبحانه يعطي بقدر ، ويمنع بقدر .

وما عليك إلا أن تجعل حظك من الدعاء الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه ، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق سبحانه بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة . ٢٦١] .
إذن .. فمعرفتكم ليست نهائية في تقرير الخير والشر ، لذلك سلم أمركم إلى ربك فهو سبحانه أعلم بما ينفعك وبما يضرك .

فقد تلح في دعاء لو استجيب لك لكان شرا ، والله سبحانه يعلم ما هو خير لك ، وهو سبحانه يجيب أحيانا بعض خلقه في أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيرا .
وأحيانا يأتي لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير ، وهكذا يصحح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية .

إن الحق سبحانه يعالج قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشر ، لأن الإنسان قد يضيق ذرعا بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ، فإذا ضاق ذرعا بأمور تحيط به في ذاته من ألم كمرض مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحملها ، فيقول : « يا رب أرحني بالموت » .
إذن .. هو هنا يدعو على نفسه بالموت ، فلو أن الله سبحانه استجاب دعاءه لقصيت المسألة .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطيني فخذ مقابلها ؛ أنك تدعو بالشر على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحيانا ذرعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذني الله ، لأستريح من وجوهكم ؟
والدعاء هو تضرع وذلة وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون ، واستحضار عجزك أمام قدرة ربك يمثل لك استدامة اليقين الإيماني .

وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويتكرر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتي له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو .

فتجد من كان متكبرا وعنده صلف وغطرسة ، يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد ليس عنده من الجاه والسلطان غير أنه طائع لربه ، عابد له قائم بأمره ،

فيقول له : أستحلفك بالله أن تدعو لي لأنى فى أزمة . والذي يسأل « هذا الغلبان » الزاهد هو رجل عزيز فى قومه ، لكنه يظن أن « هذا الغلبان » الزاهد العابد أقرب إلى الله سبحانه منه .

والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن ندعوه ، فيقول : ﴿ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

ذلك لأنه سبحانه يعلم أنك سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، بدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشيء : فاذكر أن لك رباً قوياً مقتدرًا يجبر ضعفك وعجزك .

وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل همًا للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل همًا لمطلوبات الحياة ، فمن له رب عليه أن يستحى ، ويعرف أن ربه سيوفر له الخير .

وقد يجعل الحق سبحانه من تأتى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله سبحانه ، لكن التفاتك إلى الله سبحانه لا يصح أن يكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس التفاتك لله سبحانه أن تظهر العجز أمامه ، والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعوه .

وليكن دعاؤك دعاء خفية بينك وبين ربك ، فلا ترفع صوتك بالدعاء ظناً منك - خطأ - بأن ربك لن يسمعك ، وهذا خطأ فاحش فإن الله سبحانه سميع عليم ، يسمع كلامك ويعلمه حتى من قبل أن تقوله بلسانك ، والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا حين كان فى غزوة عراها ، فنزل أصحابه واديًا ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أيها

الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنه معكم .
إنه سميع قريب ، تبارك اسمه ، وتعالى جده ^(١) .

والدعاء لله سبحانه وتعالى خفية يتعد بك عن الرياء ، وهو أستر لك في
مطلوباتك من ربك .

والدعاء بالخضوع والخشوع والتذلل يكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة
الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

ما دام الدعاء في ذلة وخضوع ، فقد تكون أهلاً لما جاء عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين قال : ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة . حين
يمضي ثلث الليل الأول . فيقول : أنا الملك . أنا الملك . من ذا الذي يدعوني
فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأعفر له ؟
فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر ^(٢) .

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً :
يا رب .

وعنى المؤمن كما قلنا من قبل ألا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه
من الدعاء ما قاله الحق : ﴿ قُلْ مَا يَعْبُوهُ يَرْكُزْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [المزاد : ٧٧٠] ،
فمعنى الربوبية والمربوبة أن تقول دائماً : « يا رب » .

والحق سبحانه وتعالى يضع شرطاً للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب
العبد لله سبحانه وتعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي
لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

(١) أخرجه البخاري [٢٩٩٢] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه مسلم [١٦٩/٧٥٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

إذن .. على المسلم ألا يشغل نفسه بالإجابة ، فقط عليه أن ينشغل بذكر الله وقراءة القرآن وعمل الصالحات ثم يترك الإجابة لمولاه جل جلاله ، وفي الحديث القدسي : « من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين » (١) .

ومثال ذلك : سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار ، قال له جبريل : ألك حاجة ؟

لم ينب أن له حاجة ، فلا يوجد استكثار على البلوى ، ولكنه قال لجبريل : أما إليك فلا .

صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ؛ لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقى فيها ، هي عملية ليست لخلق أن يتحكم فيها ، ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار .

فقال لجبريل عليه السلام : « أما إليك فلا » .

لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه للنار : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِنِّي هِيَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

ويقول الحق سبحانه يقول : ﴿ كَهَيِّصَ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكِرِيَّا ۝ إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ ﴾ [مريم] .

الحق سبحانه وتعالى يعرض هذه القضية في أن رحمة الله لعبده زكريا عليه السلام تتجلى في أن الله سبحانه استجاب دعاء زكريا عليه السلام في أن يعطيه ولداً على كبر سنه .

(١) جزء من حديث رواه الترمذى [٢٩٢٦] عن أبي سعيد رضى الله تعالى عنه ، وصححه الألبانى .

والنداء : معناه لغة طلب إقبال ، ولكن إذا ناديت ربك ، أصبح أن تقول :
إننى أطلب إقبال ربي ؟

هذا لا يصح ، لأن ربك أقرب إليك من حبل لوريد ، فلا يحتاج إلى النداء
بمعناه المتعارف عليه عند الناس . فإذا أطلقت كلمة « النداء » بالنسبة لله تعالى ،
فالمراد بها الدعاء ؛ لأن ربك قريب منك ، ولا يحتاج إلى نداء .

ولذلك قال تعالى عن زكريا : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءً خَفِيًّا ﴾ .
فإياك أن تظن أن الله يحتاج إلى رفع الصوت لكي تسمعه ، فالسر والجهر
عند الحق سواء . قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] .

فالحق سبحانه سوى بين الجهر والسر في معلومه ، فهو يعلم السر كما يعلم
الجهر .

أما زكريا عليه السلام فقد دعا ربه دعاء خفياً ، حتى لا يسمعه أبناء عمومته
ومواليه ، فيغضبوا منه ، فهو لم يأمنهم على حمل منهجه من بعده ؛ لأن
ظاهر حركتهم في الحياة غير متسق مع المنهج ، فهم غير مأمونين ، وإذا كانوا
غير مأمونين على أنفسهم فهم غير مأمونين على الناس .

فإذا دعا وقال : يا رب أعطني ولدا يرثني ويرث النبوة ، فسيغضب هؤلاء
الموالى ويقولون : إنه لا يأمننا ويعادونه ، فجعل الدعاء خفياً حتى لا يشعر به
أحد .

ونداء زكريا كان هو قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤] .
وَرَأَى وَكَانَتْ أَمْرًا قَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم : ٥] .
وأنت في الدعاء إما أن تقول : يا الله . أو تقول : يا رب .

وأنت حين تقول « يا رب » فهذا أمر يتعلق بينية حياتك ، ولكبك في
المنهج تقول : « يا الله » .

فهنا قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ . لأن الكلام في صلاح نيته ،
لينحسب ، وهذا أمر من أمور ربوبية الله سبحانه لخلقه ، وإن كانت العلة إلهية ؛
لأنه يريد أن يحمل منهج الله سبحانه من بعده .



الصلاة .. أرجى أوقات قبول الدعاء

الوقوف في الصلاة في حضرة الحق سبحانه يعطى الإنسان القوة لتحمل الأمر الثقيل ، فما دام هناك ثقل فلا بد أن تزيد الطاعة .
ولذلك كان الرسول ﷺ « إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة »^(١) .
لأن حرب الأمر معناه أن أسبابه ضاقت عنه ، وحين تضيق الأسباب لا بد من التجوء إلى المسبب .

فإذا ضاقت بك الأسباب ، فلم تجد مخرجاً ولا طريقاً إلا أن تلجأ إلى الله ، فتوضأ وصل ركعتين غير الفريضة ، ثم ادع بما شئت ، فيفرج الله كربك .
والحق سبحانه يعطينا مثلاً من قصة زكريا عليه السلام ، حينما دعا ربه فقال : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

وحينئذ جاءه الفرج : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٩] .

لقد نادته الملائكة وهو في أعظم لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا ربه قد أخذ ماعلمه الله للأنبياء إذا حزبه أمر : قوموا إلى الصلاة .

(١) ذكره ابن حبان في الثقات [١٢٧٩٢/١٦٨/٨] عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

وعند أبي داود [١٣١٠] ، وأحمد في المسند [٣٨٨/٥] ، وصححه الألبانى بلفظ : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى » .

إذن .. فلنقف بين يدي الله سبحانه ، وليجربها كل منا ، عندما يصعب عليه أي شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ ، وليقف بين يدي الله خاشعاً خاضعاً مستسلماً معلناً عجزه واضطراره ، وليقل : إنه أمر يا رب عز علي في أسبابك .

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يُسلم من هذه الصلاة ، إلا ويكون الفرج قد جاء وذلك إيماناً وتصديقاً بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان كلما حزنه أمر صلى^(١) .

فبدلاً من أن تتحير وتذهب إلى هذا أو ذاك ، وتذهب نفسك حسرات على ما فات ، اذهب إلى الله سبحانه من أقصر الطرق وهو : الصلاة ، واضرع إليه وألح عليه في طلبك فإن الله يحب الملحين في الدعاء^(٢) .

(١) الحديث السابق .

(٢) قال الألباني في منار السبيل [٦٧٧/١٤٣/٣] حديث : « إن الله يحب الملحين في الدعاء » موضوع : قال العقيلي في الضعفاء [٤٦٧] وأبو عبد الله الفلاكي في الفوائد [٢/٨٩] من طريق بقية حدثنا يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة مرفوعاً به .

قلت : وهذا إسناد واهٍ جداً ، بل موضوع ، آفته يوسف بن السفر فإنه كذب ، بل قال البيهقي : « هو في عداد من يضع الحديث » . وقد دلّسه بقية مرة وأسقطه من الإسناد ، ورواه لأوزاعي مباشرة بصيغة العنينة ، ولذلك اتهم بقية بأنه كان يدلّس عن الضعفاء والمتروكين وهذه الرواية من اشواهد على ذلك . أخرجها العقيلي أيضاً وأبو عروبة الحراني في جزء من حديثه [٢٠٠/١٠٠] وعبد الغني المقدسي في الدعاء [٢/١٤٥] . ثم روى العقيلي من طريق عيسى بن يونس عن الأوزاعي قال : كان يقال : أفضل الدعاء الإلحاح على =

إذن : لماذا تتعب نفسك أيها العبد ، ولك رب قادر حكيم ؟
يقولون : إن من له أب لا يحمل همًّا . ونقول : إن الذى له رب أولى
بالأطمئنان ؟

إن زكريا عليه السلام قد دعا الله سبحانه فى الأمر الذى حزنه ، وبمجرد أن
دعا ، قام إلى الصلاة ﴿ فَادَّتُهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ﴾ .
إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، يقول تعالى : ﴿ فَادَّتُهُ
الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ [آل عمران ٣٩] .
ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه إذا أجهدنا أمر
وأرهقنا أن لا نقصر رؤيتنا على جهدنا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله سبحانه ،
فنهزم الأمر الذى يحزننا ولا نقدر عليه .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل والقُدوة ،
نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزنه أمر يتعلق بدنياه ،
وإنما أمر يتعلق بمنهج الله سبحانه وبالدين .

لذلك يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من يعطيه ، ويعطى أهل
الإيمان كل الطاقة ، إنه يذهب إلى الصلاة ، ويعلن أن أسبابه قد انتهت ، ولم
يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حزنه .

إذن . فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمر ما بعد أن يكون قد أعطى
كل جهده واستنفذ كل أسبابه - فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ويدعو الله ،
فييسر الحق سبحانه هذا الأمر للمؤمن بالخير .

= الله تبارك وتعالى والتضرع إليه . وقال العقيلي : حديث عيسى بن يونس أولى ،
ولعل بقية أخذه عن يوسف بن السفر . قلت : والرواية الأولى تشهد لكون
بقية إنما أخذه عن ابن السفر هذا الكذاب . إرواء الغليل [٣/١٤٣/٦٧٧] .

فالأَسباب إنما هي يد الله الممدودة للإنسان في الدنيا ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله . فإذا استنفد الأسباب كان أهلاً لأن يستجيب الله سبحانه له لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .
فحين يقف المؤمن بين يدي الله سبحانه ويصلي ، يمتلئ بالرضا والتوازن النفسي .

إذن : فساعة يأتينا أمر شديد ، لابد أن نتجه إلى الله عز وجل ، وأفضل مكان نتجئ فيه إلى الله تعالى هو في المسجد الذي هو بيته سبحانه (١) .
فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة ؛ كان مفزعه إلى المسجد حتى يسكن الريح ، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر ؛ كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلى (٢) .
ولكن بعض الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقولون : ماذا سيفعل الله له ؟
دخل المسجد وخرج كما هو .

(١) روى الطبراني في الكبير [١٠/١٦١/١٠٣٢٤] عن عبد الله قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بيوت الله في الأرض المساجد وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها .

ورواه [١٠/٢٦٢/١٠٦٠٨] عن ابن عباس موقوفاً بنفذه : إن المساجد بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض .
وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٢٢/٢] وقال : فيه عبد الله بن يعقوب الكرماني وهو ضعيف .

(٢) رواه الطبراني في مسند الشاميين [١/٣٢٣/٥٦٨] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه .

ونقول : هذا هو الظاهر من الأمر ، ولكيك لا تعرف ماذا حدث في داخله ، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يصلح ما فى داخل النفس دون أن تحس أنت ؛ فإن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن . وتدخل النفوس ؛ فتجعلها تحس بالرضا والأمن . أنت أيها الإنسان إذا أصابك أى شىء من هم أو كرب أو ظروف معيشة ، أو مرض ابن ، ما عليك إلا أن تتوضأ وتتوجه إلى خالقك بالصلاة ، والدعاء أن يكشف عنك هذا الأمر .

فهو سبحانه الأقدر على ذلك من أى أحد ، فهو خالقك وواضع قانون صيانتك ، وهو الأقدر على إصلاح حالك .

والحق سبحانه يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى ، بكنك تشعر بلا شئ أن شيئاً فيك قد انصلح .

لذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول لبلال : « يا بلال أرحنا بالصلاة »^(١) .

ذلك أن هناك من يقول لك : إن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل ، فإذا

صليت أرتاح .

نقول له : أنت ترتاح بها ، ولا ترتاح منها ؛ لأبك وقفت بين يدى الله سبحانه ، وما دام الإنسان واقفاً أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلاً .

ولذلك يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله سبحانه بعبوديتى ، ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح ؛ لأنه ربي ورب العالمين .

(١) رواه أحمد فى المسند [٣٦٤/٥] عن رجل من أسلم وقال الأرنؤوط : رجاله

ثقات ، لكن اختلف على سالم بن أبى الجعد فى إسناده .

فالمؤمن ترتاح نفسه عندما يؤدي الصلاة ، لأنه عَشَقَ الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك تجد المؤمن خائفاً ، وكأنه قد فهم أنه لا بد أن توجد مشقة . ومثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد هانت عليك مشقة التكليف ؛ فأصبحت لا تجد فيه ما يؤرقك ولا يتعبك لأنك عشقته ، فألفت العبادة ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة .

إذن .. فعشق التكليف يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يكون شاق عليك ؛ لأنه يخرجك عما ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة يريد الله سبحانه بها لي محسن الجزاء . فإذا ما عشقت الصلاة صارت حباً لك ، فيخفف الله سبحانه عليك أمور التكليف الأخرى ، ويجعلك محباً لها .

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة ، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته ، فترتاح نفسه وتهدأ .



بيوت الله

السؤال : كيف جعل الله لي كمسلم الأرض
مسجدًا وطهورًا ؟

الجواب : معلوم أن أركان الإسلام خمس هي : شهادة أن لا إله إلا الله
وأن محمدًا رسول الله . وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج
البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إذن .. فالصلاة هي الركن الثاني ، والملازم للمؤمن ، لا يرفع عنه في أي
ظرف من ظروف حياته ، إن لم يستطعها قائمًا صلى قاعدًا ، وإن لم يستطعها
قاعدًا صلى مضطجعًا ، وإن لم يستطعها مضطجعًا صلى بالإيماء أو بالإشارة ،
وإن لم يستطع أن يوميء أو يشير وله تعقل فعليه أن يستحضر أركان الصلاة
بقوله ويمررها على باله .

إذن .. فالصلاة أمر لازم لا يمكن للمؤمن أن ينفك عنه أبدًا ، لذلك كانت
الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام ومن أركان كل مسلم ، ولهذا
أخذت حظها من التكليف المباشر والتكليف المباشر لرسول الله صلى الله عليه
وسلم تذكره بمقام قربه صلى الله عليه وسلم من ربه تعالى عند سكرة المنتهى
وأوحى الله تبارك وتعالى له ما أوحى ، فشاء الله تعالى كما حيا رسوله
محمدًا صلى الله عليه وسلم باقرب ، أن يُنزل به تحية أمته بوسيلة من وسائل
القرب ، « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »^(١) .

(١) رواه مسلم [٤٨٢/٢١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .

والصلاة تكليف يقتضى زماناً ويقتضى مكاناً وكل حدث يفعله الإنسان يقتضى ظرفية الزمان وظرفية المكان ، إلا أن أحداث التكليف تأخذ الفعل والزمن وتترك المكان ، ومرة تأخذ الفعل والمكان وتترك الزمن ، ومرة أخرى تأخذ الفعل والزمان والمكان ، فتستولى على جميع عناصر الحدث .

فالصلاة - مثلاً - أخذت زمانها ، وكذلك المصلى حر في المكان ، لأن الله تعالى خص عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأرض كلها له مسجداً وطهوراً^(١) ، فلك أن تصلى في أى مكان^(٢) .

إذن .. فالتكليف حصر القول والفعل والحركة في زمانها وأطلق للمكلف حرية المكان ، فهناك عنصر من عناصر التكليف للفرد فيه حرية ، فهو يصلى في أى مكان ، ولكن المكان الذى يصلى فيه على إطلاقه لأن الأرض مسجد وطهور ، مكان يصلح للصلاة لمزاولة حركة الحياة ، ففي مصنعك - مثلاً - تدير حركة حياتك ، ولك أن تصلى وفي حقلك تدير حركة حياتك بالزرع وتصلى ، وفي معهدك تتلقى العلم ويمكنك أن تصلى .

(١) رواه الترمذى [٣١٧] عن علي ، وعبد الله بن عمرو ، وأبى هريرة ، وجابر ، وابن عباس وحذيفة وأنس وأبى أمامة ، وأبى ذر رضى الله تعالى عنهم ، وصححه الألبانى .

(٢) إلا المقبرة والحمام ، لما رواه أبو دارد [٤٩٢] وابن ماجه [٧٤٥] والترمذى [٣١٧] وأحمد في المسند [٨٣/٣] وابن حبان في صحيحه [١٦٩٩] . وصححه الألبانى والأرنؤوط . وفي رواية لابن ماجه [٧٤٦] .

وضعها الألبانى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ؛ قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى في سعة مواطن : في المزبلة ؛ والمجزرة ؛ والمقبرة ؛ وقارة الطريق ؛ والحمام ؛ ومواطن الإبل ؛ وفوق الكعبة .

إذن .. فالمكان العام الشائع تصح الصلاة فيه ويصح غير الصلاة من مهمات مزاوله الحياة .

وبعد ذلك إذا أردنا أن نتقل إلى منطقة من مناطق القرب ، نزل مكاناً من الأمكنة ، ونقول : إن هذا المكان لا تزار فيه حركة الحياة أبداً ، ويخصص للصلاة ، ذلك ما نسميه مسجداً ، وما نسميه بيت الله ^(١) ، ولذلك إذا عقدت صفقة وأنت في المسجد للعبادة دعا النبي صلى الله عليه وسلم ألا تريح ، وإذا نشدت ضالة لا ردها الله تعالى عليك كذلك ^(٢) ، لأن هذا الوقت خصص للقاء ربك ، فلا يصح أن تُشغل فيه بسواه ، وحسبك في يومك الطويل ، أن تقتطع للصلاة منه وقتاً تختلي فيه بربك ، وتقطع عن حركة الحياة .

(١) روى الطبراني في الكبير [١٠٣٢٤/١٦١/١٠] عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بيوت الله في الأرض المساجد وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال الهيثمي في المجمع [٢٢/٢] فيه عبد الله بن يعقوب الكرمانى وهو ضعيف . وفي رواية عنده [١٠٦٠٨/٢٦٢/١٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : المساجد بيوت الله في الأرض تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض .

(٢) أخرج مسلم [٧٩/٥٦٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سمع رجلاً يُنشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن أساجد لم تبن لهذا » .

وذكر ابن خزيمة في صحيحه [١٣٠٥/٢٧٤/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت من يبيع أو يتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك .. » الحديث .

إذن .. فوجود المسجد تحديد لمكان كان صالحاً للصلاة وغير الصلاة ، ولكنه بتحديدته وتحجيرها أصبح للصلاة فقط .

والمكان - الذى من شأنه هذا - قد يكون باختيار العباد ؛ قوم يقولون : نبني بيتاً لله هنا ، فينسب إلى الله تعالى ، ولكن باختيار خلق الله ، وقد يكون باختيار الله كبيت الله الحرام فى مكة ولذلك جعل الله سبحانه التوجه فى الصلاة فى المكان الواسع من الأرض كلها أو فى المكان المحجوز للصلاة ولقاء الله ، جعل المتجه فى كُلِّ هذه البيوت التى اختارها العباد إلى بيت الله ، المحرم الذى هو باختيار الله تعالى .

إذن .. فبيت الله فى مكة ، بيت ربنا باختيار ربنا ، وبيوت الله فى سائر الأرض ، بيوت لله باختيار سائر خلق الله ، فوجب أن تكون بيوت الله باختيار خلق الله ، تابعة لبيت الله باختيار الله .



عمارة المساجد

السؤال :

هل عمارة المساجد مرتبطة بإنشائها
والإشراف على بنائها أم المقصود غير
ذلك ؟ نرجو التوضيح ؟

الجواب : الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] .
وهذا القول يحمل في مضمونه إيماناً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
لأن الله يقول بعدها . ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا
آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي قال لنا إنها خمس ، وهو
الذي علمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها ؟ وهو الذي نشهد له ونحن نصلي ؛
في الإقامة وفي التشهد ، إذن فساعة نقيم الصلاة لابد أن نكون مؤمنين برسول
الله صلى الله عليه وسلم . وعلى ذلك فقوله تعالى : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ يقتضى
ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . واشترط سبحانه وتعالى في
هذه الآية الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفي طيها برسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة ، وطلب منا ألا نخشى غيره ^(١) .

(١) قال المصنف في فتح القدير ، قال الكشاف في ﴿ إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] . لما علم وشهر أن الإيمان بالله
قرينته الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لاشتماله كلمة الشهادة عليهما
مزدوجين مقترنين كأنهما واحد غير مفك أحدهما عن صاحبه انطوى تحت
ذكر الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم « دخل الجنة » لأنها شهادة
شهد بها عند الموت وقد ماتت شهواته وذهلت نفسه لما حل به من هول =

= الموت وذهب حرصه ورغبته وسكت أخلاقه السيئة وذل وانقاد لربه فاستوى ظاهره بباطنه فغفر له بهذه الشهادة لصدقه ، وقائلها في صحة قلبه مشحون بالشهوات والغي ونفسه شرهة بطرة ميتة على الدنيا عشقا وحرصا فلا يستوجب بذلك القول مغفرة بخلاف قائلها عند الموت ، ومثل من قالها في الصحة بعد رياضة نفسه وموت شهواته وصفاته عن التخليط قاله الغزالي ، ففسأ الله أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً وظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير ملتفتين إليها بل متبرمين منها ومحبين للقاء الله . قال القرطبي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازماتها . وقد قال بعض السلف : إذا رأيت الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن . وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا رأيت الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان »^(١) قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . وفي رواية : « يتعاهد المسجد »^(٢) . قال : حديث حسن غريب . قال ابن العربي : وهذا في ظاهر الصلاح ليس في مقاطع الشهادات ، فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها فإن منهم الذكي الفطن المحصل لما يعلم اعتقادا وإخبارا ومنهم المغفل ، وكل واحد يزل على منزلته ويقدر على صفته . ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إن قيل : ما من مؤمن إلا وقد خشي غير الله ، وما زال المؤمنون والأنبياء يحشون الأعداء من غيرهم . قيل له : المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد : فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويحشونها ويرجونها . جواب ثان - أي لم =

(١) رواه الترمذي [٣٩٣] وأحمد في المسند [٦٨/٣] وقال لأربناؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) رواه الترمذي [٢٦١٧] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه وضعفه الألباني .

= يخف في باب لدين إلا الله . وقال ابن جرير الطبري يقول تعالى ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ المصدق بوحداية الله ، المحص له العبادة واليوم الآخر ، يقول : الذي يصدق بعث الله الموتى أحياء من قبورهم يوم القيامة ، وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة الواجبة عليه في ماله إلى من أوجبها الله له .

﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ يقول : ولم يرهب عقوبة شيء على معصيته إياه سوى الله .

﴿ فَمَنْ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتَدِينَ ﴾ يقول : فخلق بأولئك الذين هذه صفتهم أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب . وقال القرطبي في تأويل قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ الجملة من ﴿ أَنْ يَعْمُرُوا ﴾ في موضع رفع اسم كان . « شاهدين » على الحال . واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقيل : أراد ليس لهم الحج بعد ما نودي فيهم بالمنع عن المسجد الحرام ، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين ، فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك ، بل أهله المؤمنون . وقيل : إن العباس لما أسر وعير بالكفر وقطيعة الرحم قال : تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا . فقال علي : ألكم محاسن ؟ قال : نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني ، فنزلت هذه الآية ردا عليه . فيجب إذن على المسلمين تولي أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها . وقراءة العامة « يعمر » بفتح الياء وضم الميم ، من عمر يعمر . وقرأ ابن السميع بضم الياء وكسر الميم أي يجعلوه هاما أو يعينوا على عمارته . وقرأ « مسجد الله » على التوحيد أي المسجد الحرام . وهي قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن كثير وأبي عمرو =

= وابن محيصة ويعقوب . والباقون « مساجد » على التعميم . وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنه أعم والخاص به يدخل تحت العام . وقد يحتمل أن يراد بقراءة الجمع المسجد الحرام خاصة . وهذا جائز فيما كان من أسماء الجنس . كما يقال : فلان يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا . والقراءة « مساجد » أصوب ؛ لأنه يحتمل المعنى . وقد أجمعوا على قراءة قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ على الجمع ، قاله النحاس . وقال الحسن : إنما قال مساجد وهو المسجد الحرام ؛ لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : قوله تعالى : ﴿ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ يحتمل أن يراد بها مواضع السجود ، ويحتمل أن يراد بها الأماكن المتخذة لإقامة الصلاة ، وعلى الثاني : يحتمل أن يراد بعمارتها بنيانها ، ويحتمل أن يراد بها الإقامة لذكر الله فيها .

وقال المناوي في فيض القدير : قال الحكيم : ليس عمارها كل من أنفق على مسجد فبناه أو من رُمِّه بل من عمرها بذكره وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله أما من عمرها وهو منكب على دنياه معرض عن خدمة مولاه فلا يستحق هذا الإكرام نفسه فضلاً عن الدفع عن غيره لأجله وإن عمر ألف مسجد قال القاضي . عامر كل شيء حافظه ومدبره وممسكه عن الخلل والانحلال ومنه سمي الساكن والمقيم في البلد عامراً يقال عمرت المكان إذا أقمت فيه وسمي زوار البيت عماراً .

وروى أحمد في المسند [٦٨/٣] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا عليه بالإيمان ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .



= وقال الأرنأؤوط : وبهذا الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الرب عز وجل : يوم القيامة سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر في المساجد . وبهذا الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون . وقال الأرنأؤوط : إسناده ضعيف .

مراتب الناس في الصلاة

السؤال : كيف أتعرف على صحة صلاتي ؟

الجواب : مراتب اناس في لقاء ربهم في الصلاة ، تتفاوت فيه أرزاقهم على قدر تجليه عليهم سبحانه حال وقوفهم بين يديه ، فعلى قدر إخلاص العبد اواقف بين يدي الله سبحانه ، يكون له من العطاء ما يناسب ذلك .

فإذا ما أخذ لعطاء ، كان عطاؤه على قدر تجلى الحق تبارك وتعالى عليه ، ولكن الناس يشتهون حياتهم كما يريدونها هم . لماذا ؟

لأن المقاييس العالية التي توجد في رؤوسهم ، مقاييس من صنع الأرض ، ومقاييس من صنع أفكار البشر ، والبشر لم يرتض أغلبهم أن يكون لهم دين .

فالواحد منهم يريد أن يكون الله تعالى على دينه ، فعطيه ليعرف ماذا سيفعله له الله ، فكأن لله قال له : إن الطاعة في الدنيا ثمرتها أكيدة ، وهذا يكون صحيحًا لو أن الدنيا هي الزم للوحيد للوجود ، ولكن ما دام هناك دار أخرى ، فينبغي أن ينساح العطاء ، في الدار الآخرة ، فإذا لم يأتك هنا ، فلا تيأس من أنه سيأتيك هناك ، وربما كان ادخاره لك هناك خير لك من أن تأخذه هنا ، لأن هنا عنه خير وعنه عوض ، ولكن هناك عنه خير وليس عنه عوض .

إذن .. فمعايير الإنسان يجب أن تخضع لمعايير منهج الحق سبحانه وتعالى ، وساعة أن تخضع للحق ينبغي أن تكون لربك مطيعًا ولتكاليفه منفذًا ، ولقضاياه قانعًا وراضيًا ، حينذاك ينعم العبد بالعبودية لله تعالى .

والذي يريد أن تكون الصلاة لتوسيع الرزق والمباركة فقط .. فبالطبع لا ..

لأنني أراها تكديفًا من الله لحضور العبد بين يدي ربه ، وبعد ذلك فيها لله عطاء يناسب موقفه من دينه ومنهجه ، فإذا ما جاءت أمور الدنيا عني غير ما أشتهي ، فيجب ألا يزلزل ذلك عقيدتي في الصلاة وفي القرب من الله . لماذا ؟

لأن الأمور تجري على حكمة ، وهذه الحكمة قد لا تقبلها النفس باديةً ذى بدء ، ولكن الظروف التي تأتي بعد ذلك تجعل الحق مصيئاً ، حين تحب شيئاً وتقول آخر الأمر : أحببته ووجدته شراً ، أو كرهته وصار خيراً ، إذن ، فمقاييسه مناسبة ، لأنك محدث عاجز العقل قاصر التفكير قليل الحكمة ، فيجب أن تخضع لحكمة الحق ، مادام نازلاً عليك بدون اختيار منك ولا إرادة ، حين يكون الأمر كذلك ، إذا أصابك سوء من ناحية أنك قصرت في أمر ، فأنت المثلوم ، أما إذا أصابك سوء لا يد لك فيه ، ولا عمل ولا اختيار لك فيه ، فيجب أن تتأكد أن في ذلك لله حكمة ، وهذه الحكمة لو استحضرت غايتها لما رغبت في غير ما جاء قدر الله عليك .

صحيح أن الذي يقبل على الطاعة فيها مشقة وفيها تكليف ، ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] ، والشهوات يحبها الإنسان ، فالشهوات تدعو الإنسان إلى أن ينفلت من المنهج^(١) .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ . والخشوع محله القلب ؛ فإذا خشع خشعت الجوارح كلها لخشوعه ؛ إذ هو ملكها ، حسبما بيناه أول سورة البقرة . وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء وأن يحدث نفسه بشيء من الدنيا . وقال عطاء : هو ألا يعبت بشيء من جسده في الصلاة . وأبصر صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »^(١) . وقال أبو در قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا =

(١) رواء المتقى الهندي في كنز العمال [٢٢٥٣٠] ورواه ابن أبي شيبه في مصنفه [٦٧٨٧] ولفظه : عن معمر عن رجل قال : رأى سعيد بن المسيب رجلاً وهو يعبت بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

= قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى»^(١) . رواه الترمذي . وقال الشاعر :

ألا الصلاة الخير والفضل أجمع لأن بها الآراب لله تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لاقتة رحمة وكان كعبد باب مولاه يقرع
وصار لرب العرش حين صلاته نجيا فيا طوباه لو كان يخشع

وروى أبو عمر أن الجوني قال : قيل لعائشة ما كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت :

أتقرأون سورة المؤمنين ؟ قبل : نعم . قالت : اقرأوا ؛ فقرأ عليها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - حتى بلغ - يُخَافُطُونَ ﴾^(٢) . وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلحظ في صلاته يمينا وشمالا ، ولا يلوي عنقه خلف ظهره^(٣) . وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل : ثم أصلي قريبا منه - يعني من النبي صلى الله عليه وسلم - وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني^(٤) ... الحديث ؛ ولم يأمره بإعادة .

(١) رواه الترمذي [٣٧٩] وضعفه الألباني .

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى [١١٣٥٠] والبخاري في الأدب المفرد [٣٠٨] عن يزيد بن يانوس رضي الله تعالى عنه وقال الألباني : صحيح لغيره .

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى [٥٢٩] وأحمد في المسند [٢٧٥/١] وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح ، والطبراني في المعجم الكبير [١١٥٥٩/٢٢٣/١١] .

(٤) رواه البخاري [٤١٥٦] ومسلم [٥٣/٢٧٦٩] وأحمد في المسند [٤٥٦/٣] .

صلاة الجماعة

السؤال : لماذا يأمرنا الله سبحانه بأن نأتم بإمام واحد في الصلاة ؟

الجواب : يعلمنا الله في صلاة الجماعة أن نأتم جميعاً بأمر رجل واحد هو الإمام ، فليس لإنسان أن يفعل فعلاً أو يقول قولاً ، إلا بعد أن يفعل أو يقول الإمام ، فهم تابعون له ، لماذا ؟ لأن حركة الحياة لا بد فيها من قادة وقوم يتقدمون لحمل المسؤوليات ، والذي يحمل المسؤولية هذه ، يجب ألاّ ننظر إليه على أنه مشرف بهذا ، ولكن عى أنه مكلف ، فولاية أمور الناس ليست تشريعاً وإنما تكليف لمن يعرف حق التكليف ، فإذا ما امثلنا جميعاً فلا نخالف إمامنا ، تأكد ذلك المعنى في نفوسنا لأنه أمر نرتاض عليه كل يوم ، وما دام ذلك فسنعتاد أن نأتم بأمره ، وأن ننتهى بنهيه وأن نجعل حركتنا تبعاً لحركة الغير ، حتى تتحد الطاقات ولا تتبدد ، وتتعاقد ولا تتعاند ، وهناك شيء آخر ، وهو أن الإمام إذا ما حالف شيئاً في الصلاة ، عن خطأ أو نسيان فلا ي مأموم من المأمومين أن يردده ويصوب له ولا أدل على ذلك من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال له ذو اليمين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ، قال : « كل ذلك لم يكن » قال ذو اليمين : بل بعض ذلك كان . إذن .. فواحد من صحابة رسول الله ، يرد على رسول الله ، لماذا ؟ لأن هذا المقام تكليف من الله تعالى ، يستوى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون^(١) .

(١) روى البخاري [١١٧٠] عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنتين ، فقال له =

= ذو اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق ذو اليدين » . فقال الناس : نعم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى اثنتين أخريين ، ثم سلم ، ثم كبر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع .

وفى رواية عبد مسلم [٩٧/٥٧٣] عن محمد بن سيرين قال ، سمعت أبا هريرة يقول : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتي العشي . إما الظهر وإما العصر . فسلم في ركعتين . ثم أتى جذعا في قبلة المسجد فاستند إليها مغضبا . وفي القوم أبو بكر وعمر . فهابا أن يتكلما . وخرج سرعان الناس . قصرت الصلاة . فقام ذو اليدين فقال : يا رسول الله ! أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا . فقال : « ما يقول ذو اليدين ؟ » قالوا : صدق . ثم تصل إلا ركعتين . فصلّى ركعتين وسلم . ثم كبر ثم سجد . ثم كبر فرفع . ثم كبر وسجد . ثم كبر ورفع . وقال النووي فى شرح مسلم : فإن قيل كيف تكلم ذو اليدين والقوم وهم بعد فى الصلاة ؟ فجوابه من وجهين : أحدهما أنهم لم يكونوا على يقين من البقاء فى الصلاة لأنهم كانوا محورين نسخ الصلاة من أربع إلى ركعتين ولهذا قال : أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ والثاني أن هذا كان خطاباً لسيى صلى الله عليه وسلم وجواباً ، وذلك لا يبطل عندنا وعند غيرنا ، والمسألة مشهورة بذلك . وفى رواية لأبي داود بإسناد صحيح أن الجماعة أومأوا أي نعم ، فعلى هذه الرواية لم يتكلموا . فإن قيل : كيف رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى قول الجماعة وعندكم لا يجوز للمصلي الرجوع فى قدر صلاته إلى قول غيره إماماً كان أو مأموماً ولا يعمل إلا على يقين نفسه ؟ فجوابه أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم ليتذكر فلما ذكره تذكر فعلم السهو فنى عليه ، لا أنه =

= رجع إلى مجرد قولهم ، ولو جاز ترك يقين نفسه والرجوع إلى قول غيره لرجع ذو اليدين حين قال النبي صلى الله عليه وسلم لم تقصر ولم أنس . وفي هذا الحديث دليل على أن العمل الكثير والخطوات إذا كانت في الصلاة سهوا لا تبطلها كما لا يبطلها الكلام سهوا ، وفي هذه المسألة وجهان لأصحابنا أصحهما عند المتولي لا يبطلها لهذا الحديث فإنه ثبت في مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم مشى إلى الجذع وخرج السرعان. وفي رواية دخل الحجرة ثم خرج ورجع الناس وبنى على صلاته. والوجه الثاني وهو المشهور في المذهب أن الصلاة تبطل بذلك وهذا مشكل وتأويل الحديث صعب على من أبطلها والله أعلم

وفي تحفة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى : اختلف أهل العلم في هذا الحديث . فقال بعض أهل الكوفة : إذا تكلم في الصلاة ناسياً أو جاهلاً أو ما كان ، فإنه يُعيد الصلاة واعتلوا بأن هذا الحديث كان قبل تحريم الكلام في الصلاة . وقال : وأما الشافعي فرأى هذا حديثاً صحيحاً فقال به ، وقال : هذا أصح من الحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصائم إذا نسي ناسياً فإنه لا يقضي وإنما هو رزق رزقه الله : قال الشافعي وفرقوا « هؤلاء » بين العمد والنسيان في أكل الصائم بحديث أبي هريرة .

وقال أحمد في حديث أبي هريرة : إن تكلم الإمام في شيء من صلاته وهو يرى أنه قد أكملها ثم علم أنه لم يكملها يتم صلاته ، ومن تكلم خلف الإمام وهو يعلم أن عليه بقية من الصلاة فعليه أن يستقبلها .

واحتج بأن الفرائض كانت تُزاد وتنقص على عهد رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم ، فإنما تكلم ذو اليدين وهو على يقين من صلاته أنها تمت ، وليس هكذا اليوم ليس لأحد أن يتكلم على معنى ما تكلم ذو اليدين لأن الفرائض اليوم لا تُزاد فيها ولا تُنقص .

= وقال الحافظ في المتح : ذهب الأكثر إلى أن اسم ذي اليدين لخرباق بكسر المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة وآخره قاف اعتمادا على ما وقع في حديث عمران بن حصين عند مسلم ولفظه : فقام إليه رجل يقال له الخرباق وكان في يديه طول^(١) ، وهذا صنيع من يوجد حديث أبي هريرة بحديث عمران وهو الراجح في نظري وإن كان ابن خزيمة ومن تبعه جنحوا إلى التعدد ، والحامل لهم على ذلك الاختلاف الواقع في السياقين ، ففي حديث أبي هريرة أن السلام وقع من اثنتين وأنه صلى الله عليه وسلم قام إلى خشبة في المسجد . وفي حديث عمران أنه سلم من ثلاث ركعات وأنه دخل منزله لما فرغ من الصلاة . فأما الأول فقد حكى العلائي أن بعض شيوخه حملة على أن المراد به أنه سلم في ابتداء الركعة الثالثة واستبعده ولكن طريق الجمع يكتفي فيها بأدنى مناسبة وليس بأبعد من دعوى تعدد القصة فإنه يلزم منه كون ذي اليدين في كل مرة استفهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك واستفهم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة عن صحة قوله .

وأما الثاني فلعل الراوي لما رآه تقدم من مكانه إلى جهة الخشبة ظنه دخل منزله لكون الخشبة كانت في جهة منزله فإن كان كذلك ، وإلا فرواية أبي هريرة أرجح لموافقة ابن عمر له على سياقه كما أخرجه الشافعي وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة ، ولموافقة ذي اليدين نفسه له على سياقه كما أخرجه أبو بكر الأثرم وعبد الله بن أحمد في زيادات المسند وأبي بكر بن حشمة وغيرهم ، وقد تقدم في باب تشبيك الأصابع ما يدل على أن محمد بن سيرين راوي الحديث عن أبي هريرة كان يرى التوحيد بينهما ، وذلك أنه قال في آخر حديث أبي هريرة : نبئت أن عمران بن حصين قال ثم سلم . انتهى كلام الحافظ .

(١) رواه مسلم [١٠١/٥٧٤] .

وعلى هذا النحو نأخذ من الصلاة دروسًا لعقائدنا ، لأننا جئنا بدعوة من الله ، ونحن في حضرة الله ، وجئنا أيضًا لنعرف خُلقًا ونظامًا وسياسة ، فإذا ما أخذنا هذه الحصيلة بتكرار متوالي ، ماذا يكون الموقف ؟ . يكون الموقف أن يصبح المسلمون كما يريدهم الله مثل العباد المكرمين ، أى مثل الملائكة ، ولولا أن الشيطان يفسد علينا في العبادة ، لكننا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لطاروا للملأ »

= قوله : أقصرت الصلاة : بهمزة الاستفهام وقصرت بضم القاف وكسر المهملة عى البناء للمفعول أي أن الله قصرها وفتح ثم ضم على البناء لفاعل أي صارت قصيرة قال النووي : هذا أكثر وأرجح « أم نسيت يا رسول الله » حصر في الأمرين لأن السبب إما من الله وهو القصر أو من النبي صلى الله عليه وسلم وهو النسيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصدق ذو ليين » الهمزة للاستفهام أي أصدق في النقص الذي هو سبب السؤال المأخوذ من مفهوم الاستفهام ، فقال الناس : نعم ، أي صدق . فصلى اثنتين أي ركعتين آخرين بضم الهمزة وسكون الخاء المعجمة ومثناة مفتوحة وأخرى ساكنة تحتيتين ، ثم كبر فسجد ، أي للسهو مثل سجوده السابق في صلاته أو أطول من سجوده السابق ، ثم كبر فرفع أي رأسه ثم سجد ، أي مرة ثانية مثل سجوده أو أطول فسجد للسهو سجدين بعد السلام ، وفي رواية للبخاري من طريق أبي سامة عن أبي هريرة قال . صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ركعتين فقبل صليت ركعتين فصلى ركعتين ثم سلم ثم سجد سجدين . والحديث دليل لمن قال إن من يسلم في الركعتين من الظهر والعصر ناسيا يصلي ركعتين آخرين ثم يسلم ثم يسجد سجدين للسهو ولا حاجة إلى إعادة الصلاة .

الأعلى»^(١) . فيجب أن ينظر للصلاة النظرة الأصيلة والصميمة حتى تؤتى الصلاة أثرها في نفوسنا .



(١) روى أحمد في المسند [٣٣٥/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليلة أُسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق قال عمار فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال : فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال . هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب . وقال الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

الصلاة وانسراح الصدر

السؤال : أحياناً لا أجد نفسي منشراحاً لأداء

الصلاة ؟ فبماذا تصحني ؟

الجواب : إن الله سبحانه وتعالى يريد منا أداء العمل المفروض علينا كالصلاة مثلاً ، فإذا صاحب أداء العمل طمأنينة فهذا تعجيل للثواب ، ولكن عدم شعورك بالطمأنينة وانسراح الصدر يجب ألا يجعلك تترك العمل المفروض عليك ، وما دمت تداوم على عملك بنية خالصة لله تعالى ؛ فلك ثواب عملك ، وسيشرح الله لك حتماً صدرك وتجد أثر ذلك إن شاء الله .
ويوجد مبدأ لا بد أن تعرفه ، وهو أننا غير مسئولين عن المسائل غير المحكومة بإرادتنا . فالإنسان يؤدي الصلاة في كل الأحيان سواء كان منشراح الصدر ، أو غير منشراح الصدر ، لأن الصلاة واجبة الفعل على كل مسلم ومسلمة لا تسقط عنهما أبداً إلا بالأعذار الشرعية ، خاصة في النساء (١) .

(١) عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أحبرني بما افترض الله على من الصلاة ؟ فقال : « افترض الله على عباده صلوات حمساً ، قال : هل قبلهن أو بعدهن ؟ قال : افترض الله على عباده صلوات خمساً ، قالها ثلاثاً ؛ قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد فيهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دخل الجنة إن صدق » .

الحديث أخرجه أحمد [٢٦٧/٣] ، والحاكم في مستدركه [٢٠١/١] ، وصححه الدار قطنى في سننه [٢٢٩/١] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات ، رجال الصحيح .

الصلاة على النبي بعد الأذان

السؤال :

هل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان جائزة أم لا ؟

الجواب : هناك من يأتي ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله ، لكن هل أنت تحب الرسول بما شرع ؟ إنه قد قال : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثما يقول ثم صلوا على »^(١) فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ومن يسمع أن يصلى عليه فى السر ، لا أن يأتي بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إننى أقول لمن يفعل ذلك : يا أخى ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبي إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فى كل وقت وحين وعلى كل حال ، وفى حال الأذان تكون الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فى سر .

○ ○ ○

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١١/٣٨٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما .

السرية والجهرية في الصلاة

السؤال :

فضيلة الشيخ .. لماذا تكون القراءة سرًّا

في صلاتي الظهر والعصر ، بينما هي

جهرية في صلاة الفجر والمغرب والعشاء ؟

الجواب : الأصل في العبادة هو طاعة الله تعالى فيما أمر ونهى ، واتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغ وبين ، وعلة السرية والجهرية في القراءة هو فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا هو الأصل . وربما يكون الحكمه في ذلك أن المسلمين كانوا في بدء الإسلام ضعافاً ، فكانوا يجهرون بالصلاة في الأوقات التي ينام فيها الأعداء في بيوتهم صباحاً ، ويجهرون في صلاة المغرب والعشاء ، لأن الكفار يكونون لاهين في غفلة مساء ، ويسرون في صلاتي الظهر والعصر ليقظة الأعداء ، وانتشارهم نهاراً في كل مكان ، فلما قوى الإسلام ، ولم يعد المسلمون ضعافاً ، بقيت القراءة في الصلاتين السريتين والصلوات الجهرية كما هي دون تغيير ؛ استصحاباً للأصل .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠] . معنى هذا أن يكون المصلي في قراءته في الصلاة وسطاً (١).

(١) قال القرطبي في تفسير الآية [١١٤] من سورة هود : ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقرءتها وأسمائها فقال . ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ الآية . وقال : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] الآية . وقال : ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿ [الروم] .

= وقال : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] .
 وقال : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ [الحج : ٧٧] . وقال : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . وقال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] على ما تقدم . وقال : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ﴾ [الإسراء : ١١٠] أي بقراءتك ؛ وهذا كله محمول أجمله في كتابه ، وأحال على نبيه في بيانه ؛ فقال حل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] . فبين صلى الله عليه وسلم مواقيت الصلاة ، وعدد الركعات والسجرات ، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها ، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل ؛ فقال في صحيح البخاري : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .
 ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة ، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه ؛ فأكمل الدين ، وأوضح السبيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال في تفسير سورة الإسراء الآية [١١٠] عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال : الأول : ما روى ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ﴾ قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون قراءتك . ﴿ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ﴾ عن أصحابك . أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر . ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين =

= الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم . ولللفظ لمسلم^(١) .
والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا برد : خفت . قال
الشاعر :

لم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت
رثى لها الشامت مما بها يا ويح من يرثى له الشامت
الثاني : ما رواه مسلم أيضا عن عائشة في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ
بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَفِّتْ بِهَا ﴾ قالت : أنزل هذا في الدعاء^(٢) .
الثالث : قال ابن سيرين : كان الأعراب يحهرون بتشدهم فنزلت الآية في
ذلك .

قلت : وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقد قال ابن مسعود :
من السنة أن تخفي التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .
الرابع : ما روي عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يشر قراءته ،
وكان عمر يجهر بها ، فقبل لهما في ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنما أنا جدي ربي ،
وهو يعلم حاجتي . إليه . وقال عمر : أنا أطرده الشيطان وأوقظ الوسنان ؛ فلما
نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛
ذكره الطبري وغيره .

الخامس : ما روي عن ابن عباس أيضا أن معاها ولا تجهر بصلاة النهار ،
ولا تخافت بصلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوي . فتضمنت أحكام
الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلي مخير في
الجهر والسر في الليل والنهار ، وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وسلم =

(١) رواه البخاري [٧٠٥٢] ومسلم [١٤٥/٤٤٦] والترمذي [٣١٤٥] .

(٢) رواه مسلم [١٤٦/٤٤٧] .

= أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس قال الحسن : يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية ولا تسيئها في السر .

وقال ابن عباس : لا تصل مراثيا للناس ، ولا تدعها مخافة الناس .
وروى الطبري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في تأويل قول الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سوا القرآن ومن أنزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله لبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيسمع المشركون ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوا عنك . وفي رواية عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا جهر بالصلاة بالمسلمين بالقرآن ، شق ذلك على المشركين إذا سمعوه ، فيؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشتيم والعيب به ، وذلك بمكة ، فأنزل الله : يا محمد ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ يقول : لا تعلن بالقراءة بالقرآن إعلانا شديدا يسمعه المشركون فيؤذونك ، ولا تخافت بانقراءة بالقرآن : يقول : لا تخفص صوتك حتى لا تسمع أذنك ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ يقول : اطلب بين الإعلان والجهر وبين التخافت والخفض طريقا ، لا جهرا شديدا ، ولا خفضا لا تسمع أذنك ، فذلك القدر ؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سقط هذا كله ، يفعل الآن أي ذلك شاء .

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
نبذة مختصرة عن فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله تعالى ..	٥
باب الإسلام .. والإيمان	١١
أركان الإسلام	١٣
لعبادة	٢٠
شهادة التوحيد	٢٥
جوهر العبادة	٢٨
الإسلام الذى غير وجه التاريخ ..	٣٦
الإسلام .. والسيف	٣٩
الأمثال فى القرآن الكريم ..	٤٤
عودة الروح	٥١
واقع المسلمين الآن	٦١
كيف يعود للأمة سابق مجدها ؟ ..	٦٣
عمومية الرسالة	٦٤
الحرية فى الإسلام	٦٧
معنى كلمة : إسلام	٧١
الإسلام .. يمين أم يسار ؟ ..	٧٢
الدعوة إلى الإسلام بالحسنى ..	٧٤
الفرق بين الإسلام والمسلمين ..	٧٧
الشرعة والمنهاج ..	٧٨
هل كان أبو ذر شيعيًا ؟ ..	٨١

الموضوع

الصفحة

٨٦	العصية في الإسلام
٨٩	الإسلام والملكية الفردية
٩٢	التكليف الشرعى .. ومتطلبات العصر
٩٥	العقوبات في الإسلام
٩٧	اختلاف الفقهاء فى الفتيا
١٠٦	الاجتهاد فى الإسلام
١٠٩	الغيب
١١٦	العمل فى الإسلام
١١٧	السنة شقيقة القرآن
١٢٠	الإسلام والعلم
١٢٣	وما ربك بظلام للعبيد
١٤١	حماية عقائد الناس
١٤٤	مواجهة الإلحاد
١٤٧	يظهره على الدين كله .. كيف ؟
١٥٥	شعار حرية الفكر
١٦٠	الخلافة الإسلامية
١٦٨	الاتجاه العسكرى فى الإسلام
١٩٦	مفتريات حول القرآن
٢١٠	اتخاذ أُنْدَاد من دون الله
٢١٨	لا إكراه فى الدين
٢٢١	الإسلام .. التحقق والتطبيق
٢٢٣	الإنابة والقضاء فى العبادات
٢٢٥	التأمين .. حلال أم حرام ؟
٢٢٩	الانفجار السكاني

الموضوع	الصفحة
باب القضاء والقدر والرزق	٢٣٣
جسم الإنسان	٢٣٥
كل ميسر لما خُلق له	٢٣٨
العمل .. والإيمان بالقدر	٢٤٢
الفرار من قدر الله	٢٤٨
الموتة الصغرى .. والكبرى	٢٥٥
الحرية فى مجال التكليف	٢٥٩
الأمانة .. والاختيار	٢٦٤
لماذا نحاسب يوم القيامة	٢٨١
الإنفاق وطيبات الرزق	٢٨٩
الأحجية والأحجار هل تجلب الرزق	٢٩٤
الرزق	٢٩٨
أكل حقوق الناس	٣٠١
الشكر لله يحفظ النعمة	٣١٣
زيادة الرزق ونقصانه	٣٢٢
رزق الدنيا ورزق الآخرة	٣٢٨
الحياة الدنيا	٣٢٩
الحلال والحرام فى الرزق	٣٣٢
الرزق الحرام .. والقضاء والقدر	٣٣٤
رزق الإيجاب .. ورزق السلب	٣٣٧
الرزق .. وعطاء الربوبية	٣٣٨
باب الطهارة والصلاة	٣٤١
صفة الوضوء	٣٤٣
لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن	٣٧٨

الموضوع

الصفحة

٣٧٩	الوضوء من لحوم الإبل
٣٨١	ماذا يفعل الإمام إذا انتقض وضوؤه
٣٨٤	لماذا البول يفسد الوضوء
٣٨٥	حكم الوضوء للمرأة مع وجود إفرازات
٣٨٩	هل المائيكير يبطل الوضوء
٣٩٨	هل يغني الغسل عن الوضوء
٣٩٩	الصلاة
٤٠١	فرضية الصلاة
٤٢٠	هي خمس .. والثواب على خمسين
٤٢٦	صلاة القانتين .. ودوام الولاء لله
٤٣١	صلاة الخاشعين .. والاستعانة بالصبر والصلاة
٤٤٧	الصلاة .. الركن الفارق بين الإسلام والكفر
٤٥٠	الصلاة .. وتكفير الذنوب
٤٥٨	الصلاة تفرّج الهموم
٤٦٩	الصلاة الوسطى
٤٧٩	صلاة الجمعة
٤٩٥	من أحكام صلاة الجمعة وخطبتها والقراءة فيها
٤٩٨	التغليظ في ترك الجمعة
٥٠٠	فضل يوم الجمعة
٥٠٢	صلاة العيد وأحكامها
٥١٠	صلاة التطوع
٥١٦	صلاة الكسوف
٥١٨	صلاة الاستسقاء
٥٢١	صلاة الجماعة والإمامة

الصفحة	الموضوع
٥٢٦	صلاة المسافرين والمريض
٥٢٨	صلاة الحرب والخوف وقصر الصلاة
٥٣٢	مواقيت الصلاة والمحافظة عليها
٥٣٥	الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها
٥٣٧	الرخصة في الصلاة بعد العصر وقبل الغروب وقبل المغرب
٥٣٨	الصلاة في الكعبة في أي وقت شاء
٥٤٠	فضل الصلاة لوقتها
٥٤٤	فضل الصلوات
٥٥٤	الكسل عن الصلاة من علامات النفاق
٥٥٧	صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم من التكبير حتى التسليم كأنك تراها ...
٥٧٤	شرف العبودية لله تعالى
٥٨٠	قيام الليل ومقام الإحسان
٥٨٧	قيام الليل من صفات عباد الرحمن
٥٩١	الحشوع يزيل الكبر من القلب
٥٩٢	اسألوا الله من فضله
٦١٠	الصلاة .. أرجى أوقات قبول الدعاء
٦١٦	يسوت الله
٦٢٠	عمارة المساجد
٦٢٥	مراتب الناس في الصلاة
٦٢٨	صلاة الجماعة
٦٣٤	الصلاة وانشراح الصدر
٦٣٥	الصلاة على النبي بعد الأذان
٦٣٦	السرية والجهرية في الصلاة
٦٤١	الفهرس
٦٤٥	فهرس